كتاب الوزراء والكتاب

تصنيف

أبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري

حققه ووضع فهارسه

مصطفى السقا
مدرس بالجامعة المصرية

إبراهيم الأبياري
مدرس بالمدارس الأميرية

عبد الحفيظ شلبي
مدرس بالمدارس الأميرية

الطبعة الأولى

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده
ص. ب. الغورية رقم ٧١ بالقاهرة

١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م / ٧٤٢

مقـــدمة الناشرين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى علّم بالقلم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح العرب والعجم .

٥ وبعد ، فهذا « كتاب الوزراء والكُتّاب » لأبى عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارىّ ، أشهر مُؤلَّف فى تاريخ الوزراء فى الإسلام ، يسرّنا أن نذيعه فى هذه الطّبعة الحرفية ، بين محبى اللغة العربية ، من العرب والمستعربين ، الذين عرفوا قيمة الكتاب ، وشهرة مؤلفه بين المؤرّخين والكُتّاب ، فودّوا لو تقرّ

١٠ أعينهم بمطالعة رَسْمه ، كما حَلِيت آذانهم بشُنُوف وَسْمه .

وقد حققنا هذا الأمل ، بإبرازه فى هذه الصورة المُوثِقة ، مشتملة على التحقيقات المفيدة ، والفهارس الكثيرة ، مع إتقان الطبع ، وجمال الوضع .

وكان بعض حضرات المستشرقين، وهو المستر ن.س.دونياك «*N.S.Doniach*» قد فكر فى طبع هذا الكتاب مع زميل لنا من مدرسى اللغة العربية، وقدم الأستاذ «دونياك» مصر فى مارس سنة ١٩٣٧ م ، فلما علم من بعض الأصدقاء أننا أعددنا أصول هذا الكتاب للطبع ، سُرّ من توافق رغباتنا جميعا على هذا ٥ الأمر ، فى هذا الوقت ، ووعد أن يبشّر أصدقاءه فى إنكلترا من محبِّي الجهشيارىّ وعارفى فضله ، بقرب ظهور تحفته النادرة ، على اتصال بنا إبّان الطبع ، وكان يبذل من صالح الرأى ، وعظيم الخبرة ، ما أعان على إخراج هذا الأثر النفيس ، فى الثوب الذى يليق به ، من البهاء والرونق .

والله َ نسأل أن يجعل هذا العمل مقبولا ، وأن يهدينا إلى إحياء آثار السلف الصالح ، وحسن القيام على ما ترك أولئك الأعلام من تُراث مَجيد .

الجهشـــــيارى

تعريف كتب التاريخ به

أبو عبد الله محمد بن عَبْدُوسَ الكُوفىّ المعروف بالجهشيارىّ ، صاحب كتاب الوزراء والكُتّاب ، مؤرخ قديم ، من طبقة ابن جرير الطبرى (المتوفى ٣١٠ ﻫ) والمسعودىّ (المتوفى ٣٤٥ ﻫ). وهو أحد الأفاضل الثّقات ، وقد أكثر المؤرّخون من ذكره عند النقل من كتابه، الذى يُعَدُّ من أعظم مصادر التاريخ الإسلامى، ولكن الذى وصل إلينا من الخَبَرِ عنه قليل، مُبَعْثَر فى كتب التاريخ. ويقول «ياقوت الحموى» فى الجزء الأول من «إرشاد الأريب» فى ترجمة أحمد بن أبى أحمد، المعروف بأخى الشافعى، وراق الجهشيارى: «والجهشيارى هذا قد ذكر فى بابه[1]» . ولكننا لم نجد ترجمته فى كلتا الطّبْعتين ، الأولى والثانية ، فلعلها ضاعت فيما ضاع من أصول الكتاب وأجزائه.

ويستفاد مما ذكره المُحَسِّن بن على التنوخىّ ، فى الجزء الثامن من جامع التواريخ ، الموسوم «بنَشْوار المُحاضرة ، وأخبار المذاكرة» المنشور فى مجلة المجمع العلمى بدمشق ، فى الصفحة ٢٠٣ من المجلد العاشر : أن ابن عبدوسَ ووالده كانا من رجالات

(١) ج ١ ص ٨١ من الطبعة الأولى بعناية المستشرق الكبير العلامة مرجليوث.

الدولة العباسية ، فى خلافة المقتدر العباسىّ ؛ قال :

«وكان ابن عبدوس الجهشيارىّ الذى ألف كتاب الوزراء قائماً على رأس علىّ بن عيسى ، لأنه كان يحجُب أبا الحسن ، وكان أبوه من قبله مضموماً إليه رياسة الرجال برسم علىّ بن عيسى الوزير ، وكان يحجُبه أيضاً » . ٥

وكتب التاريخ تحدثنا أن علىّ بن عيسى ولى الوزارة للمقتدر أوّل مرة سنة ٣٠١ هـ ، وكان حاجبه حينئذ عبدوس الجهشيارى ، والد صاحب هذه الترجمة ، ثم وليها مضموماً إلى حامد بن العباس لكبر سنه سنة ٣٠٦ هـ ، وكان حاجبه فى هذه المرّة محمد بن عبدوس . ١٠

وتحدثنا كتب التاريخ أيضاً بما كان عليه ابن عبدوس من خلق يأبى الإسفاف فى القول ، ولا يتسع معه صدره للّغو والفاحش منه ، فقد كان الوزير حامد بن العباس معروفاً بسوء الأدب ، وبذاءة اللسان ، وفيه يقول التنوخى نقلا عن أبى الحسين علىّ بن هشام : ١٥

« ومارأينا ولا سمعنا برئيس أسفَهَ لِساناً من حامد بن العباس ، فإنه كان لا يردُّ لسانه عن أحد البتّة ، وكان إذا غضب شتم » .

وروى له التنوخى أكثر من حادثة تنمّ على سوء أدبه ، وقد سمع بعض ألفاظه البذيئة علىّ بن عيسى فقال :

« اللهمّ غفرًا ! إيْ والله أيْ لؤم » .

وكان ابن عبدوس بمرأى ومسمع مما صدر عن الوزير حامد ، فتنحى عن مكانه وقال :

« لعن الله زماناً صرت أنت فيه وزيراً » .

نشأته بالكوفة

٥ وقال ابن خَلِّكان وقد ذكر تاريخ وفاة يعقوب بن داود وزير المهدى ، نقلا عن الجهشيارى :

« هكذا ذكر تاريخ وفاته محمد بن عبدوس الكُوفىّ ، المعروف بالجَهشيارى ، فى كتابه تاريخ الوزراء » .

فعلمنا من هذا أن ابن عبدوس نشأ بالكوفة ، ولعله تلقى

١٠ العلم على أعلامها ، ولكننا بعد هذا لا نعلم متى انتقل إلى بغداد ، ولا متى انتظم فى وظائف الدواوين .

نظام الإدارة والعمل فى عهده

وقد كان نظام الإدارة وتولية العمال والوُلاة والوزراء، وجباية الخَراج وأموال الدولة لعهد الجهشيارى ، من أفسد النُّظُم ، وأدعاها إلى الظُّلم ، وسوء حال الرعية ، وإن نظرة واحدة لعهد

١٥ الخليفة المقتدر ، وما كان لتسلط النساء وغِلمان الأتراك على شئون الدولة ، وما توالى على ديوان الخلافة من وزراء ، وما كانت تجره تولية كلّ وزير من تغيير العمال والكُفاة فى أنحاء الدولة ، وما يتبع ذلك من إطلاق أيدى الحكام فى الناس ، يَصُبُّون عليهم المظالم ، ويُرهقونهم بطلب الأموال من غير نظام ،

مما أدّى إلى قيام الفِتن والثورات فى كلّ ناحيـة ـ إن نظرة إلى كلّ هذا ، تدلنا على مقدار الخَلَل الذى فشا فى الدولة العباسية ، منذ تَدَخَّل الأتراك فى شئون الخلفاء ، يَعْزِلون من شاءوا ، ويُوَلُّون من أرادوا ، ويَسْتَوْزِرُون من أحبّوا .

ولقد سجّلت كتب التاريخ أسماء الوزراء الذين تولوا الحكم فى خلافة المقتدر ، فى أربع وعشرين سنة وأحد عشر شهراً ، وستة عشر يوما ، فإذا هم أربعة عشر :

١ — أبو الحسن علىّ بن محمد بن الفُرات .
٢ — أبو علىّ : محمد بن عُبيد الله بن يحيى بن خاقان .
٣ — أبو الحسن علىّ بن عيسى بن الجَرّاح .
٤ — حامد بن العباس .
٥ — علىّ بن عيسى بن الجرّاح (نائبا عن حامد بن العباس) .
٦ — أبو الحسن علىّ بن محمد بن الفُرات .
٧ — عُبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان .
٨ — أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن الخصيب .
٩ — أبو الحسن علىّ بن عيسى بن الجرّاح .
١٠ — أبو علىّ محمد بن علىّ بن مُقْلة .
١١ — سليمان بن الحسن بن مَخْلد .
١٢ — عُبيد الله بن محمد الكَلْواذى .

١٣ — الحسين بن القاسم بن عُبيد الله .

١٤ — أبو الفضل جَعفر بن الفُرات .

وترجع كثرة الوزراء فى هذا المدة إلى سبب رئيس ، هو المال وطريقة الحصول عليه ، لإشباع نَهْمَة أهل القصر ، وغلمان الأتراك والقوّاد ، فقد كان الخاطبون للوزارة يتنافسون فى اتخاذ الصنائع عند هؤلاء الأتراك ، وقَهْرمانات دار الخلافة ، وأمهات الخُلفاء ، ليذكروهم عند الخليفة ، وليساوموه على مقدار المال الذى يبيع به مَنْصِب الوزارة لمن يطلبه ، فإذا تحققت قدرة الطامع فى الوزارة على ما تصبو إليه نفس الخليفة من الأموال ، قلده الوزارة ، وأذن له فى مُنَاظرة الوزير السابق ، ومطالبته بالأموال التى جمعها فى وزارته ، بكلّ ما يمكنه من القسوة ، فيأخذ فى تعذيبه ، وتحميله المبالغ المرهقة ، التى تعجز عنها ثروته وثروة آله وأسرته ونسائه ، فيأخذ فى مطالبة حاشيته والمنتمين إليه ، وإقالتهم من العمل .

ولا يلبث الوزير الجديد أن يُمَثّل معه هـذا الدور نفسه ، فيصبح بعد قليل مطلوبا ، بعد أن كان طالبا ، ويُسق هو وشيعته بالكأس التى كان يسقى بها من قبلهم من العمال والموظَّفين . وقد يعود الوزير إلى الحكم مرة ثانية وثالثة، كالوزير ابن الجرّاح ، والوزير ابن الفُرات ، والوزير ابن مُقلة ، فيعود معه أعوانه

وأنصاره ، مشبَّعين بروح الانتقام ، فلا تَسَلْ عما يقع من الاضطراب ، ولا تسل عما يقع من ظلم يعمّ البرىء والمجرم ، ويأخذ المطيع والعاصى ، من كُفاة الدولة ، وأجنادها ، وغيرهم .

ما ناله من سوء هذا النظام

وقد نال الجهشيارىَّ من آثام هذه النُّظُم السياسية والإدارية والمالية ما نال كثيرا من موظفى الدولة البارزين ، من التضييق ، والاعتقال ، والإرهاق ، ومصادرة الأموال ، لأنه كان قد أثرى كما يثرى كبار الموظفين والرؤساء فى ذلك العهد ، ولأن أباه من قبل كان موظفاً كبيراً ؛ وكان هو من صنائع أعظم الوزراء لذلك العهد ، كأبى الحسن علىّ بن عيسى ، وأبى علىّ ابن مُقْلة ، وغيرهما ، فكان من الطبيعى أن يكون له خصوم يَكيدُون له ، وينتهزون الفُرَص للنَّيْل منه ، وكان من الطبيعىّ أن يُقال من العمل ، وأن يعود إليه مرة بعد أخرى ، وأن تُصادَر أمواله بين حين وآخر .

وهاك بعض نصوص من التاريخ تكشف عما وقع للجهشيارى من اعتقال ، أو مصادرة الأموال :

١ — قال ابن مِسكويه فى تجارب الأمم ص ٢٦٩ من الجزء الأول :

« وسُعِي بأبى عبد الله بن مُقلة ، فوجد وقبض عليه ، ووجد عنده خطوط أخيه أبى علىّ فى رقاع ، فحمل إلى دار الوزير أبى جعفر [محمد

ابن القاسم الكَرخىّ، وزير الخليفة الراضى] ، فسأله عمن كان يوصل إليه الرِّقاع ، فذكر أن أبا عبد الله محمد بن عبدوسَ الجهشيارىّ كان ينفذها إليه ، فقبض عليه وعلى أخيه ، وسئلا عما يعرفان من خبر أبى علىّ ابن مقلة ، فحلفا أنهما لا يعرفان له خبراً منذ استتر . وعرِّف القاهر أنهما من قُوّاد السلطان ، وسُهِّل أمرهما ، ولم يستترا ، وكانا يركبان فى أيام المواكب إلى دار السلطان » .

٢ — وذكر الصُّولى فى كتاب الأوراق فى الصفحة ٨٣ وما بعدها فى خلافة الراضى بالله :

«وطلب سعيد بن عمرو بن سنكلا[1] عند أبى الحسن علىّ بن عيسى وعند أخيه أبى علىّ ما كان يجده عند غيرهما ، فعزّ ذلك عليه ، ولم يستحلاّ أن يَمُدّا أيديهما إلى أموال الناس ، فحمل الراضىَ على عزلهما ، فقبض على عبد الرحمن [بن عيسى بن الجرّاح] يوم الاثنين لستٍّ خَلَوْن من رجب ، وخلع على أبى جعفر محمد بن القاسم الكَرْخِىّ ، وَوُلِّىَ الوزارة ، وكانت مدة عبد الرحمن خمسين يومًا . وسُلِّم ابنُ مقلة إليه ليناظره ، ووجدت له خِزانة فى دار رَيْطة ، فيها ذهب وفضة ، ومتاع يساوى نحو مئتى ألف دينار .

وقُبض على أبى عبد الله بن عَبْدوسَ، وصُودر على مائتى ألف دينار، فتكلم سعيد بن عمرو فى خَطِيطته ، والوزير يخالفه ، حتى شَرِق الأمر بينهما ، فكان ذلك سبب زوال الكرخىّ ، وأدّى ثمانين ألفَ دينار ، وأطلق .

(١) هو أبو الحسن سعيد بن عمرو بن سنكلا الكاتب ، ذكره هلال بن المحسن الصابى فى تحفة الأمراء صفحة ١٢٤ و ١٤٠ .

٣ — وفى صفحة ١٠١ من المصدر نفسه :

« قال : وزوج الوزيرُ الفضل بن جعفر [بن الفرات] ابنته بابن[١] ابن رائق ، وزَوَّجَ أبا بكر بن طُغْج بابنة له أخرى . . . . وخطب القاضى عمر ابن محمد بحضرة الخليفة للجميع خطبة واحدة ، وكان مهر أبى بكر بن طُغْج ثلاثين ألف دينار ، ومهر ابن رائق نصفها ، وعزم الوزير على الخروج ٥ إلى الشام ، واستخلاف أبى بكر عبد الله بن على النَّفَّرىّ على العَرْض ، وإمضاء الأمور بالحضرة . فخرج لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر ، وهَجَم بعَقِب خروجه على أبى عبد الله بن عَبْدوسَ ، وطُولِب بمال عظيم . ثم تقرر أمره على خمسة عشر ألف دينار ، أُخِذَتْ منه بألوف منها جارية مُغَنِّيَة كانت له ، وترك له من أجلها الباقى » . ١٠

٤ — وفى صفحة ١٤٤ من المصدر نفسه :

«وقبض على ابن عبدوسَ بسبب غلام له يقال له بديع كان فى جملة البريدىّ » .

وقال ابن الأثير عند الكلام على حوادث سنة ٣١٧ هـ :

« فلما كانت سنة ٣١٧ هـ سار حاجّ العراق إلى مكة على طريق ١٥ الشام ، فوصلوا إلى الموصل أول شهر رمضان ، ثم منها إلى الشام لانقطاع الطريق بسبب القرمطىّ ، معه كُسْوة الكعبة ، مع ابن عبدوسَ الجهشيارى لأنه كان من أصحاب الوزير[٢] » .

---

(١) فى الأصل « ... ابنه بابنة ابن رائق .... » ولا يستقيم به الكلام .

(٢) كان الجهشيارى من أصحاب الوزير ابن مقلة ، كما أفاده كلام هلال بن المحسن = ٢٠

ما كان يتولاه ابن عبدوس وآله كما استخلصناه من النصوص السالفة

فظهر مما تقدم أن ابن عبدوس كان من أرباب السيوف ورجالات الحرب كما كان من أرباب الأقلام ورجالات البيان ، ولولا ذلك ما استطاع أن يحمل عبء إمارة الحاج والطريق مخوف ، ولا رضيَ ابن مُقلة أن يرسله والقرامطة يعيثون فسادا ، ويُوقِعُون بالحجيج فى بيت الله الحرام .

كما ظهر أيضاً أن للجهشيارى أخا ، وأنه كان رجل حرب كأخيه .

سنة وفاته

وتوفى محمد بن عبدوسَ الجهشيارى سنة ٣٣١ هجرية على ما أخبر به أبو المحاسن بن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ، قال :

« وفيها توفى محمد بن عبدوس الجهشيارى ، وكان فاضلاً رئيساً ، وله مشاركة فى فنون » .

هـــذا ما استطعنا أن نجمعه من الأخبار عن شخصية الجهشيارى ، من ناحيته العملية فى الحياة ، باعتباره موظفاً من موظفى الدولة العباسية ، وتدلّ هذه الأخبار فى جملتها على أن الرجل كان ، من كبار الرجال والرؤساء فى عصره ، وكذلك كان أبوه وأخوه من القوّاد والزعماء .

= الصابى فى تحفة الأمراء صفحة ٣١٥ ، وكما أفاده الناشر لذلك الكتاب « *H. F. Amedroz* » فى الحاشية رقم ٣ بالصفحة ٣ من مقدمته المكتوبة بالإنجليزية .

حياته العلمية وتواليفه

أما شخصيته العلمية والأدبية ، فحدثنا عنها طائفة من المصادر التاريخية المحترمة حديثاً موجزاً ، ولكنه مملوء بالإعجاب بالرجل وآثاره .

١ — فيقول المسعودىّ فى مروج الذهب :

« وقد صنف أبو عبد الله بن عبدوس الجهشيارى أخبار المقتدر ، فى ألوف من الورقات، ووقع لى منها أجزاء يسيرة . وأخبرنى غير واحد من أهل الدراية ، أن ابن عبدوسَ صنف أخبار المقتدر فى ألف ورقة ». ٥

٢ — وقد عرّف به محمد بن إسحاق النديم فى الفهرست (ص ١٢٧ طبعة أوربة » بقوله :

« الجهشيارىُّ ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس : أحد الكتاب الأخباريين المترسّلين ، وله من الكتب كتاب الوزراء والكتاب ، وكتاب ميزان الشعر والاشتمال على أنواع العروض[1] » . ١٠

٣ — ويقول فى صفحة ٣٠٤ من المصدر نفسه :

ابتدأ أبو عبد الله محمد بن عَبدوس الجهشيارى ، صاحب كتاب الوزراء ، بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر، من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كلّ جزء قائم بذاته ، لا يَعلَق بغيره ، وأحضر المسامرين ، فأخذ ١٥

(١) اضطربت نسبة هذا الكتاب إلى محمد بن عبدوس الجهشيارى وإلى على بن عبدوس الكوفى النحوى ، (انظر معجم الأدباء لياقوت وكشف الظنون والفهرست).

عنهم أحسن ما يعرفونه ويحسنونه ، واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ما يَحلَى بنفسه ، وكان فاضلا ، فاجتمع له من ذلك أربع مئة ليلة ، وثمانون ليلة ، كلّ ليلة سمر تام ، يحتوى على خمسين ورقة ، وأقلّ وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تتميمه ألف سمر؛ ورأيت من ذلك عدة أجزاء ، بخط أبي الطيّب أخي الشافعي [(١)] .

ضياع آثاره

وقد خلت فهارس خزائن الكتب المعروفة من كلّ كتب الجهشياري، فلا يوجد منها الآن شيء إلا هذه القطعة التي ننشرها اليوم من « كِتَاب الوزراء والكُتَّاب » .

يقول الأستاذ بروكلمان في ملحق كتابه تاريخ الآداب العربية :

« وقد ضاع من تآليفه كتاب ميزان الشعر والاشتمال على أنواع العروض ، ومجموعة أسمار العرب والعجم والروم » .

---

(١) هو الذي أشرنا إليه آنفاً في الصفحة الخامسة المعروف بوراق ابن عبدوس الجهشياري . ذكره ياقوت في إرشاد الأريب في الجزء الأول في الصفحة ٨١ من الطبعة الأولى .

كتاب الوزراء والكتاب

تعريف بالكتاب

أما كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ، فهو هذا النصّ الذى ننشره اليوم لأوّل مرّة بمطبعة الحروف . وهو من أقدم المصادر التاريخية ، وأشهرها ذكراً ، فصّل فيه صاحبه تاريخ كتابة الإنشاء ، منذ تأسيس الدولة الإسلامية فى عهد النبىّ ٥ صلّى الله عليه وسلّم ، وتاريخ الوزارة والوزراء فى الإسلام ، إلى نهاية القرن الثالث الهجرىّ .

وكان المعتَقَد أن هذا الكتاب قد ضاع ، مع ما ضاع من آثار الجهشيارىّ الأدبية ، وأنه لا يُعرف إلا فى تلك النُّقول التى يتحلى بها جيد كثير من كتب الأدب والتاريخ ، ويتردد فيها اسم ١٠ الجهشيارى ، وكتاب الوزراء والكتاب كثيرا ، كالأوراق للصولى ، وكالفهرست لابن النديم ، والكامل لابن الأثير ، ومُعجَمى ياقوت ، ووفيات الأعيان لابن خَلِّكان ، والوافى بالوَفَيات ، ونَكْت الهِمْيان للصَّفَدِىّ ، والنجوم الزاهرة لابن تَغْرِى بَرْدِى ، وغيرها . ١٥

كان جمهور الأدباء يائسين من وجود هذا الكتاب ، لأن فهارس خزائن الكتب العامة والخاصة ، التى لها شهرة فى العالم ، قد أُحْصِى ما فيها من المخطوطات ، ولم يذكر بينها كتاب الوزراء والكتاب ، هذا الذى لا يعرف العلماء منه إلا اسمه ،

وإن كان شوقهم إلى معاينة شخصه يشتدّ كلما ظهر مؤلف جديد، فيه قَبَس من نور الجهشيارى، أوكلما عرض الباحثون لشىء من شئون الخلافة والوزارة، يُهْتَدَى فيه بهَدْيه، ويستضاء بنوره.

ولكن بعض الباحثين ، وهو الأستاذ المستشرق «منريك» النمسوى، عثر على قطعة من هذا الكتاب، ضمن مجموعة مخطوطة، محفوظة فى دار الكتب الوطنية بفينا، رقمها ٩١٦[1]

وقد صور الأستاذ منريك تلك النسخة المخطوطة على الزنك ، وطبع عليها سنة ١٩٢٦ م نسخاً ذاعت بين المستشرقين ، ثم وصل بعض منها إلى الشرق ، فحققت بعض ما كانت تصبو إليه نفوس العلماء فى الشرق والغرب ، من الوقوف على هذا الأثر الجليل .

هـــذا القسم الذى نُشر مطبوعا على الزنك، ينتهى بوزارة الفضل به سهل للمأمون ، وهو يقع فى متى ورقة وأربع ورقات ، أى فى أربع مِئَة صفحة وثمان . وتشتمل كلّ صفحة على خمسة عشر سطرا إلى سبعة عشر ، ونسخة الأصل مكتوبة بخط قديم واضح ، وإذا صحّ ما ذُيلت به الصفحة الأخيرة من الكتاب ، فقد يرجع تاريخ هذا الخط إلى سنة ٥٤٦ هـ ، ولكننا

(١) انظر دليل القسم اللغوى والتاريخى لمجموع العلوم الامبراطورى ، السنة الـ ٤٤ الرقم ٢١ ، الصفحات : (١٣٢ ــ ١٣٤) .

تقدم كثيراً من الحذر والشكّ فى قبول ذلك ، لأن السطر الأخير الموضوع فى ذيل الصفحة ٤٠٨ من الأصل ، ليس خط الناسخ الذى نسخ الكتاب كله[1] .

على أن تلك العبارة نفسها تشتمل على خطأ جوهرى ، ٥ فكاتبها يقول :

«وهذا آخر ماأردناه والله أعلم بذلك قد تم الكتاب بعون الله سنة ٤٥٦» .

والحق أن الكتاب لاينتهي عند هذا الموضع ، من وزارة الفضل بن سهل للمأمون ، ولعلّ الذى انتهى منه نصفه ، أوأقلّ ١٠ من نصفه ، وإنما ينتهى بانتهاء وزارة أبى أحمد العباس بن الحسن للمكتفى بالله سنة ٢٩٦ هـ .

وهناك ما ذكره أبو الحسن هلال بن المحسّن بن إبرهيم الصابى الكاتب ، صاحب «تحفة الأمراء ، فى تاريخ الوزراء» ، المطبوع فى بيروت سنة ١٩٠٤ م ، قال فى الصفحة ٢ من كتابه: ١٥

« وكان أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى جمع من أخبار الوزراء ماوقف فيه عند أبى أحمد العباس بن الحسن » .

والمدة التى بين وزارة الفضل بن سهل للمأمون ، وموت الوزير أبى أحمد العباس بن الحسن سنة ٢٩٦ للهجرة ، حافلة بالأحداث السياسية الجسام ، وأسماء طائفة من الوزراء والكتاب الكبار ٢٠

(١) انظر الصفحة المطبوعة على الزنك أمام صفحة ٣٢٠ من طبعتنا هذه .

فى الدولة العباسية، منهم من جمع الوزارة والكتابة، ومنهم من انفرد بالوزارة دون الكتابة، ومنهم من تولى الوزارة مرتين أو أكثر، لخليفة واحد، أو لعدة من الخلفاء. وقد استخرجنا من الفخرىّ والطبَرىّ أسماء أولئك الوزراء، فبلغت عِدتهم نحو
٥ ثمانية وعشرين وزيرا، ليس فيهم كاتب لم يل الوزارة، فإذا ضُم إليهم الكُتاب الذين لم يكونوا وزراء، بلغت عِدتهم شيئا كثيراً جدًّا. وأكبر ظننا أن الجهشيارى قد أفاض فى تاريخ هؤلاء الوزراء والكتاب الكبار، لأنه قد عودنا مثل ذلك فى تاريخ الأسرة البرمكية وتاريخ الفضل بن سهل وغيره، ولذلك
١٠ نعتقد أن الجزء الذى لم ينشر من الكتاب يُرْبِى على ما نُشِر منه، إن لم يكن مساويا له.

وسبب آخر يحملنا على الاعتقاد بضخامة الجزء الذى لم ينشر، وهو أن معظم حوادث تلك المدة وقعت بمرأى ومسمع من المؤلف، وهذا يجعله يُعَالِج المسائل التاريخية لتلك المدة معالجة
١٥ أدق منها فى أى عصر آخر، ومِصْداق هذا ما حدثنا به المسعودىّ، وقد رويناه فيما تقدم، أن الجهشيارىّ كتب أخبار المقتدر فى ألف ورقة.

ولعل الأيام تحقق لنا ما تصبو إليه النفس من العثور على بقية هذا السِّفْر النفيس، فى خزائن الكتب الخاصة، فتقرّ به عيون
٢٠ أهل العلم، ومُحِبِّى الأدب.

على أن هـذا القسم الذى تنشره اليوم لأول مرّة بمطبعة الحروف ، عظيم القيمة ، جليل الخَطَر ، إذ تجد فيه أخباراً نادرة ، وحقائق نافعة ، لا تجدها فى غيره من كتب التاريخ ، وخاصة ما يتعلق بتاريخ الكتابة الإنشائية الفنية ، وتاريخ الوزارة والوزراء فى الإسلام، والتاريخ الحقيق للخلفاء ، وما اشتملت عليه حياة القصور ، من مظاهر الترف واللهو ، التى يُسْدَل بينها وبين أعين العامة حجاب صفيق .

وقد يكون من أقوى جهات هذا الكتاب نفعاً، كشفه اللثام عن بعض مظاهر الحضارة الفارسية، التى اقتبسها المسلمون من الفرس ، وخاصة فى تنظيم الإدارة ، وجباية الخراج ، وتدوين الدواوين ، وضروب السياسية ، التى أخذ بها الخلفاء العباسيون فى عصر القوة ، الذى يبتدئ بالسَّفاح ، وينتهى بالمعتصم أو ابنه الواثق .

وقد أخبرنا الناشر الأول فى مقدمته أن بعض أعـــلام المستشرقين قد انتفعوا بهذا القسم ، فأخذ منه العلاّمة ڤون كريمر قائمة الميزانية [1] ، التى وضعها أبو الوزير عمر بن مطرّف الكاتب لتقدير دخل الدولة فى عهد الرشيد ، وكتب عنها مقالة ، قدمها لمؤتمر المستشرقين الدولى السابع [2] .

---

(١) راجع الصفحات : (٢٨١ ــ ٢٨٨) من مطبوعتنا هذه .

(٢) راجع أعمال مؤتمر المستشرقين السابع ، قسم اللغات السامية ، الصفحة الأولى وما بعدها .

وأن المستشرق أدولف جروهمان « *Adolf Grohman* » أستاذ اللغات السامية ، وتاريخ الثقافة الشرقية بجامعة براغ ، اعتمد على نسخة الوزراء والكتاب المخطوطة فى قراءة ورقة البَرْدِىّ ١٢٩ [1] التى تتضمن عزل موسى بن عيسى الهاشمى عن مصر ، وتولية عمر بن مهران لتنظيم جباية الخراج بها[2] .

وإننا لنعتقد أن إذاعة هذا الكتاب بين العلماء وأهل الأدب ، ستفتح مجالا جديداً لتحقيق كثير من المسائل الادبية والتاريخية والعلمية ، التى لابدّ فى تحقيقها من هذه الوثيقة النفيسة.

وقد أردنا أن نستيقن أن النصّ الذى نحاول نشره هو للجهشيارى حقًّا ، إذ لا يوجد فى العالم كله غير هذه المخطوطة التى طبعت على الزنك ، وليس هناك نسخة أخرى تشهد لها بصحة الانتساب إلى ذلك المؤلف الكبير . ففزعنا إلى كتب التاريخ وكتب التراجم ، فرأينا بعضها ينقل عن الجهشيارى، من غير ذكر له ولا لكتابه، كما فعل الصفدى فى ترجمة يعقوب ابن داود وزير المهدىّ، فى كتابه: «نَكْتِ الهِمْيان» ، وبعضهم يعزو النقل إلى الجهشيارى ، كياقوت فى معجم الأدباء ، ومعجم البلدان ، وابن خلكان فى الوفيات ، والتنوخى فى الفرَج بعد

(١) راجع القطعة الأولى من الجزء الأول فى المجموعة الثالثة من مجموع أوراق البردى للأرشيدوق رينر «*Rainer*» المطبوع فى فينا سنة ١٨٩٦ م .

(٢) راجع الصفحات (٢١٧ — ٢٢٠) من هذه الطبعة .

الشدة ، وأبى الحسن عبدالملك بن محمد فى كتابه «روضة البلاغة» المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية بالرقم ١٤٨ أدب .

وقد تتبعنا كثيراً من هذه المواضع التى صرحت باسم الجهشيارى أو كتابه عند النقل منه ، وعارضنا نسختنا هذه بما ذكره أولئك المؤرخون ، فلم نجد فرقاً بين الأصل وما نُقِل عنه، ٥ إلا ما لا يُؤْبه له ، من تحريف أقلام الناسخين ، فثبتت لنا صحة الأصل المنشور على الزنك ، وأن نسبته إلى المؤلف نسبة لا يتطرق إليها أدنى ريب أو شكّ .

ومن الحق لقارئ هذه المقدّمة أن نذكر له مثالا على ما نحن بسبيله ، ولسنا نقصد إلا إلى كتابين : هما إرشاد الأريب، ١٠ ووفيات الأعيان .

ففى إرشاد الأريب يجد القارئ تراجم معظمها منقولة عن الجهشيارى ، مثل ترجمة عُمارة بن حمزة فى الجزء السادس صفحة ٣ .

وفى صفحة ١٦٦ من الجزء الثانى يتحدث الجهشيارى عن ١٥ يوسف بن صبيح ، والد أحمد بن يوسف ، وكان كاتباً لعبد الله ابن علىّ فيقول :

« وذكر الجهشيارى قال : كان يكتب لعبد الله بن علىّ يوسف ابن صبيح ، مولى بنى عجل ، من ساكنى سواد الكوفة ، فذكر القاسم ابن يوسف بن صبيح أن أباه حدثه : أن عبد الله بن علىّ لما استتر عند ٢٠ أخيه سليمان بالبصرة ، علم أنه لا وزر له من أبى جعفر ، قال : فلم أستتر ،

وقصدت أصحابنا الكتاب ، فصرت فى ديوان أبى جعفر ، وأجرى لى كلّ يوم عشرة دراهم » إلى آخر ماهنالك .

فليعارض القارئ ما نقله ياقوت من هـــذه القصة ، بما ورد فى طبعتنا هذه فى الصفحتين ١٣١ و ١٣٢ ، ٥ فسيجد النصين متفقين تمام الاتفاق .

وأما وفيات الأعيان ، فيكفى الباحث أن يطالع مانقله فى ترجمة يعقوب بن داود وزير المهدىّ ، وما ذكره فى ترجمة ديك عبدالسلام بن رغبان الجنّ الشاعر ، وماقاله فى ترجمة أحمد بن يوسف الكاتب ، ويعارض ذلك بنظيره فى نسختنا هـذه ، فسيجد ١٠ الكلام هو هو ، بما لا يدع أىّ مجال للريب فى نسبة هذا الأصل إلى محمد بن عبدوسَ الجهشيارى .

جهدنا فى إخراجه

غير أنا حين عزمنا على نشر هذا الكتاب بطبعة الحروف ، وبدأنا بإعداده للطبع ، رأينا فيه بعض كلمات محرّفة ، وأخرى غير واضحة : خَطًّا أومَعْنًى . وقدوُفِّقنا بحمدالله إلى التغلب على مُعْظَمِ ماقام أمامنا من هذه الصعوبات ، مسترشدين فى أكثر الأحيان ١٥ بجدول التصحيحات ، وفهرس الأعلام ، اللذين وضعهما الناشر الأوّل فى آخر الكتاب ؛ وفى بعض الأحيانَ كنا نعتمد على مقتضيات الأحوال ، وما يفهم من المقام ؛ وأحيانا كنا نتتبع موادهذا الكتاب فى المصادر التاريخية الأخرى ، كتاريخ الطبرىّ ، والمسعودىّ ، والفخرىّ ، وغيرها ، ونستعين على حلّ المشكل

بتعدد الأصول ، التى ذكرت موضوع البحث ، فكنا نوفّق إلى نجاح كثير .

وليس فى المخطوطة كلها شيء خفيت معالمه علينا أو كادت، إلا الصفحة (٤٠٨) وهى الصفحة الأخيرة منه، فيظهر أنها تأثرت برطوبة أو نحوها ، فزال المداد عن كثير من كلماتها ، وقد استطعنا أن نقرأ أكثرها ، وما لم نستطع قراءته تركنا مكانه خلاء . وقد وضعنا أمام تلك الصفحة صورتها الشمسية ، ليقف القارئ على بعض ما نبذله من الجهد فى حلّ المشكل ، ولنقدم له مثالا من الخط الذى كتب به الأصل ، وليتحقق من رؤية تاريخ النَّسخ ، وهو سنة ٥٤٦ هـ ، وأنه مكتوب بخط غير ما كتب به الـكتاب كله .

وقد أثبتنا كلّ ما خالفْنا فيه رواية الأصل ، أو جدول تصحيح الناشر الأول، فى ذيل الصفحات ، ونسبنا كلّ خلاف فى الرواية إلى المصدر الذى نقلنا عنه ،رعاية لحق الأمانة ، الذى نراه أول واجب على من يتصدّى للنشر العلمى فى العصر الحديث .

ولما كان الإمام محمد بن جرير الطبرىّ معاصراً للمؤلف، فقد اتفقا فى نقل أكثر أخبارهما عن مصادر واحدة ، ولذلك كان اعتمادنا فى تصحيح كتاب الوزراء والـكتاب على الطبرىّ أكثر من اعتمادنا على أىّ مصدر آخر ، يعرف القارئ ذلك بمطالعة الحواشى التى فى ذيل الصفحات منسوبة إليه .

وينقل الجهشيارى كثيراً عن أبى عبد الله محمد بن داود ابن الجراح ، ومن ذلك مانقله من كتاب « الورقة » وهو كتاب لطيف الحجم يحتوى على نحو ٨٥ ترجمة مختصرة لبعض الشعراء غير المشهورين ، يقع كلّ منها فى ورقة غالباً ، وقد رأينا نسخة مخطوطة منه مع صديقنا الدكتور عبد الوهاب عزام، الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة ، وهى فى الأصل من كتب أبى علىّ بن مِسكويه ، لكنها الآن فى ملك أحمد الصافى النجفى ، فلما تصفحناها وجدنا أن الجهشيارىّ قد نقل من هـذا الكتاب أخباراً عمن يأتى :

١ — معبدِ بن طوْق المذكور فى صفحة ٢٨ من هذه الطبعة .
٢ — عَتَّاب بن عبْد الله[1] « « « ١٨٧ .
٣ — رزين[2] العروضى المذكور فى صفحة ١٩٣ .
٤ — أبى المُذافر : ورْد بن سَعْد العَمّىّ المذكور فى صفحة ١٩٥
٥ — عِنان جارية النَطّاف المذكورة فى صفحة ٢٠٤
٦ — المخيَّم[3] الراسىّ المذكور فى صفحة ٢٤١ .
٧ — أبى يعقوبَ الخُرَيْمىّ المذكور فى صفحة ٢٦٨ .
٨ — إسماعيل القراطيسى « « « ٢٩٩ .

وكان لهذه المخطوطة فضل فى تصحيح ما نقله الجهشيارى

(١) لم يصرح الجهشيارى باسمه ، وإنما ذكر قصته وشعره .
(٢) كذا فى كتاب الورقة وإرشاد الأريب ، وفى الأصل وفهرست ابن النـديم : « وزير العروضى » .
(٣) كذا فى كتاب الورقة لابن الجراح ، وفى الجهشيارى « المخيم » بالتاء .

عن ابن الجراح ، وفى تحقيق نسبة المخطوطة إلى الجهشيارى .

ويجد القارئ لطبعتنا هذه أننا قد بذلنا قُصارى الجهد فى تصحيح الكتاب بما لامزيد عليه من الدقة والعناية ، ومع أنه لايوجد منه فى العالم غير هذه النسخة ، التى نشرت أول مرة على الزنك ، فإننا قد استطعنا أن نتتبّع مواده فى المصادر التاريخية ٥ والأدبية المختلفة ، حتى تحققنا من صحة ضبطه ، ونفى ما فيه من تحريف بقلم الناسخ .

وقد وضعنا لكل معنى جديد عنوانا بهامش الكتاب ، يعرف به القارئ الغرض الذى تضمنه ، حتى لايضيع وقت الباحثين فى التفتيش عما يعنيهم من موضوعات هذا الكتاب وأغراضه . ١٠ ولتيسير مقابلة نسختنا هذه بالأصل الذى طُبِعَتْ عليه، وضعنا فى الهوامش الخارجية للصفحات أرقام صفحات الأصل ، بين قوسين ، ووضعنا فى الهوامش الأخرى الداخلية عدد السطور التى فى كلّ صفحة ، ليسهل قصد الباحث إلى مايريد .

ثم لم نترك ناحية من نواحى الكتاب يهمّ الباحث الوقوف ١٥ عليها ، وإلا وضعنا لها فهرساً خاصًّا ، يهدى الباحثين .

ونكرر القول أخيراً أن نشر هذا الكتاب هذه الصورة الجميلة ، سيفتح أمام الباحثين مجالا جديداً ، لتحقيق كثير من المسائل الأدبية والتاريخية والعلمية ، لما حواه من الفوائد الكثيرة الممتعة .

إهــــداء
هذا الكتاب

ويسرنا أن نهدى هـذا المؤلَّف إلى جمهرة الأدباء والمتصلين بالعربية بسبب من أبناء الجامعة، وبخاصة طلبة كلية الآداب وطالباتها، وطلبة دار العلوم، وكليات الأزهر ، فهؤلاء جميعاً أحق من يهدى إليه هذا السفر النفيس، لأنهم أقدر على ٥ الانتفاع به فى حياتهم العلمية والأدبية، ولأنهم يجدون فيه صورة لبعض الأعمال ، التى ينبغى أن تتوافر عليها جهودهم ، ويتجه إليها نشاطهم .

شكرنا
للمطبعة

ونحن مدينون بالشكر لشركة مكتبة ومطبعة المرحوم السيد مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، فقد بذلت أحسن ما لديها من ١٠ وسائل فنية ، فى طبعه وتجليده ، وإننا لنعلن اغتباطنا الشديد بما تحاول هذه الشركة من جهود ، لترقية شئون الطباعة فى مصر والشرق ، كما نعلن ثقتنا باطراد سيرها فى طريق النشر العلمى الحديث ، ومساعدة المؤلفين والعلماء على تحقيق رغباتهم ، وتقديم أعمالهم إلى ناشرين أمناء ، يتقنون خدمة العلم ، ويظفرون ١٥ بثناء العلماء .؟

مصطفى السقا   ابراهيم الابيارى   عبد الحفيظ شلبى

القاهرة فى أول يونيه سنة ١٩٣٨ م .



بسم الله الرحمن الرحيم

[مقـــدمة]

[١] قال أبو عبد الله محمد بن عَبْدوسَ الجَهْشِيارِىّ فى كتابه المصنَّف فى أخبار الوزراء والكتّاب :

وضع الكتابة

رُوِى عن كَعْب الأحْبار أنه قال :

أوّلُ من وَضَع الكتابَ السّريانى وسائرَ الكتب آدمُ عليه السلام قبل موته بثَلاثِ مِئَةِ سنة ، ثم كتبها فى الطّين ، ثم طبَخه . فلما انقضى ما كان أصابَ الأرضَ من الغَرق ، وَجَد كلُّ قوم كتابَهم فكتبوه[١] ؛ فكان إسماعيل وَجَد كتابَ العرب .

ورُوِى : أنّ إدريس أوّلُ من خطّ بالقلم بعد آدم .

وضع الكتابة العربية

ورُوى : أنّ أوّل من وَضع الكتابَ بالعربيّة إسماعيلُ بن إبراهيم : وكان أوّلَ من نطق بالعربيّة ، فوَضع الكتاب على لفظه ومنطقه .

ورُوِى فى خَبر آخر : أنّ أوّلَ من كتب بالعربيّة ثلاثةُ رَهْط[٢] من بَوْلان[٣] ، يقال لأحدهم[٤] مُرامِر بن مُرّة[٥] ، وأسلم بن سِدْرة ، وعامر ابن جَدَرة[٦] .

(١) فى العقد الفريد (ج ٢ ص ٣ طبع المطبعة الأزهرية) : « فكتبوا به » .

(٢) فى العقد الفريد « نفر » ، وهما بمعنى .

(٣) كذا فى لسان العرب وشرح القاموس (مادة بول) وصبح الأعشى (ج ١ ص ٤٢١) . وفى الأصل : « تولان » بالتاء الفوقية ، وهو تصحيف . وفى العقد الفريد والمزهر : « من طيّئ » مكان « من بولان » ، وبولان : من طيّئ ، وهو بولان بن عمرو بن الغوث بن طيّئ .

(٤) فى العقد الفريد : « وهم » ، وهذه الرواية أحق بالسياق .

(٥) كذا ذكره شرقىّ بن القطامى . والذى ذكره ابن النحاس وغيره عن المدائنى : أنه مرار بن مروة ، وأنه من أهل الأنبار ؛ ويقال : إنه من أهل الحيرة . (راجع لسان العرب مادة مرر) .

(٦) فى الأصل : « حدرة » بالحاء المهملة ، وهو تصحيف . (راجع شرح القاموس مادة جدر)

وروى أيضاً : أنّ أوّلَ من كتب بالعربيــة من العرب حَرْبُ ابن أمية بن عَبْد شمس .

تصنيف طبقات الناس والكتاب

وكان أوّل من [رتّب][1] طبقات الناس ، وصنّف طبقات الكتّاب ، وبيّن منازلَهم جَمْشِيدُ[2] بن أونجهان[3] .

تدوين الدواوين

وكان لُهْرَاسب[4] بن قَنُوخا[5] بن كيمَنِش[6] أوّلَ من دوّن الدواوين ، وحضّر الأعمال والحُسْبانات . وانتخب الجنودَ ، وجدّ في عمارة الأَرَضين ، وجباية الخَراج لأرزاق الجَيْش ، وبَنَى مدينة بَلْخ .

[٢]

كتب الأكاسرة إلى عمالهم

أخبرنى عبد الواحد بن محمّد أنه سمع محمّد بن واضح يقول :

رأيت بأصْبَهان كُتُباً قديمة للأكاسرة إلى عُمّالهم فى الخراج والعمارة ، صُدورها ، إذا كان الكتاب إلى جماعة : خُلِّدْتُم ؛ وإذا كان إلى واحد : خُلِّدْتَ . ثم يذكر بعد ذلك ما يريد .

ما كان يكتب على خواتيم الأكاسرة

وكان للأكاسرة أربعُ خواتيم[7] ، فكان على خاتم الحَرْب والشُّرَط : الأناة ؛ وعلى خاتم الخراج والعمارة : التأييد ؛ وعلى خاتم البريد : الوحاء[8] ؛ وعلى خاتم المظالم : العدل .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) كذا فى مفاتيح العلوم للخوارزمى (ص ٦٣ طبع مصر) ، ومروج الذهب للمسعودى . وفى فهرست ابن النديم : «جم الشيد» . وجم : اسمه ، وشيد : لقبه ، ومعناها النير . وفى الأصل : « جمّ شيذ » .

(٣) كذا فى فهرست ابن النديم طبع أوربا . وفى مروج الذهب : « آنوجهان » . وفى الأصل : « بجهار » وهو تحريف .

(٤) كذا فى الطبرى ، وفهرست ابن النديم ، ومعجم البلدان فى الكلام على « بلخ » ، ومروج الذهب ، ومفاتيح العلوم ، والشاهنامة طبع دار الكتب . وفى الأصل : « لهراسيب » .

(٥) كذا فى الشاهنامة . وفى الأصل : « كناة خان» ولعلها محرفة عن « كيافنوخا» .

(٦) كذا فى الشاهنامة . وفى مروج الذهب : « كيمس » . وفى الأصل « كيموس » .

(٧) الذى فى كتب اللغة أن « خواتيم » جمع خاتام .

(٨) الوحاء : العجلة والإسراع .

الدواوين عند الفرس

وكان لملوك فارس ديوانان ، أحدهما : ديوانُ الخراج ؛ والآخر ديوان النفقات. فكان كلّ ما يرِد فإلى ديوان الخراج ، وكل ما يُنفق ويَخرج فى جَيْش أو غيره فنى [1] ديوان النَّفَقات .

تمييز الطبقات بلباسها

وكان من رَسْم مُلوك الفُرْس أن يَلْبَس أهلُ كلّ طَبقة ، مِمّن فى ٥ خِدْمتهم ، لِبْسَةً [2] لا يَلْبسها أحدٌ ممّن فى غير تلك الطَّبقة ؛ فإذا وصل الرجلُ إلى الملك عَرَف بلِبْسته صِناعتَه ، والطبقةَ التى هو فيها .

فكان الكتّاب جميعاً فى الحَضَر يَلْبَسون لِبْسَتهم المَعهودة ، فإذا سافر الملك تزيّوا [بزىّ] [3] المُقاتِلة .

الكتاب عند الفرس

وكانت ملوك فارس جميعاً تُغلّظ على من زوّر ، أو نقش خاتَماً على ١٠ خاتَم المَلِك ، وتُلحقه من العقوبة بأهل الجنايات العظائم .

وكانت ملوكُ فارس تُسمّى كتّابَ الرّسائل تراجمةَ للملوك ، وكانوا يقولون لهم: لا تَحْملكم الرغبةُ فى تَخْفيف الكلام على حَذْف معانيه ، وتَرْك تَرْتيبه والإبلاغ [4] فيه ، وتَوْهين حُجَجه .

[٣]

وكان الرّسمُ جاريًا فى أيّام الفُرْس، أن يجتمع أحداثُ [5] الكتّاب ١٥ ومَنْ نَشأ منهم بباب الملك ، مُتعرّضين للأعمال ، فيأمُر الملكُ رُؤساءَ كتّابه بامتحانهم، والتَّفْتيش عن عقولهم ، فمن رُضِى منهم عُرِض عليه اسمُه ، وأمر بملازمة الباب، ليُستعان به ، ثم أمَرَ الملكُ بضمّهم إلى العمّال ، وتَصْريفهم فى الأعمال ، وتنقّلهم على قَدْر آثارهم وكفاياتهم من حال إلى حال ، حتى يَنْتهى بكلّ واحد منهم إلى ما يستحقّه من المنزلة . ولم يكن يتهيّأ لأحدٍ ،

٢٠ (١) كذا فى الأصل ، والمناسب للسياق : « فنى » .
(٢) اللبسة : ضرب من الثياب ، وحال من حالات اللبس .
(٣) مكان هذه الكلمة بياض فى الأصل .
(٤) كذا فى الأصل . ولعله يريد «بترك الإبلاغ» الإخلال بالمعانى .
(٥) الأحداث : جمع حدث ، وهو الصغير السن .

ممن عَرفه الملكُ وعُرِض عليه اسمُه ، أن يتصرّف مع أحد من الناس إلا عن أمْر الملك وإذنه . وكانت الملوك تقدّم الكتّاب، وتعرف فضلَ صناعة الكتابة ، وتُحْظِى[1] أهلها ، لما يجْمعونه من فَضْل الرأى إلى الصّناعة : وتقول : هم نِظَام الأمور ، وكمال المُلْك . وبَهاء السلطان ، وهم الألْسِنة الناطقة عن الملوك ، وخُزّان أموالهم ، وأُمناؤهم على رعيّتهم وبلادهم . ٥

وكان ملوك فارس إذا أنفذوا جيشاً أنفذوا معه وَجْهاً[2] من وُجوه كتّابهم ، وأمروا صاحبَ الجيش ألاّ يَحُل ولا يَرْتحل إلا برأيه ، يبتغون بذلك فضلَ رأى الكاتب وحَزْمَه . ثم يقول الملكُ للكاتب المندوب للنفوذ معه : قد علمتَ أن الأساورةَ[3] سباعُ الإنس، وأنه لاعُقوبة عليهم إلا فى خَلْع يدٍ من طاعة ، أو فَشَل عن لقاء ، أو هَرَب عن عدوّ ، ١٠ وما سوى ذلك فلا لَوْمَ عليهم فيه ، وعليك أعتمد فى تدْبير هذا الجيش . [٤] فَيَنْفذ الكاتب مدبّراً له ، فإذا احتاج إلى مُكاتبة بإعذار أو إنذار ، أو إخبار أو استخبار ، كتب فيه عن صاحب الجيش .

نظام الجباية قبل أنوشروان وفى أيامه

وكان ملوك فارس ، قبل أنوشِرْوان ، يُقاسِمون الناسَ على ثمارهم وغلاّتهم : فكان أكثرُ ما يأخذونه الثلث ، وأقلّه السدس ، ويأخذون ١٥ فيما بين ذلك على قَدْر الشِّرْب[4] والرَّبْع[5] . فأمر قُباذ بن فَيْروز بمساحة الأرض ، وعَدد النخل والشجر ، وإحصاء الجماجم ، وعزَم على وضع وضائع[6] الخراج ، فهلَك قبل تمام ذلك .

(١) أحظاه : جعله ذا حظوة .
٢٠ (٢) الوجه : العظيم المنزلة ؛ والجمع : وجوه .
(٣) الأساورة : جمع الأسوار (بضم الهمزة وكسرها) وهو الفارس ، والعجم لا تضع اسم أسوار إلا على الشجاع البطل المشهور . (انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى) .
(٤) الشرب : النصيب من الماء .
(٥) الربع : المحلة والمنزل .
٢٥ (٦) الوضائع : جمع وضيعة ، وهى ما يأخذه السلطان من الخراج والعشور .

ولما ملك أنوشروان استتم المساحة والعدد وأحصى الجماجم ، ثم جلس مجلساً عامًّا، وأمر كُتّابه بإحصاء مُحَل ذلك ، ففعلوا ، فخاطب الناسَ بما رآه من ذلك ، من وَضْع الخراج على جُرْبان[1] ما مُسح من الأرض ، وعلى ماعدَّه من الشجر والنخل ، وما أحصى من الناس ، وأن يُجْبَى ذلك في ثلاثة أنْجم[2] ، في كلّ أربعة أشهر الثلث ، واستشارهم ، فلم يُشِر أحدٌ منهم بشيء ؛ فأعاد القولَ ثلاثَ مرات والناسُ صُموت . فقام رجل من عُرْض الناس ، فقال : أيها الملك ، أتضع الخراج الباقي على الإنسان الفاني ، وعلى كَبد تموت ، وعلى زَرْع يجِفّ ، ونهر يَنْضب ، وعَيْن تغور[3] ؟ فقال كِسْرى : ياذا الكلْفة[4] المشئوم ، من أيّ طبقات الناس أنتَ ؟ فقال : أنا رجل من الكتّاب ؛ فقال كِسْرى لكُتّابه : اضربوه بالدُّوِيّ[5] حتى يموت . فضربه الكتّابُ تبرِّيًا[6] إلى كِسرى من رأيه ، حتى مات ، وقالوا : نحن راضُون بما صنع الملك . فصُنِّفت الوضائع على أصناف الغلاّت والنخل والشجر .

[٥]

من عهد سابور إلى ابنه

ووجدتُ في عهدٍ لسابور بن أردشير فصلاً يخاطب فيه ابنه، يقول :

وزيرُك يكون مقبولَ القول عندك ، قويّ المنزلة لديك ، يمنعه مكانُه منك ، وما يثق به من لطافة منزلته عندك من الخنوع لأحد ، أو الضراعة إلى أحد ، أو المداهنة لأحد في شيء مما تحت يديه . لتبعثَه الثقةُ بك على محض النصيحة لك ، والمنابذة لمن أراد غشّك ، وانتقاصَك حقَّك ؛

(١) الجربان : جمع جريب ، وهو (في الأصل) الوادي ، ثم استعير للقطعة المميزة من الأرض ، ويختلف مقدارها بحسب اصطلاح أهل الأقاليم . ويقدر عند بعضهم عشرة آلاف ذراع . ونقل عن قدامة الكاتب : أن الجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع. وفي الأصل : «حربان» بالحاء المهملة. وظاهر أنها مصحفة عما أثبتناه.

(٢) أنجم : جمع نجم ، وهو القسط .

(٣) يريد «بالعين» : عين الماء . وغارت العين : ذهب ماؤها .

(٤) الكلفة : حمرة كدرة ، أو سواد أشرب حمرة .

(٥) الدوى : جمع دواة ، وهي المحبرة .

(٦) تبريا : يريد « تبرؤا » .

وإن أَوْرد عليك رأيًا يخالفك، ولا يوافق الصوابَ عندك،فلا تَجْبهه جَبْهَ الظَّنين[١]، ولا تردّه عليه بالتجهّم، فيَفُتَّ فى عضده ذلك، ويَقْبِضَه عن إبثاثك[٢] كلَّ رأى يلوح صوابُه؛ بل أَقْبَل ما رضيتَ من رأيه، وعرّفه ما تخوّفت من ضرر الرأى الذى انصرفت عنـــه، لينتفعوا بأدبك فيما يَسْتقبلون النظَرَ فيه. وأحذر كلَّ الحذر من أن تنزل بهذه المنزلة سواه، ممن يُطِيف بك من خاصَّتك وَخَدمك، وأن تُسَهِّل لأحدٍ منهم السبيلَ إلى الانبساط بالنّطق عندك، والإفاضة فى أمور رعيّتك ومملـكتك، فإنه لا يُوثق بصحّة آرائهم، ولا يُؤْمن الانتشارُ فيما أُفْشِى مِنَ السرّ إليهم.

ومن هذا العهد فصلٌ، قال فيه:

واعلم أنَّ قِوام أمرك بدُرور الخراج، ودُرُوره[٣] بعمارة البلاد، وبلوغُ الغاية فى ذلك يكون باستصلاح أهله، بالعدل عليهم والمعونة[٤] لهم؛ فإنَّ بعض الأمور لبعض سَبَبٌ، وعوامّ الناس لخواصّهم عُدّة، وبكلّ صِنْف منهم إلى الآخر حاجة: فاختَرْ لذلك أفضلَ من تَقْدر عليه من كُتّابك. وليكونوا من أهل البَصَر والعَفاف والكفاية، وأَسْند إلى كلّ أمرئ منهم شِقْصًا[٥] يَضْطلع به، ويمكنه الفراغُ منه. فإن أطّلعتَ على أنّ أحداً منهم خان أو تعدّى، فنَكِّلْ به، وبالغ فى عُقوبته. وأحْذَر أن تستعمل عَلَى الأرض الكثير خراجُها إلا البعيدَ الصوتِ[٦]، العظيمَ شَرَف المنزلة. ولا تُوَلِّيَنّ أحداً من قادة جُنْدك، الذين أتخذتهم عُدّة للحرب،

[٦]

(١) الظنين: المتهم، أو المعادى لسوء ظنه وسوء الظن به.
(٢) أبثه الأمر وبثه إياه: أطلعه عليه.
(٣) فى الأصل: «ودروه»، وهو تحريف.
(٤) كذا فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (ج ٤ ص ١٣٦ طبع المطبعة اليمنية). وفى الأصل: «المناونة». والذى أثبتناه أقرب إلى السياق.
(٥) الشقص (بالكسر): النصيب والسهم.
(٦) الصوت: الصيت والجاه.

وجُنّة من الأعداء، خَراجاً ، فلعلّك أن تَهْجُم مِنْ بعضهم على خيانة للأموال، وتَضْييع للعمل ؛ فإن سوّغتَه المالَ ، وأغضيتَ له على التضييع، كان ذلك هَلا كا للمال ، و إضراراً بالرعيّة ، وداعية إلى فَساد غيره ؛ و إن أنت كافأته على فعله استفسدتَه، وأذهبت بهاءه ، وأضْغَنْتَ صدره ؛ وهذا أمر تَوقّيه حَزْم ، والإقدام[1] عليه خُرْق ، والتقصير فيه عجز . ثم أعلمْ أنه إذا تَطعّم[2] جَمْعَ الأموال من غير الجهة التي تعوّد أخذَها منها، اشتدّ رُكونه إلى الدنيا ، وصار طَلَبُه الأموالَ من غير الوجه الذي قُرِّب به ، وأُعْطي عليه . وليس شيء أفسد لسائر العمّال والكُتّاب ، ولا أدعى إلى خراب أماناتهم ، وهَلاكِ ما تحت أيديهم ، من جَهالة الملك ، وَقِلّة معرفتـه [٧] بحالاتهم، وتركه مكافأةَ المُحسِن بإحسانه ، والمسيء بإساءته : فأَكْثِر الفحصَ عن عمّال الخراج وسِيَرِهم وآثارِهِمْ ، واخْتَرْ لذلك الأمينَ المَوْثوق بهم . وأعلم أنّ مِن أهل الخراج من يُلَجِّيء[3] بعضَ أرضه وضياعه إلى خاصّة المَلِك وبطانته، لأحد أمْرين ، أنت حَرِيّ بكراهتهما[4] : إمّا لامتناعٍ من جَوْر العمّال[5]، وظُلْمِ الوُلاة ، فتلك منزلة يظهر بها سوء أثر العمّال ، وضعف المَلِك ، و إخلاله بما تحت يده ؛ و إما لدَفْع مايلزمهم من الحقّ والكَسْر[6] له ، فهذه خَلّة يفسُد بها أدبُ الرعيّة ، وتنتقص المُلْكَ[7] : فاحذر ذلك ، وعاقب المُلجِئين والملجَأَ إليهم .

فصل لأردشير

وفصل من كتاب لأرْدشير يخاطب به وزراءه :

---

(١) كذا في شرح نهج البلاغة . وفي الأصل « الكلام » .

(٢) تطعم الشيء : ذاقه فوجد طعمه .

(٣) قال الخوارزمي في مفاتيح العلوم : « التلجئة : أن يلجيء الضعيف ضيعة إلى قوي ليحامي عنها ، وقد يلجيء القوي الضيعة » .

(٤) في الأصل : « بكراهتها » . والصحيح ما أثبتناه . (انظر شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ١٣٦) .

(٥) كذا في شرح نهج البلاغة . وفي الأصل . « السلطان » .

(٦) كذا في الأصل . والمنكسر من الأموال : ما لا يطمع في استخراجه، لغياب أهله أو موتهم أو نحو ذلك (عن مفاتيح العلوم) . وفي شرح نهج البلاغة : « التيسر » . يريد : انتظار الميسرة .

(٧) في شرح نهج البلاغة : « وهذه خلة تفسد بها آداب الرعية وتنتقص بها أموال الملك » .

أعلموا أنكم إن هممتم ألاّ تستعينوا إلا بمن تكاملت فيه الخصالُ الرّضيّة ، وأحرز المذاهبَ المحمودة ، فقد رُمْتم شيئاً عسيراً غيرَ موجود . فاكتفوا من دِين المرء وورَعِه، بأنْ يكون للكبائر والفواحش مُجتنباً ، ومن الإصرار على العسْف والظلم مُستوحشاً ؛ ومن أمانته وعفافه . أن يكون عمّا يَعرِض له من طَمعٍ ، وأمرٍ فى دخوله ظاهرُ نقص أو ضرر ، متنزّها ؛ ٥
ومن غَنائه ونَفاذه[١] أن يكون بالعمل الذى تستعينون به فيه مُضْطلِعاً ، وأن لا يُضيّع لكم فيما يَلِي من أموركم حقّا وأعلموا أن لكم أعمالاً يَكفيكموها مَنْ دونكم، وأعمالاً لا يَضْطلع بها سِواكم، فاعرفوا حدودَ ذلك، ولا تتكلّفوا ما يَكفيكموه مَنْ تحت أيديكم ، ولا تُكلّفوا ما يجب عليكم [٨]
النظرُ فيه مَنْ سِـــواكم ، فإنْ حدَث لكم فراغٌ بعد قضائكم ما عليكم ، ١٠
فاستعينوا بالتودّع[٢] والراحة على ساعات الشغل .

من كشتاسب لكتابه

وكان كُشْتاسب[٣] يقول للكتّاب :

ألزَموا العفاف ، وأدّوا الأمانة فى كلّ ما يُفوّض إليكم ، وأجمَعوا على غرائزكم وعُقولكم سماعَ الأدب ، واستعملوا ما استفدتم من الأدب بما طبعت عليه عقولكم ، وليكنْ اجتباؤكم بالقسط والمَعْدلة ، ولا تُزيّنوا لنا ١٥
ما لا تَليق بنا الأحدوثةُ به ، والإيثار له .

من خطبة لأبرويز على وزرائه

ولما ملك أبْرَويز بن هُرْمز جمع رَعيّته وخطب عليهم[٤] خُطْبةً ، قال فى فصل منها يخاطب وزيرَه :

أكتُم السرَّ ، واصدُق الحديثَ ، واجتهد فى النصيحة ، واحترس

(١) النفاذ فى الأمور : المضى فيها وعدم التراخى فى أدائها . ٢٠
(٢) التودع : الترفه والسكون .
(٣) كذا فى الطبرى والشاهنامة وإحدى روايتى مروج الذهب للمسعودى . وروى فى مروج الذهب أيضاً : «كستاسب» . وفى مفاتيح العلوم : «كيشتاسب» . وفى الأصل : «بستاسب» .
(٤) يقال : خطب القوم وخطب عليهم . ٢٥

بالحذر ؛ فعلىّ ألاّ أعجّلَ عليك حتى أستأنىَ ، ولا أقبل عليك حتى أستيقن ، ولا أطمع فيك فأغتالَك .

مثل من عدل أنو شروان

وحُكى أنّ الجَوْر كَثُر فى أيام الملك أنُوشِروان ، فقال له مُوبَذانَ مُوبَذُ[1] :

٥ أيها الملك ، إنى سمعتُ فقهاءنا يقولون : إنه متى لم يَغْمُر العدلُ الجَوْرَ فى بلدة ، أبْتُلِى أهلها بعدوّ يغزوهم ، وخِيف تتابعُ الآفات عليهم ؛ وقد خِفْنا ذلك بشىء قد فشا من جَوْر أشبابك[2] .

فنظر أنوشِروانُ فى ذلك ، فاستقرّ عنده أن ظلماً وجوراً قد جرى، فصلب ثمانين رجلاً منهم ، من الكُتّاب خمسون رجلاً ، ومن العمّال ١٠ والأمناء ثلاثون رجلا .

[٩]

الأكاسرة وأهل الخراج

وكانت الأكاسرة بعد أنوشِروانَ تقول لأهل الخَراج :

مَنْ كَرِه منكم الأداء إلى العمّال ، فهذا بيتُ مالِنا فأدُّوا إليه . فلم يكن عاملٌ يبسطُ يدَه إلى ظلم أحدٍ، خَوْفاً من عُدول الرعيّة إلى بيت المال بأداء الخراج ، فيُسْتدلّ بذلك على مَذْهبه .

منزلة الكتاب

١٥ ولم يكن يركب الهَماليجَ[3] فى أيام الفُرْس إلا المَلِك والكاتب والقاضى .

أرسطاطاليس والأسكندر

وكان أرِسْطاطاليس أدَّب الإسكندرَ ، فلما نشأ الإسكندر وعلا ، وعَرَف مِنْ أرِسطاطاليس ما عَرَفه من الحكمة ، كان شِبْه الوزير له ، وكان يعتمد عليه فى الرأى والمشورة . فكتب إليه يُخبره أنه قد كثُر فى

٢٠ (١) موبذ : كلمة فارسية : تعنى قاضى المجوس ، وموبذان موبذ : قاضى القضاة . (انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى) .

(٢) يريد : عمالك ومن يلون تنفيذ أوامرك .

(٣) الهماليج : البراذين ، فارسى معرب ؛ الواحد : هملاج .

خواصّه وعسكره قومٌ ليس يأمَنُهم على نفسه ، لِمَا يرى من بُعْد هِممهم وشجاعتهم ، وشُذوذ آلتهم[١] ، وليس يرى لهم عقولاً تَفِي بهذه الفضائل التى فيهم بقدر هممهم .

فكتب إليه أرسطاطاليس :

فهِمْتُ ما ذكرتَ عن القوم الذين ذكرتَ . فأما هِمَمُهم ، فمن الوفاء بُعْدُ الهمّة ؛ وأما ما ذكرتَ من شجاعتهم مع نقص عقولهم ، فمن كانت ٥ هذه حالُه فرفِّهْه فى المعيشة ، وأخصُصه بحِسان النساء ، فإنّ رفاهة العيش تُوهِى العزْم ، وإنّ حُبّ النّساء يحبّب السلامةَ ، ويُباعد من ركوب المُخاطرة ؛ وليكن خُلقك حَسَناً ، تستدع به صَفْوَ النّيّات ، وإخلاصَ المَقالات ؛ ولا تتناولْ من لذيذ العيش ما لا يمكن أوساطَ أصحابِك مثلُه ، فليس مع الاستئثار محبّة ، ولا مع المؤاساة بِغْضة . ١٠

[١٠] وصية أبرويز لابنه شيرويه

وأوْصى أبرويزُ ابنَه شيرويهِ وصيّة طويلة ، قال فى فَصْل منها :

وليكن مَنْ تختاره لوزارتك امرأً كان مُتّضعاً فرفعتَه ، وذا شرَف كان مُهتَضَماً فاصطنعتَه ؛ ولا تجعلْه امرأً أصبْتَه بعُقوبة فاتّضع عنها ، ولا امرأً أطاعك بعد ما أذللته ، ولا أحداً يقع فى خَلَده أنّ إزالة سُلطانك خيرٌ له ، وأدْعى إلى ثُبوته ؛ وإيّاك أن تستعملَ ضَرَعاً[٢] غُمْراً[٣] ، ولا كبيراً ١٥ مُدْبِراً ، قد أخذ الدهرُ من عقله ، كما أخذت السنُّ من جسمه .

وصية للفرس

وكانت الفُرس تقول :

للوَزير على المَلِك ، وللكاتب على الصاحب ، ثلاثُ خِصال : رَفْعُ الحِجاب عنه ، واتّهام الوُشاة عليه ، وإفشاء السرّ إليه .

---

(١) الآلة : الحال .

(٢) الضرع : الضعيف والجبان ؛ الواحد والجمع فيه سواء .

(٣) الغمر (مثلثة الغين) : من لم يجرب الأمور ، والجاهل الأبله .

وصايا الهند

وفى كتاب من كُتُب الهند :

إذا كان الوَزِير يُساوِى الملكَ فى المال والهيبة والطاعة من الناس، فليَصْرعه الملكُ ، فإنْ لم يفعل ، فليَعلم أنّه المَصْروع (١) .

ومما أَستَحْسِنه من شدّة التحرّز ماحُكى فى كتاب من كتب الهند :

٥ أنّه أُهدِى إلى بعض ملوكهم حُلِىّ وكُسْوة ، وبحَضْرته امرأتان من نسائه ، ووزيرٌ من وزرائه . فخيَّر إحدى امرأتيه بين اللباس والحِلْية ؛ فنظرت المرأةُ إلى الوَزِير كالمُستشيرة له ، فغَمزها بإحدى عينَيه على أَخْذ الكُسوة ، ولَحَظه الملكُ ، فعَدَلتْ عمّا أشار به من الكسوة ، واختارت الحُلِىّ ، لئلاّ يفطُن الملك للغَمْزة ، ومكث الوزيرُ أربعين سنةً كاسرًا

١٠ عينَه ، ليَظُنّ الملكُ أنّها عادةٌ وخِلْقة .

[١١]

سابور ومشورة وزيرين له

وأستشار سابور ذو الأكتاف وزيرَيْن كانا له ، فى أَمْر من أُموره ، فقال له أحدُهما :

لا ينبغى للملك أن يَستشير منّا أحداً إلا خالياً ، فإنّه أمْوتُ للسرّ ، وأحْزم فى الرأى ، وأدْعى إلى السلامة ، وأعفَى لبعضنا من غائلة بعض ؛

١٥ لأن الواحد رهنٌ بما أُفْضِى إليه ، وهو أَحْرى ألا يُظهِرَه ، رهبةً للملك ، ورغبةً إليه ، وإذا كان عند اثنين فظهَر ، دخلت على الملك الشبهةُ ، واتسعت على الرجلَيْن المَعاريض ؛ فإنْ عاقَبهما عاقبَ اثنين بذَنْبِ واحد ، وإن اتّهمهما اتّهم بريئاً بجناية مُجْرم ؛ وإنْ عفا عَنهما،عفا عن واحدٍ لاذنبَ له ، وعن الآخر والحجّةُ عليه .

أول من قال «أما بعد» .

٢٠ ورُوِى أنّ داوُدَ أولُ من قال : « أما بعد » ، وهو فصل الخطاب .

وروى أنّ أولَ من قال : أما [بعد] (٢) قُسّ بن ساعدة .

(١) ورد نحو من هذه العبارة فى كتاب كليلة ودمنة. وهو : «وقد كان يقال : إذا عرف الملك من الرجل أنه قد ساماه فى المنزلة والحال، فليصرعه، فإن لم يفعل به ذلك كان هو المصروع » .

٢٥ (٢) زيادة يقتضيها السياق .

أسماء من ثبت على كتابة رسول الله صلى الله عليه وسلم

على وعثمان

عليّ بنُ أبي طالب وعثمانُ بن عفّان كانا يَكتبان الوَحْي ، فإنْ غابا كتبه أُبَيّ بن كَعْب ، وزيدُ بن ثابت[1] .

خالد ومعاوية

وكان خالد بن سَعِيد بن العاص ومُعاوية بن أبي سفيان يكتبان بين يَدَيه في حوائجه . ٥

المغيرة والحصين

وكان المُغيرة بن شُعْبة ، والحُصَين بن نُمَير[2] يكتبان مابين الناس[3] .

ابن الأرقم والعلاء [١٢]

وكان عبدالله بن الأرْقم بن عَبْد يَغوث والعَلاء بن عُقْبة يكتُبان بين القوم في قبائلهم ومياههم ، وفي دُور الأنْصار بين الرّجال والنساء[4] .

زيد ووصاة الرسول له

وكان زَيْدبن ثابت يكتُب إلى المُلوك مع ما كان يكتبه من الوَحْي . ١٠
ورُوِي عنه أنه قال : كنتُ أكتُب لرسول الله يومًا ، فقام لحاجة فقال لي : ضَع القلمَ على أُذُنك ، فإنه أذْكَرُ للمُمْلِي ، وأقْضى للحاجة .

معيقيب

ورُوِي أن مُعَيْقيب[5] بن أبي فاطمة ، حليفَ بني أسد، كان يكتب مَغانِمَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

حنظلة ومكاتبته وموته

وكان حَنظلة بن الرّبيع بن المُرَقّع[6] بن صَيْفِيّ ، ابنُ أخي أكْثَمَ ١٥

---

(١) وزاد صاحب العقد : « فإن لم يشهد واحد منهما كتب غيرهما » .
(٢) كذا في العقد الفريد والطبرى . وفي الأصل : « الحسن بن نمر » وهو تحريف .
(٣) وزاد ابن عبد ربه : « وكانا ينوبان عن خالد ومعاوية إذا لم يحضرا » .
(٤) وزاد صاحب العقد : « وكان ربما كتب عبد الله بن الأرقم إلى الملوك عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان حذيفة بن اليمان يكتب خرص ثمار الحجاز » . ٢٠
(٥) في الأصل : « معقيب » وهو محرف عما أثبتناه ، (راجع العقد ، والطبرى والإصابة ، والاستيعاب ، وأسد الغابة) .
(٦) في الأصل : « الموقع » وهو تحريف (راجع القاموس وشرحه مادة رقع) .

ابن صَيْفى الأُسَيِّدِىّ ، خليفةَ كلِّ كاتب من كتّاب النبىّ إذا غاب عن عمله ، فغلب عليه اسمُ الكاتب . وكان يضع عنده خاتَمه ، وقال له : اْلزَمْنى ، وأذْكِرْنى بكلّ شىء لثالثةٍ . فكان لا يأتى على مالٍ ولا طعام ثلاثةُ أيام إلاّ أذْكره ، فلا يَبيتُ رسولُ الله وعنده شىء منه .

٥ ومرّ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بامرأة مقتولة يومَ فتح مكة ، فقال لحَنْظلة : الْحَقْ خالداً فقلْ له : لا تقتلنّ ذُرّية ولا عَسِيفاً[(١)] . ومات حَنْظلةُ بمدينة الرُّها[(٢)] ، فقالت فيه امرأتُه :

يا عجبَ الدهرِ لمَحْزُونةٍ[(٣)] تَبْكى على ذى شَيْبة شاحِبِ
إنْ تَسْألينى اليومَ ما شفّنى أُخْبِرْكِ قولاً ليس بالكاذبِ
١٠ أنّ سوادَ الرأس أوْدَى به وَجْدِى على حَنْظلةَ الكاتبِ

ابن أبى سرح وشىء عنه

وكان عبدُ الله بن سَعْد بن أبى سَرْح يكتُب له ، ثمّ ارتدّ ولَحِق بالمشركين، فقال : إن محمداً ليكتُب بما شئتُ . فسمع بذلك رجلٌ من الأنصار ، فحلَف بالله إنْ أمكنهُ اللهُ منه ليضربنّه ضربةً[(٤)] بالسيف . فلمّا كان يومُ [١٣] فتح مكة جاء به عثمانُ ، وكان بينهما رَضاع ، فقال يا رسول الله ، هذا ١٥ عبدُ الله قد أقبل تائباً . والأنصارىّ يُطِيف[(٥)] به ومعه سيفُه ، فأعاد عليه عثمانُ القولَ ، فمدّ رسولُ الله يدَه فبايَعه . وقال للأنصارىّ : لقد

---

(١) العسيف : الأجير ، أو المملوك المستهان به .
٢٠ (٢) وكان موته فى إمارة معاوية .
(٣) فى العقد الفريد : « لمحبوبة » ورواية هذا الشطر فى الاستيعاب :
* تعجبت دعد لمحزونة *
(٤) فى العقد الفريد : «ضربا» .
(٥) يطيف به : يحيط .

تَلَوَّمْتُك(١) أن تُوفِيَ بنَذْرك ؛ فقال : هلاَّ أَوْمَضتَ إلىّ ؟ فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : لا ينبغى لى أن أُومِض .

بدء الكتب بالبسملة

ورُوِى عن الشَّعْبيّ :

أنّ رسولَ الله كَتَب أربعةَ كُتُب ، فى الأول : باُسمك اللهم ، فنزلت « هود » وفيها : « بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا » . وكتب فى الثانى : بسم الله ، فنزلت بنو أسرائيل [وفيها](٢) : « قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ » . فكتب فى الثالث : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ » . ثم نزلت سورة النمل وفيها : « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ » ، فكتب فى الرابع : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ » .

(١) تلوم : انتظر وتمكث .
(٢) زيادة يقتضيها السياق .

أيام أبي بكر

رضي الله عنه

كتابه وكان يَكْتُب لأَبي بكر عثمانُ بنُ عفّان وزَيْدُ بنُ ثابت[١] .
ورُوِي أنّ عبدَ الله بن الأرْقم كَتَب له ، وأنّ حَنْظلة بن الرّبيع كتب
٥ له أيضاً .

---

(١) يروى : أنه لما تولى أبو بكر الخلافة دعا زيداً وقال له : أنت شاب عاقل لا نتهمك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنت تكتب الوحي ، فتتبع القرآن فاجمعه . وفيه يقول حسان :

فمن للقوافي بعد حسان وابنه ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت

أيام عمر بن الخطاب

رضى الله عنه

كتابه

وكان يكتب لعُمَرَ زيدُ بن ثابت . وكتب له عبدُ الله بن الأرقم . وكتب له على ديوان الكوفة أبو جَبيرة بن الضحّاك الأنصارى[١] .

[١٤] ٥

وكان عُمَر يقول لكتّابه ، ويكتُب إلى عُمّاله :

نصيحته لكتابه

إنّ القوّة عَلَى العمل ألاَّ تُؤَخِّروا عملَ اليوم لغدٍ ، فإنكم إن فعلْتُم ذلك تَداكَت[٢] عليكم الأعمال ، فلا تدْرُون بأيّها تبتدون ، وأيّها تأخذون .

سبب تدوينه الدواوين

وكان عُمَر أوّل من دوّن الدّواوين من العرب فى الإسلام ، وكان السببُ فى ذلك ، أنّ أبا هُرَيْرة قَدِم عليه من البَحْرين ومعه مالٌ ، فلَقِى ١٠ عُمَرَ ، فقال له عمرُ : ماذا جِئْتَ به ؟ قال : خمس مئة ألف دِرْهم : فقال عمرُ : أتدرى ما تقول ! قال : نعم ، مئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم . فقال عمر : أطَيّبٌ[٣] هو ؟ قال : لاأدرى[٤] . فصعد عمرُ المِنْبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال:

---

(١) وقد بقى أبو جبيرة على ديوان الكوفة إلى أن ولى عبيدالله بن زياد، فعزله وولى مكانه حبيب بن سعد القيسى . ١٥
وزاد ابن عبد ربه : « وعبد الله بن خلف الخزاعى أبو طلحة الطلحات على ديوان البصرة » .

(٢) تداكت: تكاثرت ازدحمت . وفى حديث على: ثم تداككتم على تداكك الإبل الهيم على حياضها : أى ازدحمتم . ٢٠

(٣) يريد : أحلال هو ؟

(٤) فى شرح نهج البلاغة (ج ١٣ ص ١١٣) : «أطيب هو ؟ ويحك ! قلت : نعم» . وفى (ص ١٢١) : « أطيب هو ؟ قلت : نعم ، لا أعلم إلا ذلك » . وهاتان الروايتان أوفق للسياق .

أيها النّاس ، قد جاءنا مالٌ كثير ، فإن شئتم كِلْناه كَيْلاً ، وإن شئتم أن نَعُدَّ عدّاً[1] . فقام إليه رجل[2] فقال : يا أمير المؤمنين ، قد رأيتُ هؤلاء الأعاجمَ يُدَوِّنون ديواناً لهم . قال : دَوِّنوا الدَّواوين[3] .

ولما أتى عمرُ الفيرُزان[4] حَضَره وقد بعث بعثاً له ، فقال له : هذا البعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلّف منهم رجلٌ وأخلّ بمكانه فما يُدْرى صاحب[ك.وأشار][5] عليه بالديوان، وفسَّره له وشرحه ؛ فوضع عمرُ الديوانَ .

عمر وزياد ابن أبيه

ولما استكتب أبو موسى زيادَ ابن أبيه[6]، كتب إليه عُمَرُ يَستقدِمه.

(١) كذا في الأصل . وفي المواعظ والاعتبار للمقريزي (ج ١ ص ١٩٢ طبع بلاق) : « وإن شئتم عددنا لكم عدا » .

(٢) يروى أن الرجل الذي قام إلى عمر ، وأشار عليه بنصب الديوان ، هو الوليد بن هشام بن المغيرة ، وكان قد رأى ذلك عند ملوك الشام . (راجع شرح نهج البلاغة ج ١٣ ص ١٢٠) .

(٣) روى هذا الخبر في شرح نهج البلاغة في الجزء الثالث عشر بروايتين ، الأولى (ص ١١٣) وفيها : أن المال حمله أبو هريرة إلى عمر من عند أبي موسى الأشعري ، وقدره ثمان مئة ألف درهم . والثانية (ص ١٢١) وفيها : أن الذي حمل المال إلى عمر هو الربيع بن زياد ، وهي تتفق مع رواية الأصل في أن المال المحمول خمس مئة ألف درهم .

(٤) كذا في الأصل . والذي في المواعظ : « أن عمر بعث بعثا وعنده الهرمزان ، فقال لعمر » . ثم ذكر فيه بقية الخبر بما لا يخرج عن رواية الأصل .

(٥) مكان هذه الكلمة بياض بالأصل . وقد زدناها مستأنسين برواية المقريزي لهذا الخبر .

(٦) في الأصل : « زياد بن عبيد الله » ، والظاهر أنه تحريف . فصاحب هذه الحادثة التي يذكرها المصنف هو زياد ابن أبيه ، ويعرف بابن عبيد ، وبابن سمية ، وبابن أبي سفيان ، وبابن أمه . وقد كان قبل أن يكتب لأبي موسى ، يكتب للمغيرة ابن شعبة ، ثم لعبد الله بن عامر بن كريز ، ثم لعبد الله بن عباس . (راجع العقد ، والاستيعاب ، والطبري) .

[١٦] فاستخلف زياداً على عمله ، فلما قدِم عليه سأله عمّن استخلفه ، فأعلمه أنه استخلف زياداً ؛ فقال له . أستخلفتَ غلامًا حدَثاً ! فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه ضابطٌ لما وُلّى، خليقٌ بكل خَيْر .

وكتب إليه عمرُ يأمُره بالقُدوم عليه ، والاستخلافِ على العمل . فاستخلف زيادٌ عِمْرانَ بن حُصَين ، وقدِم عليه . فقال عمر : لئن كان ٥ أبو موسى استخلفَ حَدَثاً لقد استخلف الحَدَثُ كهلاً ؛ ثم دعا بزياد ، فقال له : ينبغى أن تكْتُبَ إلى خليفتك بما يجب أن يَعملَ به . فكتب إليه كتاباً ، ودفعه إلى عُمَر، فنظر فيه ثم قال : أعِدْ، فكتب غيرَه ؛ فقال له : أعِد ، فكتب الثالثَ ؛ فقال عمر : لقد بلغ ما أردتُ فى الأول، ولكنى ظننت أنه قد رَوّى[(١)] فيه، ثم بلغ فى الثانى ما أردتُ، فكرهتُ ١٠ أن أُعلمه ذاك ، وأردت أن أضعَ منه ، لئلا يدخله العجبُ فيهلِك .

شكوى ضبة لأبى موسى

ولما رفَع ضَبّةُ بن مُحْصِن[(٢)] العَنَزىّ والمتظلّمون على أبى موسى ظُلاماتِهم إلى عمر ، وشكَوْه ، قالوا : وزيرهُ له غلام خَتَّار[(٣)] ، ومائدةٌ ، وله بِرْذَوْن[(٤)] .

---

(١) روى فيه (بالتضعيف) ، أى لم يصدره إلا بعد إعمال الفكرة والتريث والروية . ١٥
(٢) كذا فى الطبرى . وفى الأصل « حصن » .
(٣) الختار : البالغ فى الغدر .
(٤) كذا وردت هذه القصة فى الأصل ولعل الصواب فيها : وزيره غلام ختار ، وله مائدة ... الخ . وقد عرض الطبرى لها ، وبسط الأسباب التى اتهم بها ضبة أبا موسى ، فقال : « لما قدم ضبة بن محصن على عمر ، قال له : ماذا ٢٠ نقمت على أميرك ؟ قال : تنق ستين غلاما من أبناء الدهاقين لنفسه ؛ وله جارية تدعى عقيلة ، تغدى جفنة ، وتعشى جفنة ، وليس منا رجل يقدر على ذلك ؛ وله قفيزان ، وله خاتمان ؛ وفوض إلى زياد بن أبى سفيان ، وكان زياد يلى أمور البصرة ، =

حادثة له مع زياد تدل على زهده

ولما استحضر عمرُ زياداً ، قال زياد : فأتيته وعليّ ثياب كتّان ؛ وعليّ خُفّان ساذَجان ، وفي يده مِخصَرة[1] على رأسها حديد ، فغمزها في خُفّي حتى خرّقه وأدمى رِجْلي . فلمّا كان من الغد ، رجعتُ إليه في خفين غليظَيْن ، وعليّ ثوبان من قُطن ، فلما رآني قال : هكذا يا زياد ! [١٧]

٥ هكذا يا زياد ! ثم قال لي : بكم أخذتَ هذين الخُفّين ؟ قلتُ بوافٍ ـ يريد درهما وافيا[2] ـ فأعطاني درهماً وقال : اشتر لي مثلهما .

فطنة زياد

قال : وكان عمر يُملِي على كاتب بين يديه ، فكتب الكاتبُ غيرَ ما قال عُمر ، فقال له زياد : يا أميرَ المؤمنين ، قد كتب غـيرَ ما قلتَ . فنظر في الكتاب ، فكان كما قال زياد ؛ فقال عمر : أنّى علمتَ هـذا ؟

١٠ قال : رأيت رَجْعَ فيكَ وخطَّه ، فرأيت ماأحارت[3] كفُّه غيرَ مارجّعتْ به شفتيك .

حفر الأبلة

وكتب عمرُ إلى أبي موسى يأمُره بحَفْر نهرٍ لأهْل البَصْرة ، فحَفَر لهم النهر المعروف بنهر الأُبُلَّة[4] .

تقديره لزياد

ورُوى أنّ عمر وَهَب لزياد عند وصوله إليه ألفَ دِرْهم ، ثم تذكّرها

١٥ بعدُ ، فقال : ضاع ألفٌ أخذَه زياد . فلما دخل عليه قال له : ما فعل ألفُك ؟ قال اشتريتُ به عُبَيْداً[5] وأعتقتُه ؛ فقال : ما ضاع ألفُك .

ثم قال له : يا زياد ، هل أنت حاملٌ كتابي إلى أبي موسى في عَزْلك

= وأجاز الحطيئة بألف» . ثم زاد على ذلك التحقيق الذى أجراه عمر فى حديث طويل، فارجع إليه (فى القسم الأول ص ٢٧١٠ ـ ٢٧١٢ طبع أوربا) .

٢٠ (١) المخصرة : ماتتوكأ عليه كالعصا، وهى (أيضا ما يأخذه الخطيب بيده» يشير به إذا خطب .

(٢) الوافى : درهم وأربعة دوانيق ، وقيل درهم ودانقان ، وقيل هو الذى وفى مثقالا .

(٣) ما أحارت : أى ما تحركت به يمه .

(٤) الذى فى معجم البلدان عنـد الـكلام على الأبلة ، والاستيعاب فى ترجمة زياد : أن الذى حفر نهر الأبلة هو زياد بن أبى سفيان . فلعل أبا موسى أمر زيادا بحفره .

٢٥ طبع أوربا .

(٥) كذا فى الاستيعاب فى ترجمة زياد ، والطبرى (ق ١ ص ٢٧١٢) . وقد زاد الطبرى أن زيادا اشترى أيضا أمه سمية وأعتقها . وفى الأصل : « عبدا » وهو تحريف

عن كتابته ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، إن لم يكن ذلك عن سُخْط ؛ قال : ليس عن سخط، ولكنّى أكره أن أحمل فضلَ عقلك على الرعيّة .

[١٨] تقرير التاريخ الهجرى

وكان عمر أوّل من قرّر التأريخ من الهجرة ، لأنّ أبا موسى كتب إليه : إنه يأتينا منك كُتُب ليس لها تأريخ ـ وكانت العرب تؤرّخ بعام الفيل ـ فجمع عمر الناسَ للمشورة ، فقال بعضهم : أرّخ بمَبْعث النبىّ ، وقال بعضهم بمُهَاجَره ؛ فقال عمر : لا ، بل بمُهاجر رسول الله صلّى الله عليه [وسلّم][1] ، فإن مُهَاجَره فرّق بين الحقّ والباطل . وكان ذلك فى سنة سبعَ عَشْرة أو ثمانى عشرة من الهجرة[2] .

ولما أجمعوا على ذلك قالوا : بأىّ الشّهور نبدأ ؟ فقال بعضهم : من شهر رمضان ؟ فقال عمر : بل من المحرّم ، فهو مُنْصَرف الناس من حجّهم ، وهو شهر حَرَام ؛ فأجمعوا على المحرّم .

ورُوى فى خبر شاذّ : أن رسول الله صلّى الله عليه [وسلّم][1] لما ورد المدينة مهاجرًا من مكة يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، سنة أربعَ عشرة مِن حين نُبّئ ، أمر بالتأريخ ، والأوّل أثبت وأصحّ .

أبو الزناد ونادرة له

[3] وكان أبو الزّناد ، عبدُ الله بن ذَكْوان ، يكتب ليحيى بن الحكم بن أبى العاص[4] ، وهو والى المدينة ، فغلاَ السعرُ بالمدينة ، فقال بعضُ ظُرفائهم :

ألم يَحْزُنْك أنّ السعرَ غالٍ ... لقولِ أبى الزّناد أبا غلامُ

فلو عاش الأنام بلا كَلامٍ ... لقُلْنا بعدها حَرُمَ الكَلامُ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) وقيل إن ذلك كان بعد مضى سنتين ونصف من خلافة عمر . (راجع شرح نهج البلاغة ج ١٢ ص ١١٣) .

(٣) يلاحظ أن هذا الخبر يكاد يكون مقحما هنا .

(٤) المعروف أن أبا الزناد كان كاتبا لعبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وأن عبد الحميد هذا كان عاملا لعمر بن عبد العزيز على المدينة ، وقيل على الكوفة . وسيذكر المؤلف فيما سيأتى فى الكلام على أيام عمر بن عبد العزيز ، شيئا مما جرى بينه وبين عامله عبد الحميد هذا (راجع الطبرى ، والمعارف لابن قتيبة ، والعقد الفريد) فى الكلام على خلافة عمر بن عبد العزيز .

أيام عثمان

رضى الله عنه

[١٩]

كتابه

وكان يكتب لعثمان بن عفّان ، مروانُ بن الحكم . وكان عبد الملك ابن مروان يكتُب له على ديوان المدينة ، وأبو جَبيرة الأنصارى على ديوان الكوفة . وكان عبدُ الله بن الأرْقم بن عبد يغوث، أحدُ كتّاب النبيّ، يتقلّد له بيتَ المال . وكان أبو غَطَفان بن عوف بن سَعْد بن دِينار ، من بنى دُهْمان ، من قَيْس عَيْلان ، يكتُب له أيضاً . وكان يكتُب له أُهَيب مولاه ، وحُمْران [بن أبان][١] مولاه .

وفد مصر إليه والقصة فى ذلك

ولما قصد المصريّون فى الدفعة الأولى عثمانَ بن عفّان وجّه إليهم بجابر بن عبد الله ، حتى ردّهم .

ورُوى عن جابر أنه قال : إن المصريّين لما صاروا بأَيْلَة راجعين عن عثمان ، مَرّ بهم راكب أنكروا شأنَه ، فأخذوه ، فإذا هو غلام لعُثْمان على جَمل له معروف ، وكان عُثْمان يَحُجّ عليه ، ففتّشوه فوجدوا معه قَصَبةً من رَصاص ، فيها صحيفةٌ عليها خاتَم عثمان ، ففتحوا الصحيفةَ فإذا فيها كتاب من عثمان إلى عَبْد الله بن سعد ، عامله على مصر ، فيه : إذا قَدِم عليك فلان وفلان وفلان ، فاضرب أعناقَهم ، وفلان وفلان وفلان ، فاقطعَ أيديهم وأرجلَهم ، فسمَّى الذين كانوا ساروا إلى عثمان ، وانصرفوا عنه

(١) زيادة عن الطبرى والمعارف لابن قتيبة .

من أهل مصر. فكرّوا راجعين حين وقفوا على ذلك، فأقْرَءوا الكتابَ
[٢٠] أصحابَ رسول الله . فعاتب قومٌ عثمانَ على ذلك؛ فقال : أما الخطُّ فخطُّ
كاتبي ، وأما الخاتَم فخاتَمي ، ولا والله ما أمرتُ بذلك — وكان بخطِّ
مَرْوان بن الحكم — فقال القوم : إن كنت كاذبًا فلا إمامةَ لك ، وإن
كنتَ صادقًا فليس يجوزُ أن يكون إمامًا مَنْ كان بهذه المنزلة من الغَفْلة ، ٥
حتى يُقْدِم عليه كاتبهُ بهذا الأمر العظيم .

أيام علىّ بن أبى طالب

رضى الله عنه

كتابه

وكان يكتب لعلىّ سعيدُ بن نِمْران الهَمْدانى[(١)] ؛ وكان عبدُ الله بن جعفر يكتب له أيضاً . ورُوِى أنّ عبدَ الله بن جُبَير[(٢)] كتب له . وكان عُبيدُ[(٣)] الله بن أبى رافع يكتب له[(٤)] .

٥

وحُكِى عن عبيد[(٣)] الله هذا أنّه قال :

وصيته لكاتبه ابن جبير

كنتُ بين يدى علىّ بن أبى طالب ، فقال : يا عبدَ الله ، ألِقْ[(٥)] دَواتَك ، وأطِلْ شَباةَ[(٦)] قلمك ، وفرِّج بين السطور ، وقَرْمِط[(٧)] بين الحُروف[(٨)] .

قدومه البصرة واستتار زياد ثم استعماله إياه على الخراج

١٠ ولمّا قدم علىّ إلى البَصْرة أستتر عنه زيادٌ ، فلَقِيه عبدُ الرحمن بن أبى بَكْرة ، فقال له : يا أصْلَم ، أين عمّك ؟ فقال : أدلّك عليه على أن تُؤمِّنه ؛ فأدْخله عليه فى دار أمّه . فقال له علىّ : أين ما عندك من المال ؟ فقال : عندى على حاله ؛ فقال له : مثلُك فَلْيُؤتَمن ثم أقْبل مع علىّ ، فقال لأصحابه : أتاكم ابنُ بَجْدتها[(٩)] . فلمّا سار عن البَصْرة استعمله

١٥ على الخَراج والدِّيوان ، وقال له : أحفظْ ما استكْفيْتُك[(١٠)] . [٢١]

---

(١) وقد ولى سعيد هذا قضاء الكوفة بعد لابن الزبير . (عن العقد الفريد) .

(٢) كذا فى الأصل . وقد زاد عليه الفهرس المطبوع فى أوربا : « ابن النعمان الأنصارى » ويبعد أن يكون هو ، فقد ذكر ابن عبد البر أن هذا قتل يوم أحد وفى العقد الفريد : « عبد الله بن حسن » .

٢٠ (٣) كذا فى الطبرى . وفى الأصل « عبد الله » .

(٤) وكان ممن يكتبون لعلى أيضا : سماك بن حرب .

(٥) ألاق الدواة ولاقها يليقها : جعل لها ليقة ، وأصلح مدادها .

(٦) شباة القلم : سنه .

(٧) القرمطة : الدقة فى الكتابة والتقريب بين الحروف .

٢٥ (٨) وردت هذه النصيحة فى العقد الفريد (ج ٣ ص ٢٧ طبع المطبعة الأزهرية) منسوبة إلى ابن طاهر يوصى بها كاتبه .

(٩) يقال : ابن بجدتها ، للعالم بالشئ المتمكن فيه .

(١٠) يقال : استكفيته الشىء فكفانيه ، أى وكلت إليه القيام عليه فأداه ، وقام به على خير حال .

أيام معاوية بن أبي سفيان

كتابه

وكان يكتب لمعاوية على الرسائل عُبيد الله بن أوس الغسّانيّ[1] .

وكان يكتُب له على ديوان الخراج سَرْجُون[2] بن منصور الرومىّ .

ابنا دراج وشيء عنهما

وكان لمعاوية كاتبٌ، يقال له : عبد الرحمن بن درّاج ـ وكان له أخ ، يقال له : عُبيد الله بن درّاج ، وكانا مَوْلَيَيْه ـ فَوَلّاه الخراج بالعراق ، عن تقليده المُغيرة الحرب بها ، وطالب أهلَ السواد أن يُهدوا له فى النَّوْرُوز[3] والمِهْرجان[4] ، ففعلوا ، فبلغ ذلك عشرةَ آلافِ ألفِ درهمٍ فى سنة.

وكان عمرو بن سعيد بن العاص يكتُب على ديوان الجُنْد .

سبب اتخاذه ديوان الخاتم

وكان معاوية أوّلَ من اتّخذ ديوان الخاتَم ، وكان سبب ذلك : أنه كَتب لعمرو بن الزبير بمئة ألف درهم إلى زياد ، وهو عامله على العراق ، ففضّ عمرو الكتابَ وجعلها مِئَتَى ألفِ درهم ، فلما رفَع زِياد حسابَه ، قال معاوية : ما كتبتُ له إلا بمئة ألف درهم ، وكَتب إلى زياد بذلك ، وأمَرَه

(١) كذا فى الأصل هنا وفيما سيأتى فى أيام يزيد والذى فى الطبرى : « عبيد بن أوس الغسانى » وفى العقد الفريد : « سعيد بن أنس الغسانى »

(٢) كذا فى الأصل والطبرى ، وفى العقد الفريد والأغانى (ج ٨ ص ٢٩٠ طبع دار الكتب) : سرحون (بالحاء المهملة) .

(٣) النوروز ، ويقال : (النيروز ، أيضا ، والثانى أشهر) : أول يوم من السنة الشمسية ، وهو مركب من كلمتين « نو » ، و « روز » ومعناها : يوم جديد .

(٤) المهرجان : عيد الفرس ، مركبة من « مهر » و « جان » ومعناها : محبة الروح . قال : وكان المهرجان يوافق أول الشتاء ، ثم تقدم عند إهمال الكبيس حتى بقى فى الخريف ، وهو اليوم السادس عشر من « شهر مهرا » وذلك عند نزول الشمس أول الميزان .

أن يأخذ المئة الألف منه ، فحبسه بها . فاتخذ معاويةُ ديوان الخاتم ، وقلّده عبدَ الله بن محمد الحِميرى ، وكان قاضياً .

سنة العرب بالبدء بأنفسهم فى كتبهم [٢٢]

وكانت العرب إذا كتبت إلى أحد ، شريفاً كان أو مَشْرُوفا ، بدأ الكاتبُ بنفسه إلى المكتوب إليه ، وكتب : من فلان إلى فلان .

٥ وقد حُكى أن العلاء بن الحَضْرَمىّ كتب إلى رسول الله صلّى الله عليه [وسلّم][1] :

من العلاء بن الحَضْرمى إلى محمدٍ رسول الله ، وكان عامله على البَحْرين[2] . وعلى ذلك جرى الأمرُ إلى أيام معاوية ؛ فأراد عبدُ الله ابن عُمر أن يكتب إليه ، لما استُجمع عليه ، فى حاجة ، فأشار ولدُه أن يبدأ به ١٠ فى الكتاب ، فكتب : إلى معاوية بن أبى سُفْيان ، من عبدالله بن عمر .

أخبار زياد

[3]وكان زيادٌ يَجلس فى كلّ يوم للنّظر فى أسباب عمله إلّا يوم الجمعة .

طرفة له مع ابنه عبيد الله

وخلا يوماً يُملى على كاتبه أسراراً له ، و بحضْرته عُبَيد اللهُ ابنُه ، فنعس زيادٌ ، فقام ينام ، فقال : لعُبيد الله : تعهّد هذا ، لاتغيّر شيئاً ممّا رسمتُه له، فعرَضَت لعُبيد الله حاجةٌ إلى البَوْل ، واشتدّ ذلك به ، فكَره أن ينبّه ١٥ أباه ، وكَرِه أن يَقوم عن الكاتب ، فشدّ إبهامَيْه بخَيْط وختَمهما ، وقام لحاجته . فاستيقظ زيادٌ قبل عودة عُبَيد الله ، فلما نظر إلى الكاتب : سأله عن خَبَره ، فخبّره ، فأَحْمد ذلك من فِعْل عُبيد الله .

مؤاخذته كاتبا أخطأ

وذُكر أنّ زياداً دخل يوماً ديوانَه ، فوجد فيه كتاباً ، وفيه: ثلاثة دِنان ، فقال : مَنْ كتب هذا ؟ فقيل : هذا الفتى ؛ فقال : أَخْرِجوه من ٢٠ دِيواننا لئلاّ يُفْسِدَه ، وامحُ هذا واكتُب : آدُن[4] .

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) وقد بقى العلاء على البحرين إلى أيام أبى بكر فأقره عليها كما أقره عمر من بعده ، ثم ولاه عمر البصرة فمات قبل أن يصلها سنة أربع عشرة (عن الاستيعاب) .

(٣) يلاحظ أن المؤلف أقحم أخبار زياد بين أخبار معاوية .

٢٥ (٤) كذا فى الأصل ، ولعله محرف عن (أَدُنّ) كأَكُفّ ، على أن كتب اللغة لم تذكر فى جمع (دَنّ) غير دنان ، وإذا صح ماروى عن زياد فيكون كأنه كره من الكاتب أن يستعمل جمع الكثرة فى موضع جمع القلة .

كتابه [٢٣] وكان يكتُب لزياد على الخراج زاذا فرّوخ(١) ، ويكتب له على الرسائل عبدُ الله بن أبي بكرة(٢) ، وجُبَيْر بن حَيّة ، وكان يكتب له أيضاً مِرْداسٌ مولاه .

وفاته وتُوفى زياد يوم الثلاثاء لأربع خَلَوْن من شهر رمضان من سنة ثلاث وخَمْسين . ٥

عود إلى كتاب معاوية وقد رُوِى أن سُلَيْمان بن سَعيد ، مولى الحُسَين ، كَتَب لمُعاوية ، وأنّ سُلَيْمان المِشْجعى ، من قُضاعة ، كتب له على فِلَسْطين . فكتب إلى سليمان هذا :

اتخذ لى ضياعا، ولا تكن بالدّاروم(٣) الجِدْاب(٤) ، ولا بقَيْسارِيّة(٥) المِغْراق ، واتخذْها بمَجارى السّحاب . فاتخذَ له البُطْنان(٦) من كورة عَسْقلان(٧) . ١٠

وكتب له على بعض دواوينه عُبَيْدُ الله بن نَصْر بن الحجّاج بن عَلاء(٨) السُّلمىّ .

(١) كذا فى الأصل ، وفى الطبرى : زاذان فروخ .

(٢) أبو بكرة : هو أخو زياد لأمه سمية . ١٥

(٣) الداروم (ويقال لها : الدارون أيضا) : قلعة بعد غزة للقاصد مصر . وقد خربها صلاح الدين سنة ٥٨٤ هـ . (عن معجم البلدان) .

(٤) الجداب : الأرض التى لا تكاد تخصب .

(٥) قيسارية (مخففة) : بلدان ، أحدهما بفلسطين ، والآخر بالروم . والمراد هنا الأول . (راجع معجم البلدان) . ٢٠

(٦) البطنان : المواضع التى يستريض فيها ماء السيل فيكرم نباتها . وفى الأصل « البطانى » ولعلها محرفة عما أثبتناه .

(٧) عسقلان : بلد بساحل الشأم تحج إليه النصارى ، وهو من أعمال فلسطين ، بين غزة وبيت جبرين . (عن معجم البلدان) .

(٨) كذا فى الطبرى . وفى الأصل « علاط » . ٢٥

وروى أنّ حبيب بن عبدالملك بن مروان كتب له على ديوان المدينة.

وكان يكتب له على ديوان خراج حمص ابنُ أوثال النصرانى ، وله بحمص قصر يُعرف به .

مقتل عبد الرحمن بن خالد

وكان عبدُ الرحمن بن خالد بن الوليد عاملاً على حمص ، فطالت إمرتهُ ، فخافه مُعاويةُ أن يبايع له أهلُ الشام بالخلافة ، لِمَا كان عندهم من آثار أبيه ، خالد بن الوليد ، ولقائه عن المسلمين فى أرض الروم ، فدسّ إليه ابنُ أوثال من سقاه سُمًّا فمات . فجلس المُهاجر بنُ خالد بن الوليد مع عُرْوة بن الزبير بالمدينة ، فقال عروةُ للمُهاجر : هذا ابن أوثال يَفْخر بقتل عبد الرحمن . فخرج المُهاجر من فَوْره حتى أتى دِمَشْق ، فسأل عن ابن أوثال[١] ، فأُخبر أنّه من كتّاب معاوية ، فوقف ناحيةً حتى خرج من ديوانه ، فلما رآه المُهاجر قال له : إنّ لى إليك حاجةً ، فاعدل معى ، فعدل معه إلى زُقاق يُعرف بزقاق عَطّاف بدمشق ، وكان معه سيف ، فعلاه به فقتله . فأخذه معاويةُ فحبسه سنةً ، ثم خلاه .

[٢٤]

فخر زياد عليه ورد ابنه يزيد

وأهْدى زياد إلى مُعاوية هَدايا كثيرةً ، وكان فيها عِقْد جَوْهَر نَفِيس ، فأُعجب به معاوية ؛ فلما رأى ذلك زياد ، قال له : يا أمير المؤمنين ، دوّختُ لك العراق ، وجَبَيْتُ لك بَرّها وبحْرها ، وغثّها وسَمِينها ، وحملتُ إليك لُبَّها وقُشُورها[٢] . فقال له يزيد: لئن فعلتَ ذلك لقد نقلْناك من وَلاء ثَقِيف إلى عزّ قُرَيْش ، ومن عُبَيد إلى أبى سفيان ،

(١) وذكر ابن عبد البر : أن معاوية أمر طبيبا يهوديا ، وكان عند مرض ، فيسقيه سقية يقتله بها ، فأتاه فسقاه ، فاحترق بطنه فمات . ثم ذكر بقية القصة .

(٢) فى الأصل : «وسرورها» ، وظاهر أنها محرفة عما أثبتناه .

ومن القَلَمِ إلى المنابر ! وما أمكنك ما اعتددْتَ[1] به إلاّ بنا ؛ فقال له معاوية :حسبُك ! وَرِيتْ بك زِنادى[2] !

تفضيل العرب السيف على القلم وشعرهم في ذلك

ولم تزل العربُ تُفضِّل السيف على القلم ، وفي ذلك يقول سَليط ابن جَرير بن لَبيد بن عُتْبة بن خالد بن عَبْد عمرو التَّمَرىّ :

أَتحقرني ولستُ لذاك أهلاً وتُدْنى الأَصْغَرَيْن من الخُوانِ ٥
جَهابذةً وكُتاباً وليسوا بفُرْسان الكَريهة والطِّعان
ستَعْرِفنى وتَذْكُرنى إذا ما تلاقى الحَلْقتان من البِطَان[3]

[٢٥] ومن هذا المعنى سَرق أبو عُبادة ، الوليد بن عُبيد[4] بن يَحْيى بن عُبيد ابن شِمْلال بن جابر بن سَلَمة بن مُسْهِر بن الحارث بن جُشَم[5] بن أبى حارثة ابن جُدَىّ بن تَدُول بن بُحْتر بن عَتُود بن عُنَيْز[6] بن سَلامان بن ثُعَل ١٠ ابن عمرو بن الغَوْث بن طَيِّئ ، البُحْترىّ قوله :

تَعْنُو له وُزَراءُ المُلْكِ راغمةً وعادةُ السَّيْفِ أن يَستَعْبِد القَلَمَا

تَعْنو : تخضع ، ومنه قولُ الله عزّ وجلّ : « وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّوم » .

طرفة في تفضيل العرب الكتابة

قال عمر بن شَبّه : حدّثنا المُعافَى بن نُعَيم ، قال : ١٥

وقفت أنا ومَعْبد بن طوق على مجلس لبنى العَنْبر ، أنا على ناقة ، وهو على حِمار ، فقامُوا إلينا ، فبدءوا بى ، فسلّموا علىّ ، ثم انكفَئوا على مَعْبد ،

(١) فى الأصل « اعتذرت » ، وما أثبتناه أوفق للسياق .
(١) ورى الزند : خرجت ناره . أى أنه قوته وعدته .
(٢) البطان : حزام السرج . والعرب تقول للأمر إذا اشتد : التقت حلقتا البطان . ٢٠
(٣) فى الأصول : « عبادة » .
(٥) كذا فى ابن خلكان . وفى الأصول « خثيم » وهو تحريف .
(٦) كذا فى القاموس (مادة بحتر) . وفى الأصل : « عنين » وهو تحريف .

فقبض يده عنهم، وقال: لا، ولا كرامة! بدأتم بالصغير من قبل الكبير، وبالمولى على العربيّ، فأسكتوا. فانبرى هنٌ[1] منهم له، فقال: بدأنا بالكاتب قبل الأميّ، وبالمهاجر قبل الأعرابيّ، وبراكب الرّاحلة قبل راكب الحمار.

ولاية عبد الرحمن بن زياد خراسان وشيء عنه

٥ وقلّد معاويةُ عبدَ الرحمن بن زياد خُراسانَ سنة ثمان وخمسين، وكان ضعيفاً سخيًّا. وفيه يقول زياد بن عمرو العتكي[2]:

سألناه الجزيلَ فما تلكّا وأعطى فوق مُنْيتنا وزادَا
وأحْسَن ثم أحْسن ثم عُدْنا وأحْسن ثم عُدتُ له فعادَا
مِراراً لا أعود إليه إلاّ تبسّم ضاحكاً وثنَى الوِسادَا

[٣٦]

١٠ ولم يزل عليها إلى أن وَلِي يزيد، وقُتل الحسينُ عليه السلام، فاستخلف على عمله قيسَ بن الهيثم. وأقبل إلى يزيد، فأنكر قدومَه، ثم رضِي عنه، وسأله عما حصل له، فاعترف بعشرين ألفَ ألفِ درهم، فسوّغه إياها.

قصة عن كثرة مال عبد الرحمن

وكان معه من العُروض أكثرُ منها. فقال يوماً لأسطفانوس كاتبه: ويحك ياأسطفانوس! إنى لأعجب كيف يجيئنى النومُ وهذا المالُ
١٥ عندى! فقال له: وكم مبلغهُ؟ قال: إنى قدرت ما عندى لمئة سنة، فى كلّ يوم ألفُ درهم، لا أحتاج منه إلى شرْى رَقيق ولا كُراع[3] ولا عَرَض من العروض؛ فقال له أسطفانوس: أنامَ اللهُ عينَك أيها الامير، لا تَعجب من نَوْمك وهذا المالُ عندك، ولكن أعجبُ من نَوْمك إذا ذَهب ثم نِمْت.

٢٠ (١) هن، يريد رجلا. والهن: كلة يكنى بها عن اسم الإنسان؛ والأنثى: هنة.
(٢) فى الأصل: «العتلى» باللام، وهو تحريف. وهو زياد بن عمرو أبو المغيرة العتكى الأزدى، ابن الكرمانى. (راجع الطبرى).
(٣) الكراع (كغراب): الخيل.

فذَهب ذلك كلُّه : أوْدَعَ بعضَه فذَهب ، وجُحِد بعضُه ، وسَرق أسبابُه[١] بعضَه ، فآل أمرُه إلى أن باع فضَّةَ مُصْحفه .

وكان يركب حِماراً صغيراً تنال رجلُه الأرضَ ، فلَقِيه مالكُ بن دِينار ، فقال له : ما فعل المالُ الذى قلت فيه ما قلت ؟ قال : كلُّ شىء هالكٌ إلا وجهَه ، يا أبا يحيى .

٥

(١) أسبابه : القائمون بتنفيذ أموره والمشرفون على أعماله .

أيام يزيد بن معاوية

كتابه

وكان يكتب ليزيد بن معاوية عبيدُ الله بن أوس الغسّانى [١] كاتب معاوية . ويكتُب له على ديوان الخراج سَرْجون [٢] بن منصور .

[٢٧]

توليته عبيدالله ابن زياد العراق وكتابه له بذلك

ولما اتصل بيَزيد مَصيرُ الحُسين، رضى الله عنه، إلى الكوفة ، كَرِه ذلك وشقّ عليه ، فشاوَر سَرْجون بن منصور فيمن يُولّى العراق ، ليقاوِم الحسين ، فقال له سَرْجون : عُبَيد الله بن زياد ـ وكان يَزيد كارهاً له ـ فقال : لا خيرفيه ، فسَمِّ لى غيرَه ؛ قال : أرأيتَ لو كان معاوية حيًّا فأشار به عليك أ كُنْتَ قابلاً ؟ قال : نعم ؛ فأخرج إليه عهداً من معاوية لعُبَيدالله بولاية الكوفة ، وعليه خاتَمُه، وقال له : هذا عندى، ولم يَمْنَعنى من إخبارك به من أوّل الأمر إلا علمى ببُغضك لعُبَيد الله ؛ فقال له : فأنْفذْه إليه ؛ وكان عُبَيد الله يتقلّد البصرة مع مُسْلِم بن عمرو الباهِلىّ .

وكتب معه [٣] عن يزيد إليه :

أما بعد . فإنّ المَمْدوح مَسْبوبٌ يومًا ما ، و إن المَسْبوب مَمْدوحٌ يومًا ما ، وقد انتميتَ إلى منصب كما قال الأوّل :

رُفعتَ فجاوزتَ السحابَ وفوقَه فمالكَ إلاّ مَرْقبَ الشمس مَرْقبُ

وقد ابتُلِى بحُسَين زمانُك دون الأزْمان ، وبَلدُك دون البُلْدان ، ونُكِبْتَ به من بين العمّال ، فإما تُعْتَق أو تعودُ عَبْداً ، كما يُعَبَّد [٤] العبيد، والسّلام .

[٢٨]

سلم وشىء عنه

وقلد يزيدُ بن معاويةَ سَلْمَ بن زِياد خُراسان ، وكان يكتُب له أسطفانوس كاتب أخيه عبد الرحمن .

(١) راجع الحاشية رقم (١) صفحة ٢٤ .
(٢) راجع الحاشية رقم (٢) ص ٢٤ .
(٣) أى كتب سرجون مع يزيد الكتاب الآتى إلى عبيد الله .
(٤) عبده (بالتضعيف) اتخذه عبدا .

أيام معاوية بن يزيد بن معاوية

كتابه

وكان يكتب لمعاوية بن يزيد : الرّيان بن مُسْلِم[1] ، ويكتُب له على الديوان سَرْجون[2] بن مَنْصور النَّصْرانى .

(١) فى الأصول : « سلم » وهو تحريف . (راجع الطبرى وفهرس الجهشيارى طبع أوربا) .

٥

(٢) راجع الحاشية رقم (٢) ص ٢٤ .

أيام مروان بن الحكم

وكان يكتب لمَرْوانَ سُفيانُ الأحْول ؛ ويكتب له على الديوان كتابه سَرْجُون بن منصور النَّصرانى[1] . وقد رُوِى : أنه كتب له أبو الزُّعَيْزِعة .

(١) راجع الحاشية (رقم ٢ ص ٢٤) .

أيام عبد الملك بن مروان

قبيصة كاتبه ومنزلته

وكان يَكْتب لعبد الملك قَبيصةُ بن ذُؤَيب بن حَلْحَلة [بن عمرو][(١)] الخُزاعىّ، ويُكْنى: أبا إسحاق، وكان خاصًّا به؛ وبلغ من لطافة محلّه منه أن كان يقرأ الكتبَ الواردةَ على عَبْد الملك قبل أن يقرأها عبدُ الملك.

عبدالملك يهم بخلع عبد العزيز فيمنعه قبيصة

وكان مَرْوان بن الحَكَم قد عَهِد إلى ابنه عبد العزيز بعد عبد الملك، ٥ فهمّ عبدُالملك، لمّا تمكّن واستقام أمرُه، بخلْعه والعهدِ لابنَيْه: الوليدِ وسُليمان؛ فنهاه عن ذلك قَبيصةُ بن ذُؤَيب، وقال له: لعلّ الموتَ يأتى عليه فتستريح منه، فقلّده مصر. فورد الكتابُ فى جمادى الأولى سنة خَمْس وثمانين بوَفاته، فقرأ قَبيصةُ الكتابَ قبل عبد الملك، على عادته فى أمثاله، [٢٩] فعزّاه بأخيه عبد العزيز. فولّى عبدُ الملك ابنَه عبدَ الله بن عبد الملك ١٠ مصرَ، وعقد لابنَيْه الوليد وسليمان العهدَ بعده، وكتب إلى البُلْدان بذلك، فبايعوا.

بعد موت عبد العزيز أرسل عبد الملك إلى ينّاس من قاسمه ماله

وكان يكتب لعبد العزيز بن مَرْوان يَنَّاسُ بن حُمايا، من أهل الرُّها، وكان غالبًا عليه، وبنَى له عبدُ العزيز قصرًا على باب الجامع بالفُسْطاط. فلما ورد[(٢)] عبدَ الملك خبرُ وفاة عبد العزيز وَجّه الضحّاكَ بنَ عبد الرحمن ١٥ إلى مصر، وقال: لتَصِرْ إلى ينّاس، كاتب عبد العزيز، فاقْسِم مالَه بينك وبينه. قال الضحّاكُ: فصِرْتُ إليه فقاسمتُه، فكان أكثر ماقاسمتُه عليه النُّحاس، الذى كان يُعمل بأرض الرّوم، خلاَ الحُلِىّ والجَوْهر، فإنّى لم أقاسمْه عليهما، وقُلْت: أميرُ المؤمنين يقاسمك على هذا. وحَملْتُ جميعَه إلى عبد الملك، فلما وضعتُه بين يدَيه، جعل يقلّبه بقَضيب كان فى يده، ٢٠

(١) زيادة عن أنساب الأشراف (ج ١١ ص ٣٥ طبع أوربا).
(٢) كذا فى الأصل. ولعله ضمن الفعل معنى (بلغ) إذ أن الفعل (ورد) لم يرد فى كتب اللغة مستعملا فى هذا المعنى إلا مع حرف الجر (على).

فمرّ به عِقْدٌ فأخذه ، ثم قال لِيَنَاسَ : دُونك هذا الحَلْيَ ، فأخذه . فلما أنصرف قُلْت : لقد أحسن أميرُ المؤمنين فى مُقَاسَمتك ؛ فقال لى : لَحبَّةٌ من ذلك العِقْد خيرٌ من جَميع ما ترك .

[٣٠] وكان يكتُب لعبد الملك على ديوان الرّسائل أبو الزُّعَيْزِعة مولاه ؛

جـواب أبى الزعيزعة لعبـد الملك عن التخمة

٥ فقال له عبد الملك يومًا : يا أبا الزُّعَيْزِعة ، هل اتّخمت قطُّ ؟ قال : لا ؛ قال : فكيف ؟ قال : لأنّا إذا طَبَخْنا أنْضَجْنا ؛ وإذا مَضَغْنا دَقّقْنا ، ولا نَكُظّ [١] المَعِدَةَ ، ولا نُخْلِيها .

ماجرى بين أبى الزعيزعة وزفـر فى حضـرة عبـد الملك

وكان زُفَر بن الحارث بحَضْرة عبد الملك ، و بحَضْرته أبو الزُّعَيْزِعة ، بعد أن اجتمع عليه ؛ فقال زُفَرُ لعبْد الملك : الحمدُ لله الذى نَصَرك على كُرْهٍ

١٠ مَنْ كَرِه ! فقال أبو الزُّعيزعة : ما كَرِه ذلك إلا كافِرٌ ؛ فقال له زُفر : كَذَبْتَ ! قال الله لنبيّه محمّد : « كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ » أمؤمنين سمّاهم أم كفّارا ؟ فغضب عبدُ الملك ؛ فقال زُفر : يا أميرَ المؤمنين ، أرأيتَ لو قلتُ : الحمدُ لله الذى نَصَرك ، فقد كنتُ مَسْرُورًا بذلك ؟ أمَا كُنْتَ تَمْقُتنى ، ويَمْقُتنى الله

١٥ عزّ وجلّ ، وأنا أُقاتِلُك تِسْعَ سنين ! فقال : صَدَقْت !

روح بن زنباع يكتب لعبدالملك

وكان يكتُب لعبْد الملك أيضاً ، رَوْح بن زِنْباع الجُذامِىّ ؛ ويُكْنى رَوْح : أبا زُرْعة . وكان عبدالملك كثيراً يقول : إن رَوْح بن زِنْباع شامىّ الطاعة ، عِراقىّ الخطّ ، حِجازىّ الفِقْه ، فارِسىّ الكتابة .

[٣١] معاوية يهم بروح

[٢] وكان معاوية هَمّ بِرَوْح هذا ، فقال له : لا تُشْمِتَنّ بى علوًّا أنت وَقَمْته [٣] ،

٢٠ (١) نكظ المعدة : تملؤها حتى لاتطيق النفس .
(٢) وردت هـذه القصة فى عيون الأخبار (ج ١ ص ١٠٢ طبع دار الكتب المصرية) باختلاف يسير فى بعض العبارات .
(٣) وقمه : أذله وقهره .

ولا تَسُوءَنّ بِي صَدِيقاً أنتَ سَرَرْته ، ولا تَهْدِمنّ مِنّي رُكْناً أنتَ بَنَيْتَه؟ هلاّ أَتَى حِلْمُك وإحسانُك على جَهْلي ؟ فأمسك عنه ، وأنشد :

* إذا اللهُ سَنَّى[1] عَقد شَيء تَيَسَّرا *

بشر وروح في العراق

وكان عبدُ الملك بن مَرْوان قلد أخاه بِشْراً العراق ، وضَمّ إليه رَوْح ابن زِنْباع . فلما وصَل بِشْرٌ إلى العراق أُغْرِى بالشراب ، فثَقُل عليه مكانُ رَوْح بن زِنْباع[2] ، فقال: مَنْ يَحْتال لي فيه ؟ فقال سُراقة البارِقىّ : أنا . ثم صار سُراقة إلى دِهليز رَوْح ، فكتب على الحائط[3] :

يا رَوْحُ ، مَنْ لِدَنانِيرٍ مُجَرشَةٍ[4] إذا نَعاكَ لأَهْلِ المَغْرِب النّاعِى!
إنّ الخَلِيفَةَ قد شالَت[5] نَعامَتُه[6] فاحْتَلْ لِنَفْسكَ يارَوحُ بنَ زِنْباع![7]

---

(١) سنى : سهل.

(٢) وقد كان عبد الملك قال لأخيه بشر حين ولاه العراق : « إن روحا عمك الذى لاينبغى أن تقطع أمرا دونه ، لصدقه وعفافه ومناصحته ومحبته لنا أهل البيت . ولهذا احتشم بشر منه . (راجع مروج الذهب) .

(٣) يريد:حائط بيت روح ، وكان ذلك فى أقرب المواضع من مرقد روح. وتفصيل القصة : أن روحا كان له جارية ، وكان شديد الغيرة عليها ، إذا خرج من منزله إلى المسجد أو غيره ختم بابه حتى يعود بعد أن يفتقه . فأخذ سراقة دواة وأتى منزل روح عشية ، وخرج روح للصلاة، فتوصل سراقة إلى دخول الدهليز عند ما خرج روح ، وكمن تحت الدرجة ، ولم يزل يحتال ليلته حتى توصل إلى هذا المكان الذى أشرنا إليه ، فكتب عليه ما كتبه .

رواية هذا الشطر فى مروج الذهب:

(٤) * يا روح من لبنيات وأرملة *

(٥) شالت نعامته : أى ذهب عزه ، وتفرق أمره ؛ أو مات .

(٦) رواية هذا الشطر فى مروج الذهب وفى عيون الأخبار:

* إن ابن مروان قد حانت منيته *

(٧) زاد المسعودى على هذين البيتين البيت الآتى:

ولا يغرنك أبكار منعمة واسمع (هديت) مقال الناصح الداعى

وكتب فوقه : قال بعضُ شـــعراء الجنّ . فلمّا وقف رَوْح على ذلك ، غدا على بِشر ، فاستأذنه فى الرُّجوع إلى الشّام ، فجعل بِشْرٌ يَحْبِسه ويسأله أن يُقيم . فأبَى ؛ فأذِن له ، فشَخص فلما دخل على عبد الملك قال : الحمدُ لله على سلامتك يا أمير المؤمنين ! قال : وما ذاك ؟ فأخبره ٥ الخبر ؛ فقال له : سَخِر منك بِشْرٌ وأهلُ العراق لمّا ثقُلْت عليهم ، فاحتالوا فى الرَّاحة منك[١] .

ربيعة الجرشى يشير على عبد الملك بشأن الوليد [٣٢]

ثم كتب لعبد الملك رَبيعةُ الجُرَشِيّ ، فلما عزم على تقْليد [الوليد][٢] العهدَ ، شاوَره وقال له إنّى قد عزمتُ على توْليته شيئًا من النّواحى أوّلا، فإذا مرّت له مدّةٌ قلّدته ؛ فقال أمْهِلْنى سَــنةً ؛ فأبَى عليه ؛ فقال له : ١٠ يا أمير المؤمنين ، إنك لو بعَثْتَ الوليد يَقْسِم الأَمْوال بين الناس ما رضُوا عنه، فكيف ببعَثْه جابيًا ، إن أحتاط ذُمّ ، وإن رَفَق عُجّز ! ولـكنْ ولّه المَعاوِنَ[٣] والصَّوائف يَكُنْ ذلك له شرفًا وذِكْرًا .

المنصور يستشير بعض خواصه فى تولية المهدى السواد

ويُشْبه هذا شيئًا ما حُكِى عن أبي العبّاس الطُّوسيّ مع أبى جَعْفر المنْصور ، وذلك أنّ المَنْصور قال له ، ولِعيسَى بن علىّ ، والعبّاس بن ١٥ محمد ، وغيرِهم من خواصّه : إنّى قد عزَمْتُ على تقليد المهدىّ السّوادَ وكُورَ دِجْلة . فأستصوب جميعُهم رَأْيَه خلا الطُّوسىّ ، فإنه أستَخْلاه[٤] ، ثم قال له : أرأيتَ إنْ سلكَ المَهْدىُّ غيرَ سيرتك ، وأستعمَل التّسْهيلَ ، أتَرْضَى بذلك ؟ قال : لا والله ؛ قال : فأنت تُريد أن تُحبّبه إلى الرعيّة ،

(١) وانظر هذه القصة بصورة أخرى فى ج ١ ص ١٧١ من عيون الأخبار .

٢٠ (٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) المعاون : الجنايات والمظالم . والصوائف : جمع صائفة ، وهى الغزوة فى الصيف . ولعله يريد بالمعاون والصوائف : ولاية القضاء والغزو .

(٤) استخلاه : سأله أن يجتمع به فى خلوة .

وتَقْليدُك إيّاه يُبْغِضه إليهم ، لاسيّما ما[1] قَرُب منك . ولكن يَتَوَلّى هذه الوِلايةَ عيسى بن مُوسى ، وتَجعل الهدىّ الناظر فى ظُلامات الناس ، وتأمُره يأْخُذه بإنْصافهم . فضَحِك منه حتى فَحَص برِجْليه[2] .

كاتباه عمرو وجناح

وماتَ قَبِيصةُ بن ذُؤَيب ، فوَلّى مكانَه عمرو بنَ الحارث الفهمىّ ، مولى بنى عامر بن لُؤَىّ ، فمات عَمْرو ، فقلّد جَناحًا ، مولاه ، ديوانَ الخاتَم ، واقتصر على باقى كُتّابه . ٥

[٣٣]

الدواوين إلى عهد عبد الملك

ولم يَزَلْ بالكُوفة والبَصْرة ديوانان : أحدُهما بالعربيّة ، لإحْصاء الناس وأَعْطِياتهم ، وهذا الذى كان عُمَر قد رَسَمه ؛ والآخر لوُجُوه الأمْوال ، بالفارسيّة . وكان بالشّام مثلُ ذلك ، أحدها بالرُّوميّة ، والآخَر بالعربيّة . فجرى الأمرُ على ذلك إلى أيّام عَبْد المَلِك بن مروان . ١٠

الحجاج وكتابه وتحويل الديوان إلى العربية

فلما قَلَّد الحجّاجُ العِراق ، كان يَكْتُب له صالحُ بنُ عبد الرحمن ، ويُكنى : أبا الوليد . وكان يتقلّد ديوان الفارسيّة إذ ذاك زاذان فرّوخ ، فخَلَفه عليه صالحُ بن عَبْد الرحمن ، فخفّ على قَلْب الحجّاج ، وخُصّ به ؛ فقال لزاذان فرّوخ : إنى قد خَفَفْت على قلب الحجّاج ، ولستُ آمنُ أن أُزيلك عن محلّك بتقديمه إيّاى ، وأنت رَئيسى ؛ فقال زاذان فرّوخ : لا تفعل ، فإنه أحوج إلىّ منى إليه ؛ قال : فكيف ذلك ؟ قال : لا يجدُ مَنْ يَكْفِيه الحِسابَ ؛ فقال صالح : إنى لو شئْتُ حوّلْته بالعَرَبيّة ؛ قال : فحَوّل منه سطْرا ؛ فحَوّل منه شيئاً كثيرًا . فقال زاذان فروخ لأَصحابه : الْتَمِسوا مَكْسَبًا غير هذا . وأمر الحجّاجُ صالحًا بنقل الدّواوين إلى العربيّة فى سنة ثمان وسبعين . ١٥ ٢٠

[٣٤]

(١) كذا فى الأصل ، يريد : من قرب منك .
(٢) فحص برجليه ، أى ضرب بهما الأرض .

تلامذة صالح بن عبد الرحمن

وكان عامّة كتّاب العراق تلامذة صالح ؛ فمنهم : المغيرة بن أبي قرّة ، كتب ليزيد بن المهلّب ؛ ومنهم قحذم بن أبي سُليم[1] ، وشَيْبة ابن أيمن ، كاتبا يوسف بن عُمر ؛ ومنهم المغيرة وسعيد ، أبنا عطيّة ؛ وكان سعيد يكتب لعمر بن هُبيرة ؛ ومنهم : مَرْوان بن إياس ، كتب ٥ لخالد القسْرى[2] ، وغيرهم .

نادرة لصالح مع الحجاج

وقال الحجّاج يومًا لصالح : إنّى فكّرتُ فيك ، فوجدتُ مالَك ودَمَك حَلالاً لى ، و إنّنى غيرُ آثم إن تناولتُهما ؛ فقال له صالح : إنّ أغلظَ ما فى الأمر ـ أعزّ اللهُ الأمير ـ أنّ هذا القولَ بعد الفكْر ؛ فضحك منه ولم يقُلْ له شيئاً .

ثقل الحجاج على أهل العراق ونصيحة ابن بصبهرى

١٠ وكان الحجّاج لمّا قدِم العراق ثَقُل أمرُه على أهْل البلاد ، فاجتمع الدّهاقين إلى جَميل بن بُصْبُهْرى[3] ، وكان حازمًا مقدّمًا ، فشَكَوْا إليه ما يتخوّفون من شرّ الحجّاج ؛ فقال لهم : خبّرونى : أين مَوْلِدُه ؟ فقالوا له : الحِجاز ؛ قال : ضعيف مُعْجَب : فأين مَنْشَؤه ؟ قالوا : الشام ؛ قال : ذاك شرّ ؛ ثم قال : ما أحسنَ حالَكم إذا لم تُبْتَلَوا معه بكاتب منكم ! ١٥ [يعْنى من أهل بابل][4] . فابتلوا بزَاذان فرُّوخ ، وكان أعورَ شرّيرًا . وضرب لهم جميلٌ المثلَ المشْهور : إنّ فأساً [ليس فيها عود][4] أُلقيت بين شَجر ، فقال بعضُ الشّجر لبعض : ما أُلقِى هذا هاهنا لخَيْر ؛ فقالت لهم [٣٥]

(١) فى الأصل (هنا) : « قحذم بن أبى سليمان » . وهو تحريف . وسيأتى ذكره مصوبا كما أثبتناه فى أكثر من موضع عند الكلام على أيام هشام .

٢٠ (٢) فى الأصل : « القشيرى » وهو تحريف .

(٣) كذا فى معجم البلدان (ج ٤ ص ٣٢٤ طبع أوربا) . وفى الأصل (هنا) : « صهرى » وفيما سيأتى : « صبهرى » وكلاهما تحريف .

(٤) زيادة عن البيان والتبيين (ج ٣ ص ١٧) . طبعة القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ .

شجرة عادية[١] : إنْ لم يَدْخل فى [استِ][٢] هذا عود[٣] منكن[٤] فلا تَحْفنه .

تحويل الدواوين من الرومية إلى العربية

وكان يتقلّد ديوان الشّام بالروميّة ، لعبد الملك ولمن تقدّمه ، سَرْجون ابن منصور النّصْرانى ، فأمره عبدُ الملك يومًا بشَىء ، فتثاقل عنه ، وتَوانَى فيه . فعاد لطَلَبه، وحثَّه فيه ، فرأى منه تَفْريطًا وتقْصيرًا ؛ فقال عبدُ الملك لأبى ثابت ، سليمان بن سعد الخُشَنىّ — وكان يتقلّد له ديوانَ الرّسائل — أَما ترى إِدْلالَ سَرْجون علينا ؟ وأَحْسبُه قد رأى أَنّ ضَرُورتَنا إليه و إلى صناعته ، أفما عندك حِيلةٌ ؟ قال : لو شئتَ لحَوّلت الحسابَ إلى العربيّة؛ قال : فافعل ؛ فحوّله. فردّ إليه عبدُ الملك جميعَ دواوين الشام .

شمعل ونادرة له مع عبد الملك

وحُكِى أنّه كان لعَبْد الملك كاتبٌ نَصْرانى من أوْساط كُتّابه ، يقال له : شَمْعل ، وأنه أنكر عليه شيئًا فحَذفه بمِخْصرة[٥] كانت فى يده ، أصابت رجلَه فأثّرت فيها ، فرأى شَمْعل جماعةً من أسْباب عَبْد الملك ممّن يُعاديه ، وقد ظَهَر فيهم السرورُ ، فأنشأ يقول :

أمِنْ ضَرْبة بالرِّجل مِنّى تهافتت عُداتى ولا عيبٌ علىّ ولا نُكْرُ
و إن أميرَ المؤمنين وفِعْلَه لكالدَّهْر لا عارٌ بِما فَعل الدَّهْرُ

[٣٦]

الحجاج ومشورة جبيل

ولمّا قلّد الحجّاجُ عُبيدَ الله بنَ المُخارِب[٦] الفَلّوجتين ، قال لمّا وَردها: أهاهنا دِهْقانٌ يُعاش[٧] برأيه ؟ فقيل له : جبيل بن بُصْبُهْرى[٨] ، فأَحْضره وشاوَره ؛ فقال جبيل : أقدمتَ لِرضا ربّك ، أمْ لرضا مَنْ قلّدك ، أم لِرضا

(١) عادية : قديمة
(٢) زيادة عن البيان والتبيين .
(٣) كذا فى البيان والتبيين . وفى الأصل : « شىء » .
(٤) كذا فى البيان والتبيين ، وفى الأصل : « منكم » .
(٥) المخصرة : شىء يأخذه الرجل بيده ليتوكأ عليه ، مثل العصا ونحوها وقضيب يأخذه الملك يشير به إذا خطب . وحذفه بها : رماه .
(٦) كذا فى الأصل . وفى مروج الذهب : « عبيد بن أبى المخارق » .
(٧) فى مروج الذهب : « يستعان » .
(٨) فى الأصل: «بصبهرى». وفى مروج الذهب هنا وفيما مر: «جبيل بن صهيب».

نَفْسِك؟ فقال : ما استشرتُك إلا لِرضَا الجميع؛ فقال : أحفظْ عنّى خِلالاً :
لا يَخْتلف حِلْمُك على رعيّتك ، وليكُنْ حِلْمُك على الشّريف والوَضيع
سواء ، ولاتتّخذنّ حاجباً ، لِيَرِدَ عليك الوارِدُ من أهل عَملك على ثِقَةٍ من
الوُصول إليك ، وأَطِل الجُلوسَ لأهْل عَملك يَتهيّبْك عُمّالُك ، ولا
٥ تَقْبل الهديّة ، فإنّ صاحبَها لا يرضى بثلاثين ضِعْفاً لها ، فإذا فعلتَ
ذلك فاسلُخ جُلودَهم من قُرونهم إلى أقدامهم .

قال : فعَمِلتُ بوَصيّته ، فجَبيتُها ثمانيةَ عَشَرَ ألفَ ألفِ درْهم[1] .

الحجاج ويحيى ابن يعمر

ولما هزَم يزيدُ بن المُهلَّب ، وهو يتقلّد خُراسان من قِبَل
الحجّاج ، عبدَ الرحمن بن العبّاس بن رَبيعة بن الحارث ، عند مُحاربته
١٠ إيّاه ، أمر يَحْيى بن يَعْمَرَ العَدوانيّ ، وكان يكتُب له على الرّسائل ، أن
يكتب إلى الحجّاج بالفتح ، فكتب يَحْيى بن يَعْمَر :

إنّا لقِينا العدوَّ، فمَنحنا اللهُ أكتافَهم ، فقَتلْنا طائفةً ، وأسَرْنا طائفة،
[٣٧] ولَحِقت طائفةٌ برُءوس الجبال ، وعَرَائر[2] الأوْدية ، وأهْضَام[3] الغيطان ،
وأثناء الأنْهار ، [فبِتنَا بعُرْعُرة[4] الجبَل ، وبات العدوُّ بحَضِيضه][5] .

١٥ فقال الحجّاج : مَنْ يكتب ليَزيد بن المهلّب ؟ فقِيل له : يَحْيى
ابن يَعْمَر ، فكتب إلى يزيد يأمُره بحَمْله إليه على البَريد ، فقَدِم إليه ،
فرأى أفْصح إنسان . فقال له : أين وُلِدْتَ ؟ قال : بالأهْواز ، فقال : من
أين هذه الفَصاحة ؟ قال : حفِظت كلامَ أبي ، وكان فَصيحا ؛ فقال له

(١) قد وردت هذه القصة فى مروج الذهب باختلاف كثير عما هنا ، فارجع إليها
٢٠ فى الجزء الثانى ص ١٤٥ طبع المطبعة البهية .
(٢) كذا فى البيان والتبيين . قال الجاحظ : « عرائر الأودية : أسافلها » . وفى
الأصل : « الغراعر » ولا يستقيم بها المعنى .
(٣) الأهضام : جمع هضم (بالفتح وبالكسر) : وهو بطن الوادى والمطمئن من الأرض .
(٤) كذا فى الأصل : عرعرة الجبل (بالضم) : أعلاه .
٢٥ (٥) مابين هذين القوسين [ ] زيادة عن البيان والتبيين .

الحجّاج : أخبرني ، هل يلحن عَنْبسةُ بن سَعيد ؟ قال : نعم ، كثيراً ؛ قال : ففلان ؟ قال : نعم ؛ [قال] [1] : فأخبرني عنّي ، هل ألحن ؟ قال : لا ، أنت أفصحُ الناس ؛ قال : لتخبرنّي ، قال : إنك تلحن لحناً خفيًّا ، تزيد حرفاً أو تنقص حرفاً ، وتجعل إنّ في موضع أنّ ؛ قال : قد أجّلتك ثلاثا ، فإن وجدتك بعد ثلاثة بالعراق قتلتك . فرجع إلى خُراسان [2] . ٥

سؤال الحجاج بعض كتابه عن رأى الناس فيه

وقال الحجّاج يوما لبعض كتّابه : ما يقول الناس فيّ ؟ فاستعفاه ، فلم يُعفه . قال : يقولون : إنك ظلوم، غَشوم، قتّال، عَسوف، كذّاب . قال: كلّ ما قالوا فقد صدقوا فيه ، إلا الكذب ، فوالله ما كذبتُ منذ علمت أنّ الكذب يَشين أهله !

يزيد بن أبي مسلم وقناعته

وكان يزيد بن أبي مسلم ــ واسم أبي مُسْلم : دينار ــ من موالي ثقيف ، ١٠ وليس مولى عتاقة ، وكان أخا الحجّاج من الرّضاعة ، يتقلّد للحجّاج ديوان الرسائل ، وكُنيته أبو العلاء ، وكان الحجّاج يُجْرى له في كلّ شهر [٣٨] ثلاثَ مئة درهم ، يُعطِى امرأته منها خمسين درهما ، ويُنفق في ثمن اللّحم خمسةً وأربعين درهما ، ويُنفق باقيها في ثمن الدّقيق وباقي نفقته ، فإن فضل منها شيء أبتاع به ماء وسقاه المساكين ، وربّما أبتاع قُطُفاً [3] ١٥ ففرّقها فيهم ، وهو مع ذلك يقتل الخَلْق للحجّاج .

وحُكي أن الحجّاج عاده من علّة ، فوجد بين يديه كانوناً من طين ، ومَنارةً [4] من خشب . فقال له : ياأبا العلاء ، ما أرى رزقك يكفيك . قال : إن كانت ثلاثُ مئة لا تكفيني ، فثلاثون ألفا لا تكفيني .

(١) زيادة يقتضيها السياق . ٢٠

(٢) قد وردت هذه القصة في طبقات الشعراء لابن سلام وتزهة الألبا في ترجمة يحيى ابن يعمر باختلاف عما هنا .

(٣) لعله يريد «بالقطف» : الأكسية التي يتدثر بها من البرد .

(٤) المنارة : التي يوضع عليها السراج .

استخلاف الحجاج يزيد

ولما حضرت الحجّاجَ الوفاةُ فى شهر رمضان سنة خَمْس وتِسْعين أُستخلَفَ يَزِيد بن أبى مُسْلم على خَراج العِراق ، فأقام بعده تِسْعة أشْهر .

الحجاج فى قبره

وحُكِى أنه سُمِعَ من قَبْر الحجّاج صوتٌ ، فَصِير إلى يزيد ابن أبى مُسْلمْ ، فعُرِّف ذلك ، فرَكِب فى أهل الشّام حتى انتهى إلى قَبْره ٥ فتسمّع ، فلمّا سَمِع الصوتَ قال : يَرْحمك الله يا أبا محمد ، لا تَدَعُ القراءة حيًّا ولا ميتاً ! ثم رَكِب .

وهذا يُشْبِه ما رُوِى عن عائشة بنت سَعْد بن أبى وقّاص :

[٣٩]

سعد ومعاوية

أن معاوية مرّ بسَعْد فى طريق مكة بعد صلاة الصبح ، ومعه أهلُ الشام ، فوقف على سَعْد فى طريق مكة ، فسلّم عليه ، فلم يَرُدَّ عليه السلام ، ١٠ فقال معاوية لأهل الشام : أتَدْرُون مَنْ هذا ؟ هذا سعدٌ صاحب رسول الله صلّى الله عليه [وسلم][1] لا يتكلّم حتى تطلُعَ الشمسُ . فبلغ سعداً ذلك ، فقال : ما كان ذلك منّى والله عَلَى ما قال ، ولكنّى كَرِهْتُ أن أُكلّمه .

عبد الملك وكاتب له قبل هدية

وبلغ عبدَ الملك بن مَرْوان أنّ بعضَ كُتّابه قَبِل هَدِيّةً ، فقال له : ١٥ أقَبِلْتَ هديّة مُنْذ وليْتُك ؟ فقال : أمورُك مُسْتقيمة ، والأموالُ دارّةٌ ، والعمّال محمودون ، وخَراجك مُوَفَّرٌ ؛ فقال له . أخْبرنى عمّا سألتُك عنه ؟ فقال : نعم ، قد قَبِلْتُ ؛ فقال : والله إنْ كنتَ قَبِلْتَ هديّةً لا تَنْوِى مكافأةَ المُهْدِى لها إنك لئيم دَنِىٌّ ؛ وإن كنت قبِلْتها تَسْتَكْفِى رجلا لم تكن تَسْتَكْفيه لولاها ، إنك لخائن ؛ وإن كنت نَوَيْت تَعْوِيض ٢٠ المُهْدِى عن هَدِيّته ، وألاّ تَخُون له أمانةً ، ولا تَثْلِمُ له ديناً ، فلقد قَبِلْتَ ما بَسط عليك لِسانَ مُعامِليك ، وأطْمع فيك سائرَ مُجاوِريك ، وسَلَبك

(١) زيادة يقتضيها السياق .

هَيْبَةَ سُلطانك؛ ومالِى مَنْ أتى أمراً لم يَخْلُ فيه مِنَ لؤم أو دناءة أو خيانة أوْ جهل ، مُصْطَنَع . وصَرَفه عن عَمله .

[٤٠] وكان يكتُبُ لمُصْعب بن الزُّبير على الخَراج سار زاذ ، صاحب باذين[١] .

مصعب وكتابه — ويكتب له على الرسائل عبد الله بن أبي فَرْوة ، ويكنى عبد الله : أبا عبد الله ، وهو جَدّ الرّبيع مولى المنصور ٥

إهداء مصعب عقداً أو نخلة ذهب لابن أبي فروة — وكان عبد الله، وعبد الملك ، ومصعب ، فى حداثتهم أخلاَّء ، لايكادون يَفترقون ، وكان إذا اُكتسى عبد الملك كسوةً اكتسى الأخوان مثلها ، فاكتَسى عبدُ الملك حلّةً واكتسى ابنُ أبى فروة مثلَها ، وبَقِى مُصْعب لايَجد ما يكتسى به ، وكان أقلّهم شيئاً . فذكر ابنُ أبى فَرْوة ذلك لأبيه ، فكَساه مثل حُلّتيْهما على يدى ابنه ، فلما وَلِى مُصْعب العراق استكتب ١٠ ابنَ أبى فروَة . فكان عنده يومًا إذ أُتِىَ مصعبٌ بعِقْد جوهر ، قد أُصيب فى بعض بلاد العَجم لبعض مُلوكهم ، لايُدْرَى ماقيمتُه، فجعل مُصعب يقلّبه ويَعْجَب منه ، ثم قال لابن أبى فَرْوة ياعبد الله، أيسرّك أن أهبَه لك ؟ قال : نعم والله أيها الأمير ، إن ذلك ليَسرّنى . فدفعه إليه ، فرآه قد سُرّ به سُرورًا شديداً ، فقال مصعب : والله لأنا بالحلّة يوم كَسَوْتنيها أشدّ ١٥ سروراً منك بهذا الآن . وكان العقد سببَ غِنى ابن أبى فروة وغِنى عَقبه .

[٤١] وذكر مُصْعب الزُّبَيْرى أنّه وجَد عاملُ خُراسان كنزًا ، وفيه نَخْلَةٌ كانت لِكِسْرَى ، مَصْنوعةٌ من الذّهب. عَثاكيلُها[٢] من لُؤْلُؤ وجَوْهر، وياقوت أحمر وأخضر ؛ فحملها إلى مُصْعب بن الزُّبير : فجمع المُقوّمين لها لـمّا وَردتْ عليه ، فقوّمُوها بألفَىْ ألفِ دينار . فقال : إلى من أدفعها ؟ ٢٠ فقيل : إلى نسائك وأهلك ؛ فقال : لا ، بل إلى رجل قدّم عندنا يَدًا ، وأوْلانا جميلاً ؛ ادْعوا عبدَ الله بن أبى فروة ، فدفعها إليه فلما قُتل

(١) كذا فى الأصل . ولم نجد بلداً بهذا الاسم فى المعاجم التى بين أيدينا .
(٢) العثاكيل : جمع عثكول ، وهو العذق أو الشمراخ .

مُصْعب كاتبَ ابنُ أبى فروة عبدَ الملك ، و بذل له مالاً ، فسَلِمَ منه بمـاله ؛ وكان أيسرَ أهلِ المدينة .

واسمُ أبى فَرْوة كَيسانُ ، مولى الحارث الحفّار ، مولى عُثمان بن عفّان.

شعر لمحمد ابن عبد الله ابن أبى فروة

وكان محمّد بن عبد الله بن أبى فَرْوة نبيلاً ظريفاً ، فذكر مُصْعب

٥ الزُّبيرى : أنه كتب إلى جارية له كان لها من قلبه مَوْضع ، وكان مُقيما فى بستان :

إن لى عند كلّ نَفْحةِ بُسْتا ... نٍ من الوَرْد أو منَ اليَاسمينَا

نَظْرةً والْتفاتةً لكِ أرجو ... أن تكُونِى حَلَلْتِ فيما يَلينا

شعر لعبد الله ابن أبى فروة

وقد رُوى لعبد الله أبياتُ شعر ، وهى :

١٠ ولما أتينا منزلاً طَلّه النَّدى ... أنيقاً وبُستاناً من النَّوْر حاليا

أجدّ لنا حُسْنُ المكانِ وطِيبُه ... مُنًى فتمنّينا فكنتِ الأمانيا

مصعب وابن جعفر وعاصم [٤٣]

واجتاز مُصْعب الزبيرى بالمدينة فلم ينزلها ، لعَزيمةٍ كانت من عبد الله[1] عليه ، لشىء أنكره، ألاّ يُعرّج عليها ، وأن يَنزل البيداء . فالتقى عبدُ الله ابن جعفر[2] وعاصمُ بن عمر[3] فى صَبيحَةِ تلك الليلةِ ، فقال عبد الله

١٥ ابنُ جَعْفر لعاصِم : أمَا ترَى ما صنَع بنا هذا الفتى حيثُ فرّ منّا ولم يُعرّج علينا ؟ وخرَجا إليه . فأقبل مُصْعب عليهما ، فقال : كأنّى بكما وقد التقيتُما فقُلْتما: اسْتخفّ بنا هذا الفتى وطَوانا، ولمْ تَعْلما عُذْرى ؛ إنّ أمير المُؤمنين[1] عزم علىّ أنْ أنْزل البيداء ، ولستُ أعْصيه ، ثم قال لعاصم : يا أبا عُمر ،

(١) يريد : عبد الله بن الزبير .

٢٠ (٢) هو عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . ولد بأرض الحبشة ، وتوفى بالمدينة سنة ثمانين ، عن تسعين سنة .

(٣) هو عاصم بن عمر بن الخطاب . ولد قبل وفاة الرسول بسنتين وتوفى سنة سبعين .

احتكم . فعدَّدَ أشياء ، من رقيق وغنم وأثاث ؛ فقال : ليس هذا عندنا حاضرا ، ولكن لك قيمتُه . فقُوم ستّةَ عشرَ ألفَ دينار ، فأمر له بها . ثم أَقبل على عبد الله بن جعفر فقال : يا أبا جعفر ، لك ضِعْفُها ؛ فقال : ومالك لا تحكّمني ؟ قال : لعلّي بتخفّفك ؛ قال : والله لو فعلتَ لخرجت مما ترى صِفْرا ! فلما انصرفا قال عبد الله لعاصم : هل رأيت مثل هذا الفتى : أعقل ، وأكرم ، وأحلم ؟ ٥

وذكر محمد بن سلّام عن أبي اليَقْظان :

طريفة لمصعب مع كاتب له

أنّ كاتباً كان لمُصْعب بن الزُّبير كتب : من المُصْعَب » ، فقال مصعب : ما هاتان الزائدتان ؟ يعني : الألف واللام .

أيام الوليد بن عبد الملك [٤٣]

كتابه

وكان يكتُب للوليد القَعْقاعُ بن خُلَيد[1] العَبْسى . وكان الوليدُ أولَ من كتَب من الخُلفاء فى الطَّوامير[2]، وأمر بأن تعظَّم كتبه ويُجلَّل الخطّ الذى يُكاتَب به . وكان يقول : تَكُون كتُبى والكتُب إلىّ خلافَ كُتب الناس بعضهم إلى بعض .

٥

وكان يكتُب له على ديوان الخراج سُليمان بن سعد الخُشنى ؛ وعلى ديوان الخاتَم ، شُعيب الصابى ، مولاه ؛ ويكتب له على المُستغلّات بدمشق : نفيع بن ذُؤيب ، مولاه ، واسمُه مكتُوب فى لَوْح فى سُوق السرّاجين بدمشق .

---

١٠ (١) ويقال : « خالد » . (راجع الطبرى) .

(٢) الطوامير : الصحف ، الواحدة : طومار وطامور .

أيام سليمان بن عبد الملك

كتابه

وكان يكتب لسليمان سُلَيمُ بن نُعَيم الحِمْيَرى . وورد عليه كتابُ مَسْلمة يذكر دخوله بلادَ الرّوم . وأنه بلغ مالم يبلغه أحدٌ ، فقال لكاتبه : وَقِّع عليه : ذاك بالله لا بمَسْلمة

٥ وكان يكتب لسليمان على ديوان الرسائل الليثُ بن أبى رُقَيَّة ؛ وعلى ديوان الخاتم نُعَيمُ بن سَلاَمة .

بناؤه الرملة ومسجدها

[٤٤]

وكان رجلٌ من أهل فلسطين ، يعرف بابن بَطْريق ، يكتب له ، فأشار عليه ببناء الرَّملة . وكان السببُ فى ذلك أن ابن بَطْريق سأل أهل لُدّ حائزا[1] ، كان فى الكنيسة،[2] أن يُعطوه إياه يَبْنى فيه منزلاً ، فأبَوْا عليه ؛ فقال لهم . والله لأُخَرّبَنّها ، يعنى الكنيسة . ثم قال ١٠ [سليمان][3] : إن أمير المؤمنين عبدَ الملك بنَى فى مسجد بيت المَقْدس ، على هذه الصخرة [قُبَّة][3] ، فعُرِف ذلك له ، [وإن الوليد بنى مسجد[4] دمشق ، فعُرف له ذلك][3] ، وإنْ بنيتُ مسجدا ومدينة نقلتُ الناس إلى المدينة ، فبنى مدينة الرَّمْلة ومسجدَها ، فكان ذلك سببَ خراب لُدّ .

١٥ ولما عزم سليمان بن عبد الملك على بناء مسجد الرملة أراد أن ينقُل عَمَد كَنيسة جورجيس إليه ، فاستمهله البَطْرك ، وكتب إلى بلاد الرُّوم ، فورد الجوابُ عليه : أن دُلَّه على مغارة بالقُرْب من الدَّارُوم[5] ، فإنّ

(١) الحائز : الموضع المطمئن .

(٢) فى معجم البلدان : « حارا كان للكنيسة » .

٢٠ (٣) زيادة عن معجم البلدان .

(٤) فى الأصل : « بى مسجدا فى بيت المقدس » . والتصويب عن معجم البلدان عند الكلام على الرملة .

(٥) راجع الحاشية (رقم ٣ ص ٢٦) .

فيها باقىَ العَمد التى بُنِيَت منها الـكَنِيسة ، فدلّه . فاستخرج سليمان العَمد، فبنى بها المَسْجد ، وبقيت كنيسة جُورْجِس .

عبد الله كاتبه

وكان يكتب على النَّفقات وبيوت الأَموال والخزائن والرقيق عبدُالله ابنُ عمرو بنِ الحارث .

ابن المهلب واستعماله على العراق

٥ ولما تولّى سليمانُ الخلافةَ صرَف يزيدَ بن أبى مُسْلِم ، كاتبَ الحجّاج ، من العِراق ، حَرْبِه وخَراجه ، فى سنة ست وتسعين ، وقلّد الحربَ يَزيدَ بنَ المهلّب ؛ وكان قلّده الحَرْبَ والصّلاة والخراجَ، فكره يزيدُ تقلدَ الخراج ، لإخْراب[1] الحجّاج العراقَ ، وخاف إن عَسف أهلَه بالمطالبة أن يذموه ، و إن قصَّر فى العَسْف أن يَنقُص ما يَستخرجه عمّا أستخرجه [٤٥]

١٠ الحجّاج . فاستعفَى يزيدُ بنُ المهلّب سليمانَ من الخراج ، وأشار عليه بصالح ابن عبد الرحمن الـكاتب ، ففعل سليمان ذلك .

فتحه لجرجان

ثم قلّد سليمانُ يزيدَ خُراسان مضافة إلى العراق فى سنة ثمان وتسعين ، فقصد لجُرجان ، وكانت منيعةً ، وكان كلّ من يتقلّد خُراسان يَتَحاماها ، وألحّ عليها ، ففتحها .

خانه ابن أبى قرة وكتب إلى سليمان بمال جمه

١٥ وكان يكتب ليزيد بن المهلّب ، المُغيرةُ بن أبى قُرّة[2] ، مولى سَدُوس . فـكتَب يزيد إلى سليمان يُخبره بفَتْح جُرْجان ، ويعظِّم عنده الأمر ومَوْقع النعمة فى ذلك، ويعرِّفه أنه قد حصل فى يده من المـال ، ممّا أفاء الله على المُسْلمين ، بعد أن صار إلى كلّ ذى حقّ حقُّه، من الفَىْء [و][3] من الغَنيمة، ستةُ آلاف ألفِ درهم ؛ فقال له المُغيرة كاتبُه : لا تكتب بتَسْمية مال ،

٢٠ (١) فى الأصل : « لإجراب » . والظاهر أنها مصحفة عما أثبتناه .

(٢) فى الأصل هنا : « المغيرة بن أبى فروة » وهو تحريف . (راجع الطبرى) . وقد تقدم الـكلام عليه (ص ٣٩ س ١) من هذا الـكتاب .

(٣) زيادة يقتضيها السياق : إذ الفىء غير الغنيمة . فالفىء : ماينال بعد أن تضع الحرب أوزارها . والغنيمة : مايؤخذ عنوة والحرب قائمة .

ودعه مُجْملا؛ ولعلّ أميرَ المؤمنين إذا لم يعرف مبلغه أن يَسْمح به لك، وإذا عرفه استكبره وأمر بحمْله، وإن أمسك عنك فيه بَقِى ذِكْرُ المال مخلداً في الديوان، وإن ولى والٍ بعدك أخذك به؛ وإن كان ممن يتحامل عليك لم يرضَ منك بأضعافه. فأبى يزيدُ قبولَ ذلك، وأمضى الكتاب به، فورَد على سليمان في أوّل سنة تسع وتسعين، وتُوفّى في صفر منها قبلَ أن يأمر في المال بشيء.

[٤٦]

عزله وهربه ومقتله

وولِّى الخلافةَ عمرُ بن عبد العزيز، فصَرف يزيدَ بنَ المهلّب؛ فلما صار إليه، سأله عن الأموال التى كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك؛ فقال له: كنتُ من سليمان بالمكان الذى رأيت، وإنما كتبتُ إليه لأُسَمِّعَ[1] الناس به، وقد علمت أنه لم[2] يكن ليأخذنى بشيء مما سمّعتُ به، ولا بأمرٍ أكرهه؛ فقال عمر: ما أجد فى أمرك إلا حَبْسَك، فاتّقِ الله، وأدِّ الأمانة فيما قِبلَك من المال، فإنها حقوق المسلمين، ولا يسعنى تركُها؛ وأمرَ بحبسه. فلم يزل فى الحبس إلى أن حضرتْ عمرَ بنَ عبدِ العزيز الوفاةُ، فهربَ يزيدُ من مَحْبَسه فى سنة إحدى ومئة، لأنه كان يخاف يزيدَ ابن عبد الملك، وكان سليمانُ ولّاه العهدَ بعد عمرَ بنِ عبد العزيز، فأدّاه ذلك إلى المخالفةِ على يزيدَ بنِ عبد الملك، وخَلْعِه إياه، حتى سرّح إليه الجيوشَ مع أخيه مَسْلمة بن عبد الملك، فقَتل يزيدَ وأكثرَ آلِ المهلّب.

حظوته عند سليمان

وكان ليزيدَ بن المهلّب خاصةٌ بسليمان، وكان يجلس على سريره، فإذا جاء سليمان تنحّى يزيدُ بن المهلّب عنه، وإن جاء يزيد بن المهلّب وسُليمان على السرير جلس معه.

[٤٧]

٥ ١٠ ١٥ ٢٠

(١) فى الأصل: «لا».

(٢) سمع بالشيء (بالتضعيف): أشاعه وأذاعه.

ماجرى بين سليمان وابن أبي مسلم بشأن الحجاج

وحُكي أنَّ سُليمان بن عبد الملك قال ليزيد بن أبي مُسْلم : أترى صاحبَك[١] بلغ قَعْرَها[٢] أم هو يُهْوَى به ؟ فقال : لا تَقُل ذاك يا أمير المؤمنين ، فإنه وَالَى وليَّك ، وأخاف عدوّك ، وجعل نفسه لك جُنّة ، ودينَه لك وِقاية ، وإنه يوم القيامة لعَنْ يمين أبيك ، ويَسار أخيك ، فاجعله حيث شئتَ[٣] .

أسامة بن زيد على خراج مصر وما كان بينه وبين سليمان وعمر

وكان سليمان ولَّى رجلاً من موالى معاوية ، يُقال له ، أُسامةُ ابن زَيْد[٤] ، من أهل دِمَشق ، وكان كاتباً نبيلاً ، الخراجَ بمصر . فبلغه أنَّ عمرَ بن عبد العزيز يَقرِصه[٥] ، ويَغْمِص[٦] عليه في سيرته . فقَدِم أسامةُ ابن زيد على سليمان بمـال اجتمع عنده ، ووافقه على ما احتاج إليه ، وعَمِل على الرجوع إلى عمله ، وتَوَخّى وَقْتاً يكون فيه عمرُ عند سليمان . فلمّا بلغه حضورُه مجلسَه استأذن عليه ، فلما وصل إليه ، قال له : يا أمير المؤمنين ، إنّى ما جئتُك حتى نَهِكْتَ الرعيّة وجهِدَت ، فإنْ رأيتَ أن تَرْفُق بها ، وتُرفِّه عنها[٧] ، وتُخفِّف من خَراجها ما تَقوى به على عِمارة بلادها ، وصَلاح مَعايشها ، فافعلْ ؛ فإنه يُستدرك ذلك في العام المُقْبِل ؛ فقال له سليمان :

(١) يريد : الحجاج .
(٢) قعرها ، أي قعر جهنم .
(٣) ولهذا حبسه سليمان فبقى في السجن أيام سليمان وأيام عمر بن عبد العزيز ، ثم أخرجه يزيد بن عبد الملك ، وولاه إفريقية ، فثارت عليه الجند فيها ، وقتلوه . (راجع العقد الفريد في خلافة سليمان بن عبد الملك) .
(٤) هو أسامة بن زيد التنوخى ، وقد بقى على خراج مصر حتى عزله عنه عمر بن عبد العزيز بوفاة سليمان. (راجع النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣٢) .
(٥) يقرصه : يؤذيه وينال منه بلسانه . وقد وردت هذه الكلمة في الأصل مهملة النقط.
(٦) يغمص عليه ، أي يعيب عليه . وقد وردت هـذه الكلمة في الأصل هكذا: « نعمض » ولعلها مصحفة عما أثبتناه .
(٧) في الأصل : عليها .

[٤٨] هَبِلَتْكَ أُمُّكَ[1]، أحلُبِ الدَّرَّ[2]، فإذا أقطعَ فاحلُبِ الدَّمَ [و] [3] النَّجا[4].

فخرج أسامةُ بن زَيْد، فوقف لعُمر بن عبد العزيز حتى خرج، فركِب ثم سار معه، وقال له: إنه بَلَغنى يا أبا حَفْص، أنك تَلومُنى وتَذُمُّنى، وقد سمعتَ اليومَ ما كان من مقالتى لابن عمِّك، وما ردَّ علىّ، وعرفت عُذْرى؛ فقال عمر: سمعتُ والله كلامَ رجلٍ لا يُغنِى عنك شيئًا!

عزل عمر لأسامة

فلما تُوُفِّى سليمان كتب عُمر، وهو على قبره، بعَزْل أسامة بن زيد، وبعَزْل يَزيد بن أبى مُسْلم[5]، فأعتابه الناسُ وقالوا: هذا الحرص، ألاَّ صَبَرَ حتى يُدفَن الرجل! فقال لما بلغه ذلك: إنى والله خِفْت الله عزّ وجلّ، واستَحْيَيْته أن أُقِرَّهما يحْكُمان فى أمور النّاس طَرْفة عَيْن وقد وَلِيتُ أمورَهم.

(١) هبلته أمه: مثل ثكلته، وزنا ومعنى.
(٢) الدر: اللبن.
(٣) زيادة يقتضيها السياق.
(٤) النجا: ما يخرج من البطن. وقد وردت هذه القصة فى النجوم الزاهرة (ج ١ ص ٢٣١) باختلاف يسير.
(٥) تقدم فى الحاشية (رقم ٣ ص ٥١) أن يزيد بن أبى مسلم كان سجينا عند موت سليمان بن عبد الملك. وظاهر أنه يريد «يزيد بن المهلب» وهو الذى عزله عمر مع أسامة. وقد تقدم عزل عمر له (فى ص ٥٠) وذكر ابن تغرى بردى ذلك فى كتابه النجوم الزاهرة (ج ١ ص ٢٢٩).

أيام عمر بن عبد العزيز

كتابه

وكان يكتُب لعمرَ الليثُ بن أبى رُقَيَّة ، مولى أمّ الحكَم بنت أبى سُفيان . وكتب له أيضا رجاء بن حَيْوَة ، وخُصّ به . وكان من كتّابه إسماعيل بن أبى حُكَيم ، مولى الزّبير . وكان يكتُب له على ديوان الخراج
٥ سليمانُ بن سَعد[1] الخُشَنِى .

نوادر له من حرصه على الاقتصاد فى القراطيس

وكان عمرُ بن عبد العزيز يأمر كتّابَه بجَمْع الخطّ كراهية أستعمال الطّوامير[2] ، فكانت كُتبه إنما هى شبر أو نحوه .

فرُوِىَ عن عبدالله بن أبى بكر بن حَزْم :

[٤٩] أنّ أباه كتب إلى عُمر بن عبد العزيز يسأله قَراطيس ، فكتب إليه
١٠ عمرُ : أن دَقِّق القلَم ، وأَوْجِز الكتابَ ، فإنّه أسرعُ للفهم .

وكتب إلى عامل آخر ، كتب إليه يطلُب منه قَراطيس ، ويَشْكو قِلّتَها عنده : أنْ دَقِّق قلمَك ، وأَقلِلْ كلامك ، تَكتفِ بما عندك من القَراطيس .

نصيحته لابن مهران وتوليته ابنه الجزيرة

وقال مَيْمون بن مِهْران :

١٥ قال لى عمرُ بن عبد العزيز — وقد كان قلّده الخراجَ بالجَزيرة ، وبيتَ المال بحَرّان — : يا ميمون ، دَعْ أربعَ خِصال : لا تدخُلَنّ على سُلْطان أبداً ما أمكنك ، وإن قُلْتَ آمُرُه بالمعروف ، وأنهاه عن المنكر ؛ ولا تَخْلُوَنّ بامرأة أبدا ، وإن قلت أعلّمها القرآن ؛ ولا تَكلّمَنّ بكلام تُريد أن تعتذر منه ؛ ولا تَطلُبنّ المعروفَ أبداً إلى من لا يَضعه فى أقاربه .

٢٠ (١) فى الأصل (هنا) : « سعيد » . وهو تحريف .
(٢) الطوامير : الصحف ؛ الواحد : طامور وطومار .

وقلّد عمرُ بن عبد العزيز عمرَ بن ميمون بن مهران الجزيرةَ .

نادرة لكاتب له صحف كلمة «احص»

وكان عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن [محمد بن][1] عَمْرو بن حَزْم : أَحْصِ المُخَنَّثين بالمدينة. فصحّف الكاتبُ، فقال: اخْصِ. فجمع كلَّ من قدر عليه منهم، فخصاهم جميعا .

كتب له الصباح [٥٠]

وكان من كتّابه الصّبّاح بن المُثَنَّى ، فروى أبو صالح عبدُ الله ٥ ابن صالح ، كاتبُ الليث بن سعْد ، رسالة كتبها الصّبّاح هذا عن عُمر ابن عبد العزيز ، إلى عِياض بن عبد الله ، ثم قال فى آخرها : « وكتب الصّبّاح بن المُثَنَّى يوم الخميس لأربع خلَوْن من ذى الحجّة سنة تسع وتسعين » .

وكان الصباح من جِلّة كتّاب عُمرَ وعِلْيتهم . ١٠

وقال عمرُ بن عبد العزيز لعُمر بن الوَليد بن عبد الملك : أُمّك بنَانة أَمَةُ السَّكُون ، كانت تدخل حوانيتَ حِمْص لِمَا الله أعلم به ؛ فاشتراها دِينارُ بن دِينار — يعْنِي كاتبَ عبد الملك ومولاه — مِن فَيْءِ المسلمين، فأهداها لأبيك ، فحملتْ بك ، فبِئْس المَحْمولُ ! وبئس الجَنين ! والله لَهَمَمْتُ أن أبيعك وأجعل ثمنَك فى بيت مال المُسلمين ، فإن لكلّ مُسلم ١٥ فيك حقّا .

وذكر ابن أبى الزّناد [عن أبيه][2] :

أنه كان يكتب لعُمر بن عبد العزيز ، وأنه كان يكتُب إلى عبد الحميد

(١) زيادة عن تهذيب التهذيب والذهبى وتراجم رجال .

(٢) زيادة عن عيون الأخبار (ج ١ ص ٤٤) . والمعروف أن أبا الزناد عبد الله بن ٢٠ ذكوان هو الذى كان يكتب لعمر ولعبد الحميد . (راجع الحاشية رقم ٤ ص ٢٠ من هذا الكتاب) .

ابن عبدالرحمن بن زيد[1] بن الخطّاب فى المظالم فيُراجعه ؛ [وكان عبدُ الحميد عاملَه على الكوفة][2] . قال : فأملى عليه يومًا كتابًا إليه، قال فيه : إنه يُخيّل إلىّ أنّى لو كتبتُ إليك أن تُعطِى رجلاً شاةً، لكتبتَ إلىّ : أضأنٌ أم ماعز ؟ فإن كتبتُ [إليك][3] بأحدها ، كتبتَ إلىّ : أصغير أم كبير ؟ فإن كتبتُ إليك بأحدها ، كتبتَ إلىّ : أذكَر أم أُنثى ؟ فإذا أتاك كتابى هذا فى مَظْلِمة ، فأعمل به ولا تُراجعْنى ، والسلام .

[٥١] وسأل عُمر بن عبد العزيز عن يزيد بن أبى مُسْلِم ، كاتب الحجّاج ؛ فقيل له : إنه غزا الصائفة[4] ، فأمر بالكتاب إليه بردّه ، وقال : لا أستنصر بجَيْش هو فيهم ، فردّه من الدَّرْب[5] .

---

(١) فى الأصل : « يزيد » وهو تحريف . (راجع الطبرى وعيون الأخبار وتهذيب التهذيب) .

(٢) وردت هذه العبارة فى هامش الأصل من غير إشارة من الناسخ إلى موضعها ؛ فتخيرنا لها هذا الموضع .

(٣) زيادة عن عيون الأخبار .

(٤) الصائفة : الغزوة فى الصيف .

(٥) راجع الحاشية (رقم ٣ ص ٥١) من هذا الكتاب .

أيام يزيد بن عبد الملك

كتابه

وكان يكتب ليزيد قبل الخلافة رجلٌ، يقال له: يزيد بن عبد الله. ثم استكتب أسامةَ بنَ زيد السَّليحى[1]. وأعاد يزيدُ بن عبد الملك سليمانَ ابن سعد إلى الدواوين، وكان عفيفاً عالما بصناعته، وكان عمرُ ابن عبد العزيز صرفه عن ديوان الخَراج. ٥

حقد الخشنى على أسامة

وقد كان أسامة بن زيد[2] يتولى خَراج مصر للوليد بن عبد الملك، وهو الذى ينسب إليه قصر أسامة. ولما أفضت الخلافةُ إلى يزيد ابن عبد الملك طلبَ أسامةَ بن زيد[2]؛ فقال سُليمان بن سَعْد الخُشَنى ليزيد ابن عبد الله: لِمَ بعث أميرُ المؤمنين إلى أسامة بن زيد[2]؟ فقال: لا أدرى؛ قال: أفتدرى ما مَثَلُك ومَثَل أسامة؟ قال: لا؛ قال: مَثَلك ومثله ١٠ مَثَل حَيَّةٍ كانت فى ماء وطين وبَرْد، فإن رفعتْ رأسها وقع عليها حافرُ دابّة، وإن بقيت ماتت برداً، فمرّ بها رجلٌ؛ فقالت: أدخِلْنى فى كمك حتى أدفأ ثم أُخرج، فأدخلها. فلما دفئت قال لها: اخرُجى؛ فقالت: [٥٢] إنى ما دخلتُ فى هذا المَدْخل قطُّ فخرجتُ حتى أنْقر نَقْرة، إما أن تَسْلم منها، وإما أن تموت؛ ووالله لئن دخل أسامةُ ليَنقُرَنَّك نقرةً إما أن تسلم ١٥ معها وإما أن تموت.

الوضاح وابن أبى مسلم فى إفريقية

قال عمرُ بن شبّة حدثنى بعضُ أصحابنا عن الوضّاح بن خيثمة[3] قال: أمرنى عمرُ بن عبد العزيز بإخراج قوم من السّجن، فأخرجتهم وتركت يزيدَ بن أبى مُسْلم، كاتبَ الحجّاج، فحقَد ذلك علىّ ونَذَر دمى.

(١) لعله: «أسامة بن زيد التنوخى». وهو الذى عرفت له ولاية على خراج مصر. ٢٠

(٢) فى الأصل: «يزيد» وهو تحريف.

(٣) كذا فى الطبرى. وفى الأصل: «خثيمة» وهو تحريف.

فإنى لبإفريقيّة ، إذ قيل لى : قدم يزيدُ بن أبى مُسْلم صارفاً لمحمد بن يزيد ، مولى الأنصار ، من قِبَل يزيد بن عبد الملك ، بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، فهربتُ منه ؛ وعلِم بمكانى ، فأمر بطلبى ، فظفِر بى ، وصير بى إليه . فلمّا رآنى قال لى : لطالما سألتُ الله أن يُمكّننى منك ! فقال وضّاح : وأنا ، ٥ لطالما سألتُ الله أن يُعيذنى منك ! قال : فوالله ما أعاذك منّى ، والله لأقتلنّك ، ثم والله لأقتلنّك ؛ والله لو سابقنى ملكُ الموت إليك لسبقتُه .

ثم دعا بالسيف والنِّطع ، فأُتِى بهما ، وأمر بالوضّاح ، فأُقيم فى النِّطع وكُتِف ، وقام وراءه رجلٌ بسيف ، وأُقيمت الصلاة ، فخرج إليها . فلما سجد أخذته السيوفُ ، ودخل إلى الوضّاح مَنْ قطع كتافه وخلّى سبيله ، وقال : [٥٣] ١٠ انطلقْ راشداً[1] .

سبب قتل ابن أبى مسلم

وكان سببُ قَتْل يزيد بن أبى مُسْلم ، أنه أجمع أن يَصْنع بأهل إفريقيّة ما صنَع الحجّاج بأهل العراق ، مِن ردّه مَنْ مَنّ الله عليه بالإسلام إلى بلده ورُسْتاقه ، وأخْذهم بالخَراج[2] ، فقتلوه وأعادوا محمد بن يزيد ، مولى الأنصار ، وكان محبوساً فى يده ، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك يقولون : ١٥ إنهم لم يخلعوا يداً من الطاعة ، ولكن يزيد بن أبى مُسْلم سامَهم مالا يَرضى اللهُ به ولا المُسْلمون ، فقتلناه ، وأعدْنا عاملك محمد بن يزيد .

فكتب إليهم يزيدُ بن عبد الملك : إنى لم أرْض بما صَنع يزيدُ بن أبى مُسْلم . وأقرّ محمدَ بن يزيد على إفريقية ، وكان ذلك فى سنة اثنتين ومئة

(١) الذى فى العقد الفريد أن هذه القصة كانت بين محمد بن يزيد الأنصارى وبين ٢٠ يزيد بن أبى مسلم .

(٢) يريد : وضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار ، وكذلك فعل الحجاج ، فإنه رد أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة وأسلم بالعراق إلى قراهم ، وقاصّهم فى الجزية كما لو كانوا كفارا .

نكاية ابن هبيرة بصالح ابن عبد الرحمن

وقلّد يزيدُ بن عبد الملك عُمَرَ بن هُبَيْرة العِراقَ ، فلما صار ابنُ هُبيرة إلى العِراق عزم على الجِباية ، فخاف مكانَ صالح بن عبد الرَّحمن عند يزيد بن عبد الملك ؛ فقال لكاتبه عبدة العَنْبرى : هل إلى صالح من سَبيل ؟ قال : لا والله ، ما أعرف إليه سبيلاً إلا أن تَظْلمه ؛ فقال : وكيف لى بظُلمه ؟ قال : كان رفَع إلى يزيد بن المهلّب ستَّمئَةِ ألف درهم ، ولم يأخذ منه بها بَرَاءة . فكتب ابنُ هُبيرة إلى يزيد بن عبد الملك : إن بى إلى صالح حاجةً ، فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يوجّهه إلىّ فعَل . فدعا يزيدُ بصالح فأخبره ، فقال : والله ما به إلىّ حاجة ، ولقد تركتُ العِراق ، ولو أتاه أبكمُ أكمهُ عرَف ما فيه ؛ فأنْفَذه إليه . فلما وصل إلى ابن هُبيرة أمر به فعُذِّب ، فكان كلّما عُذِّب بضَرْب من العَذاب ، قال : هذا القِصاص ! قد كُنتُ أعذِّب النّاسَ بمثل هذا ، حتى عُذِّب بضَرْب منه ، كانَ يُدْعى الفَزَاريّة ، كان إياس بن معاوية دلّ ابنَ هُبيرة عليه ، فقال صالح : هذا ما لم أعذِّب به . فلما ألحّ ابنُ هُبيرة على صالح بالعذاب ، جاء جَبلة بن عبد الرحمن ، وجيهان بن مُحرز ، والنّعمان السَّكْسكى ، فقالوا : نحن نَضمن صالحاً وما عليه ؛ فقال لهم الكاتب : أحْضِروا المال ؛ فقالوا : قبل الليل . فدخل الكاتبُ على ابن هُبيرة فأعْلمه ؛ فلم يخرج إليهم حتى أمْسوا وانصرفوا ، وأصبح صالح ميتاً .

[٥٤]

أيام هشام بن عبد الملك

[٥٥] الأبرش كاتبه

وكان يكتب لهشام سعيدُ بن الوليد بن عمرو بن جَبَلة الأبرش الـكَلْبى ، ويُكْنَى أبا مُجاشِع ، وكان غالباً عليه

نادرة بينه وبين الأبرش بعد وفاة يزيد

ولمـا تُوُفِّى يزيد بنُ عبد الملك ، وأفْضَى الأمرُ إلى هشام ، أتاه الخبرُ وهو فى ضَيْعة له ومعه جماعةٌ من أصحابه ، فيهم سعيدُ بن الوليد الـكَلْبىّ ؛ فلما قرأ الـكتابَ سَجد ، وسَجد من كان معه مِنْ أصحابه خلا سَعيد ، فإنه لم يسجُد ؛ فقال له هشام : ياسَعيد ، لِمَ لَمْ تسجد كما سجد أصحابُك ؟ فقال: علامَ أسْجد ، أعلى أن كُنْتَ معى فطِرْتَ، فصرتَ فى السّماء ! قال له : فإن طَيَّرناك معنا ؟ قال : الآن طاب السُّجود(١) .

أدبه مع أصحابه

وكان هشام يعتمّ ، فقام سعيدٌ ليسوّى عِمامته ؛ فقال له هشام : مَهْ، فإنّا لا نتّخذ الإخوان خَوَلا .

ابن هبيرة والأبرش عنده

ولمـا شَخَص عمرُ بن هُبيرة إلى هشام تكلّم بكلام استحسنه هشام ، ثم أقبل على سعيد فقال : ما مات مَنْ خَلّف مثلَ هذا ! قال : فقال له سعيد : ليس هناك يأمير المؤمنين ، أما تراه يَرْشَح جبينُه بضيق صَدْره ؟ فقال عمر بن هُبيرة : ما لذلك رَشَحْتُ يا سعيد ، ولـكنْ لجلوسك ولستَ بأهل . وكان سعيد يُحب أنْ يُفْسد حال عمر بن هُبيرة عند هشام .

خيل أعدها سعيد ليكيد عنده بها لابن هبيرة [٥٦]

وكان ابن هُبيرة يسير إذا ركب هِشام بالبُعْد منه ، وكان هشام معجباً بالخَيل ، فاتخذ سعيدٌ عِدّة خيل جياد وأضْمرها ، وأمر المُجْرِين لهـا أن يُعارضوا هشامًا إذا ركب ، فإن سألهم قالوا : إنها لابن هُبيرة . فركب هِشام يومًا ، فعُورض بالخيل ، فنظر إلى قِطْعة من خيل حَسنة ، فقال : لمن

(١) نسبت هذه القصة إلى عبد الحميد الـكاتب مع مروان بن محمد فى كتاب سرح العيون ، عند الـكلام على ترجمة عبد الحميد .

هذه؟ فقالوا: لابن هُبيرة، فاستشاط غضباً وقال: واعجباه! اختانَ ما اختان[1]، ثم قَدِم! فوالله ما رضيتُ عنه بعد، ثم هو يُباريني في الخيل! عليّ بابن هُبيرة. فدُعي به من جانب الموكب، فجاء مُسرعًا، فقال: ما هذه يا عُمر؟ ولمن هي؟ ورأى الغضبَ في وجهه، فعلم أنه قد كِيدَ، فقال: خيلٌ لكَ ياأميرَ المؤمنين، علمتُ عَجَبكَ بها، وأنا عالمٌ بجيادها، فاخترتُها وطلبتُها من مَظانّها، فمُر بقبضها؛ فأمر بقبضها. وكان ذلك سببَ إقباله عليه. ولم يتهيأ لسعيد أن يتكلّم، وإنما ظنّ أنّ هشامًا يغضب ولا يسأل، فتتمّ الحيلةُ على عُمر، فانعكست الحيلةُ عليه حيلةً له.

ابن قبيصة — وتقلّد إسحاق بن قَبيصة بن ذُؤيب ديوانَ الصّدقة لهشام، وتقلّد أيضاً ضياعَه بالأُردُنّ، واسمُه مكتوب بالفُسَيفِساء[2]، على قصر من قصور الصّباح[3] بعكّاء، ممّا جرى على يدى إسحاق بن قَبيصة.

ابن أسطين — وكان من كُتّابه تاذَرى بن أسطين النّصرانى، فقلّده ديوانَ حِمص.

جنادة — وكان جُنادةُ بن أبى خالد يكتُب لهشام على الطّرز[4]، واسمه موجود على الثّياب الهاشميّة.

وتقلّد خالد بن عبد الله القسْرىّ[5] العراقَ.

[٥٧] هو ونويد كاتبه وأرض أقطعها — وحُكى أن هشامًا أُقْطِع، قبل أن تُفضِيَ إليه الخلافة، أرضاً يقال لها: دُورين، فأرسل فى قَبْضها، فإذا هى خراب، فقال لذُوَيد، كاتب كان بالشام: وَيْحك! كيف الحيلةُ؟ فقال: ما تَجعل لى؟ فقال: أربعَمئة دينار؛ «فكتب: «دُورين وقُراها» ثم أمضاها فى الدّواوين، فأخذ

(١) اختان: خان.
(٢) الفسيفساء: قطع صغيرة ملونة من الرخام وغيره، يؤلف بعضها إلى بعض، ثم تركب فى الحيطان من الداخل.
(٣) كذا فى الأصل. ولعلها: «الضياع».
(٤) الطرز: الموضع الذى تصنع فيه الثياب.
(٥) فى الأصل: «القشيرى»، وهو تحريف.

هشام شيئاً كثيراً . فلمّا ولى هشام دخل عليه دُوَيد ، فقال له هشام : دور ين وقُراها ! والله لا تَلِى لى ولاية أبداً ! وأخْرجه إلى الشام .

ولاية القسرى على العراق وإسلام حسان

وكان فى ديوان العِراق مع محمد بن المُنتشر ، ابن أخى مَسْروق ابن الأَجْدع ، من كتّابه ، رجلٌ يقال له : حسّان النَّبَطىّ . فكَتب هِشام ٥ يأمر أن لا يُستعان بذِمّى ، فقِيل لحسّان فى ذلك ، فأَسْلم على يدَىْ محمد ابن المُنتشر ، ثم كتب لسعيد بن عمرو الحُرَشىّ على خُراسان ، ثم عاد إلى العِراق بعد صَرْف سَعيد .

كيد حسان لخالد عنده

وكان قد تقبّل ضِياع هشام بنهر الرُّمان رجل يقال له : فَرُّوخ[١] ، ويكنى : أبا المُثَنَّى ، فثَقُل على خالدٍ أمرُه ؛ فقال لحسّان : أخرُج إلى أمير المؤمنين، ١٠ وزِدْ على فَرُّوخَ فى الضياع ألفَ ألفِ درهم ، على أن تَستوفىَ حُدودَها . فوجّه هشامٌ مع حسّان رجلَيْن من صُلَحاء أهل الشام ، حتى حاز الضِّياع واستوفى حدودَها . فصار حسّانُ أثقلَ على خالد من فَرّوخ ، فجعل يُؤذيه ويُضِرّ به ؛ فقال له : لاتُفسدْنى ، فإنى صَنيعتُك ؛ فأبَى إلا الإضرارَ به . فبَثَق[٢] حسّان البُثُوق على الضِّياع ، وخرج إلى هشام فقال : إن خالداً بَثَق ١٥ البُثوق على ضياعك ، فوجّه هشام ناظراً ينظرُ إليها ، وأقام حسّانُ ينتظر عودتَه ، فقال فى بعض الأيام لخادم من خَدم هشام : هل لك فى ألفى دينار على أن تتكلّم بكلمة حيث يَسْمعها أميرُ المؤمنين؟ قال : عجّل علىّ الألفين وأقول ما شئتَ ؛ فعجّلها له، وقال له : بَكِّ صَبيًّا من صِبْيانه ، فإذا بكَىْ فقُل له : اسكُت ، فكأنك فى صَلَفك وعزّتك ابنُ خالد القَسْرى[٣] لَمّا بلغتْ غَلّتهُ ثلاثة ٢٠ عشرألفَ ألفِ درهم. ففعل الخادمُ وسمعها هشامٌ فأضَبَّ[٤] عليها . فدخل عليه

(١) كذا فى الطبرى . وهو فروخ أبو المثنى الرمانى ، وفى الأصل هنا وفيما سيأتى : « فروج » وهو تصحيف .
(٢) البثق : خرق سدّ الماء أو شقّ الشاطىء ليفيض ماؤه .
(٣) فى الأصل : « القشيرى » ، وهو تحريف .
(٤) أضب عليها : سكت عليها .

حسّان بعد ذلك ، فقال له : أُدْنُ منّى ، فدنا منه ؛ فقال : كم غَلّة خالد ؟
قال : ثلاثة عشر ألفَ ألفِ دِرْهم ؛ فقال له : فكيف لم تُخْبِرنى بذلك ؟
فقال له : وهل سألْتنى ؟ فوَقَرَتْ فى نفس هشام حتى عَزَله .

كيف تم عزل خالد القسرى

ولما أراد هشامٌ صَرْف خالد بن عبد الله ، وكان بحَضْرته رسولُ
يوسف بنِ عُمر، قد ورد عليه من اليمن ، وهو يتقلّدها له ،فدَعَا به وقال : ٥
إن صاحبك لمتعدٍّ طَوْره ، يسأل فوق قَدْره؛ وأمر بتخْريق ثيابه وضَرْبه [٥٩]
أسواطًا ، وقال له : الْحَقْ بصاحبك ، فعل الله به وفعل ! ودعا بسالمٍ
الكاتب على ديوان الرسائل، فقال له : اكتب إلى يوسف بن عُمر ، بشىء
أمره به ، وأعرِض الكتاب علىّ . فمضى سالمٌ ليكتب ما أُمِر به ، وخلا
هشامٌ ، فكتب كتابا لطيفًا إلى يوسف ، وفيه : سِرْ إلى العراق ، فقد ١٠
ولَّيْتُك ، وإياك أن يعلم بك أحدٌ ، واُشفِنى من ابن النَّصْرانية وعُمّاله .
وأمسكه فى يده ، وحضر سالمٌ بالكتاب الذى كتبه، فعرضه عليه ، وأغْتفله
فجعل الكتاب الصّغير فى طَيّه وختَمه ، ودفعه إلى الرّبيع[1]،وقال له : ادْفَعْه
إلى رسول يُوسف . فلما وصل الرسولُ إلى يُوسف ، قال : ما وراءك ؟
قال: الشرُّ، أميرالمؤمنين ساخطٌ عليك ، وقد أمر بتَخْريق ثيابى وضَرْبى، ١٥
ولم يكتُب جوابَ كِتابك ، وهذا كتابُ صاحبِ الديوان . ففَضّ
الكتاب وقرأه ؛ فلما انتهى إلى آخره ، وقف عَلَى الكتاب الصغير بخطّ
هِشام ، فاستخلف ابنَه الصَّلْت بن يُوسف ، وسار إلى العراق .

وكان يَخْلف سالمًا الكاتبَ على ديوان الرسائل ، بُشَيْرُ بن أبى دَلَجة ،
وكان فَطِنًا ، فلما وقف على ما كان من هشام . قال : هذه حِيلةٌ ، قد ولّى ٢٠
يوسفَ العراقَ ؛ فكتب إلى عِياض ، وكان وادًّا له : قد بعثوا إليك بالثوب [٦٠]

(١) هو الربيع بن سابور ، مولى لبنى الحريش ، وكان على خاتم الخلافة . (راجع العقد الفريد) .

اليمانى ، فإذا أتاك فالبَسه، واحمَد الله عليه ، وأعلِم طارقاً بذلك . فصرّف عياضٌ طارقاً ــ وهو ابن أبى زياد ــ ذلك ، وكان عاملَ خالد على الكوفة وما يليها . ثم نَدِم بُشَيْر على ما كتب به ، فكَتب إلى عِياض : إنّ القوم قد بدا لهم فى البعثة إليك بالثوب اليمانىّ . فصرّف أيضاً عياضٌ طارقاً

٥ بذلك ؛ فقال طارق : الخبرُ فى الكتاب الأوّل ، ولكنّ صاحبَك نَدِم ، وخاف أن يظهر أمرُه . ورَكِب من ساعته إلى خالد ، فخبّره الخبَر ؛ فقال له : فما تَرى ؟ قال : أرى أن تَرْكب من ساعتك إلى أمير المؤمنين ، فإنه إذا رآك استحيا منك ، وزال شىء ، إن كان فى نفسه عليك ، فلم يَقْبل ذلك ؛ فقال له : أفتأْذن لى أن أصِير إلى حَضْرته ، وأضْمن له جميعَ مال

١٠ هذه السّنة ؟ قال : وما مَبْلغ ذلك ؟ قال : مئة ألف ألف درهم . وآتيك بعَهْدك ؛ فقال له : ومن أينَ هذه ؟ والله ما أملِك عشرة آلاف دِرهم ؛ فقال له : أنا أتحمّل وسَعيدُ بن راشد أربعين ألفَ ألفِ درهم ــ وكان سعيد ابن راشد يتقلّد له الفُرات ــ ومن الزّينَبى وأبان بن الوليد عشرين ألف ألف درهم ، ونفرّق الباقىَ على باقِى العُمّال ؛ فقال له : إنّى إذاً لَلَئيم ، أن

١٥ أسوِّغ قومًا شيئاً ثم أرجع عليهم به ؛ فقال له : إنما نَقيك ونقى أنفسنا ببعض أموالنا ، ونَبقِى النعمة عليك وعلينا فيك ، ونستأنف طلَبَ الدنيا خير من أن نُطالَب بالأموال وقد حصلت عند تجار أهل الكوفة ، فيتقاعسون عنّا ، ويتربّصون بنا، فنُقتل ونَذْهب أنفسنا ، وتجعل الأموال لهم يأكلونها. فأبى ، فودّعه وبكى ، وقال : هذا آخر العهد بك ! ووافاهم يُوسف ، فمات [٦١]

٢٠ طارقٌ فى العَذاب ، ولَقِى خالد وجميع عُمّاله كلّ شىء ، ومات منهم فى العذاب بَشر كثير ؛ وكان منهم داود بن عَمْرو بن سَعيد ، على ديوان

الرسائل . وكان مبلغ ما استخرجه منه ومنهم تسعين ألف ألف درهم .

كتاب يوسف بن عمر

وكان يكتب ليوسف بن عمر على الخراج قُحْذُم بن أبى سُليم ابن ذَكْوان ، مولى أبى بَكْرة ؛ ويكتب له على الرّسائل رُشْدين مولاه ؛ وكان يكتب له أيضاً زيادُ بن عبد الرحمن ، مولى ثَقيف .

حيلة يوسف فى تعذيب خالد

وكان هشام قد حظَر على يوسف بن عمر تعذيبَ خالدٍ أو نَيْله فى ٥ نفسه بمكروه ، فشقّ ذلك عليه ، فوجّه بكاتبه قُحذُم بن أبى سُليم إلى هشام ؛ فقال له : احتَلْ فى إذْنه فى تَعْذيب خالد . فصار قُحذُم إلى حضرة هشام ، وجَدَّ فى إذْنه فى تَعْذيب خالد ، فلم يَأْذن له ؛ فقال له : يا أمير المؤمنين، إنّ خالدا يقول مالا يُتكلّم به ؛ قال : وما هو؟ قال : لا يُقال،وخرج.

[٦٢] فأتْبَعه خَديجاً خادمَه ، فقال : ما الذى يقوله خالد ؟ قال : ماله عِنده اسم ١٠ إلا الأحْول ، فأخبره بذلك . فكتب إلى يوسف بالبَسْط عليه ، فعذّبه يومًا واحداً ، ثم جاءه كتابهُ بتَخْلية سبيله ، فخلّاه ، فخرج إلى الشام .

سيرة يوسف مع كتابه

وذكر المدائنى أن بعض كتّاب يوسف بن عُمر تأخّر عن حضور ديوانه يومًا ، فدعا به ، فسأله عن تأخّره ، فعرّفه أنّ ضِرْسه ضَرب عليه ؛ فقلع له ضِرْسين . ١٥

وقال يوسف يومًا لقُحْذُم بن أبى سُليم : من أين هذا النِّفْط ؟ قال : أصْلح الله الأميرَ ! أمّا الأسود فإنّه يُحْمل من أَذْرَبيجان ، وأما الأبيض فإنه يُحْمل من رامَهُرْمُز[1] ؛ فقال له : يابن اللَّخناء ، مَنْ سألك عن الأسْود، والله لتُوسعنّى صَمْتاً ، أو لأُوسعنّك جَلْدا !

قحذم ويوسف بن عمر

وكان قُحْذم يَعيب صالحَ بن عبد الرحمن لتَعْظيمه أبنَه ، واعتماده فى ٢٠ الأمور عليه ، فصنع قُحذم بابنه عمر مثلَ ما عاب ؛ وكان يقول : ما أعلم

(١) رامهرمز : مدينة مشهورة بنواحى خوزستان .

أحدًا يَضْبِط أمر العراق بَعْدى إلا أبنى عُمر . فولّى أبنَه أمرَه ، فصانَع وأصاب مالاً وسِلاحا ؛ فقال يوسف لقَحْذم يومًا : ياقَحْذم ، اكفِنى ابنَك ونَحِّه عنك . فقال زيادُ بن عبد الرحمن ليوسف بن عمر : إنّ هشامًا قد أُعْجِب بقَحْذم، ولستُ آمن أن يولّيَه العراق ؛ فوقَرَت فى نفس يوسف ،

٥ فكتب إلى هشام يستأذنه فى الوفادة ، فأذِن له،وأمره أن يولّىَ الحَكمَ بن أبى الصَّلْت الحَرْب ، ويولّىَ الخَراج قَحْذمًا ؛ فقال له زيادُبن عبدالرحمن : هذا ما أخبرتك به . فترك يوسفُ الوِفادَة، وعَزَل قَحْذمًا، وحَبس ابنَه عُمر وعذّبه ، وقال لقحذم : اخرج عنّى ؛ فقال له : خلّ ابنى ، عَلامَ تحبسه ! فقال : عليه مئة وخمسون ألف درهم ؛ قال : فهى علىّ ، فأخْرِجْه وأبعث

١٠ به إلى عبد الصمد بن أبان بن النُّعمان بن بَشِير بَواسِط ، مع حَرَسٍ من قِبَلِك ، فإذا حملتُ إليه هذا المالَ خَلَّى سبيلَه ، ففعل . وقَدِم قَحْذَم ورُسُل يُوسف على عبد الصمد ؛ فقال له عبدُ الصّمد : جِئْنى بكُفَلاء بالمال ، فجاءه ، فخلّاه ، فانحدَر إلى البَصْرة . وجاء كتابُ يوسف إلى عبد الصمد : احبِس قَحْذمًا ، وإن كان قد مضَى فاطلبه أشدَّ الطَّلَب .

١٥ فاتّصلَ ذلك بقَحْذَم ، فهرب إلى مكة ، فأقام بها ثلاث سِنين . ومات هِشام ، فكتب يوسفُ إلى الوليد(١) : إن قَحْذمًا بمكة ، وسأله الأمرَ بطلَبه وحَمْله إليه . فكتب الوليدُ إلى يوسف بن محمّد بن يوسف يأمره بطلبه وحَمْله إلى يوسف بن عُمر ؛ فطلَبه يوسفُ بن محمّد ، فلمّا صار فى يَدِه

[٦٣]

(١) يريد الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وهو الذى ولى الخلافة بعد هشام .

تلطّف له، وقال له : أترضَى، وأنت خالُ أميرالمؤمنين، بإمْرة الحِجَاز و يُوسف ابن عمر على العِراق ؟ قال : قد وَعَدَنى أميرُ المؤمنين أن يُولِّيَنيها . فرغّبه فيها ، وحثّه عَلَى طَلبها ؛ فقال له : إيْمُ الله ، لئن وُلِّيتُ لأولينّك أمرى كلَّه ، ومع [هــذا](١) إنّى لا أوجّهك إلى يوسفَ حتى أُراجع أمير المؤمنين فيك . فأقام قِبَله ، فراجع الوليد فيه ، فلم يعُد الجوابُ حتى قُتل الوليدُ .

[٦٤]

أشرس وكاتبه

وقلّد هشامُ أشْرسَ بن عبد الله السُّلَمىّ خُراسانَ . و [كان](١) يكتُب لأشرس رجلٌ من أهل السَّواد ، يقال له : عُميرة ، ويُكْنى : أبا أُميّة .

ولاية ابن سيار على خراسان وكاتبه

ولما مات أســدُ بن عبد الله ، أخو خالد بن عبد الله ، بخُراسان ، وكان تَولّاها بعد أشْرس ، أختار هشامٌ نَصْرَ بن سَيّار بن أبى رافع ابن رَبيعة اللَّيْثى لتَقْليده(٢) خُراسان . فكتب عهدَه ، وأنْفذه إليه . وكان أسَدٌ لمّا حَضَرت وفاتُه استخلف جَعْفر بن حَنْظلة ، فعرَض جعفر على نَصْر بن سيّار أن يُولّيه بُخارى ، فشاور نصرُ بنْ سيّار البَخْترىَّ بن مُجاهد ، مولى بنى شَيْبان فى قَبُولها ، فأشار عليه ألاّ يَقبلها، وقال له: شيخُ مُضرَ بخُراسان ، وكأنّك بِعَهْدك قدْ حال على خُراسان كلّها . فلمّا وَلِى نَصْر بن سَيّار أستكتب البَخْترىَّ بنَ مُجاهد ، وكان وصُول العهد إلى نَصْر فى رجب من سنة عشرين ومئة .

ولم يزل البَخْترىّ على كِتابَة نَصْر إلى أن هَرب نصرٌ من خُراسان ؛

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) فى الأصل : « لتقليد » وهو تحريف .

فوجّه أبو مُسْلِم بعَمْرو بن أَعْيَن ، حتى قَبض على البَخْتَرِىّ بن مُجاهد ، فَحَبسه ثم قتله .

تحويل الحسبانات من الفارسية إلى العربية بخراسان [٦٥]

وكان أكثرَ كتّاب خُراسان إذ ذاك مَجُوس ، وكانت الحُسْبانات بالفارسيّة ؛ فكتب يوسفُ بن عمر ، وكان يتقلّد العِراق فى سنة أربع وعشرين ومئة ، إلى نَصْر بن سيّار كتاباً أَنْفَذَه مع رجل يُعرف بسليمان الطيّار ، يأمره ألاّ يَسْتَعين بأحد من أهل الشِّرك فى أعماله وكِتابته .

وكان أوّلَ من نقل الكتابةَ من الفارسيّة إلى العربيّة بخُراسان إسحاقُ بن طُلَيق الكاتب ، رجلٌ من بنى نَهْشَل، كان مع نَصْر بن سيّار، فخُصّ به . ووُلد لإسحاق ابنٌ فسمّاه نَصْرًا ، وقال :

سمّيتُ نصراً بنصر ثم قلْتُ له أُخْدُم سَمِيَّك يا نصرَ بن سيّار

أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك

كتابه

وكان يكتُب للوليد بُكَير[١] بن الشمّاخ؛ ويكتُب له على ديوان الرّسائل سالم[٢] مولى سَعيد بن عبد الملك. ثم كتب له ابنُه عبدُ الله ابن سالم. وكان من كُتّابه عبدُ الأعلى بن أبي عمرو[٣].

نصيحة ابن عتبة كاتبه له

وكان يكتب له على خاصّ أمْره ويَلْزم حَضْرتَه عَمْرُو بن عُتْبة، ٥ فقال له يوما، يا أميرَ المؤمنين، إنك تُلْطِفنى بالأُنس، وأنا أُكْفِت[٤] ذلك بالهَيْبة لك، وأراك تأمر بأشياء أخافُها عليك، أفأسكت مُطيعا أم أقول مُشفقاً؟ فقال: كلٌّ مقبولٌ منك، ولله فينا علم، ونحن صائرون إليه.

ونعود فنقول: قُتل الوليد بعد أيام يسيرة.

[٦٦] بقية كتابه

وكان يكتُب له على دِيوان الجُنْد عبدُ الملك بن محمد بن الحجّاج ١٠ ابن يُوسف، وكان على الخاتَم بَيْهس بن زُمَيل، وكان يكتب للوليد ابن يزيد قَبْل الخِلافَة عِياض بن مُسْلم.

(١) فى الأصل: «بكر» وهو تحريف. (راجع الطبرى).
(٢) فى الأصل هنا: «مسلم» وهو تحريف. (راجع الطبرى).
(٣) فى الأصل: «عمرة» وهو تحريف. (راجع الطبرى). ويقال فيه أيضا: عبدالله ١٥ ابن أبى عمرو.
(٤) أكفت ذلك، أى أحبس هذا الأمر فى نفسى، ولا أستطيع إظهاره.

أيام يزيد بن الوليد الناقص

ابن نعيم كاتبه

وكان يكتُب ليزيد بن الوليد عبدُ الله بن نُعَيم .

ابن الحارث وبعض ولد عبد الملك

وكان عمرو بن الحارث ، مولى بنى جُمَحَ ، يتولّى له دِيوانَ الخاتَم ، فقال عمرو بن الحارث لبعض وَلَد عبد الملك : كُنتَ متى شِئْتَ أن تجد من يَعِدُ ويُنْجزْ وَجَدْتَه ، فقد أعْيانى من يَعد ولا يُنْجِز . فلما مضتْ من هذا القولِ سِنُون ، قال عمرو : كنتَ متى شِئْتَ وجدتَ من يقول ولاَ يَفعل ، فصِرنا إلى زمانٍ مَنْ فيه لايقُول ولا يَفعل .

بقية كتابه

وكان يتقلّد له ديوان الرسائل ثابتُ بن سليمان بن سَعد الخُشَنيّ .
وكان يتقلّد له الخراجَ والخاتَم الصغيرَ النَّضْرُ بن عمرو ، من أهل اليمن .
وكان يتقلّد الخاتَم الكَبير قَطَنٌ ، مولاه .

يزيد وتولية العهد لإبراهيم

وكان بُرْد[1] بن سِنان أشار على يزيد بن الوَليد أن يَعْهد ، فقال : إنى لا أعرف من يَصْلُح ، فهل تعرف أحداً ؟ فقال له : أميرُ المؤمنين أعلم بأهل بَيْته ؛ فقال : أما إنّ أهلَ العِراق يُحبّون هذا حبًّا شديدًا ، لمكان أبيه — يعنى عبدَ الله بنَ عمر بن عبد العزيز — وإن أهلَ الشام ليَذْكرونه ويُفضّلونه . قال بُرْد : فقال لى : فادعُ دواةً وقِرْطاسا ، فدعوتُ بهما ؛ [٦٧] فقال : اُكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، وأُغمى عليه ؛ ودخَل قَطَنٌ مَولاه ، وكان يتقلّد مع ديوان الخاتَم حِجابتَــه ، فسأل عن الدَّواة والقِرْطاس ، فقُلْت : إن أميرَ المؤمنين أراد أن يَعْهد . فولّى ثم رجَع ، وقد

(١) فى العقد الفريد « يزيد » .

أفاق يزيد ، فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، أنا رسولُ مَنْ وراء هذا الباب ، يُناشِدونك اللهَ في دِمائهم ، ويسألونك بالله لمّا ولّيت أمرَهم إبراهيم بن الوليد . فقطّب ثم نظر إليه وقال بيده على جبينه[1] : أنا أُولّى أمرَهم إبراهيم ! قالها مرّات ، ثم أُغمى عليه . فخرج قَطَن فقعد في البيت الذى كان فيه ، فكتب كتابًا على لسان يزيد بتولية إبراهيم ، ثم خرج بالكتاب ، وقرأه على الناس ، فبايع أهلُ الشام إبراهيمَ ، خلا أهلِ حِمْص ، فإنّهم كاتَبوا مَرْوان بن محمّد ، وامتنعوا من بَيْعة إبراهيم ، ووقعتِ الفِتْنة . ٥

ابن عمر وكاتبه

وكان مَنْصور بن جُمْهور على العِراق ، ثم صُرِف بعبد الله بن عمر ابن عبد العزيز . وكان يكتُب لعبد الله بن عمر المُغيرةُ بن عَطيّة .

(١) نص هذه العبارة فى العقد الفريد : « فغضب وضرب بيده على جبينه وقال » . ١٠

أيام إبراهيم بن الوليد

وكان يكتب لإبراهيم إبراهيمُ بن أبي جُمْعة ؛ و يتقلَّد له ديوان فِلَسْطِين ثابتُ بن نُعَيم الجُذَامى[1] . كتابه

(١) فى الأصل : « الحارثى » وهو تحريف . (راجع الطبرى) .

[٦٨] أيام مروان بن محمد الجعدى

كتابه

وكان يكتب لِمَرْوانَ عبدُ الحميد بن يحيى ، مولى العلاء بن وَهْب العامرىّ ، من عامر بن لُؤَىّ . وكان من كُتّابه أيضاً مُصعب بن رَبيع الخَثْعَمى . وكان مَرْوان أوّل من أمَرَ أن يُحلّى الجُند .

مشورة عبدالحميد عليه بمصاهرة ابراهيم بن محمد

وكان عبدُالحميد بن يحيى قال لمَرْوان ، حين رأى عُلوّ أمْر بَنِى العبّاس: أتتّهمنى يا أمير المُؤمنين فيك ؟ قال : لا ؛ قال له : أرأيتَ إبراهيم بن محمد ابن علىّ ، أليس ابنَ عمّك ؟ قال : بلى ؛ قال : فإنى أرى أُمورَه تَنْبَع عليك ، فأَنكِحه وأَنكِح إليه ، فإنْ ظَهر ، كنتَ قد أَعْلقت بينك وبينه شيئاً ، وإن كُفِيته لم تَشِنْ بصِهْره ؛ قال : ويحك ! والله لو علمتُه صاحبَ الأمر لسبقتُ إليه ، ولكنْ ليس هو بصاحبه ؛ قال له : وما يضرّك من ذلك وهو من القوم الذين تَعلم أن الأمر مُنتقل إليهم لا مَحالة ، ومن الصّواب أن تُعْلِق بينك وبينهم شيئاً ؛ قال : والله إنى لأعلم أن الرأىَ فيما تقول ، ولكنّى أكره أن أطلب النّصر بأحْراح النساء .

كتاب عبد الحميد إلى أهله [٦٩] عند هزيمة مروان

وكتب عبدُ الحميد إلى أهله وأقاربه عند هزيمة مَرْوان من فِلَسْطين، وهو آخر حَرْب ومُواقعة كانت له ، وكانوا يَنْزلون بالقُرب من الرّقّة ، بموضع يُعرف بالحَمراء ، يُعزّيهم عن نفسه :

أمّا بعد ، فإنّ الله جَعل الدُّنيا محفوفة بالكُره والسرور ، وجعل فيها أقساماً مُختلفة بين أهلها، فمن دَرّت له بحَلاوتها ، وساعده الحَظُّ فيها، سَكَن إليها ، ورَضِى بها ، وأقام عليها ؛ ومن قَرَصته بأظفارها ، وعضّته بأنيابها،

وتَوَطَّأته بِثقلها، فَلاها نافراً عنها ، وذمّها ساخطاً عليها ، وشكاها مُستزيدا منها؛ وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها، وأرضعتنا من درّها أفاويق[1] أستحلبناها ؛ ثم شَمَست منّا نافره ، وأعرضت عنا مُتنكّره ، ورمحتنا موليّه ؛ فَملح عَذْبها، وأمرّ حُلْوها، وخَشُنَ لينُها؛ فرّقتنا[2] عن الأوطان ، ٥ وقطّعتنا عن الإخوان ، فدارُنا نازحه ، وطيرنا بارحه ؛ قد أخذت كلّ ما أعطت ، وتباعدت مثل ما تقرّبت ؛ وأعقبت بالراحة نَصَبا ، وبالجذل همّا ، وبالأمن خوفا ، وبالعزّ ذلاّ ، وبالجِدَة[3] حاجه ، وبالسّراء ضرّاء ، وبالحياة موْتا . لا ترْحم من أسترحمها ، سالكةً بنا سَبيلَ من لا أوْبة له ، منْفيّين عن الأولياء ، مقطوعين عن الأحياء .

١٠ وقال فى فصل آخر منه : [٧٠]

وكتبت إليكم والأيام تَزيدنا منكم بُعدا ، وإليكم صَبابة ووَجْدا ؛ فإن تمّ البلية إلى أقصى مدّتها يكُن آخرَ العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظُفر جارح من أظفار مَنْ يَليكم نَرْجِعْ إليكم بذل الإسار والصَّغار ، والذّل شرّ دار ، والأم جار ؛ يائسين من رَوْح الطمع وفُسحة الرجاء . نسأل ١٥ الذى يُعزّ من يشاء ، ويُذل من يشاء، أنْ يهب لنا ولكم أُلفةً جامعه ، فى دارآمنه ؛ تجمع سلامة الأديان والأبدان ، فإنه ربُّ العالمين، وأرحم الراحمين.

كتاب عبد الحميد إلى الكتاب

ووجدت بخطّ ميمون بن هارون لعبد الحميد كتابًا كتَبه إلى الكتّاب ، أطال فيه إلا أنه أجاد ، فلم أستجز إسقاطَ بعضه ، وكتبتُ جميعَه على طُوله ، لأن الكاتب لايَستغنى عن مثله ، وهو[4] :

٢٠ (١) الأفاويق : مايتجمع فى الضرع من اللبن بعد الحلب .
(٢) فرقتنا ، أى أخرجتنا .
(٣) الجدة : الميسرة .
(٤) ورد هذا الكتاب فى صبح الأعشى (ج ١ ص ٨٥ طبع دار الكتب المصرية) ورسائل البلغاء ومقدمة ابن خلدون باختلاف كثير عما هاهنا .

أما بعد ، حفظكم الله يأهلَ هذه الصّناعة ، وحاطكم ووفّقكم وأرْشدكم ، فإن الله جل وعزّ جعل الناسَ بعد الأنبياء والمُرسلين . صلواتُ الله عليهم أجمعين ، ومن بعد المُلوك المُكرّمين ، سُوَقًا[1] ، وصرّفهم فى صُنوف الصّناعات التى سبّب منها معاشَهم ؛ فجعلكم مَعْشرَ الكتّاب فى أشرفها صناعة، أهلَ الأدب والمُروءة، والحِلْم والروِيّة، وذوى الأخْطار والهِمَم ٥ وسَعة الذرع فى الإفْضَال والصِّلَة ؛ بكم ينتظم المُلكُ ، وتستقيم للمُلُوك أمورُهم ، وبتدْبيركم وسياستكم يُصْلحُ الله سُلْطانَهم ويجتمع فيهم ، وتعمرُ بلادُهم . يَحتاج إليكم الملك فى عَظيم مُلكه ، والوالى فى القَدْر السَّنِىّ [٧١] والدنىّ من ولايته ، لا يَستغنى عنكم منهم أحد ، ولا يُوجد كافٍ إلا منكم ، فموقعكم منهم موقعُ أسماعهم التى بها يَسْمعون ، وأبصارهم ١٠ التى بها يُبْصرون ، وألسنتهم التى بها يَنْطقون ، وأيْديهم التى بها يَبْطشُون . أنتم إذا آلت الأمور إلى مَوْئلها ، وصارت إلى مَحاصلها ، ثِقاتُهم دون أهْليهم وأولادِهم وقَراباتِهم ونُصحائِهم ، فأمتعكم الله بما خصّكم من فَضْل صِناعتكم، ولا نَزع عنكم سِرْبال النّعمة عليكم . وليس أحدٌ من أهل الصّناعات كلّها أحوجَ إلى استخراج خِلال الخير المحمودة[2] ، ١٥ وخِصال الفَضْل المذْكُورة المعدودة ، منكم أيها الكتّاب ، إن كنتم على ما سَبَق[3] به الكتابُ من صِفتكم ، فإنّ الكاتبَ يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبُه الذى يَثِق به فى مهمّات أموره ، إلى أن يكون حليمًا فى موضع الحِلْم ، فَهِيمًا فى موضع الحُكْم ، مِقْداما فى موضع الإقدام ، [٧٢] ومُحْجِما فى موضع الإحجام ، ليِّنًا فى موضع اللين ، شديداً فى موضع ٢٠

(١) سوقا : جمع سوقة . وفى صبح الأعشى ورسائل البلغاء : « أصنافا » .
(٢) فى الأصل : « الخير منكم » . وظاهر أن كلمة : «منكم» مقحمة من الناسخ .
(٣) فى صبح الأعشى ورسائل البلغاء : على ما يأتى » .

الشدّة ، مؤثِرًا للعفاف والعدْل والإنصاف ، كَتُوما للأسرار ، وفيًّا عِنْد الشّدائد ، عالمـا بما يأْتى وَيذَر ، ويضع الأُمور فى مواضعها . قد نظر فى كل صِنف من صُنوف العِلْم فأحكمه ، فإن لم يُحْـكمه شَـدَا[1] منه شَدْوًا يَكْتفى به ، يكاد يَعْرف بغريزة عقله ، وحُسْن أدبه ، وفَضْل تجْرِبته ما يَرِد عليه قبل وُروده ، وعاقبةَ ما يَصدُر عنه قبل صُدوره ، فيُعِـدّ لكلّ أمر عُـدّته ، ويُهيّئ لكل أمر أُهْبته .

فنافِسوا ، معشرَ الـكتّاب، فى صُنوف العِلم والأدب ، وتفقّهوا فى الدّين ، وابدءوا بعِلْم كِتاب الله عزّ وجلّ ، والفَرائِض ، ثم العربية ، فإنها ثِقَاف ألسنتكم ، وأجِيدوا الخطّ ، فإنه حِليْةُ كُتبكم ، وأرْوُوا الأشعار ، واعرِفوا غَريبها ومَعانيها ، وأيام العَرب والعَجم ، وأحاديثها وسِيَرها ، فإن ذلك مُعِين لكم على ما تَسْمُون إليه بهِمَمِكم . ولا يَضْعُفَنّ نَظَرُكم فى الحساب ، فإنه قِوام كُتّاب الخَراج منكم ، وارغبُوا بأنفسكم عن المَطامع ، سَنِيّها ودَنِيّها ، ومساوى الأُمور ومَحاقِرها ، فإنها مَذَلّة للرّقاب ، مفسـدة للـكتّاب . ونزِّهوا صناعتكم ، واربئوا بأنفسكم عن السِّعاية والنّميمة ، وَما فيه أهل الدّناءة والجَهالة ؛ وإياكم والـكِبْرَ والعَظَمة ، فإنها عداوة مُجتلبة بغير إحْنَة . وتحابُّوا فى الله عزّ وجلّ فى صِناعتكم ، وتَواصلُوا عليها ، فإنها شِيَم أهل الفضل والنُّبل من سَلَفكم . وإن نَبا الزمانُ برجلٍ منكم فأعطِفُوا عليه وواسُوه ، حتى ترجع إليه حالُه ، وإن أقعد الـكِبَرُ أحدَكم عن مَكْسبه ولِقاء إخوانه، فزُوروه وعظّموه وشاوِروه، واستَظْهِروا بفَضْل رأيه وتَجْرِبته وقَديم مَعْرفته . وليكُن الرجلُ منكم، على من اصطنعه واستظهرَ

[٧٣]

(١) شدا : أخذ . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصل بالدال المعجمة . وظاهر أنها مصحفة عما أثبتناه .

به ليوم حاجته إليه ، أحدبَ وأحْوط منه على أخيه وولده ، فإن عَرضت فى العمل مَحْمدة فَلْيَصْفها إلى صاحبه ، وإن عرضت مَذمّة فليَحملها مِنْ دُونه ؛ وليحذر السَّقْطة والزّلة والمَلال عند تغيّر الحال ، فإن العَيْب إليكم ، معشرَ الكتّاب ، أسرع منه إلى القرّاء ، وهو لكم أشدّ منه لها ، فقد علمتم أن الرجل منكم قد يصفى [(1)] الرجلَ ، إذا صحِبه فى بدء أمره ، من وفائه وشُكره ، ٥ وأحتماله وصبره ، ونَصيحته وكتمان سرّه ، وعَفافه وتَدْبيره ، بما هو حَرِىٌّ أن يحقّقه بفعاله ، فى غير حين الحاجة إلى ذلك منه ، فابذُلوا ، وفقكم الله ، ذلك من أنفسكم فى حال الرّخاء والشّدّة ، والحِرْمان والمُواساة ، والإحسان والإساءة ، والغَضب والرِّضا ، والسّرّاء والضّرّاء . فنعمت السّمة هذه لمن وُسِم بها من أهل هذه الصّناعة الشّريفة . فإذا وُلّىَ الرجلُ منكم ، وصُيِّر ١٠ [٧٤] إليه من أمور خَلْق الله وعباده أمرٌ فليُراقب الله تعالى ذِكرُه ، وليُؤثر طاعته فيه ، وليكن على الضّعيف رَفيقا ، والمظلوم مُنْصفا ، فإن الخَلْق عبادُ الله ، وأحبّهم إليه أرْفقُهم بعباده ؛ ثم ليكن بالحقّ حاكما ، وللأشراف مُكرما ومُداريا ، وللفَىْء مُوفّرا ، وللبلاد عامرا ، وللرعيّة مُتألّفا ، وليكن فى مَجْلسه متواضعاً حَليما ليّنا ، وفى أستجلاب خَراجه وأستقصاء حُقوقه ١٥ رَفيقا . وإذا صحب أحدكم الرجلُ فليستَشِفّ خلائقه ، كما يستشفّ الثوبَ ، [(2)] يشترِيه لنفسه ، فإذا عَرف حسَنها وقبيحها ، أعانه على ما يوافقه من الحَسن ، واحتال لصَرْفه عما [لا يوافقه] [(3)] من القبيح ، بألطف حيلة ، وأحسن مُداراة ورُفْق . فقد عرفتم أنّ سائس البهيمة ، إذا كان حاذقاً بسياستها ، التمس مَعرفة أخلاقها ، فإن كانت رَمُوحا [(4)] أتقاها من قِبل رِجْلها ، وإن ٢٠

(١) فى الأصل . « يصف » ولعلها محرفة عما أثبتناه .

(٢) يقال : استشف الرجل الثوب ، وذلك إذا نشره فى الضوء وفتشه ، ليطلب عيبا إن كان فيه .

(٣) هذه الكلمة غير واضحة بالأصل .

(٤) الرموح : التى ترفس برجلها .

كانت جَمُوحًا[(١)] لم يَهِجْها إذا ركبها، وإذا كانت شَمُوساً[(٢)] توقّاها من ناحية يدها ، وإن خاف منها عِضَاضا توقّاها من ناحية رأسها ، وإن كانت [٧٥] حَرُونًا[(٣)] لم يُلاحها، وتتبع[(٤)] هَواها فى طريقها، وإن استمرّت[(٥)] عطفها، فيسْلُس له قيادُها . ومن هذا الوصف من سائِس البَهيمة ، ورِفْق سياسته ٥ دليلٌ وأدبٌ لمن سَاس الناس وعامَلَهم ، وخَدمهم وخَبَرهم .

والكاتبُ بفَضْل رأيه ، وشَرَف صناعته ، ولَطيف حِيلته ، ومُعاملته لمن يُحاوره ويناظره ، ويَفهَم عنه ويخاف سَطْوته ، أولى بالرِّفق بصاحبه ، ومُداراته وتَقْويم أَوَده[(٦)] ، من سائِس البهيمة التى لا تُحير جوابا ، ولا تعرف خطأً ولا صوابا . إلا بقدر ما يُصيِّرها إليه سائسُها أو صاحبُها الراكبُ ١٠ لها . فأدِقّوا ـ يرحمكم الله ـ النظرَ ، وأعملوا فيه الرويّة والفِكر، تأمنوا ممن صَحِبتموه ، بإذن الله ، النَّبوةَ والاستثقالَ والجَفْوةَ ، ويَصِيروا منكم إلى الموافقة ، وتَصِيروا منهم إلى المُواساة والشَّفقة ، إن شاء الله .

ولا يُجوزنّ الرجلُ منكم ، فى هيئة مجلسه ومَلْبسه ومَرْكبه ومَطْعمه ومَشْربه وبنائه وخَدمه وغيرذلك من فنون أمره، قَدْرَ صناعته ، فإنكم،مع ١٥ ما فضّلكم الله به من شَرف صناعتكم ، خَدم ، لا تُحتملون فى خِدْمتكم على التقصير ، وخُزّان وحَفَظة ، لا يُحتمل منكم التَّضْييع والتَّبذير ، واستعينوا [٧٦] على عَفافكم بالقَصْد فى كلّ ما عَدّدْت عليكم . فنِعْم العونُ عونُكم على صِيانة دينكم ، وحِفْظ أمانتكم ، وصلاح مَعاشكم . واحذَروا مَتالِف السَّرف ، وسوء عاقبة الترف ، فإنهما يُعقبان الفقر ، ويُذلّان الرِّقاب ، ٢٠ ويَفْضحان أهْلهما ، ولاسيّما الكُتّاب ؛ والأمور أشباه ، وبعضُها دليل

(١) الفرس الجموح : الذى يركب رأسه لا يثنيه شىء ويجرى غالباً راكبه .
(٢) الفرس الشموس : الذى لا يمكن أحداً من ظهره ولا من الإسراج والإلجام ولا يكاد يستقر .
(٣) الفرس الحرون : الذى لا ينقاد .
٢٥ (٤) فى صبح الأعشى : « قم » .
(٥) استمرت : اشتدت عليه وامتنعت .
(٦) الأود : الاعوجاج .

على بعض ، فاستدلوا على مُؤْتَنَف[1] أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجّة ، وأرجحها حجّة ، وأحمدها عاقبة ؛ واعلموا أنّ للتدبير آفةً وضدّا ، وأنهما[2] لا يجتمعان فى أحد أبدا ، وهو الوصف الشاغل لصاحبه على إنفاذ عمله ورويّته ، فليقصِد الرجلُ منكم فى مجلس تدبيره قَصْد الكافى فى مَنْطقه ، وليقصد فى كلامه ، وليُوجز فى ٥ أبتدائه ، وليأخذ بمَجامع حُجَجه حجّته ، فإنّ ذلك مصلحةٌ لفعله ، ومجّة[3] لذهنه ، ومَدْفعة للشاغل عن إكثاره ؛ وإن لم يكن الإكثار عادة ، ثم وَضع مَوضعه فى ابتداء كتاب أو جواب عند الحاجة فلا بأس . ولا [٧٧] يدعونّ الرجلَ منكم صُنْعُ الله ، تعالى ذكرُه ، له فى أمره ، وتأييدُه إيّاه بتوفيقه ، إلى العُجْب المُضرّ بدينه ، وعقله وأدبه ، فإنه إن ظنّ منكم ظانٌّ، ١٠ أوقال قائل : إن ذلك الصُّنع لفضْل حيلته ، وأصالة رأيه ، وحُسْن تدبيره ، كان مُتعرِّضاً لأن يَكِلَه الله إلى نفسه ، فيَصير منها إلى غير كافٍ ولا يقلْ أحد منكم إنه آدَبُ وأعقل وأحمل لمبْء التدبير والعمل من أخيه فى صناعته، فإن أعقل الرّجلين ، عند ذوى الألباب ، القائلُ : إن صاحبَه أعقل منه ، وأحمقهما الذى يرى أنه أعقل من صاحبه ، لعُجْب هذا بنفسه ، ونَبذ ذاك ١٥ العُجبَ وراء ظهره ، إذ كان الآفةَ العُظمى من آفات عقله ؛ ولكن قد يلزم الرجلَ أن يعرف فضلَ نعمة الله عليه من غير عُجْب برأيه ، ولا تزكية لنفسه ، ولا تكابُر على أخيه وكُفئه ، ويشكر الله ويحمده بالتواضع لعظمته . وأنا أقولُ فى آخر كتابى هذا ما سَبق به المثلُ : من [٧٨] يلزم الصحّة[4] يلزمه العمل ؛ وهو جوهر هذا الكتاب وغُرة كلامه. بعد الذى ٢٠ فيه من ذكر الله عزّ وجلّ ، فلذلك جعلتُه آخرَه ، وختمتُه به .

(١) مؤتنف أعمالكم : ما ستأخذون فيه وتبدءون .

(٢) هذه الكلمة غير واضحة بالأصل ، ولعلها محرفة عما أثبتناه ، ونص هذه العبارة فى صبح الأعشى : « واعلموا أن التبذير آفة متلفة وهى الوصف » .

(٣) مجة : استجمام وجمع . ٢٥

(٤) فى رواية : « النصيحة » .

تولّانا الله وإيّاكم مَعْشر الكتّاب بما يتولّى به مَنْ سَبق علمُه فى سعادته وإرشاده، فإنّ ذلك إليه وبيده، والسلام عليكم ورحمة الله .

مشورة مروان لعبد الحميد باللحوق بأعدائه

ولما قوِى أمر بنى العبّاس وظهر، قال مَرْوان لعبد الحميد: إنا نَجد فى الكُتب أن هذا الأمر زائلٌ عنّا لا محالة، وسَيضطرّ إليك هؤلاء القوم، يعنى ولَد العبّاس، فصِرْ إليهم، فإنى أرجو أن تمكّن منهم فتنفعنى فى مُخلَّفِىّ. وفى كثير من أسبابى؛ فقال له: وكيف لى بأن يعلم الناسُ جميعاً أنّ هذا عن رأيك، وكلّهم يقول: إنى غدرت وصِرْت إلى عدوّك، وأنشد:

أُسِرّ وفاءً ثم أُظهر غَدْرةً   فمن لى بعُذر يُوسِع الناسَ ظاهرُه!

وأنشد أيضاً:

فذنبى ظاهرٌ لا عيبَ فيه   لِلائمة وعُذرى بالمَغيب

فلما سمع ذلك مروانُ علم أنّه لا يفعل؛ ثم قال له عبد الحميد: الذى أمرتَنى به أنفع الأمْرين لك، وأقبحهما بى، ولك علىّ الصّبْرُ معك إلى أن يفتح الله عليك، أو أُقتل معك[1].

[١٩]

مقتل عبد الحميد

ولما قَتَل عامرُ بن إسماعيل المَسْلىّ مروانَ، ظَفِر بعبد الحميد كاتبه، فَعرض عليه رُءوس القتلى، لأنه قُتل فى ستّة أو سبعة من خواصّه، وكانوا معه، فعرّفه رأسه، وحُمل عبد الحميد إلى أبى العبّاس فسلّمه إلى عبد الجبّار بن عبد الرحمن فكان يَحْمِى طَسْتا ويضعه على رأسه، فلم يزل يفعل به ذلك حتى قتله.

ووجدت بخطّ أبى على أحمد بن إسماعيل: حدّثنى العبّاس بن جعفر الأصْبهانى، قال:

(١) ورد هذا الخبر فى عيون الأخبار (ج ١ ص ٢٦ – ٢٧ طبع دار الكتب المصرية) باختلاف عما هاهنا.

كيف قبض على عبد الحميد

طُلب عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وكان صديقاً لابن المُقفع ، ففاجأهما الطلبُ وهما فى بيْت ، فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كلّ واحد منهما : أنا ، خوفاً من أن يُنال صاحبُه بمكروه ، وخاف عبد الحميد أن يُسْرعوا إلى ابن المقفع ، فقال : تَرفّقُوا ، فإن فىّ علامات ، ووكّلوا بنا بعضكم ، ويمضى بعضٌ يَذْكرتلك العلامات لمن وَجّه بكم فَفُعِلَ ذلك ، وأُخذ عبد الحميد .

كاتب عامر

وكان يكتب لعامرِ بنِ إسماعيل الحسينُ بن محمد القاسم النَّخعىّ .

وصاة عبد الحميد بالكتاب

وكان عبد الحميد يقول :

[٨٠] أكرموا الكتّاب ، فإن الله عزّ وجلّ أجرَى أرزاق العباد على أيديهم .

ابن أبى الورد كاتب مروان وشىء عنه

وكان يكتب لمروان على النفقات زيادُ بن أبى الوَرْد الأشجعىّ ، واسمه مكتوب على ميناء صور وميناء عكّاء : ما أمر بإصلاحه أميرُ المؤمنين مروانُ وجرى على يد زياد بن أبى الوَرد .

وذكر علىّ بن سِراج المحدّث :

أنه رأى على بيت مالٍ بأذرَبيجان : ممّا أمر به عبدالله المنصور[1] أميرُالمؤمنين، وجَرى على يد زياد بن أبى الورد ، لأنه تقلّد أيضاً المنصور .

حديث مخلد عن مروان

وذكر مَخلد بن محمد بن الحارث ، وكان من كتّاب مَرْوا ن إلى أن قُتل مَرْوان ، ثم اتصل بعبد الله بن علىّ[2] :

أنه حضر مجلسَ عبد الله يومًا ، فسأله عن مَرْوان وقال له : حدّثنى عنه ، فقال له : إنه قال لى يوم الوَقْعة : احْزُرْ[3] لى القومَ ؛ فقلت : إنى صاحبُ قلَمٍ ولست بصاحب حَرْب ، فأخذ يَمْنةً ويسرة ونظر ، ثم

(١) هو عبد الله بن محمد بن علىّ أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء العباسيين .

(٢) هو عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس .

(٣) الحزر : التقدير بالحدس .

قال لى : هم اثنا عشر ألفا ، فجلس عبدُ الله وكان مُتَّكئاً ، ثم قال : لله دَرّه ! ما أحصى الديوانُ يومئذ فضلاً عن اثنى عشر ألفاً .

من عبد الحميد إلى عامل لمروان أهدى غلاما أسود

وأهدى عاملٌ لمَرْوان غُلامًا أسود ، فقال لعبد الحميد : اكتب إليه فاذُمم فعلَه . فكتب إليه عبدُ الحميد : لو وجدتَ لوناً شرّا من السَّواد[1] ، وعددًا أقلّ من الواحد[2] ، لأهديتَه .

[٨١]

وهذا مأخوذ من قول أعرابى ، قيل له : مالَك من الوَلد ؟ فقال : قليل خبيث ؛ فقيل له : ما مَعْناك فى هذا ؟ فقال : لا أقلّ من واحد ، ولا أخبثَ من بنت .

شعر لعبد الحميد

وأنشد لعبد الحميد :

ترحّلَ ما ليس بالقافِل ... وأعقب ما ليس بالزائلِ
فوَيْلى من الخَلَف النازل! ... ولَهْفى على السَّلف الراحل!
أُبكّى على ذا وأبكى لذا ... بكاء المُولَّهة الثّاكِل
تُبَكّى من ابْنٍ لها قاطع ... وتَبكى على ابنٍ لها واصِل
فليستْ تُفَتّر من عبرةٍ ... لها فى الضّمير ومن هامِلِ
تَقضّتْ غَواياتُ سُكْر الصّبى ... وردّ التّقى عُنُن[3] الباطِل

غلب المروانيون العباسيين بثلاثة

وكان أبو جعفر المنصور كثيراً ما يقول بعد إفضاء الأمر إلى بنى العباس : غلَبنا بنو مَرْوانَ بثلاثة أشياء : بالحجّاج ، وبعبد الحميد ابن يحيى الكاتب ، والمؤذّن البَعْلَبَكّى .

وصف عبد الحميد لدابة له

وساير عبدُ الحميد يومًا مروان على دابّة قد طالت مُدّتها فى مِلكه ، فقال له مروان ، قد طالت صُحبة هذه الدابة لك ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ،

(١) كذا فى ابن خلكان فى ترجمة عبد الحميد . وفى الأصل : « أسود » .
(٢) كذا فى ابن خلكان ، وفى الأصل : « واحد » .
(٣) العنن : جمع عنان ، وهو اللجام .

إن من بَرَكة الدابة طولَ صُحْبتها، وقلّةَ علفها؛ فقال له، فكيف سيْرُها؟
[٨٢] فقال همُّها أمامَها، وسَوْطها عِنانُها، وما ضُرِبت قطّ إلا ظُلْمًا.

صار عبدالحميد بليغا

وقيل لعبد الحميد بن يحيى: ما الذى مكّنك من البلاغة، وخرّجك فيها؟ فقال: حفظ كلام الأصلع؛ يعنى أمير المؤمنين عليًّا.

نصيحة عبد الحميد لابن جبلة ليجود خطه

٥ وحُكى أن عبدالحميد مرّ بإبراهيم بن جَبلة، وهو يكتب خطًّا رديًّا؛ فقال له: أتحبّ أن يجود خطك؟ قال: نعم؛ فقال: أطل جِلْفة[1] قلمك وأسمنها، وحرّف قَطّتك وأيمنها. قال إبراهيم: ففعلت ذلك فجاد خطّى.

إعجاب ابن عباس بكلام لعبد الحميد

وحَكى عن إبراهيم بن العبّاس أنه قال:

ما تمنّيت كلامَ أحد أن يكون لى إلا كلام عبد الحميد، حيث يقول
١٠ فى رسالة له:

الناس أصناف[3] مُختلفون، وأطوار مُتباينون، منهم عِلْق مَضَنّة[2] لا يُباع، ومنهم غُلّ مظِنّة لا يُبتاع.

وقال عبد الحميد:

العِلْم شجرةٌ ثمرتُها الألفاظ، والفِكْر بَحْر لؤلؤه الحِكْمة.

عقب عبدالحميد وحظهم فى الكتابة

١٥ وكان لعبد الحميد عَقِب يسكنون مصر، ولم يكن فى أوائلهم مَنْ له نَباهة؛ فلما صار أحمد بن طُولون إلى نَواحى مصر، اتصل به أربعةُ نفر من وَلَده، ويُعْرفون ببنى المُهاجر، وكانوا يكتبون قبله للحُسين الخادم، المعروف بعَرَق الموت. واستكتب أحمدُ بن طُولون منهم الحسنَ بنَ محمد بن [٨٣] أبى المُهاجر — وكان علىُّ بنُ محمد أخوه أسَنّ منه — واستعان أحمد بن طولون
٢٠ أيضاً بأخَوَيْهما، وكانا يُكنَّيان بأبى القاسم، وأبى عيسى؛ وخَصُّوا

(١) جلفة القلم (بالكسر وتفتح): من مبراه إلى سنه.
(٢) علق مضنة: أى شىء نفيس يضن به.
(٣) فى ابن خلكان: «أخياف».

جميعاً بأحمدَ بن طولون ، وغلَبوا عليه ، واستحكمت ثقتُه بهم . وكانوا من أنصَبِ الناس ، وأشدّهم انحرافا عن بنى هاشم .

انتقاص ابن المهدى من عبد الحميد

قال يوسف بن إبراهيم صاحبُ إبراهيم بن المهدىّ :

سمعتُ إبراهيمَ بن المهدىّ يقول لعَلِىّ بن محمد بن أبى المُهاجر ، وقد فَخَر بذِكْر جدّه ، وذَكَرَ تقدُّمَه فى صناعته وفضْله وأدَبه و بلاغته :

إن عبد الحميد كان من أشْأَم كاتبٍ على وجه الأرض ، لأنه لما تقلّد وزارةَ مَرْوان لم يقتصر شُــؤمُه على إتلافه فقط ، حتى أزال دولةَ بنى مروان جُملةً ، ولم يَكتف فى مروان إلا بالقتل .

مصير الحسن ابن محمد

قال أحمد بن محمد ، المُكْنِىُّ بابن نَصْر ، المعروف بابن الأعجمىّ :

إن الحسن بن محمد لم يزل على كتابة أحمد بن طولون إلى أن مات ، و إنّ خُمارويه نَكَبه بعد أبيه وحبَسَه .

فحدَّثتنى جارية كانت للحسن بن محمد ، يقال لها نَبات :

أن خُمارويه أمر بإحضارها و إحضار جميع جَوارى الحَسن ، وكانت فيهنّ جاريةٌ له ، تُدْعى : بِدْعة ، وكان يتحظّاها ، وأنه طالبها بأن تُغَنّيَه فامتنعتْ ، فدعا بخادم يُقال له : سِوَار ، فأَسرّ إليه شيئاً ، وغاب غَيْبة ، [٨٤] وعاد ومعه رأسُ الحَسن بن محمد ، فوَضعه فى حِجْرها ، فلما رأتْه صَرخت ، وصَرَخْنا جميعاً ، فأمر بإخراجنا من حَضْرته .

بكر بن ماهان كاتب ابراهيم الإمام

وكان يكتب لإبراهيم الإمام ، عَلَى الدُّعاة ، بَكْرُ بن ماهان ، و يُكنى أبا هاشم ، وكان زوّج ابنتَه من أبى سَــلمة حَفْص بن سُليان ، مولى بنى الحارث بن كعب ، و يعرف بأبى سَلمة الخَلّال .

نسب الخلال

وقيل فى نِسْبته : إنه نُسِب إلى الخَلّ . وقال ثعلب عن ابن الأعرابىّ :

إنه نُسِب إلى خِلَل السيوف ، وهى الجُفون وذَكَر أن العرب تُسمّى
مَنْ يعملها، الخَلّال : واستشهد بقول الشاعر :

أَخْلَقَ الدَّهْرُ بجوّ طَلَلا مثْلَ ما أَخْلَقَ سَيْفٌ خِلَلا

كتاب بكر إلى إبراهيم الإمام

ولما حضرت أبا هاشم الوفاةُ كتب إلى إبراهيم الإمام يُخبِره :
أنه كتب فى أوّل يوم من أيّام الآخرة ، وآخر يوم من أيام الدنيا ، ٥
وأنّه قد أستخلف حَفْص بن سُليمان .

فكتب إبراهيمُ إلى أبي سَلَمة يأمُره بالقيام بأمْر أصحابه ، وكتب إلى
أهل خُراسان : إنه قد أسند أمرهم إليه . ومضى أبو سلمة إلى خُراسان ،
[٨٥] فقَبلوا أمره ، ودفعوا إليه خُمْس أموالهم ، ونَفَقَات الشيعة .

طلحة بن زريق كاتب الإمام

وكان المتولّى لمكاتبة الإمام عن الدُّعاة ، والقيّم بقراءة كُتبه إليهم[1] ١٠
بمَحْضر جماعتهم ، طلحةُ بن زُرَيق ، أخو مُصْعب بن زُرَيق ، جَدُّ طاهر
ابن الحُسَين ؛ ويكنى طلحةُ : أبا مَنْصور .

مهلهل بن صفوان

وكان مُهَلْهِل بن صَفْوان مولَى امرأة كانت لِعَلِيّ بن عَبْد الله
ابن العبّاس ، تَخْدُم إبراهيمَ الإمام فى الحَبْس ، وتكتب له كُتُبه ، فلم تزل
معه إلى أن قَتل مَرْوانُ إبراهيمَ . ١٥

نصب أبى سلمة وزيرا لآل محمد

ولما هُزِم ابنُ هُبَيْرة وقصد واسطَ ، ودخل حُمَيد والحسن ابنا قَحْطبة
إلى الكوفة ، لإحدى عشرة ليلة خَلَت من المحرّم سنة أثنتين وثلاثين
ومئة ، أظهروا أبا سَلمة ، وسلّموا إليه الرّياسة ، وسمّوه وزيرَ آلِ محمد؛ ودبّر
الأُمور ، وأظهر الإمامة الهاشميّة ، ولم يُسَمّ الخليفة .

---

(١) كذا فى حاشى الأصل . وفى الأصل : « والقيم بأمرهم وقراءة الكتب ٢٠
إليهم» . وقد أشار الناسخ إلى أن ما أثبته فى الهامش هو الصحيح .

كتاب أبى مسلم

وكان أبو مُسْلِمٍ يُكاتبه : « للأمير حَفْص بن سُليمان ، وزير آل محمّد ، من عبد الرحمن بن مُسْلم ، أمير آل محمّد ». وكان أبو مُسْلم لما أظهر الدعوة بخُراسان وغَلب على ما غلب عليه من البــلاد ، قلّد كِتابةَ الدّواوين بحضْرته و بيتَ المـال أبا صالح كاملَ بن مُظفَّر ، وقلّد كِتابةَ الرّسائل أسْلم
٥ ابن صُبيح .

[٨٦]
عهد مروان إلى أبى العباس

وكان إبراهيم عندَ حَبْس مَرْوان إيّاه خاف على أهل بيته ، فولّى أبا العبّاس عهدَه ، وعقَد الخِلافةَ له من بعده ، وأمره بالمَسير إلى الـكوفة إلى أبى سَــلمة ، وأمر أهلَ بيته أن يَسيروا معه ، ويَسمعوا له ويُطيعوا ، ونَعى إليهم نَفْسه . فسار أبو العبّاس عبدُ الله بن محمد ، ومعه أبو جَعْفر
١٠ أخوه ، وداودُ وعبدُ الله ، عمّاه ، وعيسى بن موسى بن محمد بن علىّ ، وموسى بن داود بن علىّ ، ويَحيى بن جعفر بن تمّـام بن العبّاس ، ومعهم جماعة من مواليهم ؛ فلما شارَفوا الـكُوفة وجّه أبو العبّاس بإبراهيم بن سَلَمة إلى أبى سَلمة يُخبره ، فأنـكر أبو سَلمة مَقْدَمهم وقال : خاطَرُوا بأنفسهم وعَجِلوا ، فَلْيُقيموا بقَصْر مُقَاتِل[١] ــ وهو على مَرْحَلتَيْن من الـكُوفة ــ حتى
١٥ نَنْظر فى أمْرنا . فرَجع إليهم إبراهيمُ بذلك ، فكتبوا إليه : إنا فى بَرّيّة ولا نأمن قَصْد جُيوش الشام إيّانا ، لأنهم بِهِيتَ ، على ثلاث مَراحل منّا ، وسألوه الإذْنَ لهم فى الدّخول [إلى][٢] الـكوفة ؛ ليتحرّزُوا بها . فأذِن لهم على كُرْه ، وأنْزلهم فى بنى أَوْد ، فى دار الوليد بن سَعْد الجَّال ، مولى بنى هاشم ، وكَتم أمْرَهم نحواً من شهرين ، من جميع
٢٠ القوّاد والشّيعة . وعَسْكرُ أبى سلَمة بحمّام أعْيَن[٣] ، فأقام بها ، وفرّق عُمّاله

(١) ذكره ياقوت فى معجمه ، وقال : هو بين عين التمر والشام . ونسبه إلى مقاتل بن حسان .
(٢) زيادة يقتضيها السياق .
(٣) حمام أعين : بالـكوفة ، وهو منسوب إلى أعين ، مولى سعد بن أبى وقاص .

[٨٧] على السّهل والجَبل ، وصارت الدّواوين بحضْرته ، والكُتبُ تنفُذ منه ، وتَرِد عليه .

شيء عن أبي سلمه

وكان أبو سَلَمَة يُطْعِم أصحابه غَداء وعشاء . وكان يتأنّق في السّلاح والدّواب ، ولا يتأنّق في ثوبه ، وكان فَصِيح اللّسان ، عالمًا بالأخبار والأشعار والجَدل وتفسير القرآن ، حاضِر الحجّة كثير الجِدّ . ٥

محاولة أبي سلمة عقد الأمر لولد علي

وكان لما صحّ عنده موتُ إبراهيم الإمام لقِيَ رجالاً من شيعة عليّ ، رضوانُ الله عليه ، فناظرهم على نَقْل الأمر إلى وَلَد عليّ ، وكتب إلى ثلاثة نفر ليعقِد الأمرَ لأحدهم ، وهم : جعفر بن محمد ، وعبد الله ابن حَسَن ، وعمر بن عليّ بن الحسن ؛ ودفع الكتبَ إلى رجل ، وأمره أن يَلْقى جعفراً بَدِيًّا[1] ، فإن قَبِل ما كُتب به مزّق الكتابَيْن ، وإن ١٠ لم يَقْبل لَقِي عبدَ الله بن حسن ، فإن قَبِل مزّق الكتاب الثالث ، وإن لم يقبل لَقِي عُمر بن عليّ .

فقَدِم الرّسولُ المدينةَ ، فأوْصل كتابَ جعفر بن محمد إليه ، فأحْرقه في السّراج ولم يَقْرأه ، وقال : الجوابُ ما رأيت .

فلقِي عبدَ الله بن الحَسن ، فقَبِل الكتابَ ، فحذّره جعفرُ بن محمد ، ١٥ فلم يَحْذر ، وأشار عليه أن لا يَفْعل ، وأعلَمه أنّ أهل خُراسان لَيْسوا بشيعة ، وأن أبا سَلَمة مَخْدوع مَقْتول .

مباينة أبي سلمة لأبي العباس

وارتاب أهلُ خُراسان بأبي سَلَمة وتكلّموا ، وقالوا : يا أبا سلمة ، مالَكَ خَرّجْتنا من قعْر خراسان ، ولا إليك دَعَوْتنا ، وما أنت لنا بإمام !

[٨٨] فهُم في ذلك معه ، إذ خَرج محمدُ بن إبراهيم الحِمْيَري — ويكنى : أبا حُمَيد ٢٠ السَّمَرْقَندي — يريد الكِناسَةَ ، فلقي سابقاً الخُوارَزْمي ، وهو غلام كانوا

(١) بديا : أي ابتداء .

أهدَوْه لإبراهيم الإمام ، فسأله أبو حُمَيد عن الخبر ، فأخْبره ؛ وصار إلى أبى العبّاس وأهل بيته ، فلما دخل أبو حُميـد عليهم ، سأل عن إبراهيم الإمام ، فخُبّر بوفاته ، فعزّاهم عنه ، وسألهم عن ابن الحارثيّة ، فأشاروا إلى أبى العبّاس ، فسلّم عليه بالخلافة ، وقبّل يدَه ورجله وبايَعه . وسألهم

٥ عن سبب مُقامهم هنالك ، فأعلموه أن أبا سَلَمة أنْزلهم تلك الدارَ نحواً من شهرين ؛ وأعلم أبا الجَهْم ، وموسى بن كعب ، ومحمد بن صُول ، وسَلْم ابن محمد ، ونَهار بن حِصْن ، وصاروا جميعاً إلى أبى العبّاس ، ومعهم أصحابُهم فى السّلاح ، فبايعوه . وأمر أبو الجهم أبا حُمَيد أن يَحْجُب الناسَ ، وبلغ الخبرُ أبا سَلَمة ، فرَكِب فى أصحابه ، فأُغْلِق البابُ دونه ، فاستفتح

١٠ أصحابُ أبى سـلمة البابَ ، وقالوا : وزيرُ آل محمد ؛ فأسمعوه بعضَ ما يَكره ؛ فقال أبو حُمَيد : افتحوا له حتى يُرِيَه الله مايُرْغِم أنفَه ، فدخل فاستقبل القِبْلة ، فسجد ثم سلّم ، وقبّل يدَ أبى العباس وقدَمَيْه ، وبدأ [٨٩] فى الاعتذار . فقال له أبو العباس : عذَرْناك يا أبا سلمة ، غيرَ مُفنَّد ، وحقُّك لدينا معظّم ، وسابقتُك فى دَوْلتنا مشكورة ، وزلّتك مَغفورة ؛ انصرفْ

١٥ إلى مُعسكرك لا يدخُله خَلَل . فانصرف إلى مُعَسكره بحمّام أعيَنَ .

وكانت مدّة تقْليد أبى سَلمة الأُمور منفرداً بها ، إلى أن ظهر أمرُ الشّيعة ، شَهْرين ونصْفا .

خالد بن برمك وشىء له مع قحطبة

وكان خالدُ بن بَرْمك فى عَسْكر قَحطبة يتقلّد خَراج كلّ ما افتتحه قَحْطبة من الـكُوَر ، وتقلّد الغَنائم وقسّمها بين الجُنْد . فكان يُقال : إنه

٢٠ ما أحد من أهل خُراسان إلا ولخالد عليه يدٌ ومنّة ، لأنه قسّط الخراجَ ، فأحسن فيه إلى أهْله . وكان مع قَحْطبة حيث قَتل ابنَ ضُبارة ، فَلَط

برأسه ، فوجّه قَحْطبة إلى أبى مُسْلِم بغير رأس ابن ضُبارة ، ثم عَرَف رأسه بنَقْشِ خاتمه ، فأراد قَحْطبة أن يُوَجّه به ، فمنعه خالد بن بَرْمك بصحّة رأيه ، وقال : إن فعلتَ ذلك أبطلت الأوّل والثانى .

وكان لخالد ، فيما ذكر عبــد الملك بن صالح ، وحكاه أيضاً صالح ، صاحبُ المصلّى فى يوم ابن ضُبارة ، رأىٌ وفطْنة استحْسنا ، وهو أنّ خالد ٥ ابن بَرْمك كان على سطح من سُطوحَ قَرْية ، قد نزلُوها مع قَحْطبة بن شَبيب ، وهم يتغدّون ، حتى أقبلَت أقاطيعُ الوحش من الظّباء والبقر ، فخالطت العَسْكر ؛ فقال خالد لقَحْطبة : يأيها الأمير ، قد أُتِينا ، فَمُرْ من [٩٠] يُنادى بالسّلاح ، فتعجب قَحْطبة منه ؛ فقال : لا تتشاغل بكلامى وأمُرْه بالنداء ، فنادى بالسّــلاح ، وأظلّهم ابن ضُبارة فى عَسْكره ، وكان من ١٠ أمرهم ما كان . فلما انقضت الحربُ سُــئِل عن السبب فيما قاله ؛ فقال : رأيت الوُحوشَ قد خالَطت العسكرَ ، ومن حُكْمها أن تَنفِر عنه ، فعلمت : إنها لم تُخالِطه إلا لشىء وراءها أعظمَ ممـا دخلتْ فيه .

أيام أبى العباس السفاح

خالد بن برمك مع أبى العباس السفاح

ولما عُقدت البيعة لأبى العبّاس ، [و] [١] حضَر خالدُ بن برمك لمُبايعته ، فرأى فصاحته ، فتوهّمه من العَرب ، فقال له : ممّن الرجل ؟ فقال له : مولاك خالدُ بن برمك ، وقصّ عليه قِصّته ، وقال : أنا كما قال الكُميت ابن زيد :

فمالىَ إلا آلَ أحمدَ شيعةٌ ومالى إلا مَشْعبَ الحقّ مَشْعبُ

فأُعجِب به أبو العبّاس ، وأقرّه على ما كان يتقلّد من الغنائم ، وجعل إليه بعد ذلك ديوانَ الخَراج ، وديوانَ الجُند ، وكثُر فيه حامدُه ، وحَسُن أثرُه .

وكان سَبيلُ ما يُثبَت فى الدواوين أن يُثبت فى صُحُف ، فكان خالد أوّلَ من جَعله فى دفاتر ، فخُصّ بأبى العبّاس ، وحلّ محلّ الوزير . ودفع أبو العبّاس ابنته رَيْطة إلى خالد بن برْمك ، حتى أرضَعتها زوجتُه أمّ خالد بنت يَزيد ، بلبان بنتِ لخالد ، تدعى أمّ يحيى ، وأرضعت أمُّ سَلَمة زوجة أبى العبّاس أمّ يحيى ، بنت خالد ، بلِبَان ابنتها رَيْطة ؛ فقال أبو العبّاس يوما لخالد بن برْمك : لم ترْض يابن برْمك حتى استعبدتنى ! فوجَم من ذلك ، وقال : أنا عبدُ أمير المؤمنين ؛ فقال له : كانت رَيْطة وأمّ يحيى فى فِراش واحد ، فتكشّفتا ، فرددتُ عليهما اللّحاف ، فقبّل يدَهُ ، وشكَر له ، ولم يزل على منزلته عنده إلى أن توفّى أبو العباس .

[٩١]

أخذ أبى جعفر البيعة على أبى مسلم

وورَد على أبى العبّاس أبو جعفر مُنصرِفا من خُراسان فى

(١) زيادة يقتضيها السياق .

جُمادَى الأُولى سنةَ اثنتين وثلاثين ومئة ، وكان وجّهه إليها لأَخْذ البَيْعة على أبِي مسلم وأَصحابه ، فأَخَذها ورجع .

قتل أبي العباس لأبي سلمة

وكان أبو العبّاس هَمَّ بأبي سَلَمة ، فقال له داودُ بن عليّ : لا آمنُ عليك أبَا مُسلم إن فعلتَ أن يَستوحش ، ولكن اكتُب إليه ، فعرِّفه ما كان من أبي سَلمة ، فكتب أبو العباس إلى أبي مسلم يُعلمه ما كان من أَمْر أبي سَلَمة في الكتاب إلى مَنْ كتب إليه من ولد عليّ ، وما كان أجمعه مِنْ صرْف الدّعوة إليهم . فوجّه أبو مسلم بالمرّار بن أنس [٩٢] الضَّبي لقَتْل أبي سَلمة ، فلما وافاه أمر أبو العباس ، قبل قتله بثلاثة أيام ، مناديًا ينادي بالكوفة : إن أمير المؤمنين قد رضي عن أبي سلمة . ثم دعاه قبل مَقْتله بيوم ، فخَلع عليه ، وكان يَسْمُر عنده ، فخرج ليلَته تلك يُريد الانصراف إلى منزله ، وقد كَمَن له المَرّار بن أنس ، وأَسِيد بن عبد الله ، فقَتلاه ، وأُغلقت أبواب المدينة ، فقيل لأبي العبّاس : إن أبا سَلمة قتَلَه الخوارج ؛ فقال : لليَديْن وللفم[1] . وقُتِل في رجب سنة اثنتين وثلاثين ومئة .

أبو العباس وزوجته وأبي سلمة

وقلّد أبو العبّاس عُمارةَ بن حَمْزة بنِ مَيمون، من ولد أبي لُبابَة ، مولى عبد الله بن العبّاس ، ضِياعَ مَرْوان وآل مَرْوان . وكان عُمارةُ سخيًّا مريًّا ، جليلَ القدْر ، رفيع النفس ، كثير المحاسن ؛ وكان أبو العبّاس يَعْرِف عِمارة بن حمزة بالكِبْر ، وعُلوّ القَدْر ، وشدة التنزّه ؛ فجرى بين أبي العبّاس وبين أم سَلمة بنت يعقوب بن سَلمةِ المخزوميّة زوجتِه ، يومًا كلام فاخرتْه فيه بأهلها ، فقال لها أبو العبّاس : أنا أُحضِركِ الساعة على غير أُهْبة مولًى من مواليَّ ليس في أَهْلك مثلُه ، ثم أمر بإحضار عُمارة ابن حَمْزة على الحال التي يكون عليها ، فأتاه الرسولُ في الحُضور . فاجتهد [٩٣]

(١) اليدين وللفم : كلمة تقال للرجل إذا دعى عليه بالسوء ؛ ومعناها : كبه الله لوجهه أى خر على يديه وفيه .

فى تَغْيير زَيِّه ، فلم يَدَعْه ، فجاء به إلى أبى العبّاس وأم سَلمة خَلْفَ الستر، و إذا عُمارة فى ثياب مُمَسّكه قد لطّ[1] لِحيته بالغالية[2] حتى قامت[3] ، واستتر شعرُه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما كنتُ أحبّ أن ترانى على مثل هذه الحال، فرَمى إليه عِذْقُهُن كان بين يديه، فيه غالية ؛ فقال ، يا أمير المؤمنين: أتَرى لها من لِحيتى موضعا ! وأخرجت إليه أم سَلمة عقداً كان لها ، قيمتُه جليلة ، وقالت للخادم : تُعلِمه أنى أهْديته إليه . فأخذه عمارة بيده، وشكر أبا العبّاس، ووضَعه بين يديه ونَهض ؛ فقالت أم سلمة لأبى العبّاس: إنما أنْسِيَه ؛ فقال أبو العباس للخادم : الحَقْه به ، وقُلْ له : هذا لك ، فلِمَ خلّفته ؟ فأتبعه الخادمُ ، فلما أدّى إليه الرسالةَ قال له : إن كنتَ صادقاً فهو لك ، وانصرف الخادمُ بالعقد ، وعرّف أبا العبّاس بما جَرى ، وامتنع من ردّه على أم سَلمَةَ ؛ وقال لها : قد وَهَبه لى ، فلم تَزَل إلى أن اشترتْه منه بعشْرة ألف دينار .

كلام يؤثر لعمارة

وكان عُمارة بن حمزة يقول : يُخْبَز فى دارى كلَّ يوم ألفا رغيف ، يُؤكل منها ألفُ وتسع مئة وتسعة وتسعون رغيفاً حلالا ، وآكُل رغيفاً واحداً حرامًا ، وأستغفر الله .

[٩٤]

وكان يقول : ما أعجبَ قولَ الناس : فلانٌ ربُّ الدار ! إنما هو كلبُ الدار .

مكرمة لعمارة بن حمزة

وكان الماء زاد فى أيام الرشيد ، وكان الرشيد غائباً فى بعض متصيَّداته ، وَيحيى بن خالد مُقيم ببغداد ؛ فركب يحيى ومعه القوّاد ، ليفرّقهم على المواضع المَخُوفة من الماء يَحْفظونها ، ففرّق القُوّاد ، وأمر بإحكام المُسنّيَات[4] ، وصار إلى الدُّور، فوقف ينظر إلى قوّة الماء وكثْرته ،

(١) لط : أخفى .
(٢) الغالية : أخلاط من الطيب .
(٣) أى وقفت فلم تتحرك شعرها من كثافة ماوضع عليها من الطيب .
(٤) المسنيات : مايبنى فى وجه السيل ويعقد لحبس الماء .

فقال قوم : ما رأينا مثلَ هذا المدّ ! فقال يحيى بن خالد : قد رأيت مثلَه
فى سنة من السنين ، كان أبو العبّاس خالد وجّهنى فيها إلى عُمارة بن حَمْزة ،
فى أمر رجل كان يُعْنَى به من أهل خُراسان ، وكانت له ضِـــياع
بالرىّ ، فورد عليه كتابُه يُعْلِمُه أن ضياعه تُحيِّفَت [1] فخَرِبت ، وأن نعمته
٥ قد نقصت ، وأن حاله قد تغيّرت ، وأن صَلاح أمره فى تأخيره بخَراجه
لَسنة ، وكان مبلغه مئتى ألف درهم ، ليتقوّى به على عِمارة ضَيعته ،
ويؤدّيه فى السنة المُستقبلة . فلما قرأ كتابه غمّه وبلغ منه ، وكان بعقب
ما ألزمه أبو جعفر من المال الذى خَرج عليه ، فخَرج به عن كلّ ما يملكه،
[٩٥] واستعان بجميع إخوانه فيه ؛ فقال لى : يا بُنى، مَنْ هاهنا يُفزَع إليه فى أمر
١٠ هذا الرّجل؟ فقلت : لا أدرى ؛ فقال : بلى ، عُمارة بن حمزة ، فصِرْ إليه،
وعرِّفه حالَ الرجل ؛ فصِرْتُ إليه وقد مَدَّت دجلة ، وكان ينزل الجانبَ
الغربىّ ، فدخلتُ عليه وهو مُضْطجع على فِراشـــه ، فأعلمته ذلك ،
فقال : قِفْ لى غـــدا بباب الجِسْر ، ولم يَزِد على ذلك . فنهضتُ ثقيل
الرجلين ، وعدتُ إلى أبى العبّاس بالخبر ؛ فقال : يا بُنَىّ: تلك سَجِيّتُه ، فإذا
١٥ أصبحتَ فاغْدُ لموعده ، فغدوتُ فوقفتُ بباب الجِسْر ، وقد جاءت دجلة
فى تلك الليلةَ بمدّ عجيب قَطَع الجُسور ، وانتظم الناسُ من الجانبين جميعاً
ينظُرون إلى زيادة الماء . فبينا أنا واقف ، أقْبل زَورق واللوج يُخْفيه مرّة
ويُظْهِره أخرى ، والناس يقولون : غَرِق غَرِق ! نجا نجا ! حتى دنا من
الشطّ ، فإذا عُمارة بن حمزة وملاّح معه فى الزورق ، وقد خلّف دوابّه
٢٠ وغِلْمانه فى الموضع الذى رَكب منه ، فلما رأيتُه نَبُل فى عينى ، وملأ
صدرى ، فنزلتُ ، فعدوتُ إليه ، وقلت . جُعِلت فداك ! أفِى مثل هـــذا

(١) تحيفت : تنقصت (بالبناء للمجهول فيهما) .

اليوم ! وأخذتُ بيده . فقال: أ كنتُ أعدك وأخلف ، يابن أخى، اُطلُب لى بِرْذونا أتكاراه ؛ فقلت له: فاركب بِرْذونى ؛ قال: فأىّ شىء تركب ؟ قلت: بِرْذون الغلام . فقال، هاتِ، فقدمتُ إليه بِرْذونى فركبه ، وركبتُ [٩٦] برذون غلامى ، وتوجّه يريد أبا عبيد الله ، وهو إذ ذاك على الخَراج ، ٥ والمهدّى ببغداد خَليفة للمنصور ، والمَنْصور فى بعض أسفاره ، قال : فلما طلَع على حاجب أبى عُبيد الله ، دخل بين يديه إلى نِصْف الدار ، ودخلتُ معه ، فلما رآه أبو عُبيد الله قام من مجلسه ، وأجْلسه فيه ، وجلس بين يديه ، فأعْلمه عُمارة حالَ الرجل ، وسأله إسقاط خَراجه ، وهو مئتا ألف درهم ، و إسْلافَه من بيت المال مئتى ألف درهم ، يردّها فى العام المقبل .

١٠ فقال له أبو عُبيد الله : هذا لا يُمكننى ، ولكنّى أؤَخّره بخراجه إلى العام المقبل ، فقال : لست أقبل غيرَ ما سألت ؛ فقال أبو عُبيد الله : فاقنعْ بدون هذا ، لتُوجد لى السبيلَ إلى قضاء الحاجة ، فأبى عُمارة ، وتلوّم أبو عُبيد الله قليلاً ، فنهض عُمارة ، فأخذ أبو عُبيد الله بكُمّه وقال : فإنى أتحمّل ذلك من مالى ، فعاد لمجلسه ، وكتب أبو عُبيد الله إلى عامل ١٥ الخَراج بإسْقاط خَراج الرجل لسنَته ، والاحتساب به على أبى عُبيد الله ، و إسْلافِه مئتى ألف درهم ، تُرتجع منه فى العام المُقبل . فأخذتُ الكتاب وَخَرجْنا ، فقلت : لو أقمتَ عند أخيك ولم تَعْبر فى هذا المَدّ ؟ فقال : لست [٩٨] أجد بُدًّا من العُبور ، فَصِرْتُ معه إلى الموضع ، ووَقَفْت حتى عَبر .

وكان أبو الجَهْم بن عطيّة ينُوب عن أبى مُسْلم بحضرة أبى العبّاس ٢٠ وَيخلفه ، فثقُلت وَطْأة أبى مُسلم على أبى العبّاس ، وكثُر خِلافه إيّاه ، وردّه لأمره ، فقال أبو العبّاس لأبى الجَهْم : اكتُب إليه ، وأشِر عليه

حيلة أبى العباس ضد أبى مسلم

بالاستئذان فى القُدوم علينا، لتجديد العهْد بنا. فكتب إليه أبو الجَهم بذلك، فقَبِل رأيه، وكَتَب مُسْتأذنا، فمنَعه أبو العبّاس، وقال له: خُراسان لاتحتمل مُفارقتك لها، وخرُوجك عنها؛ وتركه شهراً. ثم قال لأبى الجَهْم: أعِد الكتابَ بمثل ذلك، فأعاده، فكتَب أبو مُسلم مُسْتأْذِنا، فمنَعه وأجابه: إن خُروج أمير المؤمنين إليك أسهل من الإذن لك، و إخلائك ٥ ماقد أصْلحه الله بك، ثم تركه شهراً. وقال لأبى الجهم: أعد الكِتاب، وأشِرْ عليه بأن يذكُرشدّة شَوقه، ومحبّته لمُشاهدة نعمة الله عندنا، وعنده فينا، ففعل، وكتب أبو مُسلم بنحو ما كتَب به أبو الجهم إليه، فأجابه أبو العبّاس بالإذن. واستخلف أبا صالح كاملَ بن مُظَفَّر على الخراج والدواوين، وفرّق أعمالَ الحَرْب على جَماعة، وقَدِم على أبى العبّاس ١٠ [٩٨] فلقِيه، ثم استأْذن فى الحجّ، فأذِن له.

وكان أبو العبّاس شكَا إلى خالد، وهو يتقلّد دواوينه، اهتمامَه بهَيْبة الجند أبا مسلم، فأشار عليه أن يأمرَه بعَرْضهم، وإسقاط من لم يكن من أهل خُراسان منهم، ففعل ذلك. فجلس أبو مُسْلم للعَرْض، فأَسْقط فى أوّل يوم بَشراً كثيراً، ثم جَلس فى اليوم الثانى، فأسقط أيضاً ١٥ بشراً كثيراً، ثم جلس فى اليوم الثالث، فدَعا بالناس فلم يَقُم أحد، فدعا ثانيةً فلم يَقُم أحد، ودعا ثالثة فلم يَقُم أحد، فقام إليه رجل فقال: علامَ تُسْقط الناس أيها الرجل منذ ثلاثٍ؟ فقال: أُسْقط من لم يكن من أهل خُراسان؛ قال. فابدأبنفسك، فإنك من أهل أَصْبهان، وقد دخلْت فى أهل خُراسان. فوثب أبو مُسلم عن مجلسه، وقال: هذا ٢٠ أمرٌ أُحْكِم بلَيْل، وحَسْبك من شَرٍّ سماعُه، وفَطِن لما أُرِيد به، وبلغ الخبرُ أبا العباس، فسرّه.

[٩٩] طريح بن إسماعيل وداود بن على

وكان داود بن علىّ يتقلّد الكوفة وأعمالها ، فدفع طُرَيحُ بن إسماعيل إلى كاتبه رقعةً إلى داود فى حاجة له إليه ، مُتقاضياً لها ، فقال له :هذه حاجتُك مع حاجة فلان من الأشراف ، فقال :

تخلَّ بحاجتى واشدُدْ قُواها فقد أمستْ بمنزلة الضياع

إذا ارضَعتَها بِلِبان أخرى أضرَّ بها مُشاركةُ الرّضاعَ   ٥

ودونَك فاغتنم شُكرى وشِعْرى وإياكُمْ مكاشَفَةَ القِناع

فأفرد رُقْعته ، وقضى حاجته .

أيام المنصــور

كيف اتصل عبد الملك ابن حميد بالمنصور

وكان يكتُب لأبي جعفر المنصور عبدُ الملك بن حُميد ، مولى حاتم ابن النُّعمان الباهلي ، من أهل حَرّان ، وكان كاتباً متقدّما ، فجلس في يوم من أيام عُطلته بحَرّان ، ويَحْيَى بن نَزملة الصُّفْرىّ ، وعبيد الله بن النّعمان ، مولى ثَقيف ، ورجلان آخران تحت شجرة تِين ، وذلك بعد انقضاء أمر بني أمية ، ومصير الأمر إلى بني العبّاس ، فقالوا : لو أصَبنا رجلاً له سلطان انقطعنا إليه ، وكنّا في خِدْمته ، يَرْزقنا رزقاً نعود به على عيالنا ؛ فقال بعضهم : عسى الله عزّ وجلّ أن يُسبِّب ذلك لنا أو لبعضنا فيُفْضِل علينا . فتواثقوا بينهم ألاّ يُصيب رجل منهم سلطاناً إلا آسَى أصحابَه . وطلب المنصور كاتباً ، فوُصف له عبدالملك بن حُميد . فأمر بإحضاره ، فأُحضر ، فقلّده كتابَته ودواوينَه ، وتذكّر عبدُ الملك أصحابَه فأحضرهم ، وقــلّدهم الأعمالَ فأَثْرَوا ، وحسُنت أحوالهم ، وكانوا إذ ذاك يُعرَفون بأصحاب التِّينة .

[١٠٠]

نادرة لعبد الملك مع أبي دلامة

وهو الذي أمره أبو جعفر ، وقد أنشد أبُو دلامه أبياتَه التي يقول فيها :

هَبّت تُعاتبني من بعد رَقْدتها ... أمُّ الدُّلامة لما هاجها الجَزَعُ
قالت تبَغَّ لنا نَخْلا ومُزْدَرَعا ... كما لجيراننا نَخْل ومُزْدَرَع
خادِعْ خليفتنا عنها بمسـألة ... إن الخليفة للسّـؤال ينخدع

أن يُقطِعه خمسَ مئـــة جَريب[1] عامرة ، وخمسَ مئة جريب غامرة ، قال : أبو دلامة : أما العامر فقد عرَفتـــه ، فما الغامر ؟ فقال : الذى لا يُدركه الماء ولا يُسْقَى إلا بالمؤونة والكُلْفة ؛ فقال أبو دلامة : فاشهد

(١) الجريب من الأرض : مقدار معلوم ؛ ونقل عن قدامة الكاتب : أنه ثلاثة آلاف وست مئة ذراع ؛ وقيل : إنه عشرة آلاف ذراع .

يا أمير المؤمنين ومن حضر ، أنى قد أقطعت عبدَ الملك بن حُميد بادية بنى أسد كلَّها . فضحك المنصورُ ، وقال : أجعلها يا عبد الملك عامرة كلّها ؛ فقال أبو دلامة لأبى جعفر : أتأذن لى فى تقبيل يدك ، فلم يفعل ومنعه ، فقال : ما منعنى شيئاً هو أقلّ على عيالى ضرراً من هذا .

أبو أيوب المورياني وحظوته عند المنصور [١٠١]

٥ وكانت لعبد الملك بن حُميد منزلةٌ من أبى جعفر خاصيّة عنده ، وكان عبد الملك ربما تثاقل عنه وتعلّل عليه ؛ فاستثقل المنصورُ ذلك منه مع استصلاحه له ، وسكونه إليه ؛ وأمره باتّخاذ مَنْ ينوب عنه إذا غاب عن حَضْرته ، فاتخذ أبا أيّوب المُورِيانى ، وهو فتًى حَدَث ، من قرية من قُرى الأهْواز ، يقال لها : المورِيان ، واسمه سليمان بن مَخْلَد ، ويكنى ١٠ مَخْلَد : أبا سليمان ، وكان ظريفاً خفيفاً على القلب ، مُتأتياً لما يُريده منه أبو جعفر ، وقد كان أخَذ من كلّ شىء طرفاً ، وكان يقول : ليس من شىء إلا وقد نظرتُ فيه إلا الفقْه ، فلم أنظر فيه قطّ ، وقد نظرت فى الكيمياء والطبّ والنجوم والحساب والسّحر ؛ وكانت له بأبى جعفر حُرمة رعاها له ، فخفّ على قلبه . واعتلّ عبدُ الملك مِنْ نِقْرِس كان به ١٥ فلزم منزلَه ، فلم يزل أمرُ أبى أيوب يعلو ، ومحلّه من رأى أبى جعفر يزيد حتى قلّده وزارتَه ، وفوّض إليه أمرَه كلَّه ؛ وكان له أخٌ يقال له : خالد ، وابنا أخ يقال لهما : مَخْلد ومَسْعود ، وكانا ظريفَيْن جميلين ، فنالا من الدنيا ونَعيمها حظًّا جسيما . وقلّد المنصورُ أبا أيّوب الدواوين مع الوزارة ، وغلب عليه غلبةً شديدة ، وصرّف أهلَه جميعاً فى الأعمال ، حتى قالت [١٠٢] ٢٠ العامّة : إنه قد سَحَر أبا جعفر ؛ واتخذ دُهنًا يَمْسحه على وجهه إذا أراد

الدخول عليه ، وضَرَبَتِ المثلَ بدهن أبي أيوب .

وبلغ من خصّيصاء أبي أيوب بأبي جعفر أن أمّ سليان الطّلحية اتخذت لأبي جعفر مجلساً في الصّيف ، وجعلت فيه الرّياحين والثّلج وسائر الطيب . فلما صار إليها أعجب ببَرْده وحُسنه ، ثم قال لها : ما أنتفع بما أنا فيه ! قالت : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال : إنه ليس معي أبو أيوب ٥ فيُحدّثني ويُؤنسني ؛ قالت : يا أمير المؤمنين ، إنما هيأته لسُرورك فتبعث إليه ؛ فبعث إليه فحضر، فقال له : يا أبا أيوب ، كما رأيتُ طِيبَ هذا الموضع ولذّته ، لم أنتفع به حتى تكون معي فيه . فدعا له وأقام معه .

سبب حب المنصور لأبي أيوب

والذي كان بين أبي أيوب وبين أبي جعفر حتى رَعاه له ، ولما استخلفه عبدُ الملك بن حُميد غلب عليه ، أنه لما غَلَبَ عبدُ الله بن معاوية بن ١٠ عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، في أيام مَرْوان ، على أصبَهان ، وبعض فارس وبعض الأهْواز ، وَفَد إليه الهاشميّون أجمعون من بَني عليّ ، رضوانُ الله عليه ، ومن بني العبّاس وغيرهما ، فاستعان بهم في أعماله ، وقلّد أبا جعفر المنصورَ [١٠٣] كُورةَ إيذَج [1] . فأخذ أبو جعفر المال وحمله بسَفاتج على يَدَيْ عبد الرحمن ابن عُمر إلى البَصْرة ، ولم يحمل إلى ابن مُعاوية شيئاً ، ثم صار أبو جعفر ١٥ إلى الأهْواز قاصداً البصرة ، وكان سليمان بن حَبيب بن المهلّب عليها من قِبَل مروان ، قد وضع الأرْصاد على كلّ مَنْ يمرّ من عُمّال ابن مُعاوية ، فرَصَده أبو جعفر ، فأُخذ وأُتي به سُليمان بن حبيب ، وكان أبو أيوب المُورياني يكتُب له ، فقال له لما دخل عليه : هاتِ المالَ الذي اختنْته ؛ فقال : لا مال عندي ؛ فدعا له بالسّياط ؛ فقال أبو أيوب : أيها الأمير ، ٢٠ توقّف عن ضَرْبه ، فإن الخِلافة إن بَقِيت في بَني أُمية فلن يَسوغ لك

(١) إيذج : بين خوزستان وأصبهان .

ضربُ رجل من بنى عَبْد مناف ، وإن صار الملكُ إلى بنى هاشم لم تكن
لك بلادُ الإسلام بلادًا ؛ فلم يقبل منه ، وضرب أبا جعفر اثنين وأربعين
سوطًا . فلما اتّصل ضربُه إياه قام إليه أبو أيوب ، فألقى نفسَه عليه ، ولم
يَزَل يسأله حتى أمسك عن ضَرْبه ، وأمر بحَبْسه . فتحرّكت المُضَرية
٥ لضَرْب أبى جعفر وحَبْســـه ، وتجمّعوا وصاروا إلى الحَبْس فكسروه ،
وأطلقوا أبا جعفر . وخَرج أبو جعفر حتى قَدِم البصرة ، ورَعَى لأبى أيوب [١٠٤]
ما كان منه ، وكان يتذكّره ويَشْكره ، ولم يزل أبو أيوب بالأهواز إلى
أن ظَهر أمرُ بنى العبّاس .

ماجـــبس كاتب ابن حبيب وشىء عـن ذكاء زاذان فروخ

وكان يكتب لسُليمان بن حبيب فى أيام مَرْوان على الخَراج ماجُسْبَس
١٠ ابن بَهْرام بن مُردانشاه بن زاذان فَرّوخ الأعور، كاتب عبدالله[1] بن زياد ،
وكان زاذان فروخ من أحفظ رجل ، وكان غالبًا على عبد الله بن زياد .
وذكر آلُ زياد أنّ الحريق وقع فى الديوان بالبصرة فاحترق بأسْره ،
وبالبصرة يومئذ من المُقاتلة والذرّية ثمانون ألفًا ، فكتبهم زاذان فَرّوخ
عن ظهر قلب جميعًا ، لم يَغْلَط ، بأحد إلا بامرأة من بنى سُلَيم ، أُنسى اسمها .

أبو أيوب يكيد لخالد عند المنصور فينكشف أمره

١٥ وكان أبو جعفر لما صَرف خالد بن بَرْمك عن الدّيوان ، وقلّده
أبا أيوب . قلّد خالدًا فارسَ ؛ فأقام بها خالدٌ سنين ، وأبو أيوب يَسْــعى
عليه ، ويحُضّ أبا جعفر على مَكْروهه ، ويَسْعَى به ليُسقطه من عَيْنه ، لأنه
كان يعرف ما فيه من الفَضْل ويتخوّفه على محلّه ، وأن يردّه أبو جعفر إلى
الديوان الذى كان يتقلّده . فلما كثر ذلك على أبى جعفر، صَرف خالدًا
٢٠ عن فارس ونَــكَبه ، وألزمه ثلاثة آلاف ألف درهم ، ولم يكن عنده
إلا سَــبْع مئة ألف درهم ، فصَدَقه عن ذلك ، فلم يُصدّقه وأمر بمُطالبته [١٠٥]

(١) لعله : « عبيد الله » .

بالمال. فأسعفه صالحٌ صاحبُ المصلّى بخمسين ألف دينار ، وأسعفه مباركٌ التركىّ بألف ألف درهم ، ووجّهت الخيزران بجوهر قيمتُه ألفُ ألفِ درهم ومئتا ألف درهم ، رعايةً للرّضاع بين الفضل ابنه و بين هارون ابنها. واتصل ذلك بأبى جعفر فتحقّق عنده قولُه أنه لا يملك إلا ما حكى ، فصفح له عن المال ؛ فشقّ ذلك على أبى أيوب ، وأحضر بعض الجهابذة ودفع إليه ٥ مالاً ، وأمره أن يعترف أنه لخالد ، ودسّ إلى أبى جعفر مَنْ سعى بالمال ، فأحضر الجهبذ ، فسأل عن المال فاعترف به ؛ فأحضر خالداً فسأله عن ذلك ، فحلف بالله إنه لم يجمع مالا قطُّ ، ولا ذخره ولا يعرف هذا الجهبذ ، ودعا إلى كشف الحال، فتركه أبو جعفر بحضرته، وأحضر النصرانى ، فقال له : أتعرف خالدًا إنْ رأيته ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أعرفه إن رأيتُه ؛ ١٠ فالتفت إلى خالد وقال : قد أظهر الله براءتك . وهذا مالٌ أصبناه بسببك ؛ ثم قال للنّصرانى : هذا الجالسُ خالد ، فكيف لم تعرفه ؟ قال : الأمانَ يا أمير المؤمنين ، وأخــبره الخبر ؛ فكان لا يقبل من أبى أيوب بعد ذلك [١٠٦] شيئًا فى خالد .

بناء المنصور مدينة السلام وتقسيمها أرباعا

ولما بنى بعد ذلك أبو جعفر مدينة السّلام قسّمها أرباعا ، فجعل الرُّبعَ ١٥ [الأول] [١] منها إلى أبى أيوب وزيره ، والربعَ الثانى إلى عبد الملك ابن حُميد كاتبه ، ولعبد الملك قطيعةٌ وربَض يُعرف بعبد الملك بن حُميد فى الجانب الغربىّ ، والرُّبعين الآخرين إلى الرّبيع ، وإلى سليمان بن مُجالد ، ونقل إليها الخزائن والدّواوين و بيوتَ الأموال فى سنة ستّ وأربعين ومئة.

مقتل محمد بن الوليد كاتب أبى أيوب

وكان لأبى أيوب كاتبٌ يُقال له محمد بن الوليد ، مولًى لهشام بن عبد ٢٠ الملك ، أو لمروان بن محمد ، وكان خاصًّا به غالباً عليه ؛ وكان أبو جعفر ولّى

(١) زيادة يقتضيها السياق .

طَرِيفاً مولاه ، بريدَ مصر والشام والجزيرة ؛ وكان محمد بن الوليد شَرِهاً
حريصاً على أخذ الرِّشَى، فكتب إلى طَريف على لسان أبى أيوب بحَمْل مئة
ألف دينار إليه ، فحَمَلها ولم يعلم أبو أيوب بها ؛ وكان لأبى جعفر مولًى
يُقال له مَطَر ، كان أبو أيوب أبتاعه من حُميد الصَّيْرفى ، وأهداه إليه ،
٥ فأعتقه أبو جعفر ، فكان أبو أيوب يَعْتَنِى به ، فأشار على أبى جعفر
بصَرْف طَريف وتَقْليد مَطَر، ففعل ذلك، وأمره بمُحاسبة طَريف ، فحاسَبه
وضَيّق عليه . فأَحْفظه ذلك على أبى أيوب من جهة ما قد كان حَمله ، [١٠٧]
وعِنْده أنه قد وَصل إلى أبى أيوب ، ومن عِنايته بمَطَر ، فلما صار إلى
أبى جعفر أخْرج الكِتاب الذى كان كَتبه إليه محمدُ بن الوليد عن
١٠ أبى أيوب ، فدفعه إليه ، فلما وقف عليه دفَعه إلى أبى أيوب ، فقال له :
هذا خطّ كاتبى وخاتمى ، ولا عِلْم لى بشىء من أمره ؛ فقال له أبو جعفر :
هذا أشدّ الأمْرين ، أن تكون مئة ألف دينار تُؤْخذ ولا يُعلم عِلْمها ؛ ثم
خرج من حَضْرته ، ودعا محمدَ بن الوليد فسأله ، فقال: نعم ، هذا كتابى،
وأنت أمَرْتنى به ، وكابَره وبَهته ، وكَره أبو أيوب مُراجعته لئلاّ يَسْعى به ؛
١٥ فوكّل به وحَبسه ، وحظَر عليه أن يَصِل إليه أحدٌ يَنْقل عنه أو يَنْقل إليه
شيئاً ، لئلا يَسْعى به. وكان أبو جَعْفر خارجًا إلى قَرْميسين[1] ،فلما خَرج عن
الكُوفة ونزل حمّام[2] عُمر ، قال له أبو أيوب: إنّ كاتبى هذا قد جَنى هذه
الجِناية ، وهو مولى لبنى أُمية ، ولست أثق به ، وقد أَقْدم على ما أقْدم
عليه ؛ فقال له : اقتُل ابنَ الخَبيثة ؛ فدعا له أبو أيوب بالمُسوّر البَرْبرى ،
٢٠ فقال له : أنْطَلِقْ فاقتُل محمد بن الوليد فلما قدم المُسوّر ودَعا بمحمد، قال :
يا مُسوّر، خُذْ هذا القِرْطاس فأعطِه أميرَ المؤمنين، فإنه إن وقف عليه قلّدك

(١) قرميسين : بلد بينه وبين همذان ثلاثون فرسخا .

(٢) لعله : حام أعين . وهو بالكوفة . وهو منسوب إلى أعين ، مولى سعد بن أبى وقاص ، وقد مر ذكره ، وليس فى المعاجم التى بين أيدينا حمام منسوب إلى عمر .

[١٠٨] مكان أبي أيوب ؛ فقال له : يابن الخبيثة، أتأمرني أن أزقع على أبي أيوب ! فأخذ القرطاس منه ، وضرب عنقه ، وصار بالقرطاس إلى أبي أيوب ، فوجد فيه كلّ عظيمة من أمره ؛ فتتبع أموالَ محمد بن الوليد ، حتى أدّى منها إلى أبي جعفر مئة الألف الدينار ، ووَقَرَ ذلك عليه في نفس أبي جعفر.

حبيب بن رغبان وشيء عنه

٥ وكان حبيبُ بن عبد الله بن رُغْبان[1] مولى حَبيب بن سَلَمة الفِهْرىّ ، يتقلّد الإعطاء لأبي جعفر ، وإليه يُنسب مسجد ابن رُغْبان بمدينة السلام . ومن ولده الشاعر المعروف بديك الجِنّ ، وله أشعار مختارة ، ومن جيّدها قصيدته في إبراهيم بن مُدبِّر الكاتب ، وهي التي يقول فيها :

ما المَطايا إلا المَنايا وما فَرّق شيء تَفْرِيقها الأَحْبابا

نصيحة المنصور لابن رغبان فيما يتسحر به

١٠ ودخل على أبي جعفر حبيبُ بن عبدالله بن رُغْبان الكاتب يومًا في شهر رمضان ، فقال له : أتعطَشُ يابن رغبان ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ قال : ما سَحُورك ؟ قال : فَرْخ ، أو دَجاجة ، أو لحم بارد من طَبيخ أو شِواء ؛ قال : هذا الذي يُعْطشك ، تَسَحَّر بما يتسحّر به أميرُ المؤمنين ، انظُر

[١٠٩] إلى كعكات من هذا الكعك الشامىّ ، فاجعله في قَدَح ، واغمُره بالماء

١٥ من أوّل الليل ، فإذا كان في السّحر تجده قد مات ، فاشرَبْه ، فإنه طَعام يَعصِم ، وشَراب يُرْوِي .

عاب قوم على أبي أيوب خوفه من المنصور فضرب لهم مثلا

قال أبو العبّاس ثعلب حدّثني محمد بن سلاّم الجُمَحىّ قال حدّثنا خَلاّد بن يزيد قال :

كنّا يومًا جلوساً عند أبي أيوب في مجلسه ، فأتاه رسولُ أبي جعفر .

٢٠ فامتُقِع لونُه وتغيّر ، ومضَى إليه ثم رجع ، فقال له بعضُ أصحابه في ذلك ؛

---

(١) في الأصل : « رعبان » ، والتصويب عن الطبرى .

فقال : سأضرب لكم مثلا تقوله العامة ، وهو أنّ البازى قال للدِّيك ، ماشىء أقلّ وفاء منك ، لأن أهلك أخذوك فى بيضة فحضنوك ، وخرجت على أيديهم ، فأطعموك فى أكفهم ، ونشأت بينهم ، حتى إذا كبرت جعلت لا يدنو واحدٌ منهم منك إلا طرت يمنة ويسرة ، وصحت وصوّت ؛
٥ وأنا أُخذتُ من الجبال كبيراً ، فعلّمونى وألفونى ، ثم يخلّون عنى ، فآخذ صيدى وأجىء إلى صاحبى ؛ فقال له الديك : لو رأيتَ فى سفافيدهم[1] من البُزاة مثلَ الذى رأيتُ فيها من الدِّيكة كنتَ شرًّا منى ! ولكنكم لو كنتم تعلمون ما أعلمه لم تتعجّبوا من خوفى مع ما ترون من تمكّنى .

خروج عبد الله على المنصور وهزيمته [١١٠]

ولما خالف عبدُ الله بن علىّ على أبى جعفر ، وادّعى الخلافةَ لنفسه ،
١٠ أنفذ أبو جعفر أبا مُسلم لقتاله ، فتلقاه عبد الصمد بن علىّ بالموصل ، فكان أوّلَ قتيل قُتل بينهما أبو غالب ، كاتب عبد الله بن علىّ ، فاستدلّ بذلك من[2] جهة الفأل على انحلال أمره .

هرب عبد الله إلى أخويه وسعيهما لأخذ الأمان له

فلما هرَب عبد الله منهزمًا من أبى مُسلم ، وقصد أخويه سليمانَ وعيسى ، وهما بالبَصْرة ، دخلها مستترًا . وكاتب سليمانُ وعيسى أبا جعفر فى
١٥ أن يؤمّنه ؛ فأنفذ سليمان كاتبَه عمر بن أبى خَليمة فى ذلك ، واستقرّ الأمر على إعطائه الأمان . فأنفذ أبو جعفر سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، وأمره بضَغْطهم والتضييق عليهم ، حتى يشخصوا بعبدالله بن علىّ إلى حضرته .

تولى ابن المقفع كتابة الأمان وغضب المنصور عليه

وكان ابن المقفع يكتب لعيسى بن علىّ ، فأمره عيسى بعمل نُسخة للأمان لعبد الله ، فعملها ووكّدها واحترس من كلّ تأويل يجوز أن يقع عليه
٢٠ فيها ، وتردّدت بين أبى جعفر وبينهم فى النّسخة كتب إلى أن استقرّت على ما أرادوا من الاحتياط ، ولم يتهيأ لأبى جعفر إيقاعُ حيلة فيها لفرط احتياط

---

(١) السفافيد : جمع سفود ، وهو مايشوى به اللحم . وفى الأصل : « سفائدهم » وظاهر أنه محرف عما أثبتناه .

(٢) فى الأصل : « على من جهة ... الخ » وظاهر أن كلمة « على » مقحمة .

ابن المقفّع . وكان الذى شقّ على أبى جعفر أن قال فى النسخة : يوقع بخطه فى أسفل الأمان « و إن أنا نلتُ عبدَ الله بن علىّ ، أو أحداً ممن أقْدمه معه بصَغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلتُ إلى أحد منهم ضرراً سراً أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كناية أو بحيلة من الحيل ، فأنا نفىٌّ من محمد بن علىّ بن عبد الله ، ومولودلغير رَشْدة(١) ، وقد حلّ لجميع أمّة محمد خَلْعى وحَرْبى والبراءةُ منّى ، ولا بَيْعة لى فى رِقاب المُسلمين ، ولا عهْد ولا ذمّة ، وقد وَجب عليهم الخروجُ من طاعتى ، و إعانة من ناوأنى من جميع الخَلْق ، ولا مُوالاة بينى و بين أحد من المُسلمين ، وهو متبرّئ من الحَوْل والقوة ، ومدّع ، إن كان، أنه كافر بجميع الاديان ، ولَقِىَ ربَّه على غير دين ولا شريعة ، محرّمُ المأكل والمَشْرب والمناكح والمركب والرّقّ والمِلك والمَلْبس على الوجوه والأسباب كلّها ، وكتبتُ بخطى، ولا نيّة لى سواه، ولا يقبل الله منى إلا إياه ، والوفاء به» .

[١١١]

فقال أبو جعفر : إذا وقعتْ عينى عليه ، فهذا الأمان له صحيح : لأنى لا آمن أن أُعطيه إياه قبل رُؤيتى له ، فيسير فى البلاد ، ويَسْعى علىّ بالفساد ، وتهيأت له الحِيلة عليه من هذه الجِهة ؛ فقال : من يكتب له هذا الأمان ؟ فقيل : ابنُ المقفّع ، كاتب عيسى بن علىّ ؛ فقال أبو جعفر : فما أحد يَكْفِينيه ؟

سبب اضطغان سفيان بن معاوية على ابن المقفع [١١٢]

وكان سُفيان بن مُعاوية بن يزيد بن المهلب يَضْطغن على ابن المقفّع أشياء كثيرة ، منها : أنه كان يهزأ به، ويَسأله عن الشىء بعد الشىء ، فإذا أجاب قال له : أخطأتَ ، ويَضْحك . فلما كثُر ذلك على سُفيان غضِب فافترَى عليه ؛ فقال له ابنُ المقفع : يابن المُغْتَلِمة : والله ما اكتفتْ أُمّك برجال اهل العِراق حتى تعدّتهم إلى أهل الشام . وكانت أمّ سفيان

(١) لغير رشدة ، أى ولد سفاح وزنى .

ابن معاوية ميشُون[١] بنت المغيرة بن المهلّب ، وكان تزوّجها القاسم بن
عبد الرحمن بن عضاه الأشعرى .

ومنها : أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز كان استعمل سفيان
ابن معاوية على نيْسابور ، وكان عليها قَبْله المَسيحُ[٢] بن الحَوارِىّ ، وكان
٥ ابن المقفع يكتُب للمَسيح ، ولما قرب سفيان من المسيح أرسل إليه
المسيحُ : إن شئت أعطيتك خمسَ مئة ألف درهم ، وتنصرف عنى ،
وإن شئتَ أعطنى خمسَ مئة ألف أخلّيك والعمل ؛ فقال سفيان :
لا أعطيك شيئاً ، ولا أقبلُ منك شيئا ، فسفَرَ[٣] بينهما ابن المقفع ،
واحتال على سُفيان ، ودافعه وعلّله حتى استعدّ المسيحُ ، وكاتَب الأكرادَ
١٠ وجميعَ أطرافه ، وقَوِى أمرُه ؛ فلما استظهر امتنع على سُفيان ، وقال له :
انصرف فليس لك عندى شىء . فأبى سُفيان أن يَنْصَرف واقتتلا ،
فضَرب سفيانُ المسيحَ ، فأطار عمامته ، ولم يصل السيفُ إليه ، وضَرَب
المسيحُ سُفيان فكسر تَرْقوته[٤] ، وانهزم إلى دَوْرَق[٥] ؛ فحقد ذلك أيضاً
على ابن المقفع .

قتل سفيان لابن المقفع

١٥ فلما قال أبو جعفر ما قال ، كتب به أبو الخصيب[٦] إلى سفيان ،
فَعمِل على قتْلِه إذا أمكنه ذلك .

[١١٣] فقال عيسى بن علىّ يومًا لابن المقفع : صِرْ إلى سُفْيان فقل له كذا

---

(١) فى الأصل : « ميسور » والتصويب عن فهرس الوزراء والكتاب .
(٢) كذا فى الطبرى . وفى الأصل : « المسبح » (بالباء الموحدة) وهو تصحيف .
٢٠ (٣) سفر : سعى ليصلح بينهما .
(٤) الترقوة : العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق .
(٥) دورق (بفتح أوله وسكون ثانيه وراء بعدها قاف) : بلد بخوزستان ،
وهى قصبة كورة سرق . (راجع معجم البلدان) .
(٦) فى الأصل : « الحصيب » وهو تحريف . وهو أبو الخصيب مرزوق بن ورقاء
٢٥ مولى المنصور . (راجع الطبرى وفهرس الوزراء) .

وكنا ؛ فقال له : وجّه معى إبراهيمَ بن جَبلة بن مَخرمة الكِنْدىّ ، فإنى لا آمن سُفْيان ؛ فقال : كلاّ ، انطلِق إليه ولا تَخَفْ ، فإنه لم يكن ليَعْرِض لك وهو يعلم مكانَك منى . فقال ابن المقفع لإبراهيم ابن جَبلة : انطلِق بنا إلى سُفْيان نبلّغه رسالة الأمير ، ونسلّم عليه ، فإنى لم آتِه منذ قَدِمْنا ، وأخاف أن يظنّ بى مَوْجِدة وعَداوة . فَمَضيا ، ٥ فجلَسا على باب الدِّيوان ، وجاء عمر بن جَميل فجلس إليهما ، فخرج غلامٌ لسُفيان ، فنظر إليهم، ثم رجعَ ثم عاد، فسارَّ عمرَ بن جَميل، وقال له : يقول لك الأمير : ادخل الديوان فاجلس فيه ، فإذا انتصفَ النهارُ فمُرَّ بى ، فقام فدخل الديوان ، وجاء الآذنُ فأذِن لإبراهيم بن جَبلة فدخل ، ثم خرج فأذِن لابن المُقفَّع ، فلما دخل عُدِل به إلى مَقصورة أُخرى فيها شِيرويه[1] ١٠ المَلاديسى ، وعتّاب المحمّدى ، فأخذاه فشدّاه كِتافاً ؛ فقال إبراهيم لسُفيان : إيذن لابن المقفّع ؛ فقالَ للآذن : إيذنْ له . فخرج الآذنُ ثم رَجع فقال : قد انصرف ؛ فقال سفيان لإبراهيم : هو أعظم كِبراً من أن يقيم وقد أذِنتُ لك قبله ، ما أشك فى أنّه قد غَضِب ؛ ثم قام سفيان وقال [١١٤] لإبراهيم : لا تَبْرح ، ودخل المقصورةَ التى فيها ابنُ المقفع ، فقال له لمّا رآه ١٥ ابن المقفع : وقعتَ والله ! فقال : أَنْشُدك الله ؛ فقال : أُمّى مُغْتلمة كما ذكرتَ ، إن لم أَقْتُلْك قِتْلةً لم يُقتَل بها أحد قطُّ ؛ وأمر بتَنُّور فَسُجِر[2]، ثم أمرهما فقَطعا منه عُضْواً ، ثم ألقاه فى التَّنّور وهو يراه ، فلم يزل يقطعه عُضواً عضواً ويُلْقيه فى التَّنُّور وهو يَراه ، إلى أن قطّعه أعْضاء[3] ، ثم أحْرقه وهو

(١) فى الأصل : «شيرويه» بالياء الموحدة ، والتصويب عن فهرس الوزراء والكتاب. ٢٠

(٢) سجر : ملئ وقودا وأحمى .

(٣) فى الأصل : «أعطياء» وظاهر أنه محرف عما أثبتناه .

يقول : والله يابن الزّنديقة لأُحرقنّك بنارِ الدنيا قبل نار الآخرة . فلما فرغ منـــه رَجع إلى إبراهيم ، فحدّثه ساعةً ؛ ثم خرج إبراهيم ، فقال له غلامُ ابن المقفع : ما فعل مولاى ؟ قال : مارأيتُه ؛ قال : بلى قد دخل بعدك ؛ فقال : ما رأيتُه ، ورام الرجوعَ إلى سُفيان فحُجب ، وانصرف وانصرفَ معه غلامُ ٥ ابن المقفع ، وهو يَصيح ويبكى ويقول : قَتل سفيانُ مولاى !

طلب عيسى بدم ابن المقفع وتخلص سفيان من التهمة

فدخل إبراهيمُ على عِيسى بن علىّ ، ومعه غلام ابن المقفّع يبكى ، فقال عيسى لإبراهيم : ماهذا ؟ فخبّره الخبَر على جهته ، فقال له عيسى : ارجع فقُلْ له : خَلِّ عن ابن المقفّع إن لم تكُن قتلتَه ، وإن كنت قتلْته فوالله لأطلبنّك بدمه ، ولا أدع جُهْدًا . فصار إلى سُفيان ، وأبلغه ما قال عيسى ، فقال :

١٠ ما رأيته ؛ ودعا بعُمر بن جَميل من الديوان . فقال عمر : فدخلتُ عليه [١١٥] وهو مُتغيّر على خلاف ما كنتُ أعرف من انبساطِه ، فقال لى : ألاتعجب من ابن عمّك ، يَأتينى برسالة عِيسى بكذا وكذا ؛ فقلتُ : لا ذنبَ له فيما قال ، إنمـا أُرسل برسالة فأدّاها ؛ فقال لى : صدقتَ ، فمـا الرأىُ عندك ؟ قال : فقلت : ليس لمـكْذوب رأى ، ولا أدْرى ما أُشـــير به عليك ، ١٥ إلا أن تَصْدقنى ، إن كنتَ تقدر على ابن المقفّع فَلِى رأى ، وإن كنتَ لا تقدر عليه فلِى رأى آخر ؛ فقال : فإنه لا يُرى أبدًا ؛ فقلتُ فى نفْسى : أحْمق بك ! لم تستطع أن تُغيِّب علىّ ، فتقول : أشِرْ علىّ بالأمْرين جميعًا ، إن قُدِر عليه ، وإن لم يقْدر عليه ! ثم قلتُ له : إن عيسى لا يَقْدر لك على مَضَرة هاهنا ، لأنّك الوالِى ، ولـكنّه سيكلِّمُ أمير المؤمنين بالـكوفة ، ٢٠ وليس أحد أخْوف عليك من أبى أيوب سليمان بن أبى سليمان الـكاتب ، فإنه إن عاونه ضرّك ، وإن كفّ عنك رجوتُ أن لا ينال عيسى منك

ما يُريد ، فاكتبْ إلى أبى موسى بن أبى الزَّرقاء تُعْلمه أنّ عيسى
ابن علىّ اتّهمك من أمر ابن المقفع بما لا عِلْمَ لك به ، وتسأله أن يَدْفع
عند أمير المؤمنين ، وأكْتُب أنا أيضاً إليه ؛ فقال : نِعْم ما رأيتَ ؛ وأمر
[١١٦] قومًا فنادَوْا فى الطرق : إن سُفيان بن معاوية قَتل ابنَ المقفع . ووجّه بنو
علىّ إلى المُنْجاب بن أبى عُيَيْنَة[١] ليرتَهنوه بابن المقفع ، فمنعه سُفيان من ٥
إتيانهم ؛ فصاروا إلى المنصور ، فكلّمه عيسى فى ابن المقفع ، وقال :
قتَله سُفيان بن معاوية . فأنْفذ المنصور أبا الخَصِيب، وقال له: ائتنى بسُفيان
أو بابن المقفّع ؛ وكتب إليه : يابن أبى سُفيان ، قد وجّهتُ إليك
بأبى الخَصيب بن رَوْقاء ، فإن كان ابن المقفع حيًّا فادْفَعْه إليه ، وأنتَ
على عَمَلك ، وإن لم تَدْفعه إليه فقد أمرتُه بِعَزْلك وبحَمْلك ؛ فقال ١٠
سفيان ما أقدر عليه . فقيّده أبو الخَصيب وحَمَله . وخرج مع سُفيان
رجالٌ من أهل بيته ، فأشار عليهم رجلٌ أن يَلْقَوْا أبا أيوب، فيكلّموه كلامًا
خَشِناً ، يَرْهب معه منهم ، ويتخوّف ناحيتَهم ، وأن لا يُسْرفوا عليه
فيُحْفِظوه ، ولا يضعُفوا فى مُخاطبته فيُطْمِعوه ؛ ففعلوا ذلك ، وقال له سفيان:
أنا أعلم أنّى إن سَلِمتُ فبك أَسْلم ، وإن عَطِبْت فوالله إنّى وأهلَ بيتى نَعلم ١٥
أنّى بك عَطِبْت ، وبرأيك أُقْتل؛ فارتاع أبو أيّوب وقال : أنا ! قال: نعم ،
[١١٧] لأنك تَقْدِر على أن تدفع عنّى ؛ فقال : لستُ أدع القيامَ بأمرك ، وقد أُلْقِىَ
إلىّ موسى بن أبى الزَّرقاء[٢] طرفاً من عُذْرك ؛ وكَسَر ذلك أبا أيوب عن
نُصْرة عيسى ، وعيّث[٣] من أمر سُفيان ، ودفع عنه ، وأمسك عيسى عن
الكلام فى أمْر ابن المقفّع ، وأَطْلق أبو جعفر سُفيان ، وعاد رأيُه له . ٢٠

(١) هو المنجاب بن أبى عيينة بن المهلب ، من أولاد عمومة سفيان .
(٢) تقدم باسم « أبى موسى » . وقد نص فى الفهرس على أنهما روايتان فيه .
(٣) كذا فى الأصل . ولعلها محرفة عن كلمة بمعنى هون ولطف .

رأى حماد عجرد في سبب قتل ابن المقفع

وكان حمّاد عَجْرد مولًى لبنى أسد بن عامر ، وكان نَبِيلا شاعراً من كتّاب الرسائل ، وقد كتب ليَحْيَى بن محمد بن صُول بالمَوصِل ، ثم لعُقْبة ابن سَلْم بالبَحْرين ، وكان صديقاً لابن المقفّع ، فذكر حمّاد أن الذى قتل ابن المقفع : أن أبا جعفر قال يومًا لأبى أيوب ، وقد أنكرَ عليــه شيئاً :
٥ كأنك تَحْسب أنى لا أعرف موضــع أ كْتَب الخَلْق ، وهو ابن المقفّع مولاى . فلم يزل أبو أيوب خائفًا له ، يَسْعى ويدبّ فى أمره حتى قتله .

شىء عن ابن المقفع

وكان ابن المقفّع من أهل جُور[1] ، من فارس ، وكان سريًّا سَخِيًّا ، يُطْعم الطعام ، ويتّسع على كل من احتاج إليه . وكان يكتب لدَاوين عمر ابن هُبيرة على كَرْمان[2] ، فأفاد معه مالاً ؛ وكان يُجْرى على جَماعة من
١٠ وُجوه أهل البَصْرة والـكُوفة ما بين الخمس مئة إلى الألفين فى كلّ شهر . [١١٨]

حكاية لابن المقفع مع عمارة تدل على كرمه

وكانت بين ابن المقفّع وبين عُمارة بن حَمْزة مودّة ، فأنـكر أبو جعفر على عُمارة فى وقت من الأوقات شيئاً ، وحمَــله إلى الـكُوفة ، وكان ابن المقفّع إذ ذاك بها ، فكان يأتيه فيَزُوره ، فبينا هو ذات يوم عنده ، ورَد على عُمارة كتابُ وَكيله بالبَصرة ، يُعلمه أنّ ضَيْعة مُجاورة لضَيْعتــه
١٥ تُباع ، وأنّ ضَيعَته لا تَصْلح إن مَلَـكها غيرُه ، وأن أهلَها قد بذلوا له ثلاثين ألف درهم، وأنه إن لم يَبْتَعْها[3] فالوجهُ أن يَبيع ضيعَته ، فقرأ عُمارة الـكتابَ وقال ما أعجب هذا ! وكيلُنا يُشير علينا بالابتياع ، مع الإضاقة والإمْلاق ، ونحن إلى البَيْع أحوجُ ! وكتب إلى وَكيله بِبَيْع ضَيْعتــه والانصراف إليه ؛ وسمع ابنُ المقفّع الـكلامَ ، وانصرفَ إلى منزله ، وأخذ

٢٠ (١) جوُر : مدينة بينها وبين شيراز عشرون فرسخا .
(٢) كرمان : ولاية واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان .
(٣) فى الأصل : « يبتاعها » وهو تحريف .

مُفْتَحة إلى الوكيل بثلاثين ألف درهم ، وكتب إليه على لسان عُمارة :
إنّى قد كنتُ كتبتُ إليك ببَيْع ضَيْعتى ، ثم حَضَرنى مالٌ ، وقد أنفذت
إليك سُفْتَجة ، فابتَع الضيعةَ المُجاورة ، ولاتَبِع ضَيْعتى ، وأقم بمكانك ؛
وأنْفذ الكتابَ بالابْتياع إلىّ ، ووجَّه الكتابَ إليه مع رسول قاصدٍ ،
[١١٩] فورد على الوكيل وقد باعَ الضيعة ، فَفَسخ البَيع ، وابتاع الضيعة المُجاورة ، ٥
وكتب إلى عُمارة يَذْكر الأمرَ ، وأنّه قد صارتْ لك ضيعةٌ نفيسة .
فلما قرأ عُمارة الكتابَ أكْثر التعجُّب ، ولم يَعْرِف السببَ ، وسأل
عمَّن حضَر عند وُرُود كتاب الوَكيل ، فقيل له : ابنُ المقفَّع ، فَعلِم أنه مِنْ
فِعْله ، فلما صار إليه بعد أيام وتحدّثا ، قال عُمارة : بعثْتَ بتلك الثلاثين
ألف درهم إلى الوكيل ، وكنّا إليها هاهنا أحْوج ؟ قال : فإنّ عندنا فضلاً ، ١٠
وبعث إليه بثلاثين ألفاً أُخْرى .

ما قاله ابن المقفع عند قتله

وحُكى أن سُفيان لما أمر بتَقْطيع ابن المقفّع وطَرْحه فى التنُّور ،
قال له : والله إنك لتقتُلنى ، فتَقْتُل بقتلى ألفَ نفس ، ولو قُتل مئة مثلُك
ماوفَوْا بواحدٍ ، ثم قال :

إذا مامَات مِثْلى مات شَخْصٌ يَمُوت بمَوْته خَلْقٌ كثيرُ ١٥
وأنت تَموت وحدكَ ليس يَدْرِى بمَوْتك لا الصغير ولا الكَبيرُ

وصية غسان الكاتب إلى خادمه

وكان غسّان بن عبد الحميد، كاتب سليمان بن علىّ، يقول لخادمه : إذا
قلت لك خَوِّض لنا سَويقا فخَثِّره[١] ، فإن الرجل لايَستحيى أن يَزداد ماء
[١٢٠] يُرَقّقه به ، ويستحيى أن يَزْداد سَويقاً يخثره به .

---

(١) السويق : الناعم من دقيق الحنطة والشعير . وتخويضه : أن تصب فيه ماء ٢٠
وتضربه ليختلط . وتخثيره : أن تجعله يثخن ويشتد .

استشارة المنصور حين هم بقتل أبى مسلم

ولما أقبل أبو مُسْلِم من الدَّسْكَرة[1] يُريد المَدائن ، وعَمِل أبو جعفر على قَتْله ، دعا أبا أيوب المُورَيانى ، فقال له : ياسليمان ، شاوِرْ سَلْم بن قُتَيْبة فى أمْره ، فشاوَره ؛ فقال سَلْم : أرى أن يَتَجاوز له ويَصْفح عن ذنبه . فأخبر أبو أيوب أبا جعفر بذلك ، فقال له أبو جعفر : عاوِدْه وأعلِمه أنّى أمرتُك أن تُشاوره ، فعاوده فأعلمه ذلك ؛ فقال له سَلْم : قُل له : لا يَصْلُح سَيْفان فى غِمْد ، ثم تلا : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا » .

كتاب من أبى مسلم إلى أبى جعفر

وكان فيما خاطب به أبو مُسْلِم أبا جعفر فى كتاب كَتبه إليه قبل أن يُجمِع الرجوع : إنا كنّا نَرْوِى عن ملوك آل ساسان : أن أخْوف ما يكون الوُزراء ما سَكَنت الدَّهماء ، فأنا نافرٌ من قُرْبك، حَريص على الوَفاء بعَهْدك ، حَرِيٌّ بالسَّمع والطاعة لك ، غير أنها من بعيد ، حيث تُقارنها السلامة . فى كلام طويل .

قال أبو أيوب :

حيلة أبى أيوب على أبى مسلم [١٢١]

ولما قَرُب أبو مُسْلِم من المدائن ، دخلتُ على أبى جعفر بين العَصْر والمَغرب ، وهو فى خِباء شَعَر ، على مُصلّى ، وبين يديه كتابٌ من أبى مُسْلِم ، فلما رآنى رَمَى بالكتاب إلىّ ، فقال لى : اقرأه يا سليمان ؛ فقرأتُه ، ثم قال لى : والله لئنْ ملأتُ عينى منه لأقتلنّه ؛ فقلتُ فى نفسى : إنا لله و إنا إليه راجعون ، طلبتُ الكتابة ، حتى إذا بلغتُ غايتَها ، وصِرْت كاتباً للخَليفة ، وقع بين الناس هذا التَّخْليط ، والله ما أرانا نَسْلَم ، وما أحْسَبُ أصحابَ أبى مُسْلِم يَرْضَون إن قُتِل أن يَدَعُوا هذا على الأرض ،

(١) الدسكرة : قرية كبيرة ذات منبر بنواحى نهر الملك من غربى بغداد .

ولا أحداً من أسبابه ، ثم انصرفتُ متفكِّرا ؛ وامتنع علىّ النومُ ليلتى تلك ، ثم خطر ببالى أنّ الرجلَ إن قدِم آمناً كان أسهلَ لما يُراد منه إن قَدِم نافراً مُستَوحِشاً ؛ فأحضرتُ سَلَمَةَ بن سَعيد بن جابر ، ووعدتُه أن أولّيه كَسْكَر[1] ، وأطمعته فى إحسان كثير ، وأمرتُه أن يأتى أبا مُسْلم ، ويُعرِّفه أنّ أميرالمؤمنين قد عزَم على أن يولِّيه ماوراء بابه ، ويُريح نفسَه ويتودّع ؛ وقلتُ له : تسأله أن يجْعل أمركَ ممّا يَسأل فيه إذا لَقِيه . فصار سَلَمَة إلى أبى مُسلم فعرّفه ذلك ، فظنّه حقًّا وقصر فى التّحرّز والتأهّب ، واسترسل ، وورد غارًّا ، فكان من أمره ما كان .

[١٢٢] استنكار أبى الجهم قتل أبى مسلم وما كان من أبى أيوب معه

ولما قَتَل المنصورُ أبا مُسْلم دخَل عليه أبو الجَهْم بن عطيّة ؛ فلما رآه مقتولاً قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! فقال أبو أيوب : فخِفْتُ المَنْصُور عليه ، فقلت له : مالكَ يا أبا الجَهْم ! أشرْتَ بقَتْله حين خالَف ، حتى إذا قُتِل قلتَ هذه المقالةَ ! قال : فنبّهت رجلا عاقلا ، فتكلّم بكلامٍ أصلَح ما جاء منه .

تخطئة ابن فضالة للمنصور فى قتله أبى مسلم والقصة فى ذلك

وكان يتقلّد لأبى جَعْفر بيتَ المال الفرجُ بن فَضالة التّنوخىّ ، وقد كان عَمِل لعبد الملك ، فسمعه رشيدٌ الخادم يُخطّئُ أبا جعفر فى قَتْل أبى مُسْلم ، ومُعاجلته إيّاه ، فنَقل كلامَه إليه ؛ فتغيّظ عليه ودعا به ، فسأله عن ذلك ، فأقرّ به ؛ فقال له : كيف لم تُخَطِّئْ صاحبَك فى قَتْله عمرَو ابن سعيد مُعاجلاً له ، فقال : لأنه قَتل عمرًا فى قَصْره بعد أنْ أحاطت به جُدْرانُه ، وأُغلِقت دونَه أبوابُه ، وحوْلَه اثنا عشر ألفاً من عبيده ومَواليه ، وقتلتَ أنت أبا مُسلم وأنت فى خَرْق[2] من الأرض ، وكلٌّ من حولك له ، ومنه ، وإليه .

(١) كسكر : كورة واسعة ، قصبتها واسط .
(٢) الخرق : القفر ، والأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح .

عبد الله بن مروان بعد زوال دولتهم

وطلب أبو جعفر الرّبيعَ يومًا فلم يجده ، فلمّا دخل عليه سأله عن خَبره ؛ فقال : كنتُ عند سليمان الكاتب ، يعنى أبا أيّوب ؛ فقال : ومن رأيتَ عنده ؟ قال : عبد الله بن مَرْوان بن محمّد ، وقد طلَب منه حاجةً فقضاها ، وقام عبدُ الله فقبّل رأسَ سليمان . وكان أبو جعفر مُتّكئًا ، [١٢٣] ٥ فاستوى جالسًا ، وقال : يا ربيع ، قبّل عبدُ الله رأسَ سليمان ؟ فقال : نعم ؛ فقال : الحمدُ لله ! وخرّ ساجداً ، فأطال، ثم قال لى : يار بيع ، أتدْرى أىّ نِعْمة جدّد الله عند أمير المؤمنين فى هذا الوقْت ؟ قال : لا أعْلم ، أسأل الله أن يُجدّد عنده النِّعم ، و يُواليها ، ويَزيد فيها ؛ وكشَف عن ساقه ، فإذا فيها أثَرٌ بيِّن ، ثم قال لى : إنّى بدمَشْق فى أيّام مَرْوان إذ رأيتُ ١٠ للنّاس حركةً ، فقلتُ : ما هذا ؟ فقيل لى : عبدُ الله ابنُ أمير المؤمنين يرْكب ، وما ركِب قبْل ذلك ، وقد أمر الجُنْد بالزّينة ، واحتفل الناس للنّظر ، فخرجتُ فيمن خرج ، فازدَحم الناسُ على بعْض الطُّرق زَحْمةً شديدة ، وكانت دابّتى صَعْبةً ، فسقطتُ عنها ، وانكسرت ساقى ، وغَشِينى الناسُ ، فمكثتُ دهراً عليلاً ، وهاهو اليومَ يُقَبِّل رأسَ كاتبى ، فالحمدُ لله ١٥ على نِعَمه ، وحُسْن إدَالته !

سؤال سوار أبا جعفر [١٢٤] التسوية بين كاتبه

وكان لسَوّار ، القاضى بالبصرة من قبل أبى جعفر ، كاتبان ، رِزْقُ أحدهما أربعون درهما ، ورزْق الآخر عشرون درهما . فكتب إليه سَوّار يسأله التّسوِيَة بينهما ؛ فنَقص صاحبَ الأربعين عشرةَ دراهم ، وزادها صاحبَ العشرين ؛ وإنما أراد سَوّار أن يُلحق صاحبَ العشرين ٢٠ بصاحبِ الأربعين .

قصة للمنصور مع رجل ابتاع سمكة

وقعد المنصور يومًا فى الخضراء ، فبينا هو مشرف على الصَّراة[١] نظر إلى صيّاد قد ألقى شبكته ، فأخرج سمكةً عظيمةً ؛ فقال المنصور لبعض مواليه : أخرج إلى المسيّب[٢] ، فأمره أن يوكّل بالصيّاد من يدور معه ، فإذا باع السمكة قبض على مشتريها ، وصار به إلينا ؛ ففعل المسيّب ذلك . فلقى الصيّادَ رجلٌ نصرانىّ ، فابتاعها منه بثلاثين درهما ، فلما دفع إليه الثمنَ وأخذ السمكةَ منه ، قبض عليه العونُ ، فأتى به المسيّبَ ، فأدخله إلى أبى جعفر ؛ فقال له : مَنْ أنت ؟ قال : رجل من أهل الذمّة ؛ قال : بكم ابتعتَ هذه السمكةَ ؟ فقال : بثلاثين درهما ؛ قال : وكم عيالك ؟ قال : ليس لى عيال ؛ فقال : فأنت بأذنك[٣] تشترى مثلَ هذه السمكة بثلاثين درهما ! كم عندك من المال ؟ قال : ما عندى شىء ؛ قال : يا مسيّب ، خذه إليك ، فإن أقرّ بجميع ما عنده ، وإلا فنكّل به ؛ فأقرّ بعشرة آلاف درهم ؛ فقال : كلاّ ، إنها أكثر ؛ فأقرّ بثلاثين ألف درهم ، وأحلّ دمَه إن وقف على أكثر منها ، وقال له : من أين جمعت هذا المال ؟ فقال : وأنا آمن يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أنت آمن على نفسك إن صدقتَ ؛ قال : كنتُ جارًا لأبى أيوب سليمان بن [أبى] سليمان كاتبك ، فولانى جهبذة[٤] بعض نواحى الأهواز ، فأصبتُ هذا المال ؛ فقال المنصور : الله أكبر ! هذا مالنا اختنته ، وأمر المسيّب بحمل المال إلى بيت المال ، وأطلق الرجل .

[١٢٥]

طرفة لأبى دلامة مع المنصور

وكان أبو دلامة تأخّر عن حضور باب أبى جعفر أيامًا ، ثم حضر ، فأمر بإلزامه القصرَ ، وألاّ يبرح منه ، ويصلّى فيه الأولى والعصر معه فى

(١) الصراة : نهر بالعراق ، يأخذ من نهر عيسى من عند بلدة يقال لها : المحول ، بينها وبين بغداد فرسخ .
(٢) كان المسيب رئيس الشرطة أيام المنصور . (انظر ترجمته فى تاريخ بغداد للخطيب) .
(٣) كذا فى الأصل . يريد : أنت وحدك .
(٤) الجهبذة : عمل الجهبذ (بكسر الجيم والباء) ، وهو الذى يشرف على الشئون المالية .

مَسْجده ، ووكل به لذلك ؛ فمرّ به أبو أيوب المُورِيانى ، وهو إذ ذاك وزير لأبى جعفر ، فقام إليه أبو دُلامة ، ودفع إليه رُقعةً مختومة ، وقال : هذه ظُلامة إلى أميرالمؤمنين ، فتُوصلها ، أعزّك الله ، بخاتَمها ؛ فأخذها أبوأيّوب ، فلما وصل إلى أبى جَعفر أوْصلها إليه ، فقرأها ، فإذا فيها :

٥ ألم تر يا هـــذا الإمام الذى أنا ... بمَسْجده والقَصْر ، مالى وللقصر !

أصلِّى به الأولى مع العَصْر صاغراً ... فويلى من الاولى وَويْلى من العصر

ويَحْبِسنى عن مَجْلس أستلذه ... أعلِّل فيـــه بالسَّماع وبالخَمْر

[١٢٦] ووالله مالى نِيّة فى صَـــلاتكم ... ولا البرّ والإحْسان والخير من أمرى

وما ضرّه ــ واللهُ يُصْلح حاله ــ ... لو أن خطايا العالَمين على ظَهْرى

١٠ فضَحك المنصورُ ، وأمر بإحضاره ؛ فلما حضَر قال : هــذه قصّتك ؟ فقال : قد رفعتُ إلى أبى أيوب رُقْعة مختومة أشكر فيها أميرالمؤمنين ، إذ أعانَنى على لُزوم المَسْجد الذى أمر اللهُ بلزومه ، والذى كتبها أبنى دُلامة ؛ فقال أبو جعفر : فاقرأها ؛ قال ما أُحْسِن [أن][1] أقرأ ــ وعلم أنه إنما أراد أن يُقِرّ بكتابه لهـا ، فيَضْرِبه الحدَّ على ذِكْره شُرب الخمر ــ فلمّا رآه ١٥ يَحيد ، قال له : يا خَبيث ، أما لو أقررتَ لضربتُك الحدّ ، وقد أعْفَيتك من لزوم المسجد ؛ فقال أبو دلامة : أوَ كنتَ ضارِبى ياأمير المؤمنين لو أقررتُ ؟ قال : نعم ؛ فقال : مع قَوْل الله عزّ وجل : « وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالاَ يَفْعَلُونَ » ؛ فضَحك منه ، وأعجبه انتزاعُه[2] ، ووَصله .

رفض المنصور دخول أبى أيوب بينه وبين محمد بن عبد الله

وورد على أبى جعفر من محمّد بن عبد الله بن حَسن كتابٌ أغلظ له ٢٠ فيه ؛ فقال له أبو أيوب : دَعْنى أجِبْه عنه ؛ فقال له : ياسليمان ، ليس ذلك إليك ، إذا نحن تقارَعْنا عن الأحْساب فدَعْنى وإيّاها .

سعاية أبان بأبى أيوب عند المنصور

وكان أبان بن صَـدقة يكتُب لأبى أيوب ، فسعى به إلى أبى جعفر ،

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) انتزاعه ، أى استخراجه الحجة من القرآن الكريم .

[١٢٧] وكان السببُ فى ذلك أنه كان على أمْرِ أبى أيّوب كلّه ، فحسده مَخْلد ، ابن أخى أبى أيّوب ، فرفع عليه سعايةً إلى أبى جعفر بمئة ألف دينار ؛ فأمر المنصور بأخذه بها . فأدخلَ أبان بن صدقةَ بيتاً، وطُيّن عليه بابُه ؛ ثم نَدِم مَخْلد على ما فعله، ولامه عمُّه أبو أيوب لمّا وقف على ما كان منه ؛ فقال مَخْلدٌ : أنا أؤدّى عنه عشرةَ آلاف دينار ؛ وقال أبو أيّوب : وأنا أؤدى عنه كذا ؛ وقال مسعود : وأنا أؤدّى عنه كذا . فتوزّعها الموريانيّون بينهم ، وأخرجوا أباناً من الحَبْس ، فخرج وفى نفسه مافيها . فكان يأتى أبا أيّوب فيُقيم عنده نهارَه كلَّه ، فإذا كان الليلُ انصرف ومعه غلمان أبى أيوب ، فإذا انصرفوا وعَلِم أنهم قد وصلوا إلى منازلهم ، خَرج حتى يأتىَ الربيع ، فيَسْعى بأبى أيوب ، و يكتُب له أخبارَه وأموالَه ، فيُوصل الربيعُ ذلك إلى المنصور؛ فيقول المنصور: من أين هذا ؟ فيقول : من أبان بن صدقة. و بلغ أبا أيوب ،

[١٢٨] فقال لأبان فى ذلك ؛ فقال: كذَبوك ؛ فقال له : قد جاءنى اليقين أنك تأتى الربيعَ كلّ ليلة ، فإن كان مَخْلد رفَع عليك ، فقد تخلّصتُك ، فلماذا تريد قَتْلى ؟ فقال : إنّ مخلداً أراد قَتْلى ؛ فقال له أبو أيوب : فعلتَها ، أُخْرُج فلا تقربنى ؛ فقال : أتى الله ىم[1] لا أعود إليك . وخرج حتى أتى الربيعَ ، وكاشف[2] أبا أيوب .

موعظة عمرو ابن عبيد المنصور

وكان عمرو بن عُبيد دَخل على المنصور ، فوعَظه موْعظة طويلة مشهورة ، فبكى المنصورُ وتوجّع واستغفر ربَّه ، وعرض على عمرو مَعُونَته ، فأبى وخرج من حَضْرته ؛ فلَقيه أبوأيّوب، فقال له : يا أبا عثمان ، أظنّك قد رَدَعْت هذا الرجلَ ؟ فقال : نعم ، وقد حَضَضْته على أهل الكوفة وأهْل البصرة ، فإن استطعتَ أن تُعين بخير فافعل ، وَكفى بأمّة شرًّا أن تكون أنت المدبّر لأمرها .

(١) كذا وردت هـذه العبارة فى الأصل مهملة بعض كلماتها من النقط ، وهى غـير ظاهرة المعنى . ولعل تصويبها : « آتى الربيع والله ثم » .
(٢) كاشفه : أظهر له العداوة وباداه بها .

حادثة للمنصور تدل على صدق حدسه

ولما ورد على أبي جعفر خبرُ خلع أهل إفريقية ، اعتزم على الشخوص إلى قِنَّسْرِين[1] ليقيم فيها ، ويوجِّه الأمداد منها ، فكتم تدبيرَه ، وأظهر أنه يسافر إلى ناحية لم يذكرها ، ولم يُبيِّنها ، وأمر أصحابَه بالاستعداد ، ولم يُعرِّفهم القصد ؛ فاجتمع أبو أيوب وعبدُ الملك والرَّبيع ، فتذاكروا ذلك ، ورجَّموا الظُّنون ، فلم يُصيبوا شيئاً ، ولم يُقدِموا على مسئلته ؛ فقال عبد الملك : فأنا أعلم لكم ذلك ، فإذا أذِن فتأخَّروا عنِّي ساعةً حتى أكلِّمه ؛ فلمَّا أذِن دخل عبدُ الملك ، فلمَّا استقرَّ به المجلسُ قال : ياأمير المؤمنين ، قد تهيَّأنا للسَّير ، وفرَغْنا من كل ما نَحتاج إليه ، وبقي علينا ما نَسْتأجر من الظَّهْر[2] ، وما ندرى كيف نتكاراه ؟ ولا علامَ نواقف المؤاجرين لنا فيه ؟ فقال له أبو جعفر : يابن الخبيثة ، جلستَ الساعةَ وفلانٌ وفلان ، فقلتم كذا ، وجرى بينكم كذا ، فقلتَ لهم كذا ، حتى ردَّ عليه خبر المجلس ، حَدْساً منه وفِطْنة ، اخرج يابن الخبيثة ، فاكترِ مُياومةً ، كلَّ يوم بألف ، فأمَّا أن أُعلمك فلا ، ولا كرامة .

[١٢٩]

حديث ضيعة صالح

ورَخُصتِ الأسعارُ في أيام أبي جعفر ، فسولت لأبي أيوب نفسُه أن يَشْترى طعامَ سواد الكوفة وسوادِ البصرة ، وطمع في الربح ، ففعل ذلك . فكتب المنصورُ عليه كتابا بذلك ، وخلّده الدواوين ، وكان يُطالبه بالمال وقتاً بعد وقت ، فتحمّل منه الشيء بعد الشيء ، وتتابع الرُّخصُ عليه ، وأرْهقه المنصورُ بالمُطالبة بالمال . وكان المنصور يُحبّ ابناً له ، يقال له : صالح ، ويرِقّ عليه ، وكان أقطعَ أولادَه جميعاً قطائع خَلاه ، وكان يقول : ابنى هذا المسكينُ لا شيء له ! فلقِّب بصالح المسكين ؛ فقال له أبو أيوب : ياأمير المؤمنين ، قد أصبتُ ضَيْعةً تَقْرُب من الأهواز، وتشرب

[١٣٠]

(١) قنسرين (بكسر أوله وفتح ثانيه وتشديده . وقد يكسر ، ثم سين مهملة) : كورة بالشام منها حلب .

(٢) الظهر : الدواب .

من دجلة ، وتغيض فيها ، وهى بلد واسع ، وقد دثرت رسومها ، وانطمست أنهارها ؛ فإن أقطعته إياها ، وأطلقت له ثلاثمئة ألف درهم تستخرجها له ، فلا تلبث إلا يسيراً حتى تغل جملة وافرة . فأقطع المنصور صالحاً تلك الضيعة ، وأمر له بالمال ، فأخذه أبو أيوب ، فأدى صدراً من خسارته فى الطعام ، وجاءت السنة ، فحمل أبو أيوب عشرين ألف درهم ٥ إلى أبى جعفر ، وقال : هذه غلة الضيعة ؛ فسر المنصور بذلك ، وأمر أن يتخذ لصالح بيت مال .

استفادة رجل من اسم أبى أيوب بقدر من المال

حدثنى عبد الواحد بن محمد قال حدثنى أبو العيناء ، قال :

جاء رجل من أهل الأهواز إلى أبى أيوب ، وهو وزير ، فقال له : ١٠ إن ضيعتى بالأهواز قد حمل على فيها العمال ، فإن رأى الوزير أن يعيرنى اسمه أجعله عليها ، وأحمل إليه فى كل سنة مئة ألف درهم ؟ فقال : قد وهبت لك اسمى ، فافعل ما بدا لك ، وخرج الرجل . وحال الحول ، [١٣١] فأحضر الرجل المال ، ودخل على أبى أيوب وهو لايعرفه ، فجلس إلى أن خف الناس ، ثم دنا منه وقص عليه قصته ، وأعلمه أنه قد انتفع باسمه ، ١٥ وأنه قد حمل المال ؛ فأمر بإحضاره ، فأدخل ، ووضع بين يديه ، ونهض الرجل شاكراً داعياً . واندفع أبو أيوب يبكى ، فقال له أهله ومن حضر : مارأينا موضع سرور وفرح عقب ببكاء وحزن غير هذا ! فقال لهم : ويحكم ! إن شيئاً بلغ هذا من إقباله ، كيف يكون إدباره ؟ قال : فما بعد بين الوقت و بين نكبته .

عود إلى ضيعة صالح والسعى بأبى أيوب

٢٠ ثم سعى [إلى[1]] أبى جعفر بالضيعة التى اتخذها لصالح ، وعرف أن

(١) زيادة يقتضيها السياق .

أبا أيوب أخذ المالَ لنفسه ، وغرّه من هذه الناحية . فعزَم أبو جعفر على الخُروج بنفســه إلى النّاحية ليُعاينها ؛ فلما تجهّز للشُّخوص ، كتب أبو أيّوب إلى وكُلائه أن يبنوا على دِجْلة فى طريق الضَّيعة ، على طريق أبى جَعْفر ، قُرًى من اللَّبِن والقَصَب ، وأن يَغْرِسوا نخلا وسِــدْراً وكلَّ ما تَهيّأ أن يُحسَّن به ، ويُرَى ظاهرُه ، ليراها أبو جعفر عامرةَ الظَّاهر . فلما فعلوا ذلك وشَخَص أبو جعفر ، فرأى الموضعَ ، وقد كان أبو أيّوب عند قُرْبه منها أرْسل مَن سَكَر[1] دُجَيل[2] الأهواز[3] والمَسْرُقان[4] حتى فاضَا على الضيعة فغرّقاها ، ثم غاض إلى دجلة ، فأرسل أبو جعفر من سَكَر المـاء ، وأعاده إلى جهته ، وأقام أرْبعين يومًا يَنتظر جَفافَ الأرض ، ثم ركب حتى وقَف على الضَّيْعة ، وتبيّن كَذِب أبى أيوب ، وانصرف ولم يَقُل شيئاً ، إلى أن عاد إلى بَغْداد ، فأوْقع به .

[١٣٢]

امتنــــاع المنصور أن يأكل سمكا صـــنعه له أبو أيوب

وكان أبو جعفر مدة مَقامه بالأهْواز مُنْتَظِراً لجَفاف أرض الضَّيعة ، اشتهى سَمكا طَرِيّا ، فقال له أبو أيوب : يا أمير المؤمنين ، أنت تعلم أنى أهْوازىّ سَمَـكىّ ، ولنا عجائز يُحْسِنّ صَنْعة السمك ، فإن رأيتَ أن تأذَن

(١) يقال : سكر النهر يسكره (من باب نصر) : إذا سد فاه .

(٢) دجيل الأهواز : نهر بالأهواز حفره أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس . ومخرجه من أرض أصبهان ، ومصبه فى بحر فارس قرب عبادان . وكانت عند دجيل هذا وقائع للخوارج ، وفيه غرق شبيب الخارجى . (راجع معجم البلدان) .

(٣) الأهواز : سبع كور بين البصرة وفارس ، لكل كورة منها اسم ، ويجمعهن الأهواز .

(٤) المسرقان (بالفتح ثم السكون والراء مضمومة وقاف وآخره نون) : نهر بخوزستان عليه عدة قرى وبلدان ، يسقى ذلك كله . ومبدؤه من تستر . يقال إن الذى حفره هو سابور بن أردشير . (عن معجم البلدان) . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصل مهملة من النقط .

لى فأهيّئه لك ؛ فأظهر أبو جعفر التقبّل لذلك من قوله ، وأذن له فى اتخاذه ، فمضى لذلك . قال الربيع : فنهض أبو جعفر عن مجلسه ، ودعانى ، فقال لى : يا ربيع ، أصبُب علىّ الماء حتى أغسل وجهى ؛ فبينا أنا أصبّ عليه ، إذا رُسُل أبى أيّوب قد دخلوا عليه بشىء كثير من السّلال، فيها ضُرُوب من خُبْز الماء والرُّقاق وخُبْز الأرز ، وصُنوف السّمك ، قد ٥ اتخذ ضُروباً من الصنعة الحارة والباردة ؛ فقلت له : أنت يا أمير المؤمنين [١٣٣] تعلم أنى غيرُ مُستبطىء لسليمان ، وإنه منّى لعلى صداقة ومودّة ، ولكنّ أمير المؤمنين آثرُ عندى من نفسى ، وقد علم سليمانُ ما يريده أميرُ المؤمنين به ، فهل يأمن أميرُ المؤمنين أن يكون قد دسّ له فى هذا الطّعام شيئاً ؟ قال لى : بارك الله عليك يا ربيع ، وأحسن جزاءك ، إنه ما دخل رأسى ١٠ ما يأتى من عند سليمان من الألطاف شىء منذ كذا وكذا من الدّهر ، فلا يُشمَعَنّ منك هذا بعد ، ودعا بغير ذلك الطّعام ، فأكل منه ، وانصرف إلى بغداد ، وأظهر السّخط على أبى أيوب فى سنة ثلاث وخمسين ومئة .

إيقاع المنصور بأبى أيوب وآله بعد تقريعه

فحكى أنه قال له : يا خوزىّ[1] ، أكنتَ آمناً من أن يطلع أمير المؤمنين على خياناتك فيكون جزاؤك فى العاجل إراقة دمك ، واستباحة نعمتك، ١٥ وفى الآجل حلول دار الفاسقين ، ومأوى الظالمين النّاكثين ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لتّهم فَلَتاتٍ تَرجعُ بالنّدم ، ولك من رسول الله صلّى الله عليه [وسلم] عدلُ السياسةِ ، وشرف القرابة ، فأقِلْنى ؛ قال : لا يَسعنى مع عظيم جُرْمك ، وجليل ذَنْبك ، إقالتُك ، ولا العفوُ عنك ، لأنك اقترفت [١٣٤] المُوبِق ، وما لا يَسع معه عَفْو ؛ وحبَسه وحبَس أخاه خالداً و بنى أخيه ، وهم : ٢٠

(١) ياخوزى : نسبة إلى خوزستان ، ومنها أبو أيوب .

مَسْعود وسَعيد ومَخْلد ومحمد ، ولم يكن لمحمّد حظّ من أمرهم . فقال خالد لبَنِيه أمّا أنتم فقد أخذتُم بحظٍّ من الدُّنيا ، وهذا البائس لا ذنبَ له ، ولم يكن له حظّ ؛ فقال له مَخْلد — وكان ينظر فى النجوم — : لابدّ أن قتل كلُّنا ، فإن كان محمد ابنَك ، فلا تأمن من قتله ، وإن لم يكن ابنك

٥ فليس عليه بأس . ثم طُولبوا بالأموال ، وعُذِّبوا وضُيِّق عليهم ؛ فطُلِب كلُّ من كان لهم عنده شىء ، فأُخذ ، وضُغط أبو أيوب بالمطالبة بالمال ، فمات هو وأخوه فى أوّل سنة أربع وخمسين ومئة ، وأمر المنصور بقَتْل بنى أخيه ، فقُتلوا . فقال بعض الشُّعراء أبياتا ، منها :

فاتقِ اللهَ وارضَ بالقَصْد حَظًّا ... وتباعدْ عن مُوبِقات الذُّنوبِ

١٠ قد رأيتَ الذى أذالتْ ونالت ... وقعةُ الدهر من أبى أيّوب

حديث أبى العيناء عن سبب نكبة أبى أيوب

ومما يُحكى أيضاً أنه عاد بالضَّرر على أبى أيوب ، ما ذكر أبو العَيْناء قال :

الناس يُكثرون فى سبب قَتل أبى أيوب ، والذى عندنا أنّ المنصور لما كان مُستتراً بالأهواز نزل، على بعض الدَّهاقين ، فاستتر عنده، [١٣٥]

١٥ فأكرمه الدِّهقان بجميع ما يقدر عليه ، حتى أخدمه ابنَته ، وكانت فى غاية الجمال ؛ فقال له أبو جعفر : لستُ أستحلّ استخدامَها والخلوة بها وهى جارية حرّة ، فزوِّجنيها ؛ فزوّجه إياها ، فَعَلِقت منه . وأراد أبو جعفر الخروجَ إلى البصرة ، فودّعهم، ودَفع إلى الجارية قميصه وخاتمه ، وقال : إن ولدْتِ فاحتفظى بولَدك ، فمتى سمعتِ أنّه قد قام فى الناس رجل يُقال له :

٢٠ عبدُ الله بن محمد ، ويكنى أبا جعفر ، فصيرى إليه بولَدك ، وبهذا القَميص والخاتَم ، فإنه يعرف حقّك ، ويُحسن الصُّنْع إليك ، وفارقهم . فولدت

ابناً ، ونشأ الغلام وترعرع ، فكان يلعب مع أترابه ، ومَلَك أبو جعفر ، فعيّر الغلامَ أترابُه بأنه لا يُعرف له أب ، فدخل إلى أمه حزيناً كئيباً ، فسألته عن حاله ، فذكر لها ما قال أترابُه ؛ فقالت : بلى ، والله إن لك أبًا فوق الناس ! قال لها : ومن هو ؟ قالت : القائم بالملك ؛ قال : فهذا أبى وأنا على هذه الحال ! هل من شىء يَعرفنى به ؟ فأخرجت القميصَ والخاتم . ٥
وشخص الفتى ، فصار إلى الربيع ، فقال له : نصيحة ؛ قال : هاتها ؛ قال : لا أقولها إلا لأمير المؤمنين ، فأعلمَ المنصورَ الخبر ، فأدخله إليه ؛ فقال : [١٣٦]
هاتِ نصيحتك ؛ فقال : أَخْلِنى ، فنحّى من عنده ، وبقى الربيعُ ؛ فقال : هات ؛ قال : لا ، إلا أن يتنحّى ، فنحّاه ؛ وقال : هات ؛ قال : أنا ابنُك ؛ قال : ماعلامة ذلك ؟ فأخرَج القميص والخاتم فعرفهما المنصور ، وقال له : مامنعك ١٠
أن تقول هذا ظاهرا ، قال : خفت أن تجحد ، فتكون سُبّة آخر الدهر .
فضمّه إليه وقبّله ، وقال : أنت الآن ابنى حقًّا ، ودعا المُوريانى ، فقال : يكون هذا عندك ، وما كنتَ تفعله بولدى لو كان لى عندك فافعله به . وتقدّم إلى الربيع فى أن يُسقط الإذن عنه ، وأمره بالبُكور إليه فى كلّ يوم والرَّواح ، إلى أن يظهِر أمره ، فإنّ له فيه تدبيراً . فضمّه الموريانى إليه ، ١٥
وأخلى له منزلاً ، وأوسع له من كلّ شىء ، فكان يغدو ويَرُوح إلى المنصور ، وخُصّ به جدا . وكان الفتى فى غاية من العقل والكمال ، وكان المنصور يخلو معه ، فيسأله الموريانى عمّا يجرى بينهما ، فلا يُخبره ، فيقول له : إن أمير المؤمنين لا يكتمنى شيئاً ؛ فيقول له : فما حاجتك إلى ما عندى إذَنْ ! فحسده المُوريانى ، واستوحش منه ، وثقُل عليه مكانهُ ، فأطعمه سُمًّا ٢٠ [١٣٧]
فمات ، وصار إلى المنصور ، فأعلمه أنه مات فجأة ، ثم ولّى ؛ فقال المنصور :

قتلته ! قتلني الله إن لم أقتلك به ! فلم يلبث بعده أن فعل به ما فعل .

توقع صالح قتل المنصور أبا أيوب

ولما غَضِب أبو جعفر على أبي أيوب وحبَسه ، ذكر صالحُ ابن سليمان أنه سيقتله وجميعَ أسبابه ، لأنّه سمعه يتحدّث أنّ مَلِكاً من الملوك كان يُساير وزيراً له ، فضربت دابةُ الوزير رِجْلَ الملك ، فغضب ، وأمر بقطع رجل الوزير ، فقُطعت ، ثم نَدِم ، فأمر بمُعالجته حتى بَرَأ ، ثم ٥ قال الملكُ في نفسه : هذا لا يحبّني أبدا ، وقد قطعتُ رجلَه ، فقتله ، ثم قال : وأهلُ هذا الوزير لا يحبّونني أبدا ؛ وقد قتلتُه ، فقتلهم جميعاً . فعلمتُ أنه سيفعل ذلك في المُورِيانى ، ففعله ، وما عدا ظنّى .

طريفة للمهندس الذى صور ضيعة صالح مع المنصور

والضَّيعة التي أشار بها المُوريانى على أبي جعفر لصالح هي المعروفة ١٠ بالسُّبيطيّة من أعمال البصرة ، وكان أبو جعفر تقدّم إلى بعض المُهَنْدسين بتَصْويرها له ، فصوّرها ، وعَرَض الصورة عليه ، فاستحسنها ، فقال له : سَلْ حاجتك ؛ فقال : إنّى أجد في فِيَّ عِلّة ، وقد أضرّت بأسنانى ، وحاجتى أن يأذَن أميرُ المؤمنين في تَقْبيل يده ، فلعلّ الله أن يَهَبَ لى العافية ؛ [١٣٨] فقال له أبو جعفر : على أن ذاك ، إن أذِنتُ لك ، فيه عِوَضٌ من الجائزة ، ١٥ فأما أن أجمعهما لك فلا ؛ فقال له : والله لو لم يبق في فمى حاكّة[1] وعلمت أن تقبيل يدك يردّ جميعها ما آثرتُه على الجائزة ؛ فضحك منه ووَصله .

رياح ومحمد ابن خالد ورزام

وكان زياد بن عُبيد الله الحارثى يتقلّد لأبي جعفر الحرمَيْن ، ثم صرَفه بمحمد بن خالد بن عبد الله القَسْرى[2] ، ثم صرف محمد بن خالد برِيَاح بن عثمان في سنة أربع وأربعين ومئة ، وكان رِزام ، ويكنى ٢٠ أبا بشير ، مولى خالد بن عبدالله ، يكتب لمحمد بن خالد ، فحبس رياحٌ محمد

---

(١) حاكّة : سن .

(٢) في الأصل : «القشيرى» وهو تحريف .

ابن خالد ، وحبَس رِزاما كاتبه ، فكان يَضْرب رزامًا فى كلّ يوم خمسة عشر ســوطًا ، ويطالبه أن يَشِى بصاحبه ، حتى صار جِسْمُه كالقُرْحة ، فأحضره يومًا ليضربه ، فلم يجدْ فيه موضعاً للضرب ، فضربه على كفّه ، فلما بلغ به مابلغ ، أحضر رزامٌ كتابًا يُوهمه أن فيه رفائع[1] على محمد بن خالد ؛ فجمع رياحٌ الناس ، فلما اجتمعوا قال لهم : أيها الناس ، إن الأمير أمرنى أن أرفع على محمّد بن خالد ، وقد أحضرت كتابًا كلُّ مافيه باطل ، وقد صدقت عما عندى ؛ فأمر بضَرْبه مئة سوط وحُبِس . فلم يزل محبوساً حتى غلَب على المدينة محمدُ بن عبد الله بن حسن ، فقَتل رياحَ بن عثمان ، وأطلق محمد ابن خالد ورزامًا كاتبه .

[١٣٩]

بعض عمال المنصور

ولما نَكب أبو جعفر أبا أيوب فى سنة ثلاث وخمسين ومئة ، قلّد الخاتَم الفضْــل بن سليمان الطُّوسى ، وقلّد كتابةَ الرسائل والسرَّ أبان ابن صَدَقة ؛ وقلّد ضِياعَه صاعداً مولاه .

شعر فى هجاء صاعد ومطر

وفى صاعد ومطر مَوْلَيى أبى جعفر يقول أبو الأسد الأعرابى :

وسائلٍ عن حمارىْ كيفَ حالُهمَا ... سَلْنى فعنــدى حقيقةُ الخبرِ[2]

لاَخَــــير فى صاعدٍ فتطلبه ... والخيرُ يأتيك من يَدَىْ مطر

وأىّ خــير يأتيك مِن رجل ... ليس لأُنثى يُدْعى ولا ذَكر

ليس له غيرَ نفســـه نَسَب ... كأنه آدمٌ أبو البَشر

سائر عمال المنصور ومنزلة ابن جبل عنده

وقلّد ديوان خَراج البَصْرة ونواحيها عُمارةَ بن حمزة ، وقلّد ديوان خراج الكوفة وأرْضَيها عمرو بنَ كَيْلَغ ، فى سنة خمس وخمسين ومئة ، ثم صرفه عنــه وقلّده ثابتَ بن موسى ، وحَبَس عمرو بن كَيْلَغ . واستخلف

(١) جمع رفيعة . قال فى اللسان : والرفيعة : ما رفع به على الرجل ، ورفع فلان على العامل رفيعة ، وهو ما يرفعه من قضية ويبلغها .

(٢) كذا ورد هـذا البيت فى الأصل : وهو غير مستقيم وزنا ولم نهتد إلى مرجع نستعين به على تصويبه .

ثابتٌ محمدَ بن جميل ، لمصاهرة كانت بينــه وبينه ، وأمره بالعرْض على المَنْصور إذا لم يحضُر ، فخفّ على قلب المنصــور ، فأقامه معه مقام ثابت . [١٤٠]
وكان ثابتٌ يقول ، إذا مرّ به محمد بن جميل : « فالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا» . وكان محمد بن جميل فى غاية الخُرق والخفّة .

منزلة الربيع عند المنصور وشىء عنه

٥ وقلّد الربيعَ مولاه نفقاتِه والعَرْض عليــه ، وهو الربيع بن يونس ابن محمد بن أبى فَرْوة ؛ واسم أبى فروة كَيْسان ؛ مولى الحارث الحَفّار ، مولى عثمان بن عفان . وكان يونس بن محمد شاريًا[1] شاطرا بالمدينة، فعَلِقَ أمةً لقوم بالمدينة ، فوقع عليها ، فجاءت بالرّبيع واستُعبد ، ولم يكن ليونس مالٌ فيبتاعه ، فابتاعه زيادُ بن عبــد الله الحارثى ، خال أبى العبّاس ،
١٠ وأهداه إليه ، فخدَمه وخفّ على قلبه ، ثم خدَم أبا جعفر بعده، فخُصّ به ؛ ولما عزَم المنصور على تقْليد الربيع العرْض عليه قال : اجلس فى بيْتك حتى يأتيك رسولى ؛ فاغتمّ لذلك، فصار إليه الرسولُ بدُرّاعة[2] وطَيْلَسان[3] وشاشيّة[4] ، فقال له : ألبس هذا واركب بهذا الزىّ ، فركب، فأمر الفرّاش أنْ يطرح له مِرْفقه تحت البِساط ، تقصيراً به عن منزلة المَهْدىّ وعيسى
١٥ ابن علىّ ، لأنه كان يطرح لهما مِرفقتين ظاهرتين . فلما وصل إليه قال له: قد ولَّيْتك الوزارة والعرْض ، ووليّت أبنك الفضلَ الحجابةَ . فدخل عليه [١٤١]
الربيعُ يومًا والفضلُ يمْشى خَلفه ، فأخذ الربيعُ بيده وقال ، إنّ الحاجب لا يمشى خَلْف إنسان ، فقال له المنصور ، بلى يا ربيعُ ، هــذا معك أنت وحدك .

(١) شاريا : نسبة إلى الشراة وهم الخوارج .
٢٠ (٢) الدراعة : ثوب يتخذ من الصوف .
(٣) الطيلسان : ضرب من الأكسية .
(٤) الشاشية : ضرب من العمائم تتخذ من الحرير . (راجع كتاب الملابس لدوزى طبع أمستردام) .

وكانت أرزاقُ الكتّاب والعمال فى زمان أبى جعفر ، للرؤساء ثلاث مئة درهم للرجل ، ونحو ذلك ، وكذلك كانت فى أيام بنى أمية ، وعلى ذلك جرَت إلى أيام المأمون ، فإن الفضْل بن سهل وسّع الجارى .

نصيحة المنصور للمهدى حين أخذه إلى الرى

ولما أنفذ المنصورُ المهدىَّ إلى الرى ضَمّ إليه أبا عُبيد الله معاوية ابن عبيد الله بن يسار ، مولى عبد الله بن عِضاه الأشعرى ، من أهل ٥ فِلَسْطين . وكان عُبيد الله بن يسار أبوه يكتب لصاحب المَعُونة بالأُرْدن[1] أيامَ بنى أمية ، فرَوى الزبيرُ عن مبارك الطَبرىّ قال : سمعت المنصور يقول للمهدى حين أخذه إلى الرّىّ . ياأبا عبد الله ، لا تُبْرم أمراً حتى تفكّر ، فإنّ فِكْرة العاقل مرآة تُريه حسَنه وسيِّئه .

قال : ١٠

وسمعته يقول له : يا أبا عبد الله ، إن الخليفة لا يُصْلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا العدل ، وأولى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلاً من ظَلَم من هو دونه . [١٤٢]

وقال :

سمعته يقول : يا أبا عبد الله ، استدم النِّعمة بالشكر ، والقُدرة بالعفو ، ١٥ والطاعة بالتألف ، والنصرَ بالتواضع ، ولا تنس مع نَصيبك من الدنيا نصيبك من رحمة الله .

عيسى بن موسى وخلعه نفسه

وروى أن عيسى بن موسى لما أجاب المَنْصور إلى أن يَخْلع نفسَه من التقدّم فى ولاية العهد ، وأن يقدّم المهدىَّ على نفسه ، أمره أبو جعفر أن يخرج إلى الناس ، فيخاطبهم بذلك . فخرج ومعه أبو عُبيد الله كاتب ٢٠ المهدىّ ، فدخلا المَقْصورة فى المسجد الجامع ، فقال عيسى : إنى قد سلّمت

(١) الأردن : كورة واسعة ، منها الغور ، وطبرية ، وصور ، وعكاء ، وما بين ذلك . (راجع معجم البلدان) .

ولاية العهد للمهدى محمد بن أمير المؤمنين ، وقدّمتــه على نفسى ؛ فقال أبو عبيــد الله : ليس هكذا أيها الأمير ، ولـكن قُلْ لحقّه وصدقه ، وأَخْبِر بمـا رَغِبْت فيه وأَعْطِيت ؛ فقال . نعم ، قد بعثُ نَصِيبي من تقدّمى فى ولاية العهد من عبد الله أمير المؤمنين ، لابنه محمد المهدىّ أمير المؤمنين بعده بعشرة آلاف ألف درهم ، وألف ألف درهم لابنى فلان وابنى فلان وابنى فلان وفلانة ــ أمرأة سمّاها من نسائه ــ بطيب نفسٍ منّى ، ورغبت فى تَصْيِيرها إليه ، لأنه أولى بالتقدم فيها ، وأحقّ وأقْوم عليها ، وأقوى على القيام بها منّى ؛ وكان ذلك فى سنة ست وأربعين ومئة . [١٤٣]

قال: فكان بعض المجّان من أهل الـكوفة إذا مرّ بهم عيسى بن موسى قالوا : هذا الذى كان غدا فصار بعد غد .

دفاع المهدى عن أبى عبيـد الله كاتبـه عند المنصور

وكان أبو جعفر لمـا شخَص المهدىّ إلى الرى أذن لأبى عُبيد الله كاتبه فى الإنفاق والتصرف فى بيت المـال ، فأقام بالرىّ مع المهدىّ مــدةً طويلة ، وأنفق أموالاً عظيمة ، فلما انصرف المهدىّ إلى الحَضْرة ، طالب المنصورُ أبا عُبيد الله برفع الحساب بمـا جرى على يده ، فقامت قيامتُه ، واشتدّ غمّه ؛ فلقيه خالد بن برمك ، وكان صحيح العقل ، ســديد الرأى ، فقال : أنت ترشّح نفسك لتدْبير الخلافة وقد حيّرك هذا الأمر الصغير ! فقال : فمـا الرأى عندك ؟ قال : يصير المهدى إلى أبيه وعليه ســيفُه وســوادُه ، فإذا مثَل بين يديه نزع سيفَه ، فرمى به ، وقال له : يا أمير المؤمنين ، أنت ترشّحنى لهذا الأمر ، وتروى أنى المهدىّ الذى بعدك فى النّاس ، ثم تكشف كاتبى عما أجريتُــه على يده ، ونفّذه بأمرى وبتوقيعاتى ! فلعلك تنكر شيئاً، فيقول الناس : إنه كُشف عن خيانة . [١٤٤]

فصار أبو عبيد الله إلى المهدى ، فطالبه بذلك ، ففعل ، فأمسك أبو جعفر عنه .

حديث تولية المنصور الأمر المهدى

وقال أبو جعفر للمهدىّ يوما : قد عزمت على أن أوليك الأمر ، وأردّه إليك ، فقد كبرت وعجزت عن مباشرة الأعمال والنظر فيها ، وأحببت الراحة والدَّعة ؛ فخرج المهدى إلى أبي عبيد الله مستبشراً بذلك ، ٥
وعرّفه ما عرضه عليه أبو جعفر ؛ فقال له أبو عبيد الله . أتق الله ولا تظهر لأمير المؤمنين قبولا لما ذاكرك به ، وإذا عاودك فقل له : لا والله لا أتعرض لهذا الأمر ما أبقى اللهُ أميرَ المؤمنين ، ولا أنْهض له ولا أغرّه من نفسى ! فإنه إنما سَبَرك بما عرض عليك . فلما دخل المهدّى على
أبي جعفر قال له : ياأبا عبد الله ، هل فكّرت فيما قلته لك، أو شاورت أحدا ١٠
فيه ؟ فقال : مابى قوة على ذلك ، ويُبْقى الله أمير المؤمنين ، ويُمتّعنا بحياته ، وما أحبّ أن أغُرّ من نفسى ! فقال له : سبحان الله ! من صدّك عنه ؟ ومن ناظرت فيه ؟ وكرّر عليه القولَ ، وأعاد المهدى عليه جوابًا واحدا ؛ فقال له : فمن شاورت فى هذا الأمر ؟ فقال له : شاورتُ معاوية ؛ قال :
فأى شيء قال لك ؟ قال : فعرّفه ما قال له ، فأطرق هنيهة ثم قال : علىّ ١٥
بمعاوية . فلما دخل عليه قال له : ما هذا الذى ناظرك فيه أبو عبد الله ؛ [١٤٥]
وكيف رأيت أن لا يقبل ؟ قال : أأَصْدُقك وأنا آمن ؟ فقال له : هات ، ولم لا تصدقنى ؟ فقال له : إنه والله ما عرضتَ عليه ما عرضته وأنت تُريد أن توليه ، وإنما أردتَ أن تختبر عقلَه ، وما كنت لتَطيب نفساً
بتَركِ ما أنت فيـه ؛ فقال له : وكيف توهّمت ذلك ؟ قال لأنى سمعتك ٢٠
تقول : إنى أستيقظ ، بالليل فأدعو بالكُتُب ، فأضعها بين يدى ، وأدعو

بالجارية ، فأمَرُها أن تمرُخ(١) ظهري بالدهن ، ففعل ذلك ، وأنا مُقبل على كتبي وتدبيري ، والنظر في أموري ؛ فعلمتُ أنك لا تدع شيئا يكون موقعه منك هذا الموقع ، وتؤثِرَ به غيرك ؛ فقال : ما كنت أرى أن أحدا يتفقّد ما تفقّدتَه ، وقد أصبتَ الرأى وأحسنت ، بارك الله عليك .

مقتل فضيل ابن عمران

٥ وكان المنصور ضمّ رجلا يقال له : فُضيل بن عِمْران ، من أهل الكوفة ، إلى جعفر ابنه يكتب له ، ويقوم بأمره ، بمنزلة أبي عُبيد الله مع المهديّ ؛ وكانت لجعفر حاضنة تعرف بأم عُبيدة ، فثقُل عليها مكانُ فُضيل ، فسعت به إلى أبي جعفر ، وادّعت عنده أنه يلعب بجعفر . فبعث المنصور بالرّيّان مولاه ، وهارون بن غَزْوان ، مولى عثمان بن نَهيك ، إلى

١٠ فُضيل ، وأمرَهما بقتله ، وكتب لهما منشورا بذلك ، فصارا إليه فقتلاه . [١٤٦]

وكان الفُضيلُ ديّنا عَفِيفا ، فقيل للمنصور في ذلك ، وأنه أبرأ الناس مما قُرِف(٢) به ، وأبعدُهم منه ، فوجّه رسولاً ، وجعل له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يقتل ، فصار إليه ، فوجده قد قُتل ولم يجفّ دمه . واتصل خبرُ قتله بجعفر بن أبي جعفر ، فطلب الرّيّانَ ، فلما جيء به إليه ، قال له :

١٥ ويلك ! ما يقول أمير المؤمنين في قَتْل رجل عفيف مسلم ، بغير جُرم ولا خيانة ! فقال الرّيّان : هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء ، هو أعلم بما صنع . فقال له : ياماصّ بَظْرِ أمه ! أُكلّمك بكلام الخاصّة ، وتكلمنى بكلام العامة ! خُذوا برجله ، فألقُوه في دِجلة . قال : فأخذوا والله برجلي ، فقلت : أُكلمك ؛

(١) مرخ : دهن .

٢٥ (٢) قرف به : اتهم به ؛ يقال : قرف فلان فلانا ، إذا عابه واتهمه .

فقال : دعوه ؛ فقلت : أبوك إنما يُسأل عن فُضيل بن عمران وحدَه ! ومتى يُسأل عنه وقد قتل عمَّه عبدَ الله بن عليّ ، وقتل عبدَ الله بن حسن ، وقتل غيرَه من أولاد رسول الله ظلمًا ، وقتل أهل الدنيا ممن لا يُحصى ولا يُعدّ ! وهو ، قبل أن يُسأل عن فُضيل ؛ جُوذابة [1] تحت خُصَى فرعون ! فضحك وقال : دعوه إلى لعنة الله ! فأفلتُّ منه .

مكيدة المنصور لعيسى ومشورة [١٤٧] ابن أبي فروة

ولمّا حج المنصور بعد تقليده المهديَّ العهدَ ، وتقديمه إياه على عيسى ابن موسى ، دفع عبدَ الله عمّه إلى عيسى ، وأمره سرًّا بقتله ، وكان يونس ابن [أبي] [2] فَروة يكتب لعيسى بن موسى ، فدعا عيسى بيُونس ، وقد كان عزم على قتل عبد الله بن عليّ ، فخبّره الخبر ؛ فقال نَشَدتك الله أن تفعل [3] ، فإنه يريد أن يقتلك و يقتله ، لأنه أمرك بقتله سرًّا ، و يجحَدُك إياه في العلانية ، ولكن استرْه حيث لا يطلع عليه أحد ، فإن طلبه منك علانية دفعته إليه ، و إياك أن تردّه سرًّا أبدا ، بعد أن يظهر حصولُه في يدك . قال : ففعل عيسى ذلك ، وانصرف أبو جعفر من حجّه ، وعنده أن عيسى قد أنفذ أمره في عبد الله ؛ فدسّ على عُمومته من يُشير عليهم بمسألته في عبد الله ، ففعلوا ذلك ، فدعا بعيسى بن موسى ، فسأله عن عبد الله بن عليّ ؛ فقال له ، فيما بينه و بينه : ألم تأمرني بقتله ؟ فقال : مَعاذَ الله ! ما أمرتك بقتله ، إنما أمرتك أن يكون في منزلك ! قال : قد أمرتني بقتله ؛ قال : كذبتَ ! ثم أقبل على عُمومته ، فقال: قد أقرّ بقتله ، وقد كذب عليّ ، وادّعى أني أمرتُه ، فشأنكم به ، فوثبوا عليه . فلما رأى صُورة أمره ، صدق أبا جعفر عن الحال ، وأحضره إياه . فكان عيسى يشكر ليونس بن أبي فروة ذلك مدةَ عمره .

---

(١) كذا في الأصل : « والجوذابة » ، طعام يصنع بسكر ورز ولحم . ولا يستقيم المعنى بها ، ولعلها محرفة عن « صؤابة » . والصؤابة : بيضة القمل أو البرغوث يريد أنه إذا قيس بفرعون في كثرة القتل كان كالصؤابة في جسده ، وخص فرعون لما عرف به من الظلم والعدوان أو محرف عن « خوران » بفتح الخاء ، وهو الدبر .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل في هذا الموضع .

(٣) يريد : « ألا تفعل » .

[١٤٨]
منارة الذى تبناه معاوية كاتب عيسى وشىء عنه

وكان لعيسى بن موسى ابنٌ يقال له العبّاس ، من أكابر ولده ، وقد تقلّد الكوفة من قِبَل عيسى ، وكان يكتب له رجل يقال له معاوية . فذكر علّان الورّاق السعوىّ : أن رجلا من بنى أسد اختدع معاوية ، رغبةً فى جاهه وميراثه ، حتى انتمى إلى بنى أسد ، فتوفى الأسدىّ الذى غرّه ، ٥ فخاف معاوية أن يموت هو ، فيرثه قوم كانوا نفوْه ، وأنكروا عليه دعوته فيهم . وكانت لمعاوية جارية صَقَلّية جاءت بابنٍ من غلام له ، كان يقال له منارة ، فادّعى حينئذ معاويةُ منارةَ أنه منه ، ونسبه إلى نفسه فيما بعد ، وسمّاه محمداً ؛ ثم مات معاوية وانتمى محمد إليه ، واكتنى بأبى عبد الله ، ونظر فى النسب ، وكان يُنْبَزُ بالأُبنة ، ويُتهم بالزندقة ؛ وقد هجاه قوم من أهل ١٠ الكوفة هجاء كثيرًا ؛ فمن ذلك أن بنى أسد يعرفون بالكوفة بالتطفيل ، [فهجوه بأنه يتظاهر بالتطفيل][1] ليصحّ نسبه ؛ فقال بعض الفتويين :

والله لو طَفَّلْتَ يا بن أَشْــتِها سبعين[2] عاماً لم تكن من أَسَدْ

فارحل إلى الجُبَّة من مصرنا[3] واطلب أبًا فى غــير هذا البلد

يعنى بالجبة : الجُبَّة والبُدَاة ، طَسُّوجين[4] من سَواد الكوفة .

يوسف بن صبيح الكاتب [١٤٩] عند أبى جعفر

١٥ وكان يكتب لعبد الله بن علىّ يوسفُ بن صُبيح ، مولى بنى عجل ، من ساكنى سواد الكوفة . فذكر القاسمُ بن يوسف بن صُبيح أن أباه حدّثه :

أن عبد الله بن علىّ لما أستتر عند أخيه سليمان بالبصرة ، وعلم أنه لا وَزَرَ له من أبى جعفر ، قال[5] : فلم أستتر ، وقصدتُ أصحابنا الكُتّاب ،

---

٢٠ (١) زيادة يقتضيها السياق .
(٢) فى معجم البلدان (عند الكلام على الجبة) : « تسعين » .
(٣) فى معجم البلدان : « عن عصرنا » .
(٤) الطسوج (هنا) : الناحية .
(٥) أى يوسف بن صبيح.

فصرْت فى ديوان أبى جعفر، وأُجرى لى فى كل شهر عشرة دراهم ؛ فبكّرتُ يوماً إلى الديوان قبل فتح بابه . ولم يحضُر أحد من الكتّاب ، فإنى لجالس عليه، إذا أنا بخادم لأبى جعفر يتلمّح الباب، فلم يرَ غيرى ، فقال لى : أجبْ أمير المؤمنين ؛ فأُسقط فى يدى ، وخشيت الموت ، فقلت : إن أمير المؤمنين لم يُرِدْنى ؛ قال : وكيف ؟ فقلت : لأنى لست ممن يكتب بين يديه . ٥ فهمّ بالانصراف عنى ، ثم بدا له، فأخذنى وأدخلنى ، حتى إذا صِرْت دون الستر ، وَكّل بى ودخل ، فلم يلبث أن خرج ، فقال لى : ادخل ، فدخلت . فلما صِرْتُ إلى باب الإيوان ، قال لى الربيعُ : سلّمْ على أمير المؤمنين ، فشَمِمتُ رائحة الحياة ، فسلّمت ، فأدنانى وأمرنى بالجلوس ، ثم رمى إلىّ بِرُبْع قرطاس ، وقال لى : اكتب وقارِبْ بين الحروف ، وفرِّج ١٠ بين السطور ، واجمع خطّك ، ولا تُسرف فى القرطاس ؛ وكانت معى دواة شاميّة ، فتوقفتُ عن إخراجها ؛ فقال لى : كأنى بك يا يوسف ، وأنت تقول فى نفسك : أنا بالأمس فى ديوان الكوفة أكتب لبنى أمية ، ثم [١٥٠] مع عبد الله بن علىّ ، وأُخرِج الساعةَ دواةً شامية ! إنك إنما كنت فى ديوان الكوفة تحت يد غيرى ، وكنتَ مع عبد الله بن علىّ ، لى ومعى ، ١٥ والدُّوِىّ الشاميّة أدَبٌ جميل ، ومن أدوات الكتّاب ، ونحن أحق بها ؛ قال : فأخرجتها ، فكتبتُ وهو يُملى علىّ ، فلما فرغتُ من الكتاب ، أمر به فأُترب . وَأُصْلح ، وقال : دَعْه ، وكِلِ العُنْوان إلىّ ، ثم قال لى: كم رزقك يا يوسف فى ديواننا ؟ فقلت : عشرةُ دراهم ؛ فقال لى : قد زادك أمير المؤمنين عشرة دراهم ، رعايةً لحرْمتك بعبد الله بن علىّ ، ومثوبةً على ٢٠ طاعتك ، ونقاءِ ساحتك ، وأشهدُ أنك لو استخفيتَ باستخفائه لأخرجتُك ولو من جحَرَة النمل ، ثم زايلتُ بين أعضائك ؛ قال : فدعوتُ له ، ثم خرجت مسروراً بالسلامة .

وتوفي عبد الملك بن حميد ، كاتب أبي جعفر في آخر سنة أربع وخمسين ومئة . وفاة ابن حميد

وكان ملك الروم أنفذ إلى أبي جعفر رسولاً ، فورد عليه عند فراغه من الجانبين من مدينة السلام ، وأمر أبو جعفر عُمارةَ بن حمزة أن يركب معه إلى المهديّ ، وهو نازل بالرُّصافة ، فلما صار إلى الجسر رأى الرسولُ مَنْ عليه من الزَّمْنَى والسؤّال ، فقال لترجمانه : قل لهذا ، يعنى عُمارة بن حمزة : إني أرى عندكم قوماً يسألون ، وقد كان يجب على صاحبك أن يرحم هؤلاء ، ويكفيهم مُؤَنهم وعيالاتهم[1] ؛ فقال له عمارة : إن الأموال لا تَسعهم ، ومضى إلى المهديّ ، وعاد إلى أبي جعفر ، فخبّره عُمارة بذلك ؛ فقال له أبو جعفر : كذبتَ ! ليس الأمر على ما ذكرتَ ، والأموال واسعةٌ ، ولكنّ العذر ما أنا ذاكره له ، فأحضرنيه ؛ فأحضره ، فقال له : قد بلغني ما قلتَه لصاحبنا ، وما قاله لك ، وكَذَب ، لأن الأموال واسعة ، ولكن أمير المؤمنين يكره أن يستأثر على أحدٍ من رعيته ، وأهل سلطانه بشيء من حظٍّ ، أو فَضْل في دنيا أو آخرة ، وأحبَّ أميرُ المؤمنين أن يَشْرَكوه في ثواب السؤّال والزّمنى ، وأن يسألوهم من ذوات أيديهم ، ومما أعطاهم الله عزّ وجل من الرزق ، ليكون ذلك نجاةً لهم في آخرتهم ، وتمحيصاً لذنوبهم ؛ فقال الروميّ : الحقُّ ما قاله أمير المؤمنين . رسول الروم والزمنى وجواب أبي جعفر [١٥١]

وكانت نَخْوةُ عُمارة وتِيهه يتواصفان ويُسْتَسرفان ، فأراد أبو جعفر أن يعبث به ، فخرج يوماً من عنده . فأمر بعض الخدم أن يقطع حمائل سيفه ، لينظر أيأخذه أم يتركه ؟ ففعل ذلك ؛ فسقط السيفُ ، فمضى عُمارة لوجهه ، ولم يلتفت إليه وكان المثل يُضرب بتيهه ، فيقال : أتْيَه من عُمارة . تيه عمارة وشيء عنه [١٥٢]

(١) كذا في الأصل . كأنها جمع عيال ، وعيال : جمع عيل (بوزن سيد) .

وكان عُمارة إذا أخطأ يمضى على خطئه تكبُّراً عن الرجوع ويقول: نَقْض وإبرامٌ فى ساعة واحدة! الخطأ أهْون علىّ من هذا. وله شعر صالح، فمن ذلك:

لا تشكونّ دهراً صَحَحْتَ به إن الغِنَى فى صحّة الجسمِ
هَبْكَ الإمامَ أكنتَ منتفعاً بغضارة الدنيا مع السُّقْمِ؟ ٥

قال محمد بن يَزْداد:

قلّد المنصورُ عُمارةَ بن حمزة الخراجَ بكُوَرِ دجلة والأهواز، وكُوَر فارس، وتُوفى المنصور سنة ثمان وخمسين ومئة وعُمارة يتقلد ذلك.

حماد التركى وتقليده السواد

وقلّد المنصورُ حمّاداً التركى تعديلَ السواد، وأمره أن ينزل الأنبار ولا يدع أحداً من أهل الذمة يكتب لأحد من العمال على المسلمين إلا قطع يده؛ فأخذ حمّادٌ ما هويه[1] الواسطىّ، جدّ سليمان بن وهب، فقطع يده. ١٠

[١٥٣] شىء عن محمد بن جميل

وأنكر أبو جعفر على محمد بن جميل شيئاً، فأمر ببَطْحه، فقام بحجته، وأزال ما أُدّعى عليه، فأمر بإقامته، ثم لحظ سراويله، فإذا هو كتّان، فأنكر ذلك إنكاراً شديداً، وأمر به فبُطح، وضَرَبه خمس عشرة دِرة، وقال: هذا جزاؤك على سوء اختيارك فى لبس مثل هذا السَّراويل، فلا تعاوده. ١٥

وكان محمد بن جَميل يتقلّد ديوان الخَرَاج، ولما قلّد أبو جعفر الربيعَ العَرْض عليه، حَسُن مَذْهبه، وآثر الخَيْريّة، حتى عُرِف بذلك.

المنصور وشيخ اعتدى على عامل فلسطين

وكان أبو جعفر إذا أراد بإنسان خيراً، أمر بتسليمه إلى الربيع، وإذا أراد بإنسان شرّاً أمر بتسليمه إلى المسيّب[2]. فكتب العامل بفلسطين يذكر أن بعض أهلها وثب عليه، واستغوى جماعة منهم، فعاث فى العمل. فكتب إليه المنصورُ: دَمُك مُرْتَهن إن لم تُوجِّه به. فصمد له العامل، وأخذه ووجّه ٢٠

(١) فى الأصل: «ساهويه» وهو تحريف.
(٢) هو المسيب بن زهير بن عمرو أبو مسلم الضبى، كان من رجالات الدولة العباسية، وولى شرطة بغداد فى أيام المنصور والمهدى والرشيد. توفى سنة ١٧٥ هـ. ٢٥

به . فلما مَثَل بين يديه ، قال : أنت المتوثّب على عامل أمير المؤمنين ؟ لأنثرن من لحمك أكثر مما يبقى على عظمك ! قال: وكان شيخاً كبيراً ، بصوت ضئيل :

أتروض عِرْسك بعد ما هَرِمت ومن العناء رياضة الهَرِمِ؟

٥ فقال : يا ربيع ، ما يقول ؟ قال : يقول :

العبد عبدُكم والمالُ مالُكم فهل عذابُك عنّي اليومَ مصروفُ

فقال المنصور : يا ربيع ، قد عفوتُ عنه ، خلِّ سبيله ، واحتفظ به ، وأحسن إليه . [١٥٤]

وهذا الشعر لعبد بني الحَسْحاس[١] ، وكان مولاه اتّهمه بابنته، فعزم على

١٠ قتله ، فقال هذا الشعر ، وأوله :

أمِنْ سُمَيَّةَ دمع العَيْن مذروفُ لو أن ذا منكِ قبل اليوم معروفُ

كأنها حين تبكى ما تكلِّمنى[٢] ظَبْىٌ بعُسْفانَ[٣] ساجى الطَّرْف مطروفُ[٤]

لا تَبْكِ عينُكَ إنّ الدهرَ ذو غِيَرٍ فيـه تفرُّقُ ذى إلْف ومألوفِ[٥]

العبد عبدكُم والمال مالكُم[٦] فهل عذابُك عنى اليوم مَصروفُ

١٥ ولما استوزر المنصورُ الربيع ترك أن يسأله حاجة تخفيفاً ؛ فقال له المنصور يوماً : قد انقبضتَ عن مسألتى حوائجك ، حتى أوْحشتَنى ؛ فقال : ما تركت ذاك ! أنّى وجدت لها موضعاً غير أمير المؤمنين ! ولكنى

سأل الربيع المنصور أن يحب الفضل ابنه

(١) ينسب هذا الشعر لعنترة العبسى ، وهو فى ديوانه المخطوط وفى الأغانى طبعة دار الكتب المصرية (ج ٨ ص ٣٧) فى ترجمة عنترة .

٢٠ (٢) رواية هذا الشطر فى ديوان عنترة والأغانى : « كأنها حين صدت ماتكلمنى » .

(٣) كذا فى ديوانه والأغانى . وعسفان منهل من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة ، وقيل فيها غير ذلك . وفى الأصل : « بلياء » .

(٤) ساجى العين : فاترها ؛ ومطروف : أصابت عينه طرفة .

(٥) فى هذا البيت إقواء . والظاهر أنه دخيل على هـذه الأبيات ، لأنه ليس فى

٢٥ القصيدة المنسوبة إلى عنترة .

(٦) رواية هذا الشطر فى الديوان والأغانى : « المال مالكم والعبد عبدكم » .

مِلْت إلى التخفيف ؟ قال : فاعرض على ما تحبّ من حوائجك ؛ قال : حاجتى يا أمير المؤمنين أن تحب الفضلَ ابنى ؛ قال : ويحك ! إنّ المحبة لا تقع ابتداء ، وإنما تقع بأسباب ؛ فقال : قد أوجدك الله السبيلَ إليها ؛ قال : وما ذاك ؟ قال : تُنعم عليه ، فإذا أنعمت عليه أحبّك ، فإذا أحبّك

[١٥٥] أحببته ؛ قال: قد والله حبّبتَه إلىّ قبل أن يقع من هذا شيء ، ولكن كيف ٥ اخترتَ له المحبة من بين سائر الأشياء ؟ قال : لأنك إذا أحببته كبرُ عندك صغيرُ إحسانه ، وصغُر عندك كبير إساءته ، وكانت حاجاته عندك مَقْضيّة ، وذنوبه عندك مغفورة .

تأكد حرمة يحيى عند أبى جعفر

وكان أبو جعفر قلّد خالد بن برمك الرّىّ وطَبَرِستان ودنْباوَنْد ، فأقام بها سبع سنين ، وكان مُقام خالد بطبرستان، وخلّف ابنَه يحيى بالرىّ ، ١٠ فلما وجّه أبو جعفر المهدىّ إلى الرى خدمه يحيى ، وخَفّ على قلبه ، وولدت الخيزُران هارون بن المهدىّ فى سنة تسع وأربعين ومئة ، وكان الفضلُ ابن يحيى بن خالد قد وُلد قبل ذلك بسنة ، فأرضعت الخيزرانُ الفضلَ ، وأرضعت زُبيدة بنت منير ، أمُّ الفضل ، هارونَ : فتأكدت حُرمة يحيى ، واتصل سببه . ١٥

المنصور يؤدب أحداث الكتاب

وذكر الحارث بن أبى أُسامة فى كتابه المعروف بكتاب الخلفاء فى أخبار المنصور :

أن الخبر اتصل به : أن أحداثاً من الكتّاب يُزوِّرُون فى ديوان داره، فأمر بإحضارهم ، وتقدّم بتأديبهم ، فقال واحد منهم ، وهو يُضرب :

أطال الله عُمرك فى صلاح ... وعزّ يا أميـــر المؤمنينا ٢٠

بعفوك أستجير، فإن تُجرنى ... فإنك عصْمة للعالمينا

ونحن الكاتبون وقد أسأنا ... فهبنا للكرام الكاتبينا

[١٥٦] فأمر بتخليتهم ، ووَصل الفتى وأحسن إليه .

سقى المنصور أبا الجهم سما

وكان أبو جعفر يتعتّب على أبى الجهم بن عطيّة ، وزير أبى العباس،

فلما استُخلف أبو جعفر، دخل أبو الجهم يوما، فطاوله حتى عَطِش، ثم دعا له بسَويق من سَويق الموز، وقد كان سَمّه، فشربه، فلما وصل إلى جوفه تمخّض جوفه وأحسّ بالموت، فوثب مسرعا، فقال له المنصور: إلى أين يا أبا الجهم؟ قال: إلى حيث بعثتَنى. فلما وصل إلى منزله مات.

عبد الوهاب ابن أخى المنصور وشىء عنه

٥ وكان المَنصور قلّد عبد الوهاب بن إبراهيم فِلَسْطين، فعسفَ أهلَها، وكان إبراهيم بن أبى عَبْلة، كاتب هشام، مُقيما بها، فاستحضره المنصور، فلما وصل إليه قال له: ابنُ أبى عَبْلة؟ ما وراءك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد قرأت عهود الخلفاء الذين من ولد عبد الملك إليك، فما سمعت عهداً قط أجمع من عهد قرأه علينا عبدُ الوهاب منك؛ ثم عمد إلى جميع ما أمرتَه ١٠ به فاجتنبه، وما نهيته من شىء فارتكبه.

وكان ابن نُجير من أهل فِلَسْطين قد حضر مع ابن أبى عبلة، ووصل إلى المنصور، فقال: ماوراءك يابن نجير؟ فأخرج له طائرا من كُمّه، قد نتفه حتى لم تبق عليه ريشة واحدة، فقال له: فارقتُ البلد، يا أمير المؤمنين، وقد نَتَفه ابنُ أخيك، حتى تركه كما تركتُ هذا الطائر؛ فأظهر إنكاراً [١٥٧] ١٥ شديداً، وعزله.

محمد بن عمران وإنصافه الجمالين من المنصور

وكان يتقلّد للمنصور قضاء المدينة محمدُ بن عمران الطّلْحى، ويكتب له نُمير الشيبانى المدينى، فلما قدم المنصور حاجّا استعدَى عليه الجمّالون. فدعا محمدُ بن عمران بنُمير كاتبِه، وقال: اكتب إلى المنصور فى الحضور معهم أو إنصافهم؛ فكتب ثم ختم الكتاب، وقال له: والله لا مَضَى به ٢٠ غيرك؛ فمضى به، ودفعه إلى الرّبيع، واعتذر إليه؛ فقال له: لا عليك، ودخل بالكتاب ثم خرج، فقال للناس: أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام،

ويقول لكم : قد دُعيت إلى مجلس الحُكْم ، فلا أعلمنّ أحداً يقوم إذا خرجتُ ولا يكلمنى . ثم خرج المنصور ، والمُسيّب بين يديه ، والربيع ونُمير كاتب محمد بن عمران خلفه ، وهو فى مِئْزر ورداء ، فلم يَقُم له أحد ، فبدأ بالقبر ، فسلّم عليه ، ثم قال للربيع : إنى أخشى إن رآنى ابنُ عِمْران أن يدخل قلبَه هيبةٌ ، فيتحوّل عن مجلسه ، وبالله لئن فعل ، لاوَلِى لى ولاية ٥ أبداً . ثم صار إلى محمد بن عِمْران ، فلما رآه ابنُ عِمْران ، وكان متّكئاً ، أطلق رداءه على عاتقه ، ثم احتبى ودعا بالخصوم ، ثم دعا بالجمالين ، ثم دعا بأمير المؤمنين ، فادعى القومُ ، وساء له ، فقضى عليه لهم ، وأمره بإنصافهم ، [١٥٨] وانصرف أبو جعفر . فأمر الربيع بإحضار محمد بن عِمْران ، فلما دخل عليه قال : جزاك الله عن دينك وعن بيتك وعن حَسَبك وعن خَليفتك ١٠ أحسن الجزاء ! وأمر له بعشرة آلاف دينار .

هم المنصور ببيع القراطيس ثم عدوله عن ذلك

ووقف أبو جعفر على كثرة القراطيس فى خزائنه ، فدعا بصالح ، صاحب المصلّى ، فقال له : إنى أمرت بإخراج حاصل القراطيس فى خزائننا ، فوجدته شيئاً كثيراً جدا ، فتولَّ بيعه ، وإن لم تُعْطَ بكل طُومار إلا دانِقاً[1] ، فإنّ تحصيل ثمنه أصلح منه . قال صالح : وكان الطُّومار فى ذلك الوقت ١٥ بدرهم ، فانصرفتُ من حضرته على هذا ؛ فلما كان فى الغد دعانى ، فدخلت عليه ، فقال لى : فكرتُ فى كتبنا ، وأنها قد جرت فى القراطيس ، وليس يُؤْمن حادث بمصر ، فتنقطع القراطيس عنا بسببه ، فنحتاج إلى أن نكتب فيما لم نعوّده عُمالَنا ، فدع القراطيس استظهاراً على حالها .

ولهذه العلة كانت الفرس تكتب فى الجلود والرَّق ، وتقول : لا نكتُب ٢٠ فى شىء ليس فى بلادنا .

(١) الدانق : سدس الدرهم .

[١٥٩] مثل من حرص المنصور

قال جعفر بن أحمد النهروانى الكاتب: حدثنى محمد بن الفضل الكاتب قال : حدثنى كاتب كان للمنصور يتقلد النفقات فى أيامه ، ذهب على اسمه ، قال :

وقف المنصور يوما من الأيام نهارًا على سَرَب فى داره ، فيه قِنْديل معلّق ، وكان الموضع بين الضّىء والمظلم ، فكان تعليق القنديل إنما يقع استظهارا ، فأمر ، بأن يُطفأ ، وقال : لا يُعاوَدْ هذا المصباحُ إلى هذا الموضع إلا فى وقت الحاجة من الليل ، أو من آخر النهار . قال : فلما رأيت ذلك من ، تفقده قلتُ فى نفسى : إذا كان يتفقد هذا المقدار التافه ، فهو لغيره أشد تفقداً ، فنظرت إلى فضول موائده ، فبِعْتها ، فاجتمع لى من ذلك مال شَهر ، جملة وافرة صالحة ، ونظرت فى أشياء غير ذلك ، ففعلتُ فيها مثل هذا الفعل ، فلما كان من رأس الشهر عرضتُ عليه ما وفّرته ، فسألنى عن سببه ؟ فقلت : إن آمنتّنى شرحتُ لك الخبر ، فآمننى، فصدقته عن الصورة ؛ فقال : ما الذى كنتم تصنعونه بما يفضل من هذه الموائد فى كل يوم ؟ فقلت : كان يأ كله خدمك وغلمانك وحَشمك ، وما فضل بعد ذلك عنهم تُصدّق به على الفقراء والمساكين ؛ فقال : هذا لم [١٦٠] يكن يضيع منه شىء ، فأجْرِ الأمرَ على ما كان جاريًا عليه فيه ، وليس سبيلُ القنديل سبيلَ ذلك فى ذلك الموضع ، لأن ذلك الموضع الذى كان فيه كان مضيئاً بالنهار ، وكان الزيت يذهب ضَياعا ، ولا وَجْه للتضييع فى شىء وإن قلّ .

حرصه على تفقد الأعمال

وحُكى أنه ثقُل على كتّاب المنصور تفقدّه الأعمال ، ومُراعاته لها ، فقالوا لمتطببه : لو زيّنت له شرب النبيذ حتى يتشاغل عنا ، لأعظمتَ المِنّة

عندنا ، فوعدهم بذلك ، ولم يزل يقول له فى الوقت بعد الوقت ، لو سخّنت يا أمير المؤمنين معدتك لأصلحت جسمك ، ونَفَذ طعامك . فيقول : بماذا ؟ فيقول : بشراب العسل . فلما ألح عليه بذلك استدعى شيئاً منه ، فشربه فى اليوم الأول ، فاستطابه ، فعاوده فى اليوم الثانى ، وازداد منه ، فخدّره ، ثم عاوده فى اليوم الثالث ، فأبطأ عن صلاة الظهر والعصر والعشاء[1] ، فلما كان ٥ من غد دعا بما عنده من الشراب فهَرَاقه ، ثم قال : ماينبغى لمثلى أن يشرب شيئاً يشغله .

(١) أى صلاة المغرب ، وهى العشاء الأولى .

أيام المهدى

كتاب المهدى

ولما تقلد المهدى الخلافة قلد أبا عُبيد الله وزارتَه ودواوينه فى سنة تسع وخمسين ومئة . وكان من كتاب أبى عُبيد الله عبيدُالله بن عِمْران مولى مَذْحِج ، ويزيدُ الأحول أبو أحمد بن أبى خالد ، ومحمد بن سَعيد بن عقبة ، قلده الخراج بمصر ، وغيرهم .

تهنئة عبيد الله للمهدى

قال أبو الحسن المدائنى :

وفد عُبيد الله بن الحسن الهاشمى على المهدىّ معزّيا عن المنصور ، ومهنئا بالخلافة ، فتكلَّم بكلام كان قد أعدّه ، أُعجب الناس به واستحسنوه ، فبلغه ذلك ، فقال لشَبيب بن شَيبة : إنّى والله ما التفت إلى هؤلاء ، ولكن سَلْ أبا عُبيد الله عما تكلمت به ؛ فسأله شَبيب ، فقال له : ما أحْسن ما تكلم ! ولكنه لم يتعد بكلامه أن أخذ مواعظ الحسن[1] ، ورسائل غَيْلان[2] ؛ فلقح بينهما كلاما . فأخبر شَبيب عُبيدَ الله بذلك ؛ فقال : لله أبوه ! فوالله ما أخطأ حرفا ، ولا تجاوزتُ ما قال .

وفد على المهدى قوم فنسهم كاتبه أبو عبيد الله

[١٦٢]

قال ابن أبى سعيد الورّاق حدّثنى محمد بن إسماعيل الجعفرى عن أبيه :

أن زُفر بن عاصم عند تقلّده المدينة أوفد إلى المهدىّ عبدَ الله بن مُصعب الزبيرى ، وإبراهيمَ بن سعد الزهرىّ ، وسَعيد بن سَلْم الباهلى ، فلما وصلوا إلى بابه قصدوا أبا عُبيد الله وزيرَه ، متوسّلين به فى إيصالهم ، وذِكْر أمورهم

(١) ذكر واضع فهرست الجهشيارى أنه الحسن بن على بن أبى طالب . وترجح أن يكون الحسن بن أبى الحسن البصرى ، وهو تابعى اشتهر بالفقه والورع ، وكان خطيب المسلمين وواعظهم فى عصره ، وكانت وفاته سنة ١١٠ هـ .

(٢) لعله غيلان الدمشقى ، وكان من أوائل القدرية ، وأثبت له صاحب عيون الأخبار فصولا من كلامه ، وقد مات مقتولا بأمر هشام بن عبد الملك ، وذكر صاحب فهرست الجهشيارى أنه غيلان بن عقبة بن مسعود ، ذو الرمة الشاعر المشهور .

للمهدى ؛ فحجبهم وأبى عليهم ، وأغلظ القول لهم ، وجبههم بالرد ، وقال لهم : ما لكم عندنا شىء ؛ فقال له عبد الله بن مصعب ، وكان أحدث القوم سنا : إذا والله نكون كما قال خفاف بن نُدبة[1] السُّلَمى :

إذا تلفات بطن الخشرج[2] أمست[3] جـديات المسارح والمراح
تهادى الريح إذخرهن شهباً ونودى فى المجالس بالقداح[4] ٥
وجـدت لجارنا كرماً وكنا سوى ظن اللئيم بمستراح
إذا ما أجدبوا حمدوا وأبلت لنا الضرّاء عن أدم صحاح

فاتصل خبرهم بالمهدى ، فأنكر على أبى عُبيد الله ، ودعاهم فوصلهم ، وأحسن إليهم فى حوائجهم .

مأثور من كلام أبى عبيد الله

وكان أبو عبيد الله يقول : إنى لأشكر حسن اللحظة ، ولين اللفظة . ١٠

وذكر أن رجلاً اعتذر إلى أبى عبيد الله فأطال ؛ فقال له : ما رأيت عذرا هو أشبه باستئناف ذنب من هذا .

وكان أبو عبيد الله يقول: اليأس حرّ ، والرجاء عبد .

توسط محمد بن مسلم فى [١٦٣] رفع العذاب عن أهل الخراج

وكان أهل الخراج يعذَّبون بصنوف من العذاب ، من السباع والزنابير والسنانير ، وكان محمد بن مسلم خاصًّا بالمهدى ، فلما تقلد الخلافة ، ووجد أهل الخراج يعذَّبون ، شاور محمد بن مسلم فيهم ؛ فقال له محمد : يا أمير المؤمنين ، هذا موقف له ما بعده ، وهم غرماء المسلمين ، فالواجب أن يطالبوا ١٥

---

(١) فى الأصل : « يزيد » .
(٢) كذا فى لسان العرب (مادة ذخر) والخشرج : شبه الحسى تجتمع فيه المياه .
(٣) قال ابن منظور : احتاج إلى وصل همزة « أمست » فوصلها . ٢٠
(٤) الإذخر : حشيش طيب الرائحة ؛ الواحدة : إذخرة . وقال أبو حنيفة: الإذخر: له أصل مندفن دقيق دفر الريح، يطحن، فيدخل فى الطيب. وهى تنبت فى الحزون والسهول، وقلما تنبت الإذخرة مفردة . وإذا جف الإذخر ابيض .

مطالبة الغرماء . فتقدم إلى أبي عبيد الله بالكتاب إلى جميع العمال برفع العذاب عن أهل الخراج .

أبو عبيد الله وخالد بن برمك

وفسد مابين أبي عُبيد الله و بين خالد بن برمك ، بعد شدة التصافى ، فاتصل بخالد أن أبا عُبيد الله يقول: إنه يتخوّفه على سرّ كان أسرّه إليه. فركب خالد : حتى أتى باب أبي عُبيد الله ، فلما رآه غلمانه أعْظَموا ذلك ، وتبادروا بين يديه ، وخرج إليه أبو عُبيد الله وهو مُتعجب ، فقال له خالد: بلغنى عنك كذا وكذا ، وما اتخذت مودتك علة لعداوتك ، وعلىّ وعلىّ ، وحلف أيماناً مغلَّظة أن لو قطِّعتُ إرْبا إرْبا ما ذكرت ذلك تعريضاً ولا تصريحاً ، وعلىّ وعلىّ إن اطّلعت من أمرك على شيء من هذه الحال ، فأبقيت عليك، فلا تظنن بى ضَرَعا إليك،ولا رغبة فيما لديك ، وانصرف . فدعا بيحيي ابنه ، فقال له : امض إلى أبي عُبيد الله فقل له : كل امرأة لى طالق، وكل مملوك لى حر، وكل ملْك لى صدقة ، إن دخلت لك منزلا، ولا كلمتك أبدا ! فدفعه يحيي عن ذلك ، فلم يندفع . فصار يحيي إلى أبي عبيد الله ، فأدّى إليه الرسالة ، فشقّ ذلك عليه ، وقال له ، فالقنى أنت فى حاجاته وحاجاتك ، فكان يحيي يلقاه ، فيكرمه و يقضى حوائجه .

[١٦٤]

فقال[1] يوماً لخالد: ماحداك ياسيدى، ماحداك على ما كان منك فى أمر أبي عبيدالله ؟ فقال : يابنى، هذا رجل مكين من صاحبه ، وقد وقع فى نفسه علينا شيء ، ولم آمن أن يُرَقّى إليه شيء عنا لا أصل له ، فيَقبله و يصدّقه ، فأردت أن أظهر مابيننا و بينه ، فإن ادّعى علينا شيئاً حمله على ماعرفه بيننا.

يحيي بن خالد وأبو عبيدالله

وركب أبو عُبيد الله يوماً فوقف له الناس ، وكان فيمن وقف يحيي

(١) أى يحيي بن خالد .

ابن خالد ، فى جماعة منهم مالك بن الهيثم ، ومُعاذ بن مسلم ، فلما طلع أبو
عُبيد الله رَمَوْا بأنفسهم عن دوابهم ، ووقف يحيى على ظهر دابّته ، فلما
رآه أبو عبيد الله أعرض عنه ، وأقبل بطَرْفه على عُرف دابته ، ولم يلْتفت
إلى يحيى . قال : فلما رأيت ذلك حركت إليه حتى لحقته ، فقلت :
[١٦٥] يا أبا عبيد الله ، أبقاك الله ! قد علمتُ أنك أنكرتَ ما كان منى ، وقلَّمَا ٥
أعطَى أحد نفسَه هذه النَّلّة ، فوُجد عنده بعد ذلك خير .

شريك وعافية وتحليل النبيذ

وتحدث شَريك القاضى عند أبى عُبيد الله يومًا بحديث فى تحليل
النّبيذ ، فقال عافية[1] القاضى ، وكان حاضرا : ما سمعنا بهذا الحديث ؛
فقال شريك: وما يضرّ عالمـا أن جهل جاهل .
وذكر أبو سَهْل الرازى القاضى عن منصور بن أبى مُزاحم ، قال : ١٠
كنت عند أبى عُبيد الله ، وحَسَن بن حسن عنده، وشريك حاضر ،
فقال أبو عبيد الله لشَريك : حَدِّثنا فى النبيذ ، فحدَّثه بحديث هَمّام عن عمر
ابن الخطاب فيه ؛ فقال حَسَن : ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا
اختلاق ! فقال شريك: أجل، شغلك عنه جلوسك على الطَّنافس، فى صدور
المجالس ، وعرفناه بسعينا فيه . فاستزاده أبو عُبيد الله ، فقال : لا أعرّض ١٥
الحديث للكذب .

طرب المهدى لبيت شعر أنشده إياه عبد الأعلى فقضى دينه

وذكر عبد الأعلى بن عبد الله بن محمد بن صَفْوانَ الْجُمَحِىُّ :
أنه حمل دَيْنا فى عسكر المهدى ، قال : فركب المهدى يوماً بين أبى
عُبيدالله وعمر بن بزيع، وأنا وراءه فى مَوكبه على بِرْذون قَطُوف[2] ، فقال

٢٠
(١) هو عافية بن يزيد الأزدى .
(٢) قطوف : ضعيف المشى .

المهدى : ماأنسبُ بيت قالته العرب ؟ قال أبو عُبيد الله : قولُ أمرئ القيس :

وما ذَرَفتْ عيناكِ الا لِتَضْرِبى بسَهْمَيك فى أعشار قَلبٍ مُقَتَّلِ [١٦٦]

قال المهدى : هذا أعرابى قُحّ ؛ قال عُمر بن بَزِيع : قول كُثيِّر :

أريدُ لأنسى ذِكرها، فكأنّما تَمَثَّلُ لى ليـلَى بكل سَبِيلِ

٥ قال المهدى : ما هذا بشىء ، وماله أن ينسى ذِكْرَها حتى تَمَثَّلَ له !
قلت له :حاجتك عندى يا أمير المؤمنين ؛ قال : الحَقنى ؛ قلت : لا الحَاق
بى مع دابتى؛ قال:احملوه على دابة ؛ قلت: هذا أول الفتح ، وحُملت عليها ،
فلحقته ؛ قال : ما عندك ؟ قلت : قول الأحوص :

إذا قلتُ إنى مُشْتفٍ بلقائها فَحُمَّ التلاقى بيننا زادنى سُقْما

١٠ قال : أحسنتَ والله ، اقضوا دينه .

أبو عبيد الله والثقفى فى حضـرة المهدى

وكان فى صَحابة المهدى رجل يُعرف بالثَّقفى البصرى ، وكان أبو عُبيد
الله له مستثقلاً، وكان محبّاً لأن يضع منه . فتكلَّم الثقفى يومًا فلَحَن، فقال له
أبو عبيد الله : أتجالس أمير المؤمنين بالملحون من الكلام ؟ أما كان يجب
عليك أن تقوّم من لسانك ! قال له الثقفى : إنما يحتاج إلى استعمال
١٥ الإعراب فى جَميع الكلام ، يأبا عُبيد الله ، الملعون ، لينفقُوا عند من
التمسهم لتَعْليم ولده ، يُعرّض بأبى عُبيدالله ، لأنه كان معلّمًا فى أول أمره . [١٦٧]
فضحك المهدى حتى غطّى وجهه .

محاولة المهدى خلع عيسى من ولاية العهد

ولما حال الحول على المهدىّ فى الخِلافة ، تقدّم إلى[1] أبى عُبيد الله
بمناظرة عيسى بن موسى، على أن يخلع نفسه من ولاية العهد؛ فناظره وقال
٢٠ له : إن المنصور قدّم المهدىّ عليك وعوّضك ، فإن أخرجت نفسك من
هذا الأمر عوضك المهدىّ ماهو أنفع لك ، وأبقى عليك ، وإن أبيت

(١) يقال : تقدم إلى فلان بكذا : إذا أمره به .

استحل منك المحظور ، بمعصيتك وخلافك أمره ، وقد لزمتك طاعته ، ووجب عليك القبول منه . فسارع إلى الإجابة إلى خلع نفسه ، فعوّض عشرة آلاف ألف درهم ، وكتب أبو عُبيد الله عن المهدى بذلك ، و بتقليد الهادى موسى العهدَ إلى الآفاق ، فقال بعض الشعراء :

كره الموت أبو موسى وقد كان فى الموت نجاة[١] وكَرَمْ

خلع المُلك وأضحى لابسا ثوب لُوم لا تُرى منه القَدَم

حج المهدى فأناب عنه موسى وضم إليه بعض عماله [١٦٨]

ولما حج المهدىّ بعد عقد البيعة لموسى خلّفه ببغداد خليفةً له ، وضمّ يزيد بن منصور خالَ المهدى مدبّرا لأمره ، وقلد كتابته ووزارته أبانَ بن صَدَقة ، وذلك فى سنة ستين ومئة ؛ وقلّد عمر بن بَزِيع دواوين الأزِمّة . فى سنة اثنتين وستين ومئة . وقد قيل إن المهدى أول من أحدثها .

طريفة للمهدى وعمارة مع نبطى أطعمهما ربيثاء وكراثا

قال عبد الله بن الربيع : سمعت مجاهداً الشاعر يقول :

خرج المهدى متنزّها ومعه عمر بن بَزِيع ، فانقطعا عن العسكر فى طلب الصيد ، فأصاب المهدىَّ جوعٌ ، فقال لعمر بن بزيع : ويحك! هل من شىء ؟ قال : مامن شىء ؛ قال : فإنى أرى كوخا ، وأظنها مَبْقلة ، فقصدا قصْده، فإذا نبطىٌّ فى كوخ، و إذا مَبْقلة ، فسلّما عليه، فرد السلام، فقال: هل عندك شىء نأكل ؟ قال: عندى رُبَيْثاء[٢] وخبز شعير. فقال له المهدى : إن كان عندك زيت فقد كمل[٣] قال : نعم ؛ قال: وكرّاث ؟ قال : نعم ، وعندى تمر ؛ وعدا نحوا المبقلة ، فجاء ببقل وكراث و بصل ، فأكلا أكلا كثيرا وشبعا ، فقال المهدى لعمر بن بزيع: قل فى هذا شعراً ، وكان يُعرف بقَرْض الشعر ، فقال :

(١) فى الأصل « نجاء » . وما أثبتناه أولى .

(٢) فى الكامل لابن الأثير وقد ساق هذه الحكاية أن الربيثاء نوع من الطعام كالصحناة . وفى القاموس : الصحنا والصحناة [بالفتح] ويمدان ويكسران : إدام يتخذ من السمك الصغار ، مشه ، مصلح للمعدة .

(٣) عبارة الفخرى : فقد أكملت الضيافة .

إن من يُطْعِمُ الرُّبَيْثاء بالزيـــت وخُبزَ الشَّعير والكُرّاثِ[1]
لحقيق بصَفْعة أو بِثِنْتَيـــن لسوء الصنيع أو بثلاث

فقال المهدى : بئس ما قلت ! ليس هكذا ، ولـكن :

لحقيق ببَــدرة أو بثنتيـــن لحسن الصنيع أو بثلاث [١٦٩]

ولحق بهما العسكرُ والخزائن ، فأمر للنَّبطى بثلاث بِدَرٍ[2] .

سئل المهدى عن عمارة فأجاب بأنه مولاى فساء ذلك عمارة

وحكى عن عُمارة بن حَمْزة أنه دخل يوما على المهدىّ فأعظمه ، فلما قام قال له رجال من أهل المدينة ، من القُرشيين : يا أمير المؤمنين ، من هذا الذى أعظمته هذا الإعظام كلَّه ؟ قال: عُمارة بن حمزة ، مولاى ؛ فسمع عُمارة كلامه ، فرجع إليه ، قال : يأمير المؤمنين ، جعلتنى كبعض خبازيك ١٠ وفرّاشيك ، أفَلاَ قلت : عُمارة بن حمزة بن ميمون ، مولى عبد الله ابن عباس ، ليعرف الناس مكانى !

الهادى وبنت لعمارة راسلها وقصة ذلك

وبلغ موسى بنَ المهدىّ حالُ بنت لعُمارة جميلة ، فراسلها ، فقالت لأبيها ذلك ، فقال : ابعثى إليه فى المَصير إليك ، وأعلميه أنك تقدرين على إيصاله إليك فى موضع يخفى أثره ، فأرسلت إليه بذلك ، وحمل موسى على ١٥ المصير نفسه ، فأدخلته حجرة ، قد فُرِشت وأعدت له ، فلما صار إليها ، دخل عليه عُمارة ، فقال : السلام عليك أيها الأمير ، ماذا تصنع هاهنا ؟ أتخذناك ولى عهد فينا ، أو فَحْلاً فى نسائنا ! ثم أمر به فبُطِح فى موضعه ، فضربه عشرين دِرّة خفيفة ، وردوه إلى منزله . فحقد الهادى عليه ذلك ، فلما ولى [١٧٠] الخلافة ، دس إليه رجلاً يدَّعى عليه أنه غَصَبه الضيعة المعروفة بالبَيضاء ٢٠ بالكوفة ، وكانت قيمتها ألف ألف درهم . فبينا الهادى ، ذات يوم قد

---

(١) فى الطبرى وابن الأثير « بالكرات » .

(٢) البِدر (بكسر الباء) : جمع بدرة (بفتحها) ، وهى كيس فيه ألف وقيل عشرة آلاف درهم .

جلس للمظالم وعُمارة بحضرته ، وثب الرجل ، فتظلّم منه . فقال الهادى لعُمارة : ما تقول فيما ادعاه الرجل ؟ قال : إن كانت الضيعة لى ، فهى له ، وإن كانت له فهى له ، ووثب فانصرف عن المجلس .

سبب عزل أبي موسى الأشعرى

وهذا شيء يشبه حكاية عن غَيْلانَ بنِ خَرَشَةَ الضّبى ، أحد أصحاب أبي موسى الأشعرى ، وكان غَيْلان أسكنَ رجلا داراً له بالبصرة ، ثم أراد إخراجَه عنها ، فنازعه الساكنُ ، وكانت لغَيْلان منزلة من أبي موسى ، فإنه يومًا لجالس إلى جانبه ، إذ دخل الساكنُ ، فقال : أصلح الله الأمير ، إنّ غيلان أسكننى داراً ، وهو يُريد إخراجى منها ، ومن قصّتى وقصّته كيت وكيت . فأقبل أبو موسى على غَيْلان ، فقال : أبينك وبينه مُنازعة ؟ فقال : نعم ، هذا رجل أسكنتُه ، ثم ذهب يقُصّ قصته ؛ فقال له أبو موسى : رُوَيدَك ، انتقل فاجلس مع خَصْمك . فقال له غَيلان :

[١٧١]

ماهو إلا هذا ؟ قال أبو موسى : ماهو إلا هذا ! فقال : فاشهد أن الدار له. وأحْفظه ذلك على أبي موسى ، فشخص حتى قَدِم المدينة على عثمان ، فدخل عليه فى يوم اجتمعت فيه بنو أمية على مأدُبة لهم ، وعليه عمامتُه وثيابُ سَفره ، فلما رآه قال له : من أنت ؟ قال رجل شَطير الدار ، بعيد النسب ؛ ثم حسر عِمامته عن وَجهه ، وقال : أنا غَيْلان بن خرَشَة ، أيا معشر بنى أمية ، أما فيكم صغير تَستنشئونه ؟ أما فيكم فقير تَنعَشونه ، أما فيكم ضعيف تجبرونه ؟ إلى كم ، يأكل البصرةَ هذا الأشعرىّ ! فوقرت فى قلوب القوم ، وكانت سبب عزل عثمان أبا موسى ، فعزله وولى ابنَ عامر ، وهو عبد الله بن عامر بن كُرَيز بن حبيب بن ربيعة بن عبد شمس ، فى سنة تسع وعشرين ، وهو ابن خمس وعشرين سنة .

اتهم البصريون عمارة بالخيانة عند المهدى [١٧٢] فبرأه

وقلد المهدى عُمارة بن حَمزة الخَراج بالبصرة، فكتب إليه يسأله أن يضمّ الأحداث إلى الخراج، ففعل ذلك، وقلّده الأحداث مضافة إلى الخراج؛ وكان عُمارة أعور دميا، وكرهه أهل البصرة، لتيهه وكِبْره، فرفعوا إلى المهدى عليه أنه اختان مالاً كثيراً، فسأله المهدى عن ذلك، ٥ فقال: والله يأمير المؤمنين، أن لو كانت هذه الأموال التى يذكرونها فى جانب بيتى، ما نظرت إليها؛ فقال: أشهد إنك لصادق، ولم يراجعه فيها.

صالح بن عبد الجليل ووعظه المهدى

ودخل على المهدى صالح بن عبد الجَليل[1]؛ وكان ناسكا مفوها، فوعظه، وأبكاه طويلا، وذكر سيرةَ العُمرين؛ فأجابه [المهدىّ][2] بفساد الزمان، وتغيّر أهله، وما حدث لهم من العادات، وذكر له جماعة من ١٠ أصحابه، وما لهم من الأحوال والنّعمة، وذكر فيهم عُمارة بن حمزة، فقال: وقد بلغنى أن له ألف دُوَاج[3] بَرّ، سوى ما لاوبر فيه، وسوى غيرها من الأصناف.

المهدى ووالبة ابن الحباب

وحُكى أن المهدى قال لعُمارة بن حَمزة: ابغِنى نديماً ظريفاً[4]، فسمّى له والبة بن الحُباب، وكان شاعراً أديبا ماجنا، ويكنى والبة أبا أُسامة، فدعا به المهدىُّ، فأنشده يوما:

١٥
قولا لعمْرو لا تكُن ناسياً	وسقِّنى الخمرةَ من كاسيا
واردد على الهَيْثم مثل الذى	هِجْتَ به ويحك وَسْواسيا
وقل لساقينا على خـــلوة	أَدْنِ كذا رأسك من راسيا
ونَمْ على صدرك لى ساعة	أنى امرؤ أنــكِح جُلّاســيا

[١٧٣]

فقال المهدى أتريد أن تنكحنا. لاَ أمّ لك!

٢٠ (١) اقرأ كلام صالح بن عبد الجليل بين يدى المهدى فى صفحة ٣٣٣ من الجزء الثانى من عيون الأخبار لابن قتيبة، طبعة دار الكتب المصرية. وفى صفحة ١٠٤ ج ٢ من العقد الفريد لابن عبد ربه، طبعة المطبعة الأزهرية سنة ١٩٢٨.

(٢) فى هذا الموضع من الأصل كلمة غير واضحة، وترجح أنها «المهدى». والسياق يقتضيها.

٢٥ (٣) قال أبو منصور الجواليقى فى كتاب المعرب: قال أبو حاتم: حدثنى من سمع يونس يقول: هو الدواج «بالتخفيف» التى تقول له العامة «دواج» بالتشديد. قال أبو حاتم هو فارسى معرب. وهو من الملابس التى يلتحف بها.

(٤) ورد هذا الخبر فى الطبرى باختلاف عما هنا.

البيعة لهارون

وأغزى المهدى ابنه هارون الصائفة في سنة ثلاث وستين ومئة، وأنفذ معه خالد بن برمك، وقلد كتابته ونفقاته وتدبير أمر عسكره يحيى ابن خالد، ففتح عليهم، وحسُن أثر يحيى فيما قام به، وأحمد فعله، وتدبيره إياه. ثم أمر المهدىّ أبا عُبيد الله بأخذ البيعة بالعهد لهارون بعد موسى، واستحلاف الناس عليها، فحضر دار العامة أبو عُبيد الله ومعه أبو العباس الطُّوسى، صاحب الحَرس، حتى أخذ البيعة على الناس، وهم مسارعون إليها، ومتباشرون بها، وكتب إلى جميع الآفاق بذلك، وعرض الكُتب على المهدى، وعرّفه الخبر، فشكر الله، وسُرّ به، وقلد المهدىّ هارون المغرب كله، من الأنبار إلى إفريقيّة[1]، وأمر كاتبه خالدا بتولّى ذلك كله وتدبيره، فقام به. وكان يكتب ليحيى بن خالد إسماعيلُ بن صَبيح. وكان خالد بن برمك سخيًا جليلا، سريا نبيلا، كثير الإحسان.

قال الجاحظ: وحدّثنى ثُمامة قال:

شىء عن كرم خالد ومروءته

[١٧٤]

كان أصحابنا يقولون، لم يكن يُرى لجليس خالد دار إلا وخالد بناها له، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أمةً، أو أدى مهرها إن كانت حرة، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها، إمّا من نِتاجه، أو من غير نِتاجه.

وكان خالد أول من سمى المُستميحين، ومن يقصد العُمّال لطلب البر الزُّوّار، وكانوا يُسمّون قبل ذلك السُّؤّال، فقال خالد: أنا أستقبح لهم هذا الاسم وفيهم الأحرار والأشراف. وفى ذلك يقول بعض زُوّاره.

حذا خالد فى جوده حذو برمك ... فمجد له مُستَطرَف وأثيلُ

وكان بنو الإعدام يُدعون قبله ... باسم على الإعدام فيه دليل

يُسَمّون بالسُّؤّال فى كل موطن ... وإن كان فيهم نافه وجَليل

(١) إفريقية بياء مخففة، كما فى شرح القاموس.

فسيماهم الزوار سترا عليهم ... فأستاره فى المجتدين سُدول

خالد يصف المهدى يوم ابن ضبارة

وأحب المهدى يوما أن يسمع خبر يوم ابن ضُبارة ، صاحب مروان، وهزيمته، فقيل له : أعلم الناس بذلك خالد بن برمك ، لأنه كان شاهدا . فأمر بإحضاره ، فلما وصل إليه ، سأله عن ذلك ، فقال له : إنا لما صافَفنا القومَ ٥ يأمير المؤمنين ، خفقت ألويتنا بالنصر ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وهبت ريح الغلبة، فما كان إلا كَلاَ ولا[1] ، حتى انجلى الأمر لنا بالنصر ، ولله الحمد والشكر . فقال له المهدى : أحسنت وأوجزت .

[١٧٥] غضب المهدى على خالد ثم رضى عنه

وكان المهدى أنفذ خالدا إلى فارس عاملا عليها ، واستخلف خالد ابنه يحيى ، فقسّط الخراج على أهلها ، ووضع عنهم خراج الشجر ، وكانوا ١٠ يُلزمون له خراجا ثقيلا ، وأكثر خالد الصّلات والجوائز ، والإحسان إلى كافة الناس وخاصتهم ، فشَغَب الجند عليه، فضرب عُنق قائد منهم ، يدعى شاكرا التركى، قَرابةً لفرج خادم المهدى ، فكثر فرج فيه عند المهدى، ونسبه إلى المعصية ، فغضب المهدى وحبسه ، وألزمه مالا جليلا ، ونجّمه عليه، فكان يؤدّى فى كل يوم جمعة ألف ألف درهم، وشفعت الخيزران فى أمره ، بالرضاع ١٥ الذى كان بين هارون ابنها و بين الفضل بن يحيى ، فرضى عنه ، ورده إلى منزلته .

مات خالد فعنى به المهدى

ولما انصرف هارون من الغَزاة التى نفذ فيها فى سنة ثلاث وستين ومئة ، توفى خالد ، فوجّه إليه المهدى بكفن وحَنوط ، وصلى عليه هارون .

دس الربيع على أبى عبيد الله عند المهدى

ولم يزل أبو عُبيد الله فى خلافة المهدى إلى سنة ثلاث وستين ومئة ٢٠ مستقيم الأمر، ثم سَعَى عليه الرّبيع ، وحَمَل المهدىَّ على مكارهه، فصرفه فى سنة ثلاث . وكان السبب فى ذلك أن الرّبيع كان يحسن خلافة أبى عُبيد [١٧٦]

(١) من أساليب العرب إذا أرادوا تقليل مدة فعل ، أو ظهور شىء خفى ، أن يقولوا : كان صنعه كلا ، وربما كرروا فقالوا : كلا ، ولا .

الله ، بحضرة أبى جعفر عند غيبته مع المهدى بالرَّىّ ، ويكاتبه بمـا يحتاج
إليه ، وينبهه على مايصلحه ، ويكف عنه من يريد غيبه والقدح فى محله ،
أو ذكره بخلاف الجميل، فلما انصرف الرّبيع من الحج، بعد موت أبى جعفر،
وقد قام ببيعة المهدى القيام المشهور، قصد بابه ، بادئاً به قبل المهدى ، فقال له
الفضل: ياسيّدى ، تترك أمير المؤمنين ، وتترك أهلك ، وتأتى أبا عُبيد الله! ٥
فقال : يابنى ، هو صاحب الرجل ، فليس ينبغى أن نعامله كما كنا نعامله ،
ولا أن نُحاسبه بمـا كان منا فى أمره ، من النُّصرة له والمعاونة . فلما وصل
إلى الباب وقف عليه ، وقد كان وقت المغرب إلى وقت عشاء الآخرة ، ثم
خرج الحاجب، فقال : ادخل، فثنى رجله لينزل،وثنى الفضل رجله معه ؛ فقال
الحاجب : إنمـا استأذنت لك وحدك يا أبا الفضل ؛ فقال له : ارجع فأعلمه ١٠
أن الفضل معى، ثم أقبل على الفضل فقال : هذا من ذاك . ثم خرج الآذن ،
فأذن لهما جميعا ، فدخلا وأبو عُبيد الله فى صدر مجلسه على مصلًّى قد اتكأ
[١٧٧] على وسادة ، فلم يقم إليه ، ولا استوى جالساً ، ولا ألقى إليه شيئاً يجلس
عليه ، وتركه على البساط ، وجعل يُسائله عن سفره ومسيره وحاله ، والرّبيع
يتوقّع أن يسأله عما كان منه فى أمر المهدى ، وتجديده بيعته ، فأعرض ١٥
أبو عُبيد الله عن ذلك ، فذهب الرّبيع ليبتدئه بذكره ، فقال : قد بلغنا
نبؤكم فقام الربيعُ لينصرف ، فقال أبو عُبيد الله : لا أرى الدروب
إلا وقد أُغلقت ، فلو أقمتَ . فقال له الربيع : لا أرى الدروب تُغلق
دونى . فقال : بلى ، قد أُغلقت . وظنّ الربيعُ أنه يُريد أن يستريح من
تَعب مَسيره ، ثم يَسْأله فيما بعد ، فقال : فأَقِم إذاً ؛ فقال أبو عُبيد الله : ٢٠
يا غلام ، هيّئ لأبى الفَضْل موضعاً فى منزل محمد ، يعنى ابنه ، فلمّا رأى

أنه يُريد به الخروجَ من داره ، قال : فليس يُغْلق دونى دَرْب ، وقَصد منزلَه مُنصرفاً . وأقبل على أبنه الفضل ، فقال : يا بنىّ ، أنت أحمق . قال : وما حُمقى ؟ قال : تقول لى : كان ينبغى ألاّ تجىء ، و إذا جئت وحجبك أن لا تقيمَ منتظرا ، ولما دخلت فلم يَقُم إليك أن ترجع ، ولا

٥ تكلمه! لم يكن الصوابُ غيرَ مافعلتُه كُلَّه ، ولكن والله الذى لا إله إلا هو لأُخْلِقَنّ(١) جاهى ، ولأُنْفقن مالى ، حتى أبلغ مَكْروه أبى عُبيدالله. ثم جعل [١٧٨] يَضْرب ظهراً لبطن ، ويَضْطرب يَمينا وشمالا ، فلا يجد مَساغا ، ثم ذكر القُشَيرىّ ، وكان أبو عُبيد الله أساء به وحَجَبه ، فاستحضرهُ وقال : قد علمتَ ما رَكِبك به أبو عبيد الله ، فهل عندك فى أمره حِيلة ؟ قال له :

١٠ ليس بجاهلٍ فى صناعته . و إنه لأحْذَق الناس ، وما هو بظَنين فيما يتقلّده ، لأنه أعفّ الناس ، حتى لو كان(٢) بنات المهدىّ فى حجره لكان لهنّ موضعاً ، وليس يتهم بانحراف عن هذه الدولة ، لأنه ليس يُؤْتى من ذلك ، وليس يتهم فى دينه ، لأن عَقده وثيق ، ولكن هذا كلّه يجتمع لك فى ابنه ، فقام الربيع ، فقبّل عينه(٣) ، وما زال يدُسّ إلى المهدى من يُخبره خبر

١٥ عبد الله بن أبى عُبيد الله . وكان المهدىّ قد جدّ فى طلب الزّنادقة ، وغلّظ فى أمْرهم ، فقُدِم عليه بجماعه منهم ، فى سنة ست وستين ومئة ، وأُحضر معهم وضّاح الشَّرَوى ، وعبد الله بن أبى عُبيد الله ، وكان أخذه بمكةَ ، فأدخل على المهدىّ ، فقال : أزِنْديق أنت ؟ قال : نعم — وممن يعتقد [١٧٩] الزّنْدقة قوم يَرَوْن أن جَحْد ما يدينون به مَحْظور ، وأن التَّقيَّة غير

٢٠ جائزة ، وقد دلّ هذا الخبر على أن عبد الله بن أبى عُبيد الله منهم — فقال له المهدى : اقرأ ، فقرأ : « تبارك وعالوك بعظم الخلق». فأشار الربيع على

(١) فى الطبرى وابن الأثير طبعة أوربا : « لأخلقن » .
(٢) كذا فى الطبرى . وفى الأصل : « كن » .
(٣) فى الطبرى والفخرى : « فقبل الربيع بين عينيه » .

المهدى بمطالبة أبيه بقتله ؟ فقال المهدىُّ لأبى عبيد الله : اضربْ عُنقه ، فتنحّى ، كأنه يريد أن يفعل ذلك ، فارتعد فقال له العبّاس بن محمد : يأمير المؤمنين : شيخ كبير ، وله حُرمة ، ويكفيك غيره ما أردته منه . وأبو عبيدالله يقول لابنه : ما بهذا أدبتك ، ولقد علّمتك كتابَ الله عزّ وجل ! فأمر المهدى عبدَ الله بن أبى العباس الطُّوسى ، وكان يخلف أباه على الحرس ، بقتله ، فلما تَنَحّى ليُقتَل صاح : يا أمير المؤمنين ، التَّوْبة. فتغافل عنه المهدىُّ ، فقال : عافية بن يزيد القاضى . إنه يعرّض بالتوبة ، يا أميرالمؤمنين ، فأقبل عليه المهدىّ ، وقال : واْللهِ ما اللهَ أردتَ بذلك ، انزِعوا عِمامته ، وجَئُوا فى عُنقه . فما زال يُدفع ويوجأ فى عنقه حتى أُخرج ، وأمضى عبدُ الله ابن أبى العباس ما أُمر به من قَتْله . فقُتل ودُفن ، ولم يُستقبل به القبلة .

وأُحضر فى جملة من أحضر من الزنادقة ابنٌ لأبى أيوب ، سليمان بن أيوب المكى ، فأقرّ بالزّندقة وتاب ، فقَبِل المهدىُّ تَوْبته ، وأمر بإطلاقه . وذلك فى سنة ست وستين ومئة . [١٨٠]

ولما قَتل المهدى عبدَ الله بن أبى عُبيد الله ، قال الرّبيع لبعض خَدم المهدى : لك على ثلاثة آلاف دينار ، إن فعلت شيئاً لايضرّك ، قال له وما هو ؟ قال : إذا دخل أبو عُبيد الله إلى المهدى ، فصار بحضْرته ، قبضتَ على سيْفه ، ومَشَيت إلى جانبه ، فسينكر ذلك عليك أميرُ المؤمنين، فتقول : يأمير المؤمنين ، قتلت ابنَه بالأمس ، فكيف آمنه عليك أن يخْلو بك ومعه سيفه اليوم ! ففعل ذلك الخادم[1] ؟ فكان ذلك مما أوْحَش المهدىَّ من أبى عُبيد الله .

(١) يروى أن الذى قبض على سيف أبى عبيد الله هو الربيع نفسه .

وفاة أبان ابن صدقة

ومات أبان بن صدقة[1] فى سنة سبع وستين ومئة ، وهو على رَسائل موسى بن المهدى بجُرجان ، عند نفوذه إلى الرىّ .

منزلة يعقوب ابن داود عند المهدى

وكان المهدىّ لما أفضت الخلافة إليه أمر بإطلاق من فى السجون ، فأُطلق منهم يعقوب بن داود بن طَهْمان ؛ وكان يعقوب كاتب إبراهيم ابن عبد الله بن حسن بن حسن ، وكان المنصور حبسه فى المُطْبِق[2] ، وكان داود بن طَهمان وأخوته كتّابا لنصر بن سيّار ، ولما مات داود نشأ ولده علىّ و يعقوب أهلَ أدب وفَهم ، وافتنان فى صُنوف العلوم ، وكان علىّ ابن داود كتب لإبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وصَحِبه يعقوب بن داود ، ولم يَزالا معه إلى أن قُتل إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، فظَفِر بيعقوب [١٨١] ابن داود ، فحبسه أبوجعفر فى المُطْبِق ، فى سنة أربع وأربعين ومئة ، وكان الحسن بن إبراهيم بن عبد الله معه فى المُطْبِق ، فسعى به يعقوب إلى المهدى، وذكر أنه قدعمل سَرَبا يهرُب منه ، فبعث المهدى،فوجد السَّرَب، فنقله إلى نُصَير الوصيف ، فاحتيل له فى الهرب ، فهرب من يده ، لأن جماعة من الزيدية احتالت فى هَربه ، وصاروا به إلى مدينة الرسول ، فتقدم المهدىّ إلى يعقوب بطلبه، فضَمِن له ذلك، واستأذنه فى رفع النصائح إليه ، فأذِن له ، فداخله بذلك السبب ، وتَثاقل أبو عُبيد الله وأدل ، وتمالأ يعقوب والرّبيع على أبى عُبيد الله ، فجعلت حالُ يعقوب تَزِيد ، وحالُ أبى عبيدالله تَنقص، إلى أن سمّى المهدىُّ يعقوبَ أخًا فى الله ووزيراً ، وأخرج بذلك توْقيعات تثبت فى الدواوين ، ففى ذلك يقول سَلْم الخاسر :

قُلْ للإمام الذى جاءت خلافته ... تُهْدَى إليه بحقّ غيرِ مَرْدُودِ
نِعْمَ المعينُ على التّقْوَى أُعِنْتَ به ... أخوك فى الله يعقوبُ بن داود

(١) فى الأصل : صدقة بن أبان . وقد تقدم فى صفحة ١٤٦ أنه أبان بن صدقة .
(٢) المطبق كمحسن : سجن تحت الأرض ، كما فى شرح القاموس .

[١٨٢] توسط يعقوب للحسن عند المهدى فعفا عنه

وحج المهدى سنة ستين ومئة ، ويعقوب بن داود معه ، فأخذ منه أماناً للحسن بن عبد الله بن حسن ، وأحضره إياه ، فأحسن إليه المهدى ، ووصله بمال ، وأقطعه مالا من الصَّوافى[1] بالحجاز ، وأَحْمد فِعْلَ يعقوب فى ذلك .

مثل من حلم المهدى

٥ وشُكى إلى المهدى فى حِجّته هذه بعضُ عمّاله ، وسُئل عزْله ، فلم يَفْعل ، فلما صار ببعض الطريق ورد عليه خبرُ وفاته ، فقال : يا يعقوب ، عَزَله من هو أقْوى على عزله منّا .

عزل المهدى لأبى عبيدالله وحديث الزنادقة

ثم صرف المهدىُّ أبا عبيد الله عن وزارته فى سنة ثلاث وستين ومئة ، واقتصر به على ديوان الرسائل ، وكان يصل إليه على رَسْمه ، وغلب على ١٠ أمره كله ووزارته يعقوبُ بن داود ، وجدّ المهدى فى طلب الزنادقة ، وقلّد عمرَ الكَلْوَاذانى طَلَبهم ، فظَفِر بجماعة منهم ، وظفر فيهم بيزيد بن الفيض ، كاتب المنصور ، فأقرّ بالزندقة ، فحُبِس ، وهرب من الحبس ، فلم يُقدر عليه . ثم عزل المهدى أبا عبيد الله عن ديوان الرسائل فى سنة سبع وستين ومئة ، وقلّده الرّبيع ، فاستخلف الربيع عليه سَعيد بن واقد ، وكان ١٥ أبو عبيد الله يصل إلى المهدى على مرتبته ، رعاية لحرمته .

مأثور من كلام أبى [١٨٣] عبيد الله

ومن حَسن كلام أبى عبيد الله ما رواه عمرو بن بحر الجاحظ : « التماس السلامة بالسكوت ، أولى من التماس الحظ بالكلام ؛ وقمع نخوة الشرف ، أشد من قمع بطر الغنى ؛ والصبرُ على حقوق النعمة ، أصعب من الصبر على ألم الحاجة ؛ وذُلّ الفقر ، مَاهر لعزّ الصبر ، كما أن عزّ الغنى ، ٢٠ مانع من الإنصاف ، إلا لمن كان فى غريزته فضل كرم ، وفى أعراقه مناسبة لعلوّ الهمة » .

---

(١) هى الضياع التى يستخلصها السلطان لخاصته . أو هى الأملاك والأرض التى جلا عنها أهلها أو ماتوا ولا وارث لها ، واحدها صافية . اللسان

وفاة عمر ابن داود وما قيل فى رثائه

وتفرّد يعقوب بتدبير الأمور كلها . وتوفى عمر بن داود أخو يعقوب .
وكان سبب ذلك أنه خرج مُتنزِّهاً ، ومعه جماعة من أهله وأقاربه ،
ومعه سُفْرة وفواكه ، فقُدِّمت إليه سَلّة فيها عِنَب ، فأخذ منها حَبَّتين ،
فألقاها فى فيـه ، فاعترضتا فى حلْقه ، فلم تنزلا ولم تَصْعدا حتى مات ،
٥ فرثاه ابن أخيه داوُد بن على بن داود :

غدا صَحيحاً مع الأحْياء مُغْتَبِطًا ... والآن مَيْتا بقُرْبى أهله عُمَرُ
فاحتلّ قـبراً لدى قبرِ أبوه به ... يَعْـلوهما نضد الأحْجار والمَدَر
فما بَقاؤك يا داود بعدهما ... فاحذَرْ حِذارَ أمرئ قد شفّه الذُّعُر
وراقبِ الله واعلمْ أنّ طاعَتـه ... هى النجاة إذا ما حُوسب البَشَر

١٠ فذكر عبدُ الله بن يعقوب بن داود أن سُفْيان بن عُيينة صار إليهم معزِّيا ،
فكانت تعزيتُه أن أنشد بيتا لعمران بن حِطّان :

[١٨٤]

كيف أعزّيك والأحداث مُقْبلة ... فيها لـكل امرئ من نفسه شُغُل

وكان عبدُ الله بن يعقوب بن داود أحدَ الأدباء والشُّعراء ، وله ابنان
يقُولان الشعر ، يقال لأحدهما : محمد ، والآخر عبيد الله ، فمن قول محمد
١٥ ابن عبد الله بن يعقوب :

وَزَع المشيبُ شَراستى وعُرامى ... ومَرَى الجُفونَ بمُسْبِل سَجّامِ
ولقدحَرَصتُ بأن أوارِىَ شَخْصَه ... عن مُقْلتىَّ فرُمْتُ صعبَ مَرام
وصَبغتُ ماصَبغ الزمانُ فلم يدُم ... صِبْغى ودامت صِبْغة الأيّام
لاتبعَدَنَّ شَبيبةٌ ذَيّالة ... فارقتُها فى سالف الأيّام
٢٠ ما كان مااستصحبتُ من أيامها ... إلا كبَعْض طوارقِ الأحْلام

ومن قول عُبيد الله بن عبد الله بن يعقوب :

سأصبر حراً لم يَضِق عنه صَبْرُهُ   وإن كان قد ضاقت عليه مذاهبُهْ
فإنّ الغمام الغُرَّ يُخلِف حالُها   وإن الحُسام العَضْب تَنْبو مضاربُهْ

سبب قتل بشار

وذكر خالد بن يزيد بن وهب بن جرير أن أباه حدّثه :

أن بشار بن برد هجا صالح بن داود أخا يعقوب حين وُلّى ، فقال:

همُ حملوا فوق المنابر صالحًا   أخاكَ فضجّت من أخيك المَنابرُ ٥

فبلغ يعقوبَ بن داود هجاؤُه ، فدخل على المهدى، فقال له : ياأمير المؤمنين ، إن هذا الأعمى المُشرك قد هجا أمير المؤمنين ؟ قال : وما قال ؟ قال : [١٨٥] يعفنى أمير المؤمنين من إنشاده ذلك ، فأبى عليه ، وراجعه ، ولم يزل به إلى أن أنشده :

خليفة يزْنى بعمّاته   يلعب بالدَّبُّوق والصَّوْلجانْ ١٠
أبدلنا الله به غــــيرَه   ودَسّ مُوسى فى حِرِ الخَيْزُرانْ

فقال له : وجّه فى حَمْله ، فخاف يعقوب أن يَقْدَم على المهدىّ فيمدحه ، فيعفو عنه ؛ فوَجّه إليه من ألقاه فى البطائح[1] ؛ وقيل : لم يغرق فى البَطائح ، ولكن قَتله فى طريقه

حظ الزيدية فى أيام يعقوب

ولما استقام أمرُ يعقوب أرسل إلى الزيديّة جميعاً ،فأُتى بهم من كل ١٥ ناحية ، فولّاهم أمور الخلافة ، فى الشَّرق والغَرْب ، وكان هذا مما عُتِب به عليه .

هجاء بشار يعقوب بن داود

وكان أبو عُبيد الله يَضْبط أمورالمهدى، ويُشير عليه بالاقتصاد، وحِفْظ الأَموال ، وكان أبو جعفر خلّف فى بُيوت الأَموال عند وفاته تِسْعَ مِئَةِ ألف ألفِ درهم ، وستين ألفَ ألفَ درهم ، فلما صرف المهدى أبا عُبيد الله ٢٠

(١) فى الطبرى وابن الأثير والأغانى « البطيحة » .

عن وزارته ، وقلّدها يعقوب ، زيّن له هواه ، فأنفق المال ، وأكبّ على اللذات والشُّرب وسماع الغناء ، فنى ذلك يقول بشّار :

بنى أميَّة هبُّوا طالَ نومُكمُ إن الخليفة يعقوب بن داودِ
ضاعت خلافتُكم ياقوم فاطّلبوا خليفة الله بين الزّقّ والعود [١٨٦]

٥ وذكر المفضَّل الضُّبى :

إيقاع المهدى بيعقوب بن داود

أن المهدى حجَّ فى بعض السنين ، فمرَّ بميل[1] وعليه مكتوب ، فوقف فقرأه . وإذا هو :

لله درُّك يامهدىُّ من رجلٍ لولا اتخاذُك يعقوب بن داودِ

فقال لمن معه : اكتب تحته : «على رَغم أنف الكاتب هذا ، وتَعْساً لجدّه» .

١٠ فلما انصرف وقف على الميل ، فقلنا إنه لم يقف عليه إلا لشىء قد علق بقلبه من ذلك الشعر ، وكان كذلك ، لأنه أوقع بيعقوب بعد قليل ، وكثرت الأقوال فى يعقوب ، ووجد أعداؤه مقالا فيه ، فقالوا ، وذكروا للمهدىّ خروجَه على المنصور مع إبراهيم بن الحسن ، وعرَّفه بعضُ خدمه أنه سمع يعقوبَ وهو يقول : بَنى هذا الرجلُ متنزهاً أنفق عليه خمسين ألفَ ألف

١٥ درهم ، من أموال المسلمين ، وكان القائل لهذا القول أحمد بن إسماعيل ، صِهرُ يعقوب بن داود ، وكان المهدىّ بنى عيسا باذ .

نصح يعقوب المهدى بعدم الإسراف فرد عليه

وأراد المهدى أمراً ، فقال له يعقوب : هذا ياأمير المؤمنين السَّرف ! فقال : ويلك ! وهل يحسن السرف إلا بأهل الشرف ! ويلك يايعقوب ! لولا الإسراف لم يُعرف المقتر[2] من المُكْثِر .

٢٠ قال محمد بن عبد الله النوفلى ، قال : لى أبى ؟ قال لى يعقوب :

كان المهدى لا يَشْرب النبيذ إلا تحرُّجا ، ولكنه كان لا يشتهيه ، [١٨٧]

---

(١) الميل : منار يبنى للمسافر فى الطريق .

(٢) فى الطبرى : « المقل » .

وكان أصحابُه عمرُ بن بزيع والمعلّى مولاه ومواليه يشربون عنده ، بحيث يراهم، قال : وكنت أعظه في سقيهم النبيذ ، وفي السّماع ، وكان يقول : هذا عبد الله بن جعفر . قال : قلت ، ليس هذا من حسناته ، لو أن رجلا سمع كلّ يوم ، هل كان ذلك يزيده قربة من الله عزّ وجل أو بعدا .

توبة يعقوب

٥ وكان يعقوب قد ضَجِر بموضعه ، وتاب إلى الله مما هو فيه ، واستقاله ، وقدم النّية في ترك موضعه ، فكان يقول : والله يا أمير المؤمنين لشربة خمر أشربها أتوب إلى الله منها أحبّ إلىّ مما أنا فيه ، وإني لأركب إليك فأتمنّى يداً خاطئة تصيبني [(1)] فأعفني ، وولّ من شئت . فإني أحبّ أن أسلم عليك أنا وولدي؛ ووالله إني لأتقرّع[2] في الليل منذ وليتني أمور ١٠ المسلمين ، وليس دنياك بعوض من آخرتي .

قال : فكان المهدى يقول له : اللهم غفراً ! اللهم أصلح قلبه .

المهدى يمتحن يعقوب في ميله إلى العلوية

[١٨٨]

ثم أراد المهدىّ أن يمتحنه في ميله إلى العلويّة ، فدعا به يوماً وهو في مجلس ، فرشه مورّدة ، وعليه ثياب مورّدة ، وعلى رأسه جارية عليها ثياب مورّدة ، وهو مشرف على بستان ، فيه شجر قد ورّد صنوفَ الأوردا ؛ فقال ١٥ له : يا يعقوب ، كيف ترى مجلسنا هذا ؟ قال : على غاية الحُسن ، فمتّع الله أمير المؤمنين به ، وهنّأه إياه ؛ فقال له : جميع مافيه لك ، وهذه الجاريةُ لك ، ليتمّ سرورُك ، وقد أمرتُ لك بمئة ألف درهم ، فرفّها في بعض شأنك ، فدعا بما يجب ، وقال له : لى إليك حاجة ؛ فقام قائما ، وقال : يأمير المؤمنين ، ماهذا القولُ إلا لموجدة ، وأنا أستعيذ بالله من سخطك ؛ ٢٠ فقال له : أُحب أن تضمن لى قضاءها ؛ فقال : السمع والطاعة ! فقال له : والله ؛ فقال : والله ثلاثا ، فقال له ضع يدك على رأسي واحلف به ؛ ففعل

(1) في هذا الموضع من الأصل كلة غير واضحة وقد ضرب عليها بقلم الناسخ .
(2) أتقرع : أتقلب لا أنام .

ذلك ، فلما استوثق منه ، قال له : هذا فلان بن فلان ، رجلٌ من العَلَوية ، أُحب أن تَكْفِيَنِى مَئُونَته ، وتُريحَنى منه ، فخُذْه إليك ، فحَوَّله إليه ، وحَمَل الجارية وما كان فى المَجْلس والمـال ، فلشدة سروره بالجارية ، جعلها فى مجلس تقرب منه ، ليصل إليها ، ووجّه فأحضر العلوىّ ، فوجده لبيبا

٥ فَهِماً ، فقال له : ويحك يا يعقوب ! تَلْقَى الله بدمى وأنا رجل من ولد فاطمة [١٨٩] رضى الله عنها بنت محمد صلّى الله عليه وسلم ! فقال له يعقوب : يا هذا ، أفيك خيرٌ ؟ قال : إن فعلت بى خيراً شكرتُ ، ودعوتُ لك واستغفرت ؛ فقال له : خُذْ هذا المـال ، وخذ أىّ طريق شئت ؛ فقال له : طريق كذا وكذا آمَن لى ؛ فقال له : امض مُصاحَبا . وسمعتِ الجارية الكلام كلَّه ،

١٠ فوجهت إلى المهدى مع بعض خَدمه به ، فوجّه المهدىُّ ، فشحن[1] الطريقَ ، حتى ظَفر بالعلوىّ وبالمـال ، ثم وجّه إلى يعقوب فأحضره ، فلما رآه قال له : ما حال الرجل ؟ قال : قد أراحك الله منه ؛ قال : مات ؟ قال : نعم ؛ قال : والله ؛ قال : والله ؛ قال : فضَعْ يدك على رأسى ، فوَضع يده على رأسه ، وحلَف له به ؛ فقال : يا غلام ، أخرج إلينا مَنْ فى هذا البيت .

١٥ ففَتح بابَه عن العلوىّ والمـال بعينه ، فبَقِى يعقوب متميِّزا ، وامتنع الكلام عليه ، فما دَرَى ما يقول . فقال له المهدى : لقد حلّ لى دمُك ، ولو آثرتُ إراقته لأرقتُه ، ولكن أحبِسُوه فى المُطْبِق ، فحبسه فى مُطْبِق اتّخذه له . [١٩٠] وأمر بأن يُطْوَى خبره عنه ، وعن كلّ أحد . فأقام فيه من أيام المهدى سنتين وشهوراً ، وجميعَ أيام الهادى ، وخمس سنين وشهرين من أيام

٢٠ الرشيد . ثم ذكَر يحيى بنُ خالد الرشيدَ بأمْره ، وشفع إليه فيه ، فأمره

---

[1] فى الأصل : « سجن » . والمراد أنه ملأ الطريق بالرجال ليأخذوا العلوى . والتصويب من الطبرى والفخرى .

بإخراجه ، فأُخرِج وقد ذهب بصرُه ، فأحسن إليه الرشــيدُ ، وردّ إليه ماله ، واختار المُقام بمكّة ، فأَذن له فى ذلك ، فأقام بها حتى مات فى سنة سبع وثمانين ومئة .

شىء من شعر يعقوب

وليعقوب بن داود شــعر صالح ، ومنه ما قاله عند مُقامه بمكّة ، أنشده جرير بن أبى دُوَاد[1] ، قال : أنشدنى سعيد بن يعقوب :

طلّقِ الدنيـــا ثلاثاً واطّلب زوجاً ســواها
إنها زوجة ســـوء لا تُبالى من أتاها

وأنشد له أيضاً :

قليلُ الهمّ ، لا وَلَدٌ يموت ، ولا مالٌ تُحاذره يَفوتُ
رضىُّ البال ، ليس له عِيالٌ سليم من رُزِيتُ ومن بُليتُ
قضى وطر الصِّبا ، وأفاد علماً فهمَّتُه التفكر والسُّكوت
وأكثرُهم من يَمشى عليها إذا فتّشتَهم ، خَلق وقُوت

[١٩١] عتب المهدى على يعقوب ثم سجنه

وحُكى أن المهدى قال ليعقوب وقد دخل إليه : يا يعقوب ، قال : لبيك يا أمير المؤمنين ، تلبيةَ مكروب بغَضَبك ! قال : ألم أرفع من ذِكرك وأنت خامل ، وأُعْلِ مِنْ قَدْرك وأنت غافل ، وأُلبِسْك مِن نعم الله ما لم أجِدْ لك بحَمْله يدَين من الشكر ؟ فكيف رأيتَ الله أظهر عليك ، وردّ كيدَك إليك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن كان ذلك بعلمك فتصديق معترف ومُذنب ، وإن كان بما كسَبَتْه نمائم الباغين ، فعائذ بفضلك ؛ قال : والله لأُلبِسنَّك من الموت قَميصا لا يُخلِقُ الدهرُ جَديدَه ؛ يا غلام ، المُطْبِق . فولّى وهو يقول : المودّة رحم ، والوفاء كَرَم ، وأنت بهما جدير .

(١) هو جرير بن أحمد بن أبى دواد ذكره ياقوت فى إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب فى الصفحة ٢٧٤ من الجزء الأول ، وفى الأصل : (جرير بن أبى داود) .

لما خرج يعقوب من السجن خبر بوفاة بعض أصحابه فقال شعرا

قال ميمون بن هارون : أخبرنى أبو الحسن عُمر بن خلف الباهلىّ : أن يعقوب بن داود لما أُطلق ، سأل عن جماعة من إخوانه وأصحابه، فخُبِّر بوفاتهم ، فقال :

لكلّ أُناس مَقْـبِر بِفِنائهم　　فهم يَنْقُصون والقُبور تَزِيد

فما إن تزالُ دارُ حىّ قد اخْلقت　　وقبر لِمَيْت بالفِناء جديد

هم جيرةُ الأحْياء : أما مَحلُّهم　　فدانٍ، وأما المُلتقى فَبعيـد

[١٩٢]
وهب المهدى جارية لابن يعقوب ثم سأله عنها فأجاب

وكان المهدىّ وهب لابن يعقوب بن داود جارية، فدخل عليه فى غَدِ اليوم الذى حُوِّلت فيـه إليه . فقال : كيف الجارية يا فلان ؟ فقال : ما وَضعتُ بين الأرض وبينى أوْطأ منها ، حاشا سامع . فأقبل المهدى على أبيه فقال : تُراه أيّنا يعنى ؟ فقال له يعقوب : يأمير المؤمنين ، الأحمق يُحفَظ من كلّ شىء إلا من نفسه .

أمر المهدى بحبس آل يعقوب فقال أبو الشيص يصف ذلك

وأمر المهـدىُّ بعزل أصحاب يعقوب جميعاً من الأعمال ، فى الشرق والغرب ، وأن يُحبَس جميع أهل بيته وأقاربه ؛ فقال أبو الشِّيص :

أبلغ إمامَ الهُدى أنْ لستَ مُصْطنِعاً　　للنائبات كيعقوبَ بن داودِ

أمسى يَقيك بنفسٍ قد حَبَاكَ بها　　والجُود بالنَّفس أقصى غايةِ الجُود

نصبتَ للناس يعقوباً فقوّمهم　　كما الثِّقاف مُقيمٌ كلَّ تأويد

لوْ تبتغِى مثْلَه فى الناس كُلِّهم　　طلبتَ ما ليس فى الدُّنيا بمَوْجود

وقال أبو حَنَش حُصَين بن قَيس ، وكان يصحب يعقوب ويخدُمه :

يَعقوب لا تَبْعَدْ وجُنِّبْتَ الرَّدَى　　فَلأَبكينَّ زمانَكَ الرطبَ الثَّرَى

وأرى رجالاً يَنْهشونك بعد ما　　أغنيتَهم من فاقـة كلَّ الغِنَى

لو أن خَـيرك كان شرًّا كلَّه　　عند الذين عدَوْا عليك لما عدَا

[١٩٣] واستوزر المهدىُّ بعد يعقوب بن داود الفَيْض بن أبى صالح ، واسم أبى صالح شِيْرَوَيْهِ ، وكان سخيًّا سريًّا ، كثير الإفضال ، واسع الحال ، وكان متكبرًا متجبرًا مترفعًا ، فحكى أنه دخل على الرشيد ، فمدّ يدهُ ليقبّلها . فلم يَنْكبَّ عليها ، ورفَعها إلى فيه ، فقبّلها ، فقال الرشيد : لولا لُؤمه وحُمْقه لقتلته . وفيه يقول بعض الشعراء :

الفيض فى وزارة المهدى

صيَّرتُ وُدَّكَ إذ ظفِرتُ به ... بينى وبين نوائب الدَّهر

وذكر يعقوب بن إسحاق الكندىّ أنه سمع يحيى بن خالد ، وذكر الفيضَ بن أبى صالح ، فقال : كان يعلّم الناس الكرم .

رأى يحيى فى الفيض

وكان يحيى يَهْضِم نفسه إذا استكثر شىء يكون منه من الجود ، ويقول : فكيف لو رأيتم الفيض بن أبى صالح !

شعر نباتة فى مدح الفيض

وقال أبو الأسد التيمى ، واسمهُ نُبَاتة(١) من بنى رِحّان(٢) ، يمدح الفيض بن أبى صالح :

ولائمةٍ لامتْك يا فيضُ فى النَّدى ... فقلت لها هل يَقْدح اللومُ فى البَحْر
أرادتْ لتَثْنى الفيضَ عن عادة النَّدَى ... ومن ذا الذى يَثْنى السحابَ عن القطْر
مواقعُ جُود الفَيْض فى كلّ بَلْدة ... مواقعُ ماء المُزْن فى البَلَد القفْر
كأنّ وفُودَ الفَيْض حين تحمّلوا ... إلى الفيض لاقَوْا عنده ليلة القدْر

وحدثنا ولدُ علىّ بن الحُسين عنه :

نادرة الفيض مع ابن الجنيد

[١٩٤] أن الفيض بن أبى صالح ، وأحمد بن الجنيد ، وجماعة من الكتاب والعمال ، خرجوا من دار الخليفة ، مُنْصرفين إلى منازلهم فى يوم وَحَل ، فتقدّم الفيض ، وتلاه أحمد بن الجُنيد ، فَنَضَح دابةُ الفيض على ثياب أحمد

(١) هو نباتة بن عبد الله الحمانى ، شاعر مطبوع متوسط الشعر ، من شعراء الدولة العباسية ، من أهل الدينور . (الأغانى) .

(٢) كذا فى شرح القاموس ، قال الشارح : ورحان (بالكسر) : حى من تميم . وفى الأصل : « حاد » (بالدال) وهو تحريف .

ابن الجُنيد من الوَحَل ، فقال أحمدُ للفيض : هذه والله مُسايرةٌ بغيضة .
ولا أدرى بأىّ حقّ وَجَب لك التقدّم علينا ، فلم يُجبه الفيضُ عن ذلك
بشىء ، ووجّهَ إليه عند مَصيرِه إلى منزله بتخت ، وفى كلّ تخت قميص
وسراويل ومبطّنة وطَيْلَسان وعِمامة أو شاشيّة ، وقال لرسوله : قل له :
٥ وجَب لنا التقدمُ عليك أن لنا مثلَ هذا، نُوجّه به إليك عوضاً مما أفسدناه
من ثيابك ، فإن كان لك مثـــلُه فلك التقدّم علينا ، و إلا فنحن أحقّ
بالتقدّم منك .

نادرة للفيض تدل على مبلغ جوده

وحدثنا ولد علىّ بن الحسين عنه :

أن داود كاتبَ أمّ جعفر حَبَس وكيلاً لها ، وجب عليه من حِسابٍ
١٠ رَفَعه، عن ضياعٍ تقلّدها من ضياعِها ، مئتا ألف درهم، فكتب الوكيلُ إلى
عيسى بن داود ، وسَهل بن الصّباح المدائنى ، وكانا صديقَين له ، يسألهما
مسألة داود فى أمره، فركبا إليه ، فَلَقِيهما الفَيْض فى طريقهما ، فسألهما عن [١٩٥]
مَقْصدهما ، فخبّراه به ؛ فقال : أتحبّان أن أساعدكما ؟ فقالا : نعم ، فصار
معهما إلى داود ، فكلموه ، فكتب إلى أمّ جعفر بخبرهم ، وما قصدوا له ،
١٥ فوقّعت فى الرُّقعة : إنه لاسبيل إلى إطلاقه إلا بأداء المـال ؛ فأقرأهم داود
الرقعةَ ، واعتـــذر إليهم ، فعزم عيسى على القِيام ، فقال له الفيض بن
أبى صالح : كأنا إنمـا جئنا لنؤكّد حبس الرجل ! لا والله ، ولكنّا
نؤدّى المـالَ عنه ، ثم أخذ الدواة وكتب إلى وكيله فى حَمْل المـال عن
الرجل ، كتابًا دفعه إلى داود كاتبِ أمّ جعفر ، وقال له : قد أَرَحْنا علّتك
٢٠ فى المـال ، فادفَع إلينا صاحبنا ، فكتب إلى أمّ جعفر بالخـــبر ، فوقّعت
أنا أوْلى بهذه المَكْرمة من الفَيْض ، فاردُدْ عليه كتابه ، وادفَعْ إليه

الرجل ، وأمرهُ ألا يعاود إلى مثل ما كان منه ، ولم يكن الفَيْض يعرف الرجلَ ، وإنما ساعدَ عيسى وسَهْلا .

القيض وطالب معونة

[١٩٦] ووجدت بخطّ مَيْمون بن هارون :

أن الفَيْض بن أبي صالح أولى رجلاً عُرْفا فشكره ، ثم كتب إليه الرجلُ يسأله حاجَةً ، فوقع على رُقْعته : أنت طالب مَغْنَم ، وأنا دافع مَغْرم ، ٥ فإن تَشْكر ماَمضَى ، فستُعْذَر فيما بقى .

ابن يقطين وابن بزيع فى ديوان الأزمة

وقلد المهدىُّ علىّ بن يَقْطين الأَزِمَّة على عُمر بن بَزِيع ، وتضعضعت حال عمرُ بن بزيع ، وذلك فى سنة ثمانٍ وستِّين ومئة ، فصار علىٌّ زماما على الأزمة ، وأحسب أنّ من ذكر أن المهدىّ أوّل من أحدث الأزمة إنما أراد أزمة على الأزمة . ١٠

يقطين

وكان يقطين من وُجوه الدُّعاة .

جعل المهدى يوم الخميس عطلة للكتاب ثم ألغى المعتصم ذلك

وكان أبو الوزير عمرُ بن مُطَرِّف يتقلّد للمهدى ديوَان الخراج ، فاتصل بالمهدى أن أبا الوزير احتجم فى يوم الخميس فى ديوانه ، فأمر أن يُجْعل يوم الخميس للكتَّاب يَسْتريحون فيه ، وينظرون فى أمورهم ، ولا يحضُرون الدواوين ، ويومَ الجمعة للصلاة والعبادة ، فلم يزل الأمر ١٥ جاريًا على ذلك ، إلى أن كتب الفَضْل بن مروان للمُعْتصم ، فأزال ذلك الرسْمَ ، وأخذ الكُتّابَ بالحضور يومَ الخميس .

أيام موسى الهادى

[١٩٧] وفاة المهدى وتولية الهادى

وكانت وفاةُ المهدى والهـادى مُقيم بجُرجان ، وهارون مع المهدى فى عَسْكره ، فأنفـذ هارون نُصَيرًا مولاه على دوابّ البَريد إلى الهـادى بالخَبر ، وأنفـذ معه القَضِيب والبُرْدة والخاتم ، وقَفَل إلى العراق ، وقد ٥ كان الربيع قام بأمر البَيْعة ببَغْداد ، إلى أن ورد موسى الهـادى على دوابّ البَريد ، ولا يُعلم خليفةٌ ركب دوابّ البريد غيره ، فورد معه من كُتّابه عُبيـد الله بن زياد بن أبى ليلى ، ومحمد بن جُميل ، وقلد الربيعَ وزارتَه وتدبيرَ أُموره ، وما كان عمر بن بزيع يتولاّه ، دواوينَ الأَزِمّة .

وزراؤه

وقلد محمد بن جُمَيل ديوان خَراج العِراقَين ، وولّى عُبيد الله بن زياد ١٠ ابن أبى ليـلى ديوان خراج الشام وما يليها ، وولى عمر بن بَزِيع ديوان الرسائل . وقلد على بن عيسى بن ماهان ديوانَ الجُند، إلى ما كان يتولاّه من حِجابته ، ثم صَرف الربيعَ عن الوزارة ، وقلدها إبراهيم بن ذَكوان الحَرّانى الأعور ، وأقرّ الربيع على دواوين الأزمّة ، فلم يزل عليها إلى أن تُوفِّىَ فى سنة تسع وستين ومئة ، وكانت وفاته وسنُّه ثمان وخمسون سنة ، ١٥ وصلى عليه الرشيد وهو ولىّ عهد ، وقلّد موسى ديوانَ الأَزِمّة إبراهيم بن ذَكوانَ الحرانى أيضاً .

[١٩٨]

همّ المهدى بقتل إبراهيم الحرانى فمات فنجا

وكان إبرهيمُ خاصًا بالمهدىّ ، فلما أنفذ المهدىُّ موسى إلى جُرجان ، أنفذ معه إبراهيم الحرانى ، فخُصّ بموسى ، ولَطُف موقعه منـه ، واتصل بالمهدى عنه أشياء ، يزيد فيها عليه أعداؤه ويُكثّرون ، فكتب إلى موسى ٢٠ فى حمله إليه ، فضنّ به ، ودافع عنه ، وتعلّل فى حَمْله ، فكتب : إن لم تحمله

خَلَعْتكَ من العَهْد ، وأسقطت منزلتك ، ونلتك بكل ما تكره . فلم يجد
موسى بُدًّا من حمله ، فحمله مع بعض خدمه مُكرَّمًا مرفَّهًا ، وقال له : إذا
دنوتَ من محل المهدىّ قيِّده ، واحمله فى محمل بغير وطاء ، وأدخله إليه
بهذه الصُّورة ، فامتثل الخادم ما أمره به فى ذلك . واتفق أن ورد العسكر
والمهدى يُريد الركوبَ ، وهو إذ ذاك «بالردّ والدار»[1] ، فبَصُر بالموكب ، فسأل ٥
[١٩٩] عنه ، فقيل : خادم موسى ومعه إبراهيم الحرّانى ؟ فقال : وما حاجتنا إلى
الصَّيْد ، وهل صَيْد أطيب من صَيْدِ إبراهيم ؟ علىّ به ؟ قال إبراهيم
فأُدْنيت منه وهو على ظهْرِ فرسه ، فقال : إبراهيم ! والله لأقتلنك ، ثم والله
لأقتلنك ، ثم والله لأقتلنك ، امض به يا خادم إلى المِضْرَب[2] إلى أن
أنصرف ، فصار بى إلى المِضْرَب ، وقد يئست من نفسى ، ففزعت إلى الله ١٠
جلّ وعزّ بالدعاء والصلاة ، وانصرف المهدى ، فأكل من اللَّوْزينج
المَسْموم ، المَشْهور خبره ، فمات من وَقْته ؛ ويُقال من الكمثرى ، وتخلصت .

اسماعيل بن صبيح على زمام الشام

وقلّد إبراهيم الحرانىّ إسماعيلَ بن صَبيح ديوانَ زِمام الشام ومايليها ،
بشَفاعة يحيى بن خالد إليه ، لأن إسماعيل كان كاتبَه ، فأحبّ أن يَضمه
بموضع يَسْتطلع منه ما يُريد ، فرُفِـع إلى موسى الخبرُ أن يحيى شَفَع إلى ١٥
إبراهيم الحرانى ، حتى استكتب إسماعيل ، فهو ينقل الأخبار ، فيؤدّيها إلى
هارون ، وكان إسماعيل بن صَبيح يكتب قبل يحيى لأبى عبيد الله ،
[٢٠٠] وعرف يحيى الخبر ، فبادر بالمشورة على إسماعيل بالخروج إلى حرّان ، فخرج
إليها ، واستخلف إبراهيمُ يحيى بن سليمان على جميع الأزمّة ، فلما خاطبه
موسى بسببه ، أعلمه أنه بحرّان . ٢٠

(١) كذا فى الأصل وهو اسم للموضع الذى خرج فيه للمهدى للصيد ، وفيه تحريف ظاهر ، ولم نر فى أسماء الأماكن مايقرب منه إلا ماذكره المسعودى فى أول ترجمة المهدى أنه خرج إلى موضع يسمى « أرزن والران » فلعله محرف عنه (انظر المسعودى جـ ٦ صفحة ٢٢٥ طبعة باريس) . وفى طبعة مصر : « أود الدان » .

(٢) المضرب : الفسطاط العظيم ، وقيل هو فسطاط الملك . ٢٥

توفى عبيدالله خلفه ابن جيل

وتوفى عُبيد[1] الله بن زياد بن أبى لَيْلى فى سنة تسع وستّين ومئة ، فقلّد عمله محمدُ بن جُميل إلى ما كان يتقلّد ، وأمر موسى يحيى بن خالد أن يقوم بأمر هارون أخيـــه ، وأقرّه على كتابته وعلى تدبير الأعمال التى كانت إليه .

شىء عن أزداقاذار

٥ وكان ليقطين بن موسى كاتبٌ من أهل النهروان ، يُعرف بأزداقاذار[2] ، ويكنى أبا خالد . فحكى الجاحظ فى كتاب «البيان والتبيين» أن لُـكنة أزْدَاقَاذَار كانت لـكنة نبطية قبيحة ، وأنه أملَّ[3] على كاتب له : « والحَـاصل ألف كُرّ » فكتبها الكاتب بالهـاء على لفظه ، فأنكر ذلك ، فلم يَفْهم عنه الكاتب ، فلما رأى اجتماعهما على الجَهْل . قال : أنت لاتحسن

١٠ تكتب ، وأنا لا أحسن أملى ، فا كتب : الجاصـل ألف كُرّ ، فـكتبها بالجيم معجمة .

الهادى وكاتب له [٢٠١]

وحُكى أن الهـادى سخط على بعض كتّابه ، ولم يُسَمّ لنا الكاتب ، فجعل يُقرّعه بذُنوبه ، ويتهدّده ويتوعّده ؛ فقال له الرجل : يأمير المؤمنين، إن اعتذارى فيما تُقرّعنى به ردٌّ عليك ، وإقرارى بمـا بلغك يُوجب ذنباً

١٥ علىّ لم أجْنه ، ولـكنى أقول :

فإن كُنْتَ ترجو فى العُقوبة رحمةً ... فلا تَزْهَدَنْ عندالمعافاة فى الأجرِ

فصفح عنه ، وأحسن إليه .

الهادى وهارون الرشيد

ثم تنكّر موسى لهارون الرشيد ، وعمِل على خَلْعه ، وتقليد ابنه جعفر ابن مُوسى ، وهو طفل ، فعزم هارون على إجابته ، فمنعه يحيى بن خالد ،

٢٠ فَبذَلَ له موسى «المنىّ والمرىّ» من أعمال الرّقة ، فقال هارون ليحيى :إذا

(١) فى الأصل : « عبد الله » وهو تحريف .

(٢) ذكر هذا الاسم مرتين فى صفحة ٢٠٠ من الأصل ، الأولى « يرد اقاذار » والثانية « ازداقاد » والتصويب من « البيان والتبيين» (ج ١ س ٤١) . طبع مصر ١٠٣٢ . (٣) يقال : أملى عليه الـكتاب وأمله عليه ، وهما بمعنى .

نزلتُ على «المنيّ والمريّ» وخلوت بابنة عمّي ، يعني أمّ جعفر ، وكان يَجِدُ بها وجداً شـــديداً ، فما أُرِيد شيئاً . فقال يحيى : إنها الخلافة ، ولعلّ ما تقدّر أنه يبقى لك لايبقى ، ولم يَزَل به حتى ثبّته . فدعا موسى يومًا بيحيى ، فلما دخل عليه أكرمه ، ورفَق به ، فقال له : أنت الذى يقول فيك القائل : ٥

لو يمسّ البخيلُ راحةَ يحيى أسمحت كفه ببذل النوال

فقال له : تلك راحتك يا أمير المؤمنين ، وقبّل يده ورجليه ، فأمر له بإقطاع ، ووَصله بعشرين ألف دينار ، ثم ناظره فى خلع هارون ، فقال له : [٢٠٢] يأمير المؤمنين ، إنك إن حَمَلْتَ الناس على نكث الأَيْمان ، هانت عليهم أيمانُهم ، وجرّأْتَهم على حلّ العُقود التى تُعقد عليهم ، ولو تركت الأمر فى ١٠ بيعة أخيك بحاله ، و بويع لجعفر من بعده ، كان ذلك أوكدَ لبيعته ، فقال له : صدقت ونَصَحْت . وأنا أنظر فى هذا ، ثم صَرَفه . ثم لم تَطِب نفسُه ، فدعا بيحيى لحبسه ، فتلطّف فى أن يدعو به ويُخْلِيَه ، ففعل ذلك ، فلما خلا به قال : يأمير المؤمنين ، أرأيت إن كان مأخوذ باللّه منه قبل بلوغ جعفر ، وقد خلعت هارون ، هل تتمّ الخلافة لمن لم يبلغ الحلم ؟ قال : لا ، قال ١٥ فدع هذا الأمر حتى يبلغ جعفر ، فإذا بلّغنا الله ذلك ، فعلىّ أن آخذ بيد هارون حتى يبايعه عَفْوا ، والله والله يأمير المؤمنين ؛ فإنك إن فعلت هذا ، وَحَدَثَ مأخوذ منه ، وثب على هذا الأمر أكابرُ أهلك ، وخرج الأمر عن ولد أبيك ، ووالله لو لم يَعْقِد المهدى لهارون ، لوَجب أن تعقد له ، ليكون فى بنى أبيك ؛ فشكر منه هذا القول ، وأطلقه . ٢٠

إصيب الحرانى بابن له فعزاه الهادى [٢٠٣]

وأصيب إبراهيم الحرانى بابن له ، فجزع عليه ، فعزّاه موسى الهادى عنه ، فقال له سَرّك وهو بليّة وفتنة ، وحزَنك وهو ثواب ورحمة .

قصة رجل مع يحيى رأى له رؤيا

ورأى رجل من الموالى فى أيام الهادى ـ ويحيى بن خالد على غاية من الخوف والوجل منه بسبب هارون ـ ليحيى رؤيا سارّة ، فشاور أباه فى تعريفه إياها ، فأشار عليه ألاّ يفعل ، فعصى أباه ، وقصد يحيى ، فاستأذن عليـه ، فقصّ الرؤيا ، قال : فلما فرغتُ من الرؤيا ، قال : يا بنىّ ،
٥ ما أحسَنَ بالرجل أن يلتمس الرزقَ من أحسن الوجوه ! وأقبِـحْ به أن يلتمس الرزق بهذا وماأشبهه ! قال : فخرجت من عنده وقد سَقَط وجهى ، فأتيتُ أبى فأعلمتُه الخبر ، فقال لى : بُعداً وسُحقاً ! نصحتُ لك فلم تقبل . قال : وأقبلت أنا وأبى نشتمُه ونسبّه ، فلم يَمْضِ إلا مُديدة يسيرة ، حتى أفضى الأمر إلى الرشيد ، وبلغ يحيى مابلغ ، قال : فبينا أنا واقف يوما مرّ
١٠ بى موكبه ، فبصُر بى ، فوجّه فأحضرنى ، فدخلتُ إليه وهو على كرسى لم يَنْزِع ثياب ركُوبه ، فقال لى : أين غِبْت عنا ؟ فقلت له : أصلحك الله ، ما لقيتُ منك مايدعو إلى إتيانك ! فقال : وَيْحك ! إنك أتيتنا ونحن فى حالٍ تتخوّف الجدرانَ أن تُسىء بنا ، والإخوانَ فيها أن يَحتالوا علينا ، فلم يكن الرأى إلا ما أجبْنَاك به ، وما فارقَتْنا العناية بك ، والإيجاب [٢٠٤]
١٥ لِحَقّك ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم ، وكتب إلى سليمان بن راشد ، وكان عامله بأرمينيَة ، فأمر له ببغال خِلَع ، قال : فصرت أنا وأبى وجميع أهلى ندعو له ، بدلا ممـا كنّا نشتمه ، وقصدت سليمان بن راشد وقد قدّم إليه يحيى الخبر ، فتلقّانى بقائد من قوّاده فى جماعة من الجند ، فلما وصلت إليه ، وجّه إلىّ ببغال ودوابّ وتُخوتِ ثياب ، ثم غدوتُ إلى سليمان ،
٢٠ فقال : قد كتب إلىّ أبو علىّ أعزّه الله بحالك عنده ، وهاهنا «بُشْرى» ، و بُشْرَى من أجل أعمالنا ، فإن شئت أن تخرج إليها فاخرج ، و إن شئت

فهاهنا من يَبْذل عنها خمسَ مئةِ ألفِ درهم ؟ قال . فقلت تَعَجُّل مايبذل هاهنا أحبّ إلىّ ، وخرجت من عنـــده ، فلم ألبث أن وجّه إلىّ من وفّانى المـالَ ، ووهب لى سليمان من ماله خمسين ألف درهم ، فقبضتُ المـال ، وانصرفتُ إلى حضرة يحيى ، فوجهتُ إليه ببعض تلك الطُرَف ، فأبى أن يقبَلها ، وتبسّم فى وجهى ، وقال : إنا لم نوجّهك لننتفع بك ، وإنمـا وجّهناك لننفعك ، وقد وفّر الله عليك مالَك ، وسيتصل مَعْروفنا عندك ، فالزَمْنا . قال : فلزِمته ، فلم تفرّق الأيام بيننا حتى كسبت به عشرين ألف درهم . ٥ [٢٠٥]

أنشد ابن دأب الهادى أبياتا فى السقى فأجازه

وذكر ابن دأب ، وكان خاصًّا بموسى :

أنه دخل عليه يوما ، وهو على فراش ، قال : فجلس وعليه قميص ، محلولةٌ أزراره ، محمرّةٌ عيناه ، فعلمت أنه كان أحيا ليلته ، فسلمت ، فردّ السلام ، وأمرنى بالجلوس ، ثم قال : هل تَرْوِى فى السَّقى شيئاً ؟ قلت : نعم يأمير المؤمنين ، كان إخوة من بنى كِنانة يَسْبَئون الخمر من الشام ، وينتجعونها ويجتمعون عليها ، فمـات أحدهم فدفنوه ، فكانوا يجتمعون حول قبره ويشربون ، ويصبّون على قبره قَدَحه ، فقال واحد منهم : ١٠ ١٥

لا تصرّد هامَةً من شُرْبها اسْقِهِ الخمر وإن كان قُبِرْ
أسقِ أوصالاً وهامًا وصدًى نَاشِغاً يَنْشَغُ مِثْلَ المُنْهَمِرْ[1]
كان حيًّا فهوى فيمن هوى كلّ عود ذو فُنون يَنْكَسِر

فقال : أحسنت ، وأمر لى بثلاثين ألف دينار ، ووقّع إلى إبراهيم ابن ذكوان الحَرّانىّ ، فصرت إلى إبراهيم ، فأوصلت إليه التوقيع ، فأكثر التعجب ، فقلت : ما يعجبك من هـــذا ؟ أتضع أمير المؤمنين أن يصل ٢٠

(١) فى الأصل « ناشـا ينبع مثل المنهمر » ، وهو تصحيف عما أثبتناه . والناشغ : السائل ، والمقصود به الخمر . وفى الطبرى : « ناشـا ينشع نشع المبتكر » .

[٢٠٦] بمثلها ؟ قال: لا . قلت أفتضمنى عن أن استحقّ مثلها ؟ قال : لا ، فهل لك فى عشرة آلاف دينار . فقلت : ولِمَ أقضك ؟ هل غبنته فأقضك الربح ؟ لا ، والله ما آخذ إلا ما أمر لى به ، وتراجعنا الكلام ببعض الغلظة، فحرقت التوقيع وقلت : والله لا ذكرت ذلك حتى يذكره ، فوالله ما ذكره ، ٥ ولا أحدث شيئاً ، ومات . فذهب المال منى .

انقطع للهادى وتر قوس فاغتم فسرى عنه ابن بزيع

وذكر مخارق عن إبراهيم الموصلى :

أنه كان مع الهادى يوما ، وهو يتصيد ، وانقطع الوتر ، فاغتمّ لذلك ، وتطيّر منه ، وضجر ، فنزل عمر بن بزيع ، وكان إذ ذاك يكتب له ، فوقف بين يديه ، ثم قبّل الأرض ، وحمد الله ، فقال له موسى : أىّ ١٠ موقف حمد هذا ؟ فقال له: الحمد لله على أن كانت العين بالقوس، ولم تكن بأمير المؤمنين ، فسُرّى عنه ، وحَسُن موقع ما كان من عُمر ، ووصله .

وصل الهادى سلما الخاسر على شعر قاله

وكان الهادى يشتهى سماعَ قصيدة ابن قيس الرُّقيّات التى أوّلها :

عَادَ لهُ من كَثيرةَ الطربُ فعينه بالدُّموع تَنْسكِب

ويستحسن رويها ، ويحب أن يُمدح بمثلها ، فقال عمر بن بزيع لسَلْم ١٥ الخاسر ذلك ، وأمره أن يقول فى نحوها شيئاً يمدحه به ، ويصفه فيه ، فقال سلم :

[٢٠٧] يممت موسى الأمام مرتقباً أرجو نداه والخير مُطَّلب

فَرْعَ[١] قريش عزًّا ومكرمةً وأعظم الناس حين يَنْتَسِب

لولا هُداكم وفَضْل أوّلكم لم تدر ما أصلُ دينها العرب

٢٠ فعرضها عمر بن بزيع على الهادى ، فاستحسنها ، ووصله بثلاثِ مئةِ ألف درهم ، فقال : إنما وفّرت صلته للبيت الأخير .

(١) فى الأصل : « فرعى » ولا داعى للتثنيه ، كما يظهر من عجز البيت .

الهادى والرشيد وقصة الخاتم

وكان المهدى وهب الرشيد خاتماً نفيساً ، له قيمة جليلة ، فلما استُخلف موسى ، وانحرف عن هارون ، لامتناعه من خلع نفسه ، طلب الخاتم منه ، فدفعه عنه ، فأحضر يحيى بن خالد ، فقال له : إن لم يحضرنى الخاتَم قتلتك ، وكان فظًّا قاسياً غير مأمون على وفاء بوعد ، فصار إلى هارون وهو فى قصره بالخُلد ، فأشار عليه أن يدفع الخاتم إليه ، وتلطّف له، ٥ ورفَق به ، فأقام على الامتناع ، وألحّ يحيى ، وعرفه ما توعده به ، فقال له ، فأنا أصير به إليه ، وركب من الخُلد ، يريد عيسا باذ ، وموسى مقيم بها ، فلما صار إلى الجسر ، وتوسط دجلة ، رمى الخاتم فيها ، وانصرف ؛ فقال : يفعل الآن ما يشاء ؛ فبلغ ذلك موسى ، فاغتاظ عليه ، وعلم أنه لا ذنب ليحيى ، [٢٠٨] وأنه قد اجتهد وناصح ، فلم يُطعه هارون ، ولم يعرض له . ١٠

ولما توفى موسى واستخلف هارون ، ركب وفى يده خاتم لا قدر له ، فلما صار إلى الموضع الذى رمى بذلك الخاتم فيه ، رمى بالخاتم الذى كان معه ، ووقف مكانه ، وأمر بإحضار الغاصة ، فلم يزالوا يطلبون حتى وُجد الخاتم الأوّل سليماً ، وكان يتختم به ، ويتفاءل بوجوده ، وكان أحبَّ خواتيمه إليه ، وكان أكثر ما يلبس منها هو . ١٥

همّ الهادى بقتل يحيى والقصة فى ذلك

ثم حُرِّك موسى ، واجتمع إليه جماعة من القوّاد ، منهم المعروف بأبى هُريرة القائد ، واسمه محمد بن فروخ ، ومنهم يزيد بن مزيد ، وعبداللّه بن مالك[1] ، وعلىّ بن يقطين . فطالبوا بأن يخلع هارون ، ويبايع جعفراً ابنه ، تقربا إليه ، ورغبة فيما يصل إليهم من الإعطاء ، وكان يحيى يسلّه ويدافعه ، واعتلّ موسى علّته التى مات فيها ، فدعا يحيى ليلةً من الليالى ، وقال له : قد أفسدت علىَّ ٢٠ أخى ، واللّه لأقتلنك ، فقال إبراهيم بن ذكوان الحرانى : يأمير المؤمنين ،

(١) فى الأصل « ابن ملك » . والتصويب من الطبرى والفخرى .

[٢٠٩] ليحيى عندى أيادٍ أحب أن أكافئه عليها، فأحب أن تهبه لى الليلة، فقال : وما القَرْك فى هذا، وأنا على قتله، قال : فتهبه لى الليلة وتحييه فيها، وأنت فى غدٍ أعلم . فأجابه إلى ذلك. وأمر بحبسه . قال يحيى : فحبست وقد أيقنت بالموت، ويئست من نفسى، فأنا مفكر فى ليلتى، ما يجيئنى الغمض، حتى سمعتُ صوت القفل، فقدرت أن الحرانى لما انصرف . دعانى موسى ليقتلنى، فإذا بخادم يقول لى : السيدة تريدك فأتيت الخيزُران، فقالت لى : إن هـذا الرجل قد مات، ونحن نساء، فادخل فأصلح من أمره، فدخلت، فإذا بأمَةِ العزيز[1] تبكى عند رأسه وهو ميت، فغمضته، وانطلقت إلى الخُلد أريد الرشيد، فلما وصلت إلى داره وجدتُه نائمًا، وتلقانى خادم، فقال: ولدت «مَرَاجل» غلاما، فأتيت الرشيد، فأنبهته، فسُرَّ لى لما رآنى، وقال : ما الخبر ؟ فقلت له : لتهنئك الخلافة، وغلام من « مَراجل »، وكان « عبدَ الله المأمون »، وكانت ليلةً مات فيها خليفة، وولى فيها خليفة، ووُلد خليفة، وذلك فى سنة سبعين ومئة . ودعا يحيى بيوسف بن القاسم بن صُبيح الكاتب، فأمره أن يكتب بالخبر إلى الآفاق، ففعل ذلك .

[٢١٠] غنى إسحاق الموصلى الهادى فأطربه فحكمه

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى[2] :

قال لى الهادى يوما : غننى جنسا من الغناء أطرب له. ولك حكمك. فغنّاه :

وإنى لتعرونى لذكراكِ فترةٌ[3] كما انتفض العصفور بلّله القَطْرُ

(١) اسم جارية كانت للربيع، ثم أهداها إلى المهدى . ثم وهبها المهدى لموسى، ثم تزوجها الرشيد بعده، وهى أم ولده على . (الطبرى) .

(٢) نسبت هذه القصة فى الأغانى (جـ ٥ ص ١٨٤ طبع دار الكتب المصرية) إلى إبراهيم الموصلى .

(٣) فى الأمالى (جـ ١ ص ١٤٩ طبع دار الكتب المصرية : « هزة » . وهى الرواية المشهورة فى هذا البيت، والتى تتفق مع الشطر الثانى. وهذا البيت من قصيدة لأبى صخر الهذلى .

قال : أحسنت والله ، وضرب بيده إلى جَيْب دُرّاعته[1] ، فحطّه ذراعاً ، وقال له : زِدْنى ، فغناه :

فياحُبها زدنى جوًى كلّ ليلة ويا سلْوة الأيام موعدُك الحَشْرُ

فضرب بيده إلى جيب دُرّاعته ، فحطّها ذراعا آخر . وقال : والله زدنى . فغناه :

هجرتُكِ حتى قِيل لايَعْرِف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صَبْرُ

فقال : أحسنت والله . وحطّ جميع دُراعته ، وقال لى حكمك ، لله أبوك وأمك . فما تُريد؟ فقلت[2] له: أريد «عين مَرْوان» بالمدينة ، فدارت عيناه فى رأسه ، حتى صارتا كأنهما جمرتان ، وقال لى : يابن اللَّخناء ، أردت أن تَشْهَرَنى بهذا المجلس ، فيقول الناس : أطربه فحكّمه ، فتجعلنى سمرًا وحديثاً ، ثم أحضر إبراهيم بن ذكوان ، فلما حضر ، قال : ياإبراهيم ، خذ بيد هذا الجاهل ، فأدخله بيت مال الخاصة ، فإن أخذ كلّ ما فيه فخلّه وإياه ، فدخلت فأخذت خمسين ألف دينار[3] .

(١) الدراعة : جبة مشقوقة المقدم ، وجيبها : طوقها .

(٢) فى الأصل : « فقال » .

(٣) وردت هذه القصة فى الأغانى باختلاف فى بعض الألفاظ عما هاهنا .

أيام هارون الرشيد

[٢١١] منزلة يحيى عند الرشيد

ولما تقلد هارون الخلافة دعا يحيى بن خالد، وكان يخاطبه بالأبوة، وعلى ذلك أجراه فى خلافته، فقال له: يا أبة، أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك، وحسن تدبيرك، وقد قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقى إليك، فاحكم بما ترى، واستعمل من شئت، واعزل من رأيت، وافرض من رأيت، وأسقط من رأيت، فإنى غير ناظر معك فى شىء. فكان يحيى وابناه الفضل وجعفر يجلسون للناس جلوسا عامّا فى كلّ يوم، إلى انتصاف النهار، ينظرون فى أمور الناس وحوائجهم، لا يحجب أحد، ولا يلقى لهم ستر. وقام يحيى بالأمور، وكان يعرض على الخيزران، ويورد ويصدر عن أمرها، واحتفر القاطول، واستخرج نهرا سماه أبا الجيل[1]، وأنفق عليه عشرين ألف ألف درهم؛ وقلد ثابت بن موسى ديوان العراقين وخراج الشام، وأمر بإجراء القمح على أهل الحرمين، وتقدم بحمله من مصر إليهم، وأجرى على المهاجرين والأنصار، وعلى [٢١٢] وجوه أهل الأمصار، وعلى أهل الدين والآداب والمروءات، واتخذ كتاتيب لليتامى. وكانت الدواوين كلها إلى يحيى بن خالد مع الوزارة، سوى ديوان الخاتم، فإنه كان إلى أبى العباس الطوسى. وكان يحيى أول من أمّر من الوزراء، وكان أول من زاد فى الكتب: «وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله»، وأنشأ فى ذلك كتابا، وذكر فيه فضل الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) كذا بالأصل، وقد قال صاحب فهرست الجهشيارى: لعله محرف عن «أبا الجند». والذى فى معجم البلدان عند الكلام على القاطول، قال...... كان الرشيد أول من حفر هذا النهر وبنى على فوهته قصرا سماه أبا الجند لكثرة ما كان يسقى من الأرضين، وجعله لأرزاق جنده».

سخط الرشيد على ابن ذكوان وتخليص يحيى له من الحبس

وكان الرشيد ساخطاً على إبراهيم بن ذكوان الحرانى ، فحبسه وقبض أمواله ، فحبسه يحيى فى داره ، وكفّه عنه ، وتلطف إلى أن استكتبه لمحمد بن سليمان بن أبى جعفر ، وكان يلى البصرة ، فأشخصه .

مشورة يحيى على الخيزران بشأن خصوم الرشيد

وأمرت الخيزران أن يُقْتَل من كان تسرّع إلى خلع الرشيد، ودعا إلى بيعة جعفر بن الهادى ، فقال لها يحيى : أوَخَيْرٌ من ذلك ؟ قالت : وما هو؟ ٥ قال : يُزْجَيهم فى نحور الأعـــداء ، فإن دفعوا عن أنفسهم كان لهم فى الدّفع عنها شغل ، و إن أصابهم العدوّ كنتِ قد استرحت منهم ، فأذنت له فى ذلك ، فتخلص القوم جميعاً .

[٢١٣] استقلال يحيى بمكاتبة العمال

وكانت الكتب التى تنفذ من ديوان الخراج تؤرّخ باسم يحيى ابن خالد ، ولم تكن تنفذ إلا عن الخليفة ، وكان أبو العباس الطوسى ١٠ يتعقد فى ختم الكتب ، فشكا يحيى إلى الرشيد تأخر الكتب ، فأمره أن يكاتب العمال عن نفسه ، وأمر كاتبه أن يكتب عنه فى المهم ، وأن يؤرّخ الكتب باسم الكاتب . قال الفضل بن مروان : وأحسب الكاتب كان منصور بن زياد ، وقرّب يحيى بن خالد منصورَ بن زياد هـــذا واختصه ، حتى كان الناس ربما توسلوا به فى حوائجهم . ١٥

كتاب يحيى

وكان من كتابه يوسف بن سليمان ، وأبو صالح يحيى بن عبد الرحمن ، ويحيى بن سليمان ، ومحمد بن أعين ، وعبد الله بن عَبْدَة .

يحيى وذوو الحاجات

وحُكِى أن أصحاب الحوائج كانوا يُكثرون القعود على دُكّانٍ ، على باب يحيى بن خالد، وكان يحيى إذا رآهم وقف عليهم، ولقيهم ببشر وطلاقة، وأنه خرج يوما مبكّرًا ، فلم يَرَ منهم أحدًا ، فأنشد متمثّلا : ٢٠

وليس أخو الحاجات من بات نائما ولكنّ أخوها من يَبِيت على وَجَلْ

[٢١٤] رأى يحيى فى السلطان

وكان يحيى بن خالد يقول : العجب للسلطان كيف يحسن ، ولو أساء كلَّ الإساءة لوجد من يُزَكِّيه ، ويشهد بأنه محسن .

كتاب ابن الأشعث ليحيى يستقيله من العمل

وكتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحيى بن خالد يستعفيه من العمل ، فقال فى كتابه : « شكرى لك على إخراجى مما أحبّ الخروج منه ، شكرُ من نال الدخول فيه بك » . ٥

طالب يحيى أبا عبيد الله بالدخول فى جملته فأبى

وطالب يحيى أبا عُبيد الله معاويةَ بن عبد الله وزير المهدى بالدخول فى جملته ، ومشاركته فى نعمته ، وقلّده ديوان الرسائل ، وديوان الخاتم ، وديوان الزّمام ، فأبى ذلك ، وقال : قد كَبِرت سنّى ، ولا حاجة لى إلى العمل ، فتركه وقال : هذا يظنّ أن الأمور لا تتمّ إلا به !

شعر مروان فى مدح يحيى

١٠ وفى يحيى يقول مروان بن أبى حفصة :

إذَا بلغَتْنا العِيسُ يَحيىْ بنَ خالِدٍ ... أَخَذْنا بحبل اليُسرِ وانقطعَ العُسرُ

سَمَتْ نحوَه الأبصارُ منا ودُونَهُ ... مَفَاوِزُ تَغْتالُ النِّياقَ بها السَّفرُ

فإن نَشكُر النُّعْمَى التى عَمَّنا بها ... فَحَقٌّ علينا ما بَقِينا له الشُّكرُ

شعر أبى قابوس فى مدح يحيى

وفيه يقول أبو[1] قابوس عمر بن سليمان الحِيرِىّ[2] :

١٥ رأيت يحيى أتمّ اللهُ نعمتَه ... عليه يأتى الذى لم يأتِه أحدُ

ينسى الذى كان من معروفه أبداً ... إلى الرجال ولا يَنسَى الذى يَعِد

وصية يحيى لولده

وكان يحيى يقول لولده : لا بدّ لكم من كتّاب وعمّال وأعوان ، فاستعينوا بالأشراف ، وإيّاكم وسِفْلةَ الناس ، فإن النعمة على الأشراف أبقى ، وهى بهم أحسن ، والمعروف عندهم أشهر ، والشكر منهم أكثر . [٢١٥]

وفاة إبرهيم ابن يحيى ورثاء العروضى له

٢٠ وكان ليحيى ابن يقال له إبراهيم ، وكان جميلا ، وكان يقال له جمالُه دينار آل بَرْمك ، فتوفى وسنه تسعَ عشرة سنة ، ووجد عليه يحيى ، واغتمّ به ، فقال أبو[3] المنذر العَروضىّ :

(١) فى الأصل (هنا) : « ابن » وهو تحريف . (راجع معجم الشعراء للمرزبانى).

(٢) فى الأصل : (هنا) « الحرى » وهو تحريف .

٢٥ (٣) لعله : « ابن المنذر » راجع فهرست الجهشيارى .

ما أرى حامليه حين أقلّوا نعشــه للثّواء أو للقاء
فليقلْ فيكَ باكياتُكَ ماشيــنَ صباحا وعند كلّ مساء
لايُعنَفْنَ فى المقال ولـكن مُسْعِداتٌ بذاك غيْرَ خَفاء
كلّ حيّ رَهْن المنونِ ولـكن ليس من مات منهم بسواء

يحيى ومؤدبو ولده إبراهيم

وكان يحيى أحضر مؤدّب ابنه هذا ، ومن كان ضمّ إليه من كتابه ٥ وأصحابه ، فقال لهم : ما حال إبراهيم ؟ قالوا قد بلغ من الأدب كذا ، ونظر فى كذا ، وقد اتخذنا له من الضّياع كذا ، و بلغت غلّته كذا ؛ قال: ما عن هذا سألت ، إنمـا سألت: هل اتخذتم له فى أعناق الرجال مِنَنا، وحببتموه إلى الناس ؟ قالوا : لا ، قال : فبِئْسَ العُشَرَاء أنتم ! وهو إلى هذا أحوج مما فعلتم ؛ وتقدّم بحمل خَمْسِ مِئَةِ ألفِ درهم ، وأمر بتفريقها فى الناس . ١٠

[٢١٦]

إسحاق ومسألة يحيى عن ضيعة أراد شراءها

حدّثنى عبد الواحد بن محمد ، قال حدثنى ميمون بن هارون قال : حدّثنى إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، عن أبيه ، قال :

كتب إلىّ وكيلى فى الضيعة الفلانية ، فى أمر ضيعة كانت تجاور ضيعتى تُباع: قد انقطع أمرها على أربعة آلاف دينار ؛ وقدسألت صاحبَها الانتظار علىّ إلى ورود جواب كتابى ، فإن أنت وجهت بالمـال ، ١٥ و إلا خرجت الضيعة عن يدك ، وورد علىّ الـكتاب فى الليلة التى صُبْحَتُها نَوْبتى فى بيتى ، وكانت نَوْبة يحيى بن خالد فى بيته ، إلا أنه كانت عادتى ألاّ أبرح فى ذلك اليوم من بيتى ، وورد على ماأسهرنى، لأن المـال لم يكن معى ، ولم أكن أقدر على احتياله فى ذلك الوقت القريب . فضربتُ الأرض ظهراً لبطن ، فلم أجد غير يحيى ، فركبت إليه ، واستأذن لى ٢٠ الحاجب ، فدخلت وفى يده السواك ، فلما رآنى سرّ وابتهج ، وقال :

أحسنت والله ، أحسنت والله ؛ اليوم نَوْبتى ونَوْبتُك ، فنأخذ فى أمرنا ،
لا يدخل معنا غيرنا . قلت : يا سيدى، الحمد لله الذى وفّق لمحبتك ، [٢١٧]
ولكنى والله بكّرت لغير ذاك . قال : وما هو ؟ قلت : كتب إلىّ وكيلى
البارحة بكذا وكذا ، ولا والله إنْ أقدرُ على المال ، وبكرت أسألك
٥ استسلافه لى من بعض العاملين ، لتردّه من تحت يدك فى رزقى ؛ قال :
دَعْنا الآن من هذا ، وهات يا غلام ماحضر . فجىء بالطعام ، فأكلنا وأنا
كأنى آكل لحمى ، ثم رُفع وجىء بالشَّراب ، وأنا فى فكرى ، فلما كان
وقت العصر وأنا قد يئست ، وعلمت أن الحيلة قد قلّت ، وأنى أحتاج أن
أحْضُرَ فى غَدٍ الدارَ ، قال لى : إبراهيم ، أعندك صَبِيّة تغنى؟ قلت : لا والله
١٠ يا سيدى قال : ولا لبعض الجوارى والأهل ؟ قلت : لا ، ثم ذكرت
صبيّة لبعض أمّهات أولادى ، ما[١] وضعت يدها على العود إلا أنها مطبوعة،
ولها حُلَيق ، فقلت:صبية ريّض[٢] ، وليست بشىء ، ووصفتها له، وحقّرتها
عنده . قال : لا تبال، هو ذا يبكّر إليك من يطلبها منك ، فإيّاك وإيّاك
أن تَنْقُصها من مائة ألف دينار. قلت : ياسيدى، إنّما قيمتها مِئتا دينار .
١٥ وقال لى : لو أنها تساوى درهما لا تنقصها من مائة ألف دينار ، وإياك
وإياك [أن][٣] تنقص من ذلك شيئاً ، قال : فقلت فى نفسى : هذا رجل [٢١٨]
قد غلب عليه النبيذ ، ولم يكن لحاجتى عنده موضع ، فهو يسخر منى ،
فانصرفت مكروبا ، وغلب علىّ السهر إلى وقت الصبح ، فهوّمت قليلا ،
ثم قمت للصلاة ، وقد كنت استظهرت بأن ابتعت الصبية عند منصرفى
٢٠ من مولاتها بمائتى دينار ، وقلت للغلام لما صليت : هو ذا أنام ، فكلّ
من جاء فاصرفه عنى ، إلا أن يجىء رجل من قصته كذا ، وقد كان

(١) فى الأصل: «كما» والسياق يقتضى كلمة «ما» النافية وحدها. أو لعلها محرفة عن: «فلما».
(٢) الريض من الأمر : مالم يحكم تدبيره ، يريد أنها مبتدئة فى صناعة الغناء .
(٣) زيادة تقتضيها العبارة .

يحيى وصفه ، فأُنبهني له ، ويئست من الضيعة ، وأخرجتها عن قلبي ، ثما طلعت الشمس جدًّا حتى أنبهني الغلام، وقال : قد جاء الرجل ، فأذنت له، وطلب الجارية ، فأخرجتُها ، وساومني، فاستَمْت مئة ألف دينار ، فاستكثر ذلك ، وأعطاني ثلاثين ألف دينار ، وأنا لست أصَـــدّق ، ثم لم يزل يزيدني حتى بلغ خمْســين ألف دينار ، فقلت : أحضر المال ، ٥ فقال : ها هو ذا ، فحمله إليَّ ، وتسلم الجارية ، فحَلَلْت المال ، فأخرجت أربعة آلاف دينار ، ووجّهت بها إلى الوكيل ، وتركته على جملته ، وقلت : لابدّ للرجل من أن يرجع يستردُّه ، ويرد الجارية ، ولكن تُحصّل ثمن الضيعة ، ويقع النظر فيه ، وركبت إلى دار السلطان ، [٢١٩] فأقمت إلى الليل ، وانصرفت ، فسألت عن الرجل ، فقيل لي: لم يرجع ، ١٠ فحمدت الله، وبكّرت إلى يحيى فشكرتُه ،فلما رآني قال : هات حديثك ، فحدثته ، فقال : إنا لله ! أيّ شيء عملت ؟ ذهبت منك خمسون ألف دينار ! ثمّ أمرّ إلى الغلام، فمضى وجاء ومعه الجارية ، فقال: أتعرف هذه ؟ قلت: نعم يا سيدى ، هذه التى منّ الله عزّ وجلّ بك عليّ فى أمرها ، فقال : خذها ، وهو ذا يجيئك من يَطْلبها ، فلا تنقصها من خمسين ألف دينار ، ١٥ فأخذت بيدها ، وجاءني من يطلبها، فبعتُها منه بثلاثين ألف دينار ، وعُدت إلى يحيى ، فسألني وخبَّرتُه ، فلا منى أيضاً وشكرتُه ، وقلت استحييت من الله أن آخذ أكثر من هذا ، فأخرج الجارية ومعها كسوة وطيب،بألوف دنانير، وقال: قد تبرّكت لك بها، فاتخذها لنفسك ، ففعلت ؛ فهى والله أم طيّاب ولدى(١) .قال:وقلت:ماقصة هؤلاء مع هذه الجارية ؟ قال : ويحك! ٢٠ أما الأول فخليفة صاحب مصر ، وهومقيم على بابى منذ سنة ، يسألنى مسألة

(١) ذكر الفخرى شبه هـذه القصة منسوبا إلى إسحاق الموصلى مع الفضل بن يحيى البرمكى . وكذلك ذكر أبوالفرج فى الأغانى (ج ٥ ص ١٩٥) مثل هذا الخبر منسوبا إلى إبراهيم الموصلى مع الفضل .

أمير المؤمنين فى حاجة مِئَةِ ألف دينار ، وأنا لا أسأله ، فلما شكوت إلىّ [٢٢٠]
ما شكوت ، قلت له : صبية عند إبراهيم ، اشترها لى منه ، ولو أبيت عليه
إلى مِئَةِ ألف دينار لو زَنها لك ، ولكنك ضيّعت ؛ وأما الثانى فخليفة
صاحب فارس ، وقصته قصة الأول . فدعوت له ، وشكرته وانصرفت .

٥ وحكى يحيى بن خاقان قال :

قصة يحيى بن خالد مع يزيد الأحول

كنت يوما عند يحيى بن خالد ، و بحضرته ابنه الفضل ، إذ دخل قوم
مُسَلِّمون، ودخل فيهم أحمد بن يزيد المعروف بابن أبى خالد، فسلم وخرج ؛
فقال يحيى لابنه الفضل : لى فى أمر هذا الرجل خبر ، فإذا فرغنا من شغلنا
فأذكرنى لأعرّفكه ؛ ثم فرغ من عمله ، وغسل يدَه ، ودعا بطعامه ، فلما
١٠ أكل صدراً منه ، أذكره الفضل ما كان وعده أن يخبره به ، فقال له :
نعم . كانت العُطلة قد بلغت من أبى رحمه الله ومنّى ، وتوالت المحن
علينا ، وأخفقنا حتى لم نَهتد إلى ماننفقه ، فلبست ثيابى لأركب ، وأتنسّم
الأخبار ، وأتفرّج ، فقالت لى أهلى : أراك على نية الركوب ؛ قلت :
نعم ؛ قالت : فاعلم أن هؤلاء الصبيان باتوا البارحة بأسوأ حال ، وأنى
١٥ مازلت أعلّلهم بما لا عُلالة فيه ، وما أصبحت ولهم شىء ، ولا لدابّتك [٢٢١]
عَلَف ، ولا لك ماتأكله ؛ إذا انصرفت ، فينبغى أن يكون رُكوبك
وطلبُك بحسب هذه الحال . فقرّعتْ قلبى، وقطعتْنى عن الحركة ، ورميت
بطرفى ، فلم أر شيئاً أمدّ إليه يداً ، ورميتُ بوَهْمِى، فلم يقع إلا على منديل
طبرىّ ، كان بعض الداريّين أهداه لى ؛ فقلت لأهلى : ما فعل المنديل
٢٠ الطبرىّ ، الذى كان أُهدِىَ إلينا ؟ قالت : هاهو ذا ، فأحضرته ؛ فأخذتُه
وخرجت إلى الغلام ، وهو مع دابتى ، فأمرته بإدخال الدابّة ، وقلت له :

أخرُج إلى الشارع ، فبِعْ هذا المنديل ، وأقبِل بثَمنه ؛ فمضى وعاد من ساعته ، فقال : خرجتُ إلى البقّال الذى يُعاملنا، وعنـــده رجل يصرف دراهم ، فأعطانى أثنى عشر درهما صِحاحا ، ورأى صاحبُنا البقّال أن أبيعه منـــه بشرط ، وقد حضرت الدراهم ، فإن أمضيتَ البيع ، وإلا أخرجتُ المنديل إلى سوق قَنْطرة البَرَدَان ، فاستقصيت فيه و بعته ؛ فأمرته بإمضاء ٥ البيع ، لحاجتى إلى الغلام ، والحال التى عليها الصبيان ، وما حدّثتنى به المرأة ، وأمَرْتُه أن يشترى عَلَفاً للدابة ، وما يحتاج إليه الصبيان فى ذلك [٢٢٢] اليوم ؛ وركبت لا أدرى أين أقصد ، فأنا فى الشارع إذا أنا بين يدى أبى هـــذا ، وهو خارج من درب ، ومعه موكِب ضخم ، وهو يكتب يومئذ لأبى عُبَيد الله كاتب المهدى ، فمِلْت إليه، ورميت نفسى عليه ، وقلت : ١٠ قد تناهت العُطلة بأخيك و بى إلى ما لا نهاية وراءه ، و إلى ما أُجِلّك عن ذكره مع ما توجبه لنا ، فأنا أقصِّر قولا ولا أطيله ، علىّ وعلىّ إن لم تكن قصتى فى يومى كيت وكيت ، وقصصت الخبر ، وخبر المنديل ، وهو مستمع لذلك ، ماض على سيره ،حتى بلغ مقصده، وانصرفت عنه ، ولم يقل لى حرفاً ، فانصرفت منكسف البال منكسراً، منكراً على نفسى إسرافى فى ١٥ الشكوى ، و إطلاعى إياه على ما أطلعته عليه من أمرى ، فقلت : ما زدتُ على أن هجوت نفسى ، وقلّلتها فى عينه ، من غير نفع ، ولو صبرت لأبى الله بما هو أهله. قال : ووافيت إلى منزلى على حالٍ أنكرتْها أهلى، من الفكر ، فقالت لى ما حالك ؟ وما قصتك ؟ فقلت لها : جنيت اليوم جناية كنت [٢٢٣] عنها غنيًّا ؛ فقالت لى : وما هى ؟ قلت : لقيت يزيد الأحول الكاتب ، ٢٠ فقلت له: كيت وكيت ؛ فمضى، فلم يجبنى بحرف ، فذممت نفسى على خنوعها

وبثها حالها إلى من لا ينفعها ؛ قال : فأقبلت عليّ تُوَبِّخُنى وتقول : ما حملك على ما فعلت ، وأن أظهرت للرجل من ذلك ما أظهرت ! فإن أقلّ ما فى ذلك ألاّ يأتمنك على شىء ؛ فإن من تناهت به الحال إلى مثل ما ذكرت كان غير مأمون على ما يؤتمن عليه ، ويحمل إليه ، فنالنى ٥ من توبيخها وعذلها أضعافُ ما نالنى أوّلا ؛ وأصبحنا فى اليوم الثانى ، فوجهت أحد ثوبىّ ، فبيعا ، وتبلّغنا به ذلك اليوم وفى اليوم الثالث ؛ فلما كان فى اليوم الرابع ، وقد ضاقت نفسى ، وغلبنى الفكر ، وعاتبتنى على ذلك أهلى ، وقالت لى . أنا خائفة عليك مما أرى الوَسواس ، فيكون ما نحتاج إليه لعلاجك ، أضعافَ ما نحتاج إليه لمئونتنا ، فسهّل عليك ، فإن ١٠ الله الصانع . فركبت فى ذلك اليوم لا أدرى أين أقصد ، إلا أننى أؤمّ [٢٢٤] الجِسر ، ثم أنصرف ، لأُبلى عذراً فى الطلب عند أهلى ، فلما صِرْت إلى قنطرة البَرَدَان ، لقينى لاقٍ ، فقال : قد رأيت فى يومنا هذا مَنْ يطلبك ثم لم ألبث أن لقينى من خبّرنى بمثل ذلك ، فقصدتُ الدَّار ، لأعرف الخبر ، فلقينى بالقُرب منها رسولٌ ، فقال لى : أبو خالد يطلبك ، وإياك أردتُ ؛ ١٥ فدخلت الدار والرسول معى ، فألفينا أبا خالد داخلا ، فقال لى حاجبه : أُمِرنا بإحضارك ، وأنْ ننتظره إلى أن يخرج ؛ فأقمت ، وخرج مع الزَّوال ، ومع غلامه كتبٌ كثيرة ؛ فقال له : قد حضر يحيى ، فقال : هاته ، فقمت ودنوت منه ؛ فقال لى : يا بُنَىّ أخى ، شكوت إلىّ بالأمس شكوى لم يكن يَنْفع فى جوابها إلا الفعل ، إذ كانت الحال قد تأدّت إلى ما تأدّت إليه ، ثم أمر بإحضار أبى ٢٠ جَميل وزاهر ، تاجرين كانا يبيعان الطعام[1] ، فأُتِى بهما ، فقال : قد علمتما أنى بايعتكما البارحة بثلاثين ألف كُرّ ، على أن ابن أخى هذا شريككما فيها

---

(١) الطعام : القمح .

[٢٢٥] بالسعر . ثم التفت إلىّ فقال : لك من هذه الأكرار عشرة آلاف كُرّ ، فإن دفعا إليك ثلاثين ألف دينار ربحك ، وآثرت أن تخرج إليهما من حصتك ، فعلت؛ وإن آثرت أن تقيم على هذا الابتياع ، فعلت ؛ فتنحينا ناحية ، فتناظرنا ، فقال لى التاجر : أنت رجل شريف وابن شريف ، وليست التجارة من شأنك ، ومتى أقمت على هذا الابتياع احتجت إلى كُفاةٍ وأعوان ، ولكن خُذْ منا ثلاثين ألفَ دينار، وخلّنا والطعام ؛ فقلت : قد فعلت . فمضينا إلى أبى[1] خالد ، فقلت : قالا لى: كذا وكذا ، وأجبتهما إلى أخذ المال ؛ فقال : صواب ، لو أقمت معهما احتجت إلى تعب ، ولزمتك مُؤَن ، وكان ذلك أربح لك ، ولكن هذا أروح ، فخذ المال، وتبلّغ به ، والزَمْنا ، فإنا لا نقصّر فى كلّ ما يمكننا فى أمرك ، فخرجت فأخذتُ من الرجلين المال ، ثلاثين ألف دينار ، وما بين ذلك وبين بيع المنديل إلا أربعة أيام ، فصرت إلى أبى ، فأخبرته الخبر ، وقلت له : جعلنى الله فداك ! تأمر فى المال بأمرك . فقال : نعم ، أنا أحكم عليك فى هذا المال بما حكم به أبو خالد على التاجرين ، أى أن لى الثلث ، فحملت إليه

[٢٢٦] عشرة آلاف دينار ، واشتريت بعشرة آلاف دينار عُقْدة ، ولم أزل أنفق الباقى إلى أن أدّانى إلى هذه الحال ؛ وإنما حدثتك يا بنى هذا ، لتعرف للرجل حقّه .

فقلت ليحيى بن خاقان : فما كان من يحيى إلى أحمد بن أبى خالد ؟ فقال : ما زال وولدُه على غاية البرّ له والتحريك ، حتى نال ما نال من الوزارة ، بذلك الأساس الذى أسسوه .

(١) فى الأصل : « ابن أبى خالد » وهو تحريف ، فصاحب القصة هو أبو خالد لا ابنه .

وفاة الأحول

وكانت وفاة أبى خالد يزيد الأحول فى سنة ثمان وستين ومئة .

شىء من حلم يحيى بن خالد

قال إسحاق بن سعد حدّثنى أبو حفص عن العتابى قال :

كنت أنا ومنصور بن زياد عند يحيى بن خالد ، ويحيى يتحدّث ،
قال : والخدم يَعبثُون ويترامَوْن بالبِطّيخ ، حتى جاءت بطيخة فأصابت
٥ وجهه ، فوالله ماتحرّك ولا غَضِب ، فقال له منصور : أصلحك الله ! لونُهِى
هؤلاء ، وأُخيفوا حتى لا يجترئوا على مثل هذا ! فقال : اللهم غفرا ، نحن
نحب أن تُؤمّن من بَعُد عنا ، فكيف نخيف من كان على بساطنا !

محمد بن برمك

وقلد الرشيد حِجابته محمدَ بن خالد بن بَرْمك فى سنة اثنتين وسبعين ومئة .

توسط يحيى لرجل أموى عند الرشيد

وعرض ليحيى بن خالد رجل من أهل الشام، من بنى أمية ، فترجّل له ،
١٠ فرأى شيخاً وسيماً ، له رُواء وهيئة ، فلما عاد إلى مجلسه دعا به ، وسأله
عن سببه ونسبه ، فأخبره أنه رجل من بنى أمية ، وأن مسألته التى
إليها يقصد وصولُه إلى أمير المؤمنين ؛ فقال له يحيى : الصدق أولى بى ، [٢٢٧]
وأمير المؤمنين يستثقل هذا النسب ، فانظر ما تَلْتمسه منه ، فألْقِه إلىّ ،
فإن تكن مَظْلِمة رددتُها ، وإن تكن صلة بذلناها ، وما بين ذلك من
١٥ الحوائج فغير متعذر إليك من شىء منها ؛ فقال الرجل : الذى سألت
ما سمعتَ أيها الوزير ، وإنى لأعلم أنكم يا آل برمك مَعادن الخير ، فإن
سَهُل أن تذكرنى له ، فإن أذن فهو ما أردت ، وإن ردّ فقد قضيت
أيها الوزير ما عليك ، وأوجبت علىّ شكرك أخرى الليالى التوابر .
فذكره يحيى للرشيد ، وخبّره بما دار بينهما ، فأمره بإيصاله إليه ،
٢٠ فلما وقعت عينُ الأموى عليه استأذن فى الكلام ، فأذِن له، فتكلّم وأحسن
وأبلغ ، ثم أنشد :

يا أمينَ الله إنى قائل ... قولَ ذى رأى ودينٍ وأدبْ
لكمُ الفضـــل علينا ولنا ... بكمُ الفضلُ على كلّ العربْ
عبـــدُ شمس كان يتلو هاشماً ... وهما بعـــدُ لأمٍّ ولأبْ
فصِـــلوا الأرحامَ منّا إنما ... عبـــدُ شمس عمّ عَبْدِ المطلبْ

فأحسن الردّ عليه ووصَله ، وأجرى له رِزقًا فى بلده ، وردّه إليه . ٥

على بن الجنيد ومنزلته عند يحيى بن خالد [٢٢٨]

وحدّثنا ولد علىّ بن الحُسين عنه ، قال : حدّثنى علىّ بن الجُنيد قال :

كانت بينى و بين يحيى بن خالد مودّة وأنس ، فكنت أعْرِض عليه الرّقاع فى الحوائج ، فكثُرت رِقاع الناس عِنْدى ، واتصل شغله ، فقصدتُه يومًا ، وقلت له : يا سيّدى قد كَثُرت الرّقاع ، وامتلأ خُفّى وكُمّى ، فإما تطوّلتَ بالنظر فيها ، و إما رددتَها . فقال لى : أَقِم عنـــدى حتى ١٠ أفعل ما سألت . فأقمتُ عنده ، وجمعتُ الرّقاع فى خُفّى ، وأكلنا وغَسلنا أيدينَا ، وقُمْنا إلى النّوم ، واستَحْييتُ من إذ كاره إياها ، ويئست من عَرْضها ، لأننى قد علِمْت أننا نَقُوم ، فنتشاغل بالشرب ، فنمت ، ودعا هو بالرّقاع من خُفّى ، فوقّع فى جَميعها ، وردّها إليـــه ، ونام وانتبه . فدخلت إليه فى مجلس الشرب ، وقد أُعدّت آلته فيه ، فلم أستجز ذكر الرقاع له ، ١٥ وشربتُ وانصرفت بالعشىّ ، فبكّر إلىّ أصحابُ الرّقاع ، لمّا وقفوا على إقامتى عنده ، فاعتـــذرت إليهم ، وضاق صَدْرى بهم ، فدعوتُ بالرّقاع لأميزها ، وأُخفّف منها ما ليس بمهمّ ، فوجدت التّوقيعات فى جَميعها ، فلم تكن لى همّة إلا تفريقها ، والركوب إليه لشكره ، فلما رأيتـــه قلت : يا سيدى ، قد تفضّلت وقَضَيْت حاجتى ، فلِمَ علّقت قلبى ، ولم تعرّفنى حتى ٢٠ يتكامَل سرورى ؟ فقال لى : سبحان الله ! أردت منّى أنْ أَمُنّ عليك

بأن أُخبرك ما لم يكن يجوز أن يخفى عنك .

[٢٢٩] قصور آل برمك

وكان خالد بن برمك ينزل باب الشماسية ، في الموضع المعروف بسُوَيقة خالد ، وهي إقطاع من المهدىّ ، وبَنى يحيى بن خالد قصرًا يعرف بقصر الطين ، ثم بنى فيه الفضل بن يحيى وجعفر بن يحيى قصرَين ، كانا ٥ يُعرفان بهما .

تباعد ما بين جعفر والفضل لحب الرشيد جعفرا

وكان يحيى بن خالد يميل إلى الفضل ، والرشيد يميل إلى جعفر ، فكان الرشيد يقول ليحيى كثيرًا : أنت للفضل ، وأنا لجعفر ، وغلب جعفر على الرشيد غَلَبة شديدة ، حتى صار لا يقدّم عليه أحداً ، وأَنِس به كلّ الأُنس ، وأنزله بالخُلْد، بالقرب من قصْره ، وتباعد ما بين الفضل وجعفر ، ١٠ لأن الفضل كان يلتمس من جعفر أن يعطيه بعد اختصاص الرشيد إيّاه من نفسه ، مثل ما كان يُعطيه قبل ذلك ، فخرجا إلى أن صار أحدهما يسبع الآخر[1] .

كيد الفضل لجعفر عند الرشيد

وكان جعفر أوصل الأصمعيّ إلى الرشيد ، فقال له الرشيد يومًا : أخبرني : من أم فلان ؟ لإنسان من العرب . فقال له الأصمعي : على الخبير ١٥ سقطتَ يأمير المؤمنين ؛ فقال الفضل : أسقط الله أنفك وعينيك ! أهكذا تُخاطب الخلفاء ! وإنما أراد بذلك مساءة جعفر ، والقصد له .

[٢٣٠] خروج الفضل لحرب يحيى بن عبدالله وما فعله في ذلك

وقلّد يحيى بن خالد الفضلَ بن الربيع ديوان النفقات في سنة اثنتين وسبعين ومئة . وفي هذه السنة ظهر يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسين[2] ابن عليّ بن أبي طالب بالدّيلم ، وقوى أمره ، فشقّ ذلك على الرشيد ، ٢٠ وأنهضَ إليه الفضلَ بن يحيى في خمسين ألفاً ، وأنهض معه وُجوه القوّاد ،

(١) أي يقع فيه .
(٢) في الطبري : « الحسن » .

وولّاه كُور الجَبَل فى سنة ست وسبعين ومئة ، وفيه يقول أبو قابوس الحيرىّ :

رأى الله تفضيل ابن يحيى بن خالد ففضّــــــــلهُ والله بالناس أعلمُ
له يوم بُؤسٍ فيه للناس أبؤسٌ ويومُ نعيم فيـــه للنّاس أنعمُ
فيُمْطِرُ يومَ الجود من كفه الغِنَى ويقطر يوم البؤس من كفه الدمُ ٥

فجعل الفضل محمد[1] بن منصور بن زياد خليفته بباب الرشيد ، ومضى نحو الديلم ، وواصل [كُتبه إلى][2] يحيى بن عبد الله ورسله ، بالرفق والاستمالة ، والتحذير ، والترغيب ، والترهيب ، و بسط الأمل ، إلى أن أجاب يحيى إلى الصلح والخروج ، على أمان أخذه له بخطّ الرشيد أنفذ نسخته إلى الفضل ، فكتب بذلك إلى الرشيد ، فسرّه ، وحسن موقعه ١٠ منه ، وكتب الأمان ليحيى ، وأشهد على نفسه القضاة ، وأنفذه إلى الفضل ، وقدِم عليه بيحيى بن عبدالله، فقدِم به إلى الرشيد معه. فلقيه بكلّ ما أحبّ ، وأسنى جائزته ، وأكثر برّه وعطاءه ، وأنزله منزلاً سريًا ، [٢٣١] وأبرّ الفضل بن يحيى ، وشكر فعله .

ولى الرشيد جعفرا المغرب والفضل المشرق

ثم وَلّى الرشيد جعفراً المَغربَ كُلَّه ، من الأنبار إلى إفريقيَة ، فى سنة ١٥ ست وسبعين ومئة ، وقلد الفضل المشرق كله ، من النَّهْروان إلى أقصى بلاد الترك ، فأقام جعفر بحضرة الرشيد ، وشَخَص الفضل إلى عمله فى سنة ثمان وسبعين ومئة ، وودّعه الرشيد والأشرافُ والوجوه ، وساروا معه ، فوصل وأعطى وأفضل .

مدح مروان ابن أبي حفصة الفضل فأجازه

ومدحه مَرْوان بن أبى حفصة يوم سار فقال : ٢٠

إذا أُمّ طفل راعها جوع طِفلها غَذَتْه بذكر الفَضْل فاستعصم الطفلُ

(١) فى الطبرى : « منصور بن زياد » .
(٢) زيادة بقلم الكاتب فى هامش الأصل .

ليحيا بكَ الإسلام إنكَ عزّه وإنكَ من قوم صغيرُهم كَهْلُ

فوصله بمئة ألف درهم ، وحَمله وكساه ، ووهب له جارية يقال لها : «طيفور» كاسية حالية ، فقيل إنه حصل له سَبْعُ مِئَةِ ألف درهم ما بين وَرِقٍ وعُروض .

صنع إسحاق لحنا فى شعر مدح به الفضل

٥ وجدت بخط أبى عبد الله محمد بن داود : حدثنى غسان بن ذكوان : قال حدثنى رجل رأيته عند قَبيصة المهلبى فى سنة أربعين ومئة ، قال :

أنشدنى إسحاق بن إبراهيم الموصلى لنفسه ، فى الفَضْل بن يحيى ، وأخبرنى أنه قال هذا الشعر ، وعَمِل فيه لحنا ، وغنّاه به . وأنه أمر له بشىء ذهب عنى مبلغُه :

[٢٣٢]

١٠ وقائلٍ قال لى لما رأى زمنى يبرى عظامِىَ بَرْىَ القِدْح بالسَّفَنِ

هل كان بينكما فيا مضى تِرَةٌ فصار يبغيك بالأوتار والإحَنِ

لو كان بينى وبين الفضل معرفة فضل ابن يحيى لأعدانى على الزَّمَنِ

هو الفتى الماجدُ الميمونُ طائرُه والمشترى الحمدَ بالغالى من الثَّمَنِ

سيرة الفضل فى المشرق وإكرام الرشيد له وشعر الشعراء فيه

ولما صار الفضل إلى خُراسانَ أزال سيرة الجَوْر ، وبنى الحياض ١٥ والمساجد والرِّباطات ، وأحرق دفاتر البقايا ، وزاد الجند والقوّاد ، ووصل الزوار والكتاب فى سنة تسع وسبعين ومئة بعشرة آلاف ألفِ درهم ، وأمر بهدم البيت المعروف بالنُّوبَهار[1] ، فلم يقْدر على هدمه لوثاقته ، وعظم المؤونة عليه ، فهدم منه قطعة ، وبنى فيها مسجدًا ، واستخلف عمر ابن جَميل[2] على خُراسان ، وانصرف فى آخر هذه السنة إلى العراق ، فتلقاه ٢٠ الرشيد ببُستان أبى جعفر لما ورد ، وجمع له الناسَ وأكرمه غاية الإكرام ،

(١) فى الأصل : « النوبهان » بالنون وهو تحريف . وكان النوبهار بيتا للبرامكة فى بلخ يعظمونه ويزينونه بالديباج والحرير ، ويعلقون عليه الجواهر النفيسة ، يضاهون بذلك بيت الله الحرام . وكانوا يسمون السادن الأكبر لهذا البيت برمكا ، ومعنى « نوبهار » البهار الجديد ، إذ كانت سنتهم إذا بنوا بناء جديدا أو شريفا كللوه بالبهار ، وهو ٢٥ الريحان (راجع معجم البلدان) .

(٢) فى الطبرى : « عمرو بن شرحبيل » .

وأمر الرشيد الشعراء بمدحه، والخطباء بذكر فضله، فكثر المادحون له؛ فأمر الفضل بن يحيى أحمد بن سيار الجُرجانيّ أن يميز أشعار الشعراء، ويُعْطِيَهم على قدر استحقاقاتهم، فمشى داود بن رَزِيْن، ومسلم بن الوليد، وأَبانُ اللاحقى، وأشجع السلمى، وجماعة من الشعراء، إليه، فسألوه أن يضع [٢٣٣] من شعر أبى نواس، ولا يُلْحِقَه بنظرائه منهم، وتحمّلوا عليه بغالب بن السَّعْدِىّ، وكان يتعشقه، فلما عرَض أبونواس شعره على الجُرجانِىّ رمى به، وقال: هذا لا يستحقّ قائله درهمين، فهجاه أبو نواس فقال:

بما أهجوك لا أدرى لسانى فيك لا يَجْرِى
إذا فكّرتُ فى قدرك أشفقت على شعرى

واتصل الخبر بالفضل، فوصل أبا نواس وأرضاه، وصرَف الجُرجانىّ عن تمييز الشعر.

إبراهيم بن جبريل ومنزلته عند الفضل

وكان شَخَص مع الفضل إبراهيمُ بن جبريل على شُرَطه، فوجهه إلى كابُل، فافتتحها وأفاد مالا عظيما، ثم ولاّه سجِسْتان، فوصل إليه سبعة آلاف ألف درهم، وحصل فى يده من خراجها أربعة آلاف ألف درهم، وانصرف إلى العراق، فلحق به إبراهيم بن جبريل، و بنى داره فى البَغْيَين[1]، وسأل الفضل أن يزوره ليزيد نعمته عليه، وأعدّ له من كل صنف، وأحضر الأربعة الآلاف ألف الدّرهم، فلما حضر الفضل وتغدى، عرض عليه ما أعدّ له، وذكر له حالَ المال، فأبى أن يقبل منه شيئاً؛ وقال له: لم آتكَ لأسلبك[2]، فقال: أيها الأمير، نعمتك علىّ ظاهرة متظاهرة، فقال له: ولك عندى مزيد؛ ولم يزل يسأله أن يُكرمه بقبول شىء منه، [٢٣٤] فقَبِل سوطاً سِجْزِيًّا[3]، وقال هذا يصلح للفُرسان، فذكر له أمر المال، فقال: أما لك بيت يسعه! ووهبه له.

(١) كذا فى الطبرى وفهرست الجهشيارى. وهى قطيعة ببغداد. وقد وردت هذه الكلمة فى الأصل مهملة النقط. (راجع الطبرى وفهرست الجهشيارى).
(٢) فى الطبرى طبع مصر: «لم آتك إلا لأسليك».
(٣) كذا فى الطبرى، نسبة إلى سجستان. وفى الأصل: «شجريا» وهو تصحيف.

أبو الهول يعتذر للفضل فيصله

وكان أبو الهول الحِميَرىّ هجا الفضل بن يحيى ، ثم أتاه فيما بعــد راغباً ، فقال له الفضل : ويلك ! بأىّ وجه تلقانى ؟ فقال له : بالوجه الذى ألقى به الله عزّ وجلّ وذنوبى إليه أكثر وأعظم ؛ فضحك ووصله .

جعل الرشيد ابنه محمدا فى حجر الفضل بعد صرف جعفر بن الأشعث

وكان محمد بن الرشيد فى حجر جعفر بن محمد بن الأشعث ، وكان يكتب لمحمد على الزّمام محمدُ بن يحيى بن خالد ، ثم صرف الرشيد جعفر[1] بن محمد ابن الأشعث ، وجعل محمداً فى حجر الفضل بن يحيى ، وأسكنه معه فى قَصره المعروف بالخلد ، وضَمّ إليه أعمالَه ودواوينه ، وشخص إلى الرقة . وأخذ الفضل مع الرشيد محمدَ بن منصور بن زياد يخلفه بحضرة الرشيد .

أخذ الفضل البيعة للأمين فى خراسان

وذكر محمد بن الحسن بن مصعب :

أن الفضل بن يحيى لما صار إلى خراسان فرّق فيهم[2] — قد ذكرناها —[3] وأخذ البيعة لمحمد بالعهد بعد الرشيد وسمّاه الأمين ، فبايع الناس له .

عداوة جعفر ابن الأشعث ليحيى

وفسدت نيّة جعفر بن محمد بن الأشعث ليحيى بن خالد ، وأضبّ عداوته ، مع عظيم إحسانه إليـــه .

يحيى ومالقيه من أصدقاء ثلاثة [٢٣٥]

وكان يحيى بن خالد يقول أبداً : ما أريد الدنيا إلا لثلاثة : جعفر بن محمد بن الأشعث ، وعلىّ بن عيسى بن يزدانيروذ ، ومنصور بن زياد ، وكلهم انقلب عليه ، وأساء به ، فلقى يحيى وأسبابَه منهم ما يكرهون .

شعر لوزير العروضى فى هجاء ابن الأشعث

ولوَزِير العروضى شعر يهجو به محمد بن الأشعث «مكاّ الذئب» الخُزاعىّ ، وهو :

تِهتم علينا بأنّ الذئب كلّمــكم ... فقد لعمرى أبوكم كلّم الذّيبا

(١) فى الأصل : « محمد بن الأشعث » ، وهو تحريف ، فرجل القصة هو جعفر بن محمد لا أبوه محمد .

(٢) سياق الحديث يشعر بنقص . ونص العبارة فى الطبرى : « أن الفضل بن يحيى لما صار إلى خراسان فرق فيهم أموالا ، وأعطى الجند أعطيات متتابعات ، ثم أظهر البيعة لمحمد بن الرشيد ، فبايع الناس له ، وسماه الأمين » .

(٣) يشير إلى ما وصل به الفضل الزوار والكتاب سنة ١٧٩ هـ وقدر بعشرة آلاف ألف درهم (ص ١٩١ : ١٤ — ١٦ من هذا الكتاب) .

فكيف لو كلّم الليثَ المصور إذًا ... تركتم الناس مأكولا ومشروبا
هذا السُّوَيْدِى[1] ما يَسْوَى إتاوته ... يكلّم الفيل تصعيداً وتصويبا

ويُرْوَى : « هذا السُّيَيْدِيّ ما تحشى معرّته » فضربه محمد بن الأشعث ثلاث مئة سوط .

العباس الأشعثى

وكان لجعفر بن محمد بن الأشعث ابنٌ يقال له العبّاس، شاعر كاتب ظريف. ٥

الحسن بن البحباح وأخوه الفضل ولزومهما مع آخرين مجلس سفيان وحديث ذلك

وكان الحسن بن البَحباح البَلْخيّ ، كاتبُ الفضل بن يحيى ، ويكنى أبا عليّ ، شاعراً أديباً ، وكان أخوه الفضلَ بن البَحْباح الحاجب ، وكان الحسن قد خدم المهدى وموسى ، وتقلّد فى أيام موسى مِصْر ، وخدم بعدَه الرشيد ، وفارق عند توسط أيام البرامكةَ السلطانَ ، وتخلّى من الدنيا وجاور بمكة ، فكتب إليه أبو يعقوبَ الخُرَيْمى قصيدتَه الطويلة ، التى ١٠ يقول فيها :

ألاَ بكرتْ لُبْنى عليه تُعاتبهْ ... تُحدّثه طوراً وطَوْراً تلاعبهْ

وأكبّ على سماع الحديث ، وكان لازَم سفيان بن عُيينة ، ولزم معه حاتم ، وحسينُ بن ثابت ، وخاقان ، وأكثروا السماع منه ، حتى لم يكن

[٢٣٦] فيه للعامّة فضل عنهم ؛ فقال محمد بن مُناذر ، وأسمع سُفيان : ١٥

بعمرو وبالزُّهرى والزُّمَرِ الالَى ... بهم ثَبَتَتْ رجلاك عند المَقاوم
جعلتَ طوال الدهر يوماً لثابت[2] ... ويوما لخاقان ، ويوماً لحاتم
وللحسن البَحباح يوماً ، وبعده ... خصَصْتَ حُسيناً دون أهل المواسم
نظرت وطال الفكر فيك فلم تكن ... تُدير الرَّحا إلا لأخذ الدراهم

فعدل سفيان عنهم إلى العامة . ٢٠

تنزه الفضل عن شرب النبيذ

وكان الفضل لا يشرب النبيذ ويقول : لو علمت أن الماء ينقُص مروءتى ما شربته أبداً .

(١) سويد : تصغير تحقير لسيد (بالكسر) بمعنى الذئب ؛ ويقال فيه : سييد (أيضا) على أن الياء أصلية . (راجع اللسان مادة سيد والصحاح مادة سود) .

(٢) لم يرد ذكر لثابت هنا بين الذين ذكر المؤلف أنهم لزموا سفيان مع الحسن ٢٥

وصل الفضل شابا من الأبناء يريد التزوج بستة عشر ألف درهم

وركب الفضل يوماً من منزله بالخُلد ، يريد منزله بالشَّمَّاسيَّة ، فتلقّاه فتى من الأبناء مُملِكٌ ، ومعه جماعة من الناس رُكبان ، قد تحمّلوا لإملاكه ، فلما رآه نزل فقبّل يده ، ولم يكن يعرفه ، فسأله عن نسبه فعرّفه ، فسأل عن مبلغ الصَّداق ، فعُرِّف أنه أربعة آلاف درهم ، فقال ٥ الفضل لقهرمانه : أعطه أربعة آلاف درهم لزوجته ، وأربعة آلاف درهم ثمن منزل يسكنه ، وأربعة آلاف درهم للنفقة على وليمته ، وأربعة آلاف درهم يستعين بها على العَقد الذى عقده على نفسه .

مدح بعض الشعراء الفضل ببيت مفرد فزاد [٢٣٧] عليه أبو المذافر

ومدح بعض الشعراء الفضل ، فقال :

ما لقينا من جُود فَضْلِ بن يحيى ترك الناس كلَّهم شعراءْ

١٠ فاستُجيد البيت واستحسن ، وعِيب بأنه بيت مفرد ؛ فقال أبو المُذافر وَرْد بن سَعْدٍ القُمّى :

علَّم المفحَمِين أن ينطقوا الأشعارَ منا والباخلين السخاءَ

نادرة للفضل ابن يحيى مع محمد بن إبراهيم الإمام تدل على سعة جوده

وكان ركب محمدَ بن إبراهيمَ الإمام دَيْنٌ ، فركب إلى الفضل ابن يحيى ، ومعه حُقٌّ فيه جوهر ؛ فقال له : قَصُرتْ بنا غلّاتنا ، وأغفل ١٥ أمرَنا خليفتُنا ، وتزايدت مَئُونتُنا ، ولَزِمنا دينٌ احتجنا لأدائه إلى ألف ألف درهم ، فكرهت بَذْلَ وَجْهى للتجار ، وإذالة عرضى بينهم ، ولك من يُعطيك منهم ، ومعى رَهن ثِقةٌ بذلك ، فإن رأيت أن تأمر بعضهم بقبضه ، وحمل المال إلينا ؛ فدعا الفضلُ بالحُقّ ، فرأى ما فيه ، وختمه بخاتم محمد بن إبراهيم ، ثم قال له : نُجْحُ الحاجة أن تقيم فى منزلك عندنا اليوم ؛ ٢٠ فقال له : إن فى المُقام علىّ مشقة ؛ فقال : ما يشقّ عليك من ذلك ، إن رأيت أن تلبس شيئاً من ثيابنا دعوتُ به ، وإلا أمرتَ بإحضار ثياب من

منزلك ؛ فأقام ونهض الفضل، فدعا بوكيله ، وأمره أن يحمل المال ويسلمه
إلى خادم محمد بن إبراهيم ، وتسليم الحُقّ الذى فيه الجوهر بخاتمه ، وأخذ
[٢٣٨] خطه بذلك ، ففعل الوكيل ذلك ، وأقام محمد عنده إلى المغرب ، وليس
عنده شيء من الخبر . ثم انصرف إلى منزله فرأى المال ، وأحضره الخادم
الحُقّ ، فغدا على الفضل ليشكره ، فوجده قد سبقه بالركوب إلى دار ٥
الرشيد ، فوقف منتظرًا له ، فقيل : قد خرج من الباب الآخر ، فاتبعه
فوجده قد دخل إليه ، فوقف ينتظره، فقيل له : قد خرج من الباب الآخر
قاصداً منزله ، فانصرف عنه ، فلما وصل منزله وجّه الفضل إليه ألف ألف
درهم أُخَر ، فغدا عليه فشكره وأطال ، فأعلمه أنه بات ليلته ، وقد طالت
عليه غمًّا بما شكاه ، إلى أن لقى الرشيد فأعلمه حالَه ، فأمره بالتقدير له ، ولم ١٠
يزل يُماكسه إلى أن تقرّر الأمر معه على ألف ألف درهم ، وأنه ذكر
أنه لم يصلك بمثلها قطُّ ، ولا زادك على عشرين ألف دينار ، فشكرته وسألته
أن يصُكّ بها صكًّا بخطه ، ويجعلنى الرسول ؛ فقال له محمد : صدق
أمير المؤمنين ، إنه لم يصلنى قطّ بأكثر من عشرين ألف دينار ، وهذا
فإنما تهيأ بك ، ولك ، وعلَى يديك ، وما أقدر على شيء أقضى به حقك ، ١٥
[٢٣٩] ولا على شكر أجازى به معروفك ، غير أنه « علىّ وعلىّ » ، وحلف أيمانًا
مؤكدة ، إن وقفت على باب أحد سواك ، ولا سألته حاجة أبداً ، ولو سففت
التراب . فكان لا يركب إلى غير الفضل، إلى أن حدث من أمرهم ما حدث،
فكان لا يركب إلى غير دار الخليفة ، ويعود إلى منزله ، فعوتب بعد تقضّى
أيامهم فى ترك إتيان الفضل بن الربيع ؛ فقال: والله لو عُمِّرت ألف عام، ثم ٢٠
مصصت الثماد ، ما وقفت بباب أحد بعد الفضل بن يحيى، ولا سألته حاجة

حتى ألقَى الله جلّ وعزّ ؛ فلم يزل على ذلك حتى مات .

قال عبد الله بن ياسين ، حدثنى أبى ، قال :

بصر الفضل بقول الشعر

كنا عند الفضل بن يحيى ، فخُضنا فى الشعر ، فإذا هو مِنْ أروى الناس له ، وأجودهم طبعاً فيه ، فقلت له : أصلحك الله ! لو قلت شيئاً من الشعر ، فإنه يزيد فى الذكر ، ويُنبه ؛ فقال : هيهات ! شيطان الشعر أخبث من أن أسلطه على عقلى .

سبب تشبه الفضل بعمارة ابن حمزة

وكان الفضل شديد الكبر ، فعُوتب على ذلك ؛ فقال : هيهات ! هذا شيء حملت عليه نفسى ، لِمَا رأيته من عُمارة بن حمزة ، فإن أبى كان تضمّن فارسَ من المهدى ، فحلّ عليه ألفاً ألفِ درهم ، فأخرج ذلك كاتبُ الديوان ؛ فأمر المهدى أبا عون عبد الله بن يزيدَ بمُطالبته ؛ فقال له : [٢٤٠] إن أدّى يحيى المال قبل أن تغرب الشمس من يومنا هذا ، وإلا فأتنى برأسه ، وكان متغضّباً عليه ، وكانت حيلتنا لاتبلغ عُشر المال ؛ فقال : يا بُنىّ ، إن كانت لنا حيلة ، فمن قِبَل عُمارة بن حمزة ، وإلا فأنا ميت ، فامض إليه . فمضيتُ إليه ، فلم يُعِرْنى الطَّرْف ، ثم تقدم من ساعته بحمل المال إلينا ، فحُمل ، فلما مضى له شهران جمعنا المال ! فقال لى أبى : أمض إلى الشريف الحرّ الكريم ، فصرت به إليه ، فلما عرّفته خبر المال غضب وقال : أكنت قَسطاراً [1] لأبيك ، فقلت : لا ، ولكنك أحييته ومَننت عليه ، وهذا المال قد استغنى عنه ؛ فقال : هو لك ، فعدت إلى أبى ؛ فقال : لا ، والله ، ما تَطيب نفسى لك به ، ولكن لك منه مئتا ألف درهم ، فتشبّهت به ، حتى صار خلقاً لا تهيأ لى مفارقته .

(١) القسطار والقسطر والقسطرى (كلها بفتح القاف) : منتقد الدراهم .

نصيحة يحيى لابنه الفضل بترك التكبر

قال الواقدى :

دخل الفضل بن يحيى بن خالد على أبيه يتبختر فى مشيته ، وأنا عنده ، فكره ذلك منه ؛ فقال لى يحيى : يا أبا عبد الله ، أتدرى ما بقى الحكيم فى طرسه ؟ قلت : لا ؛ قال : بقى الحكيم فى طرسه أن البخل والجهل مع التواضع أزين بالرجل من الكبر مع السخاء ، فيالها حسنةً ٥ غطت على عيبين عظيمين ! ويالها سيئةً غطت على حسنتين كبيرتين ! [٢٤١] ثم أومأ إليه بالجلوس .

وصف إبراهيم الموصلى أولاد يحيى البرمكى

قال أبو النجم القائد أحد الدعاة :

قلت لإبراهيم الموصلى : صف لى ولد يحيى بن خالد ؛ فقال لى : أما الفضل فيُرضيك بفعله ، وأما جعفر فيُرضيك بقوله ، وأما محمد فيفعل ١٠ بحسب ما يجد ، وأما موسى فيفعل ما لا يجد .

نادرة ليحيى مع ابن سوار تدل على كرمه

وكان يكتب ليحيى بن خالد عبدُ الله بن سوار بن ميمون ، قال : فدعانى يحيى يومًا ، فقال لى : اجلس فاكتب ؛ فقلت : ليس معى دواة ؛ فقال لى : أرأيت صاحب صناعة تُفارقه آلته ! وأغلظ لى فى حرف أراد به حضى على الأدب ، ثم دعا بدواة ، فكتبت بين يديه كتابًا إلى الفضل ، فى ١٥ شىء من أموره ، فظن أنى متثاقل عن الكتاب بسبب تلك المُخاطبة ، فأراد إزالة ذلك ، فقال لى : أعليك دَيْن ؟ قلت : نعم ، قال : كم ؟ قلت : ثلاث مئة ألف درهم ، فأخذ الكتاب فوقع فيه بخطه :

وكلكمُ قد نال شِبعًا لبطنه وشِبع الفتى لُؤم إذا جاع صاحبه

إن عبد الله يذكر أن عليه دينًا يُخرجه منه ثلاث مئة ألف درهم ، ٢٠ فَقبل أن تضع كتابى من يدك ، فأقسمت عليك لما حملت ذلك إلى منزله

[٢٤٢] منْ أحضر مال قِبَلَك ، إن شاء الله . قال فحملهما الفضل إلىّ وما أعرف لهما سبباً غير تلك الكلمة .

شعر المهلب تمثل به يحيى

وهذا الشعر لبِشْر بن المُغيرة [بن المهلب](١) بن أبي صُفرة ، كتبه إلى عمه ، وأوله :

٥ جَفاني الأميرُ والمغيرةُ قد جَفَا ... وأمْسَى يزيد لى قد ازوَرّ جانبهْ

وكُلُّكمُ قد نال شِبْعاً لبطنه ... وشِبْعُ الفتى لُؤم إذا جاع صاحبُهْ

فياعمُّ مَهْلاً واتخذْنِي لِنَوْبَةٍ ... تنوب ، فإن الدهر جَمٌّ نوائبُهْ

أنا السيفُ إلا أن للسيف نَبْوةً ... ومِثْلِيَ لا تَنْبُو عليكَ مَضارِبُهْ

سبب ثراء ابن المدبر

ومما يشبه خبر عبد الله بن سوّار هذا(٢) ، ما حدّثنى عبد الواحد

١٠ ابن محمد الحُصينى قال : حدثنى عبدُ الله بن محمد بن أحمد بن المُدبّر ، قال : سمعت جدّى أحمد بن المدبر يقول :

كنت أتقلّد مجلس الأسْكدار(٣) فى ديوان الخراج ، وكانت نفسى تنازعنى على أشياء لم تكن تنالُها ، وكنت أرفع نفسى عن التعرّض لكَسْب الخَسيس ، فلما خرج المأمون إلى بلاد الرُّوم ، سألنى جعفر

١٥ الخيّاط الخروج معه ، لأكتب بين يديه ، فقطعت على كُرْه من أبى ذلك ، وجَهَدَ ألا أخرج فلم أُطِعْه ، فدفع إلى بعض إخوانه الذين يثق بهم ، من

[٢٤٣] حيث لا أعلم ، خمسةَ آلاف درهم ، وقال له : تكون هذه الدراهم معك من حيث لا يعلم بها أحد، فإن اختلّت حاله، أو رأيت به خَصاصة، عرضتَ عليه القَرْض ، وأسلفته حسْب ما تراه صوابًا ، على حَسَب ما تشاهد من

٢٠ حاله ؛ قال : فكنت يوماً بين يدى جعفر أعمل ، حتى دخلت عَرِيبُ الكبيرة إليه ، وكنت قد اكتملت ، فنظرت إلىّ ، فأطالت النظر ،

(١) زيادة يقتضيها السياق .
(٢) فى الأصل « ومما يشبه خبر هذا عبد الله...الخ » والسياق يقتضى تأخير « هذا » .
(٣) الأسكدار : لفظة فارسية ، وتفسيره : « إذ كودارى » أى من أين تمسك ،
٢٥ وهو مدرج يكتب فيه عدد الخرائط ، والكتب الواردة والنافذة ، وأسامى أربابها .
(عن مفاتيح العلوم للخوارزمى) .

وكنت غلاماً، فقالت لجعفر : من أين لك هـــذا الطير المُرَارِىّ[1] ؟
فاستحييتُ وخَجِلت ونهضتُ، وخرجت عَرِيبُ، فدَعانى جعفر، فقال :
لعل ما كلمتك به هذه العَيّارة قد غَمّك . وأمر لى بعشرة آلاف درهم،
وما كنت رأيتُها مجتمعة قط فى ملكى ، فخرجت وما أعقل فرحاً ،
فاستبدلت بدابتى ، واشتريت بغلا يركبه غلامى خلفى ، فلما كان بعد أيام ٥
لَقينى ذلك الصديق ، الذى كان أوْدعه أبى الدراهم ، فسألنى عن خَبرى
ورأى أثر حُسْن حالى ، فشرحت له أمرى ، فخبرنى بخبر المال الذى دفعه
إليه أبى ، وقال : ما لمكانه الآن عندى وجه ، فوجَّه به إلىّ ؛ فرأيت
حين جاءنى أنى فى ذلك العسكر أجل من المأمون، وكان ذلك أول مال
[٢٤٤] اعتقدته ، ثم أتانا الله بما نحن فيـــه ، ولم يكن لذلك سبب غير ١٠
كلمة عَرِيب .

شيء مـــن مأثور كلام يحيى

وكان يحيى بن خالد يقول : التعزية بعد ثلاث تجديد للمصيبة ،
والتهنئة بعد ثَلَاثٍ استِخفَافٌ بالمودة .

وكان يحيى يقول : الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ، ويحفظون
أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يَحْفَظون . ١٥

وكان يحيى يقول : رسائل المرء فى كتبه أدل على مقدار عقـــله ،
وأصدق شاهداً على عيبه لك ، ومُعْتَقَده فيك ، من أضعاف ذلك على
المشافهة والمواجهة .

وكان يقول : الكريم إذا تَقَرّأ[2] تواضع ، واللئيم إذا تَقَرّأ تكبر ،
والخسيس إذا أيسر تجبّر . ٢٠

وكان يقول : مطلك الغَرِيم ، أحسن من مطلك الكريم ، لأن
الغريم لا يُسْلف إلا من فضل ، والكريم لا يطلب إلا من جَهْد

---

(١) وردت هذه الكلمة فى الأصـل هكذا مضبوطة بهذا الضبط ولم نوفق لوجه المراد منها .

(٢) تقرأ : تنسك . ٢٥

وقيل ليحيى بن خالد : ألا تؤدّب غِلمانك ؟ قال : هم أمناؤنا على أنفسنا ، فإذا أتّهمناهم فكيف نأمنهم ؟

وكان يقول : البلاغة أن تكلم كلّ قوم بما يفهمون .

وكان يقول لكُتّابه : إن استطعتم أن تكون كتبكم كالتوقيعات ٥ اختصارًا ، فافعلوا .

[٢٤٥] وكان يقول : لست ترى أحداً تكبر فى إمارة إلا وقد دلّ على أن الذى نال فوق قدره ، ولست ترى أحداً تواضع فى إمارة إلا وهو فى نفسه أكبر مما نال فى سلطانه .

وكان يحيى يقول : لا أرحام بين الملوك و بين أحد .

١٠ وكان يقول لو كلف الله العباد الجزَع دُونَ الصبر ، كان قد كلّفهم أشدّ المعنيين على القلوب . فجعل بعضُ الشعراء هذا فى شعر ، فقال :

فلو جعل الإله الحزن فرضاً كما افترض التصبُّرَ فى الخطوبِ

لكان الحزن فيها غيرَ شكٍّ أشدَّ المعنيين على القلوبِ

وهذا خلاف قول القائل، من إنشاد الزبير بن بكار :

١٥ فقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا فقلت البكا أشفى إذاً لغليلى

نادرة لأبى الينبغى مع يحيى وابنيه الفضل وجعفر

قال أبو القاسم بن المُعتمِر الزُّهْرىّ :

كنت أسير مع يحيى بن خالد وهو بين أبنيه الفضل وجعفر ، فإذا أبو اليَنْبغِيّ العباس بن طرخان واقف على الطريق ، فنادانى : يا زهرى ، يا زهرى ، فاستشرفت له ، فقال :

٢٠ صحبتُ البرامكَ عشراً وِلاَ[1] وبَيْتِى كِراءٌ وَخُبْزِى شِرَا

قال : فسمعه يحيى ، فالتفت إلى الفضل وجعفر ، فقال : أفّ لهذا القول ،

(١) ولا : متوالية .

[٢٤٦] أبو الينبغى ممن يُحاسَب . فلما كان من الغد جاءنى أبو الينبغى ، فقلت له : ويحك ! ما هذا الذى عرّضت له نفسك بالأمس ؟ فقال : اسكت . ما هو إلا [أن] انصرفت إلى منزلى ، حتى جاءتنى من قبل الفضل بَدْرة ، ومن قبل جعفر بَدرة ، ووهب لى كل واحد منهما داراً ، وأجرى لى من مطبخه ما يَكْفِينى . ٥

شيء من مأثور كلام يحيى

وكان يحيى بن خالد يقول : الدالّة تفسد الحُرمة القديمة ، وتضرّ بالمحبة المتأكدة .

وكان يقول : أنا مخيّر فى الإحسان إلى من أحسن ، ومُرْتَهَنٌ بالإحسان إلى من أحسنت إليه ، لأنى إذا لم أستتمّ إحسانا فقد أهْدرته .

١٠ وكان يقول : ما وقع غبار موكبى على لحية رجل قطُّ ، إلا أوجبتُ له على نفسى حِفْظه ، وألزمتها حقه .

سماعة حاجب يحيى

وكان ليحيى قَبْلَ الوزارة حاجب ، يقال له سَماعة ، فلما تقلّد الوزارة رأى بعض إخوانه أن سَماعةَ يقلّ عن حجابته ، فقال له : لو اتخذت حاجباً غيره ، فقال : كلا ! هذا يعرف إخوانى القُدماء .

كتاب من يحيى إلى صديق نباعنه

١٥ ووقع يحيى إلى رجل ظنّ به تغيُّراً عليه :

ينبغى أن تكون على يقين أنى بك ضَنين ، أريدك ما أردتنى ، إن

[٢٤٧] نبوت عنى ما كان ذلك بى وبك جميلا ، فإن وقعت المقادير بخلاف ذلك ، لم أعْدُ ما يجب ، والذى هاجنى على الكتاب إليك أن أبا نوح معروف بن راشد سألنى أن أبوح لك بما عندى ، والله يعلم أنى ماتبدّلت ، ولا حُلْت عن عهد ، جمعنا الله وإياك على طاعته ، ومحبة خليفته ، بجوده وقدرته. ٢٠

وصية يحيى لابنه جعفر

وقال يحيى لجعفر ابنه : يا بنى انتق من كلّ علم شيئاً ، فإنه مَنْ جهل

شيئاً عاداه ، وأنا أكره أن تكون عدوًّا لشيء من الأدب

استرضى إبراهيم بن شبابة يحيي بشعر فعفا عنه

وكان يحيي أنكر على إبراهيم بن شَبَابة الشاعر شيئاً ، فكتب إليه رسالة طويلة مشهورة وكتب فى آخرها :

أَسْرَعَتْ بِى إليكَ مِنِّى خَطِيئا تٌ نَجَاتٍ عِذْنبٍ ذى رَجَاءِ

٥ راهبٍ راغبٍ إليك يُرَجِّى مِنْكَ عفوًا عَنْهُ وفَضْلَ عطَاءِ

ولعَمْرِى مامَنْ أصرَّ ومَنْ تا ب مُقِرًّا بذَنْبِه بِسَوَاءِ

فعفا عن جرمهِ ورضى عنه .

أسلوب يحيي فى نهى الخلفاء [٢٤٨]

وكان يحيي إذا رأى من الرشيد شيئاً ينكره لم يستقبله بالإنكار ، وضرب له أمثالا ، وحكى له عن الملوك والخلفاء ما يُوجب مُفارقةما أنكره ،

١٠ ويقول : فى النهى إغراء ، وهو من الخلفاء أحرى ، فإنك وإن لم تقصد إغراءه ، إذا نهيته أغريته .

رأى عبد الصمد فى يحيي وشعر أبى الحجناء فيه

قال عبد الصمد بن عليّ :

ما رأيت أكرم من يحيي نفساً ، ولا أحلم منه ، جعل على نفسه أن لا يُكافئ أحداً بسوء ، فوفّى ، فقال أبو الحَجْناء نُصَيْب الأصغر :

١٥ عنــد المــلوك مَضرّة ومنافع وأرى البرامك لاتضرُّ وتَنفعُ

إن العُروق إذا استسرَّ بها الثَّرى أشِر النباتُ بها ، وطاب المَزْرَعُ

وإذَا جهلت من امرئ أعراقَه وقديمَه فانظر إلى ما يَصْنَعُ

وأخذ أبو الحَجْناء نُصيب بيته الآخِرَ من سَلْم الخاسر ، حيث يقول :

لا تسألِ المرء عن خلائقه فى وَجهه شاهدٌ عَنِ الخبر

٢٠ قال الأصمعى :

بعض ما حفظه الأصمعى من كلام يحيي

سمعت يحيي بن خالد يقول : الدنيا دول ، والمال عارية ، ولنا بمن قَبْلنا أسوة ، وفينا لمن بعدنا عِبْرة .

إعجاب الفضل بسلم الخاسر

ودخل محمد بن زَيدان على الفضل بن يحيى، فقال له : من الذى يقول :

سأرسل بيتاً قد وَسمت جَبينه يُقَطِّع أعناق البيوتِ الشَّوارد

أقام النَّدى والجودُ فى كلِّ منزل أقام بهِ الفضل بن يحيى بن خالد؟

[٢٤٩] فقال له : سلم الخاسر؛ فقال : لا تسمّه خاسرًا، وسمه سلْمًا الرابح ، وأمر له بألف دينار . ٥

غلبة سلم على الفضل وشعر أبى العتاهية فى ذلك

ثم غلب سلم على الفضل بن يحيى، وكثرت فيه مدائحه ، وعظم إحسان الفضل إليه ، حتى قال فيه أبو العتاهية :

إنما الفضل لسَلْم وحْدَه ليس فيه لسوى سَلْمٍ دَرَكْ

منزلة جعفر عند الرشيد

وكان الرشيد يسمى جعفراً أخى ، ويُدخله معه فى ثَوْبه ، وقلّده بريد الآفاق ودُورَ الضَّرْب والطِّرْزِ فى جميع الكُوَر . ١٠

بلاغة جعفر

وكان جعفر بليغاً كاتباً ،وكان إذا وقَّع نُسِخت توقيعاته ، وتُدورست بلاغاته . فحكى على بن عيسى بن يزدانيروذ أنه جلس للمظالم ، فوقع فى ألف قصة ونيِّف ، ثم أُخرجت فعرضت على العمال والقضاة والكتاب وكتاب الدواوين ، فما وجد فيهاشىء مكرر ، ولا شىء يخالف الحقّ :

قال ثمامة بنُ أشْرس : ١٥

منزلة جعفر ابن يحيى فى الكتابة [٢٥٠] وشعر عنان فيه

كان جعفر بن يحيى أنطقَ الناس ، قد جمع الهُدوَ والتَّمهُّلَ والجزالة والحلاوة ، وإفهامًا يُغنيه عن الإعادة ، ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى [بمنطقه][1] عن الإشارة لاستغنى [جعفر][1] عن الإشارة ، [كما استغنى عن الإعادة][1] . وفيه تقول عِنانُ جارية الناطفى[2] :

بديهته وفكرته ســـواء إذا التبست على الناس الأمور ٢٠

(١) زيادة عن البيان والتبين للجاحظ .

(٢) كذا فى الأغانى (ج ١٠ ص ١٠١) والعقد الفريد (ج ٣ ص ٢٠٨) . وفى الأصل : « النطاف » .

وصَدرٌ فـــيه للهمّ اتساع إذا ضاقت من الهمّ الصُّدورُ
وأحزم ما يكون الدهرَ رأيا إذا عجز المشاورُ والُمشـــيرُ

شيء من مأثور توقيعات يحيى وكتابته

ودفع رجل إلى جعفر رقعة ذكر فيها قَصْدَه إياه بأمل طويل ، ورجاء فسيح ، فوقّع على ظهرها :

٥ هذا يمتّ بحرمة الأمل ، وهى أقرب الوسائل ، وأثبت الوصائل ، فليعجّل له من ثمرة ذلك عشرون ألف درهم ، وليُمْتَحَنْ ببعض الكِفاية ، فإن وجدت عنده فقد ضم إلى حقه حقّا ، وإلى حرمته حرمة ، وإن قصر عن ذلك فعلينا مُعوّله ، وإلينا مؤّنله ، وفى ما لنا سَعة له .

ورفع رجل إلى جعفر قصة يسأله الاستعانة به ، وكان يعرفه
١٠ ويَخْبره ، فوقّع :

قـــد رأيناك فما أعجبتنا وبلوناك فلم نَرْضَ الخـــبر

وكان جعفر بن يحيى يقول : الخطّ سِمط الحكمة ، به تفَصَّـــل شذورها ، وينظم منثورها .

ووقع على كتاب لعلىّ بن عيسى بن ماهان ، وقد كتب إليه رقعة
١٥ معتذراً من أشياء بلغته عنه :

[٢٥١] كأنّا وقد كنّا صـــديقاً مصافياً تباعَـــد بيننا فدام إلى الحَشْرِ

ووقّع على كتاب آخر لعلىّ بن عيسى :

حُبِّبَ إلينا الوفاء الذى أبغضْته ، وبُغِّضَ الغدرُ الذى أحببْته ، فما جزاء الأيام أن تُحسِنَ ظنك بها ، وقد رأيت غَدَرَاتِها ووَقَعَاتها عِيانا
٢٠ وإخْباراً ، والسّلام .

ووقع على رقعة لمحبوس : العُدوانُ أوْبقه ، والتوبة تطلقُه .

شعر الأصمعى فى جعفر

وكان الأَصْمعىّ يألف جعفر بن يحيى ويُخَصُّ به ، وله فيه مَديح كثير ، وحكايات توصف ، وتقريظ وتفضيل ؛ فمن شعره فيه :

إِذَا قِيلَ : مَنْ لِلنَّدَى وَالْعُلَى مِنَ النَّاسِ؟ قِيلَ : الْفَتَى جَعْفَرُ
وَمَا إِنْ مَدَحْتُ فَتًى قَبْلَهُ وَلَكِنْ بَنُو بَرْمَكٍ جَوْهَرُ

قصد جعفر أن يصل الأصمعي ثم قبض منه ليخله على نفسه

وقال يوما جعفر لخادم له :

احمل معنا ألف دينار ، فإني أريد أن أمرّ بالأصمعيّ ، فإذا حدثني وأضحكني ، فضع الكيس في حِجْره ، ثم صار إليه ومعه أَنَسُ بن أبي شَيْخ ، ٥ فحدّثه الأصمعيّ بكلّ شيء ، فلم يضحك ، وانصرف ، فقال له أنس : إنه قد أضحكك بجُهده ، فلم تضحك ، وليس عادتك ردّ شيء قد أمرت بإخراجه من بيت مالك . فقال له جعفر : ويلك ! قد وصلنا هذا بخمس مئة ألف درهم ، ولم أدخل له بيتاً قبل هذه الدَّفعة ، ورأيت حُبّه[1] مكسوراً ، وعليه [٢٥٢] بَرْنَكانٌ[2] منجرد ، وتحته مُصَلًّى وَسِخ ، وكلّ ما عنده رَثّ ، وأنا أرى ١٠ أن لسان النعمة أنطق من لسانه ، و إن ظهور الصنيعة أمدحُ وأهجَى من مديحه وهجائه ، فعلامَ أُعطيه الأموال ، إذا لم تظهر الصنيعة عنده ، ولم تنطق النعمة بالشكر عنه ؟ ثم أنشد بيت نُصَيْب :

فَعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

هجاء الأصمعي للبرامكة

وكان الأصمعيّ هجا البرامكة فيما بعد ، وكفر نعمتهم ، فقال عند ١٥ نَكْبتهم :

إذا ذُكِرَ الشِّرْكُ فى مجلس أضاءت وجُوهُ بَنِى بَرْمَكِ
وَلَوْ تُلِيَتْ بَيْنَهُمْ آيَةٌ أَتَوْا بِالْأَحَادِيثِ عَنْ مَزْدَكِ

طلب نقفور مهادنة الرشيد ثم غدر

وكان الرشيد قد أحبّ الغزو ، وكان من رسمه أن يحُجّ سنة و يغزو سنة ، وكان يَلْبَسُ دُرَّاعة قد كتب من خلفها حاجّ ، ومن قدّامها غازٍ ، ٢٠

(١) الحب : الجرة الضخمة .
(٢) البرنكان: الكساء الأسود . وقد ساق هذه القصة الطبرى ، وفيها «دراعة» بدلا من «برنكان» .

[٢٥٣] فطلب « نِقفور » الهُدْنة على أن يؤدّى إليه عن كلّ حالم ممن عنده من الروم ديناراً، سواه وسوى ابنه ؛ فأبى الرشيد ذلك ، ثم تراضيا على الصلح ، وأشار عليه يحيى بن خالد بقبوله إياه ، فصالحه وهادنه ، فانصرف عنه ، ولما صار بالرقة نكث « نِقفور » وغدر ، فكره يحيى بن خالد أن

٥ يُعرّف الرشيد ذلك فيغتمّ له ، ويرجع باللوم عليه ، لما كان من مَشُورته عليه بمصالحته، فأمر عبد الله بن محمد[١] الشاعر، المعروف بالمكى، أن يقول فى ذلك شعراً ، وينشده الرشيد ، فقال :

نَقَضَ الّذى أعْطَيْتَهُ «نِقْفُورُ» فعليه دائرة البَوَارِ تَدُورُ
أبْشِرْ أميرَ المؤمنين فإنه فَتْحٌ[٢] أتاكَ بهِ الإلٰهُ كَبيرُ

١٠ فقال الرشيد ليحيى : قد علمت أنك احتلت فى إسماعى هذا الخبر على لسان المكى . ونهض نحوَ الروم ، فافتتح هِرَقْلة .

قلد الرشيد الخاتم جعفرا بعد الفضل

وأحبّ الرشيد تقليد جعفرٍ الخاتَم ، وكان إلى الفضل ، فقال ليحيى ابن سُليمان : أريد أن أوقّع بهذا توقيعاً لا يَجْرى مجرى العزْل للفضْل ؛ فكتب عنه إلى يحيى بن خالد : إن أمير المؤمنين رأى أن ينقل خاتَم

١٥ الخلافة من يمينك إلى شمالك .

هرثمة وجعفر ورياسة الحرس

وردّ الرشيد إلى هرثمة بن أعْيَنَ الحرس ، وكان إلى جعفر ، فقال له جعفر : ما انتقلت عنى نعمة صارت إليك .

[٢٥٤] غضب الرشيد إذ سبقت خيل جعفر ثم ترضاه العباس الهاشمى

وأمر الرشيد جعفراً أن يتخذ خيلا يجريها فى الحَلْبة ، فأجرى جعفر يوما خيله بالرّقّة ، فسبقت خيلَ الرشيد ، فغضب الرشيد ، فقال العبّاس

٢٠ ابن محمد الهاشمى لجعفر : يا أبا الفضل ، ما أحسن الشكر ، وأدعاه للمزيد ! من أين لكَ هذا الفرس السابق ؟ فقال له : أمّه من خيلك . فقال : والله لأرْضينَّك ؛ ثم أقبل على الرشيد ، فقال : كنت، يا أمير المؤمنين، مع

(١) فى الطبرى : « فاحتيل له بشاعر من أهل جُدة يكنى أبا محمد عبد الله بن يوسف وقال : هو الحجاج بن يوسف التيمى » .

(٢) فى الطبرى : « غنم » .

أمير المؤمنين أبى العباس ، ونحن فى المدائن ، وقد أرسلتُ الخيل فبينا نحن ننظر طلع فرسٌ سابق ، قد حصل فى الغُبار ، فما تُرى عَلاَمَتُهُ ؟ فقال عيسى بن على : لى ، وقال غــيره : لى ، ثم طلع آخر على تلك الصفة ، ثم طلع ثالث على تلك الصفة ، فنظروا فإذا هى لخالد بن بَرْمَك ، وقد أخذ قَصَبات السبق ؟ فقال خالد : ياأمير المؤمنين، مَنْ يقبضها ؟ فقال : ٥ هى لنا عندك ، فإنك عُدَّة من عُدَدِنا ، فسُرِّىَ عن الرشــيد ، وزال الغضب عنه .

جعفر والعصبية بالشام

وهاجت بالشام عَصبيّة[1] فى سنة ثمانينَ ومئة ، فقال الرشيد لجعفر : إما أن تخرج أنت إليها ، وإما أن أخرج أنا . قال : فشخَص جعفر من الرَّقّة ، يريد الشام ، يُشَيِّعُه الرشيد ، وخرج معه جميع من بحضرته من ١٠ الوجوه والأشراف ، وفيهم عبدُ الملك بن صالح ، فلما ودّعه قال له جعفر : اُذكر حاجتك ، فقال له : حاجتى ــ أعزّ الله الأمير ــ أن تكون لى كما [٢٥٥] قال الشاعر :

وكونى على الواشينَ لَدّاء شَغْبَة ... كما أنا لِلْوَاشى أَلَدُّ شَــغُوبُ

فقال جعفر : بل أكون كما قال الآخر : ١٥

وَإِذَا الْوَاشِى أَتَى يَسْــعى بها ... نفعَ الْوَاشِى بِمَا جَاء يَضُرُّ

ثم سار جعفر إلى الشام فأصلحها ، وظفر بجماعة ممن سعى بالفساد ، وشرّد آخرين ، حتى استقامت أمورها أحسن استقامة . وله خطبة خطبها وهى :

الحمدُ لله الذى لم يمنعه غِناه عن الخلق من العائدة عليهم ، ولم تمنعه إساءتهمْ مِنَ الرَّحمةِ لهُمْ ؛ دَعاهُمْ مِنْ طاعته لما ينجيهم ، وذَادَهُمْ مِنْ ٢٠ مَعْصِيَتِهِ عَمَّا يُرْدِيهِمْ ، كلّفهمْ من العمل دُونَ طاقتهمْ ، وأعطاهم من النعم فوْق كفايتهم ، فهم فيما حُمّلُوا مُخَفَّفٌ عنهم ، وفيما خُوِّلُوا مُوَسَّعٌ

(١) فى الأصل : عصبة . ولا يستقيم بها الكلام . ونص هــذه العبارة فى الطبرى : « وهاجت بالشام العصبية بين النزارية واليمنية » .

عليهم ؛ وصلَّى الله على محمد نبيِّ الرحمة ، والمبعوث إلى كافة الأُمة ، وعلى أهل بيته الطَّاهرين ، وسلّم تسليما .

أما بعد ، فإني أوصيكم بالألفة ، وأحذِّركم الفُرقة ، وآمركم بالاجتماع ، وأنهاكم عن الاختلاف ، قال الله جلّ وعزّ : « واعتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولا تَفرَّقُوا » فأمر بالجماعةِ في أول الآية ، ثم لم ينقص حتى نهى [٢٥٦] ٥ فيها عن الفرقة ، توكيداً للحجة ، وقطعاً للمعذرة . إن الفرقة تُنْشِيء بينكم إحَناً ، يطلبُ بها بعضُكم بعضاً ، وإن الجماعة : تَعقِد بينكم ذِمَماً ، يَحْمِي بها بعضكم بعضاً ، حتى يكون المكاثر لواحدكم كالمكاثر لجماعتكم ؛ فمتى يطمع عدو فيكم إذا كانت النائبة تعمكم ؟ إنْ غَفَل بعضُكم حرسه جَيِّتُكُم ، ١٠ وإن غَرَبت[1] طائفة منكم منعها تألُّفكم . إنه لم يجتمع ضعفاء قطّ إلا قَوُوا حتى يَمتنعوا ، ولم يفترق أقوياء قطُّ إلا ضعفوا حتى يَخضعوا ؛ واجتماع الضعيفين قوّة ، وافتراق القويّيْن مَهانة تَمكَّن منهما ؛ غافلُ الجماعة لا تضرّه غفلته ، لكثرة من يحفظه ، ومُتيقّظ الفُرْقة لا يَنْفَعُه تَيقظُه ، لكثرة مَنْ يَطْلُبه ؛ وصاحب الجماعة يدرك أَرْشَهُ[2] في الخَدْش والشَّجَّة ، ١٥ وصاحب الفُرْقةِ يَذْهَبُ حقه في النفس والحُرْمة

شعر مسلم في مدح جعفر

وفي جعفر يقول مسلم بن الوليد ، في قصيدة طويلة :

إستَفْسَدَ الدَّهرُ أقواماً فأصلحَهم ... مُحَمَّل نَكباتِ الدهر مُحتمِلُ[3]

به تَعارَفَتِ الأحْياءُ وأتْلَفَتْ ... إذ ألْفَتْهُمْ إلى مَعْرُوفه السُّبُلُ

كأنَّه قَمَرٌ أو[4] ضَيْغَمٌ هَصِرٌ ... أو[4] حَيَّةٌ ذَكَرٌ أو عَارِضٌ هَطِلُ[4]

٢٠ (١) غَرَبت : أي فارقت الجماعة وبعدت عنها .
(٢) الأرش : الدية .
(٣) كذا في ديوان مسلم بن الوليد . وفي الأصل : « عهد بكتاب الله » .
(٤) كذا في ديوانه وفي الأصل : « و » .

كتب أبو قابوس إلى [٢٥٧] جعفر شعرا يستهديه ملابس

قال الجاحظ :

دخل أبو قابوسَ النصرانى الحِيرىّ ، وكان منقطعاً إلى البرامكة ، على جعفر بن يحيى فى يوم بارد ، فتبيّن عليه جعفرٌ أثر البرْد ، فأتى إليه مُطْرَفَ خزّ ، كان شِراهُ جملةً كبيرةً ، وانصرف أبو قابوس ، فحضَرهُ عيدٌ لهم ، فالتمس فى ثيابه ما يُشاكل ذلك المُطْرَف فلم يجده ، ٥ فقالت له ابنته : لو كتبت إلى جعفر فعرّفته حالك ، لوجّه إليك ما تلبسه مع هذا ، فكتب إليه :

أَبَا الْفَضْلِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا يَوْمَ عِيدِنَا ... رَأَيْتَ مُبَاهَاةً لَنَا فِى الْكَنَائِسِ

فَلَوْ كَانَ هٰذَا الْمُطْرَفُ الخزُّ جُبَّةً ... لَبَاهَيْتُ أَصْحَابِى بِهِ فِى الْمَجَالِسِ

فَلَا بُدَّ لِى مِنْ جُبَّةٍ مِنْ جِبَابِكُمْ ... وَمِنْ طَيْلَسَانٍ مِنْ جِيَادِ الطَّيَالِسِ ١٠

ومِنْ ثوبِ قُوهِىٍّ وَثَوْبِ غِلَالَةٍ ... ولا بأسَ لَوْ أَتْبَعْتَ ذَاكَ بِخَامِسِ

إِذَا تَمَّتِ الْأَثْوَابُ فِى الْعِيدِ خَمْسَةً ... كَفَتْكَ فلم تحتج إلى لُبْس سادس

لعمرُكَ ما أفْرَطْتُ فيما سألتُــه ... ولا كنتُ لو أفرطتُ فيه بيائس

وَذَاكَ لِأَنَّ الشِّــعْرَ يزداد جِدَّةً ... إذا ما البِلَى أَبْلَى جَدِيدَ الْمَلَابِسِ

فوجّه إلى أبى قابوسَ من كلّ صِنف ذكره عشرَ قِطَع . ١٥

الكتابة والتوقيعات قبل جعفر وبعده [٢٥٨]

ولم تزل كتب الملوك والرؤساء تجرى فى التوقيعات على أن يوقّع الرئيس فى القصّة بما يجب فيها ، ويذكر المعانى التى يأمر بها ، ولم يكن للكتّاب فى ذلك الأمر شىء أكثر من أن يكتبوا تلك الجملةَ من التوقيع ألفاظاً تشرحها[١] ، ويقرُب من العامة فهمها ، ولا تخرجها عن معنى قصد الرئيس ، إلى أيام الرشيد ، فإن المتظلمين كثروا على باب جعفر ، وتأخر ٢٠ جلوسه أياماً ، ثم جلس ، وكانت القِصص قد كثرت، فنفض[٢] أكثرَها ،

(١) فى الأصل : يشرحها ، ولعلها مصحفة عما أثبتناه حتى يستقيم العطف بعد .

(٢) هذه الكلمة مهملة النقط فى الأصل .

وَجاءهُ رسول الرشيد يأمره بالمصير إليـه ، فقال للرسـول : قل له : يا سيدى ، الساعةَ أجيء ، ونظر فيما بقى ، فجاءه الرسول ثانية يستحثّه ، وكان فى القصص قصة طويلة ، دقيقة الخطّ رديئته ، فوافاه الرسول وهى فى يده ، وأعجله أن يستتمّها ، وكان يحتاج فى فهمها إلى مدة ، وكَره ، وقد ٥ نُظر إليها فى يده ، أن تُطرح فيما لم ينظر فيه ، فوقّع على ظهرها : «يُعمل فى ذلك بما يعمل فى مثله على سَنَن الحقّ وقَصْده ، وجهة الإنصاف وسبيله إن شاء الله» . فورد على الكتّاب من ذلك ما لم يردْ مثلُه ، وامتثلوه ، ثم صار ذلك رسماً للرؤساء .

سعى جعفر فى أخذ العهد للمأمون بعد الأمين

وكان المأمون فى حِجْر محمّد بن خالد بن برمك ، فنقله الرشيد إلى ١٠ حجر جعفر ، فأشار على الرشيد ببيعته للعهد بعد محمد ، وقام بالأمر حتى عقده له ، وشخصَ به معه من الرّقّة إلى مدينة السلام ، حتى أكّد البيعة له ، وأخذ الأيمان على بنى هاشم والوجوه بها ، وكاتب العمال فى جميع النواحى بذلك ، ثم انصرف إلى الرّقّة . [٢٥٩]

نظم أبان كتاب كليلة شعرا

وصنع أبان بن عبد الحميد بن لاحِق ، مولى الرّقاشيين ، كتاب كليلة ١٥ ودمنة شعراً ، وأهداه إلى جعفر ، فوهب له مئة ألف درهم ، وقد ذكر محمد بن داود فى طبقات الشعراء : أن يحيى بن خالد اشتهى حفظ كتاب كليلة ودمنة ، فقَلَبه له أبان شعراً ، ليسهل عليه حفظه ، وذكر أنه أربعةَ عشرَ ألفَ بيتٍ .

هجا أبو نواس أبانا لاهماله شعره

وكان أبان خاصًّا بجعفر و بيحيى بن خالد ، وكان يحيى قلّده ديوان ٢٠ الشعر ، فكان الشعراء يرفعون إليه أشعارهم فى البرامكة ، فيُسقط ما يرى إسقاطه ، ويَعرِض ما يَرى عَرْضَه ، فأسقط مرةً شعر أبى نُواسٍ فيما أسقط ، فقال فيه :

صَحَّفَتْ أُمُّكَ إذْ سَمَّتْكَ فِي المَهْدِ أَبَانَا

قَدْ عَلِمْنَا مَا أَرَادَتْ لَمْ تُرِدْ إِلاَّ أَتَانَا
صيّرتْ باهِ مَكَانَ النّســاء . واللهُ أعــانا
قطعَ اللهُ وَشِيــكاً مِنْ مُسَيّكَ اللّسانا

إسحاق وجعفر ونافذ حاجبه [٢٦٠]

وذكر إسحاق الموصليّ :

أن جعفر بن يحيى استبطأه فى زيارته ، وشكاه إلى يحيى والده ، ٥ وكان شديد الحجاب ؛ قال : فاعتذرت إليــه وقلت : إنى ما أُخلُّ بحضور دارك ، ولكنّ نافذاً خادمك يحجُبنى ، فقال لى وهو يمازحنى : إذا حجبك فَنِكْه ؛ قال : فقصدته يوما بعد ذلك ، فعاود نافذ حجابتى ، فكتبت إليه :

جُعِلْتُ فِداءَكَ مِنْ كُلِّ سُوء إلى حُسْنِ رأيكَ أشكو أُناساَ ١٠
يحولون بينى وبين السّلام فَمَا إنْ أُسَلِّمُ إلاَّ اختلاسا
وَأَنْفَذْتَ رأيَكَ فى نَافِذٍ فَمَا زَادَهُ ذاكَ إلاَّ شِماسا

فلما وصلت رُقْعَتِى إِلَيْهِ ضحك ، وأمر بإزالة الحجاب عنى ، وكَثُرْتُ عليه .

هرب عبد الملك ابن صالح لإرضاء جعفر فأجابه جعفر إلى ما طلب

وذكر[1] إسحاق بن إبراهيم الموصلى قال : قال لى إبرهيم بن المهدى : ١٥ خلا جعفر بن يحيى فى منزله يوماً ، وحضر ندماؤه ، وكنت فيهم ، فتضمّخ بالخَلوق ، ولَبِس الحرير ، وفعل بنا مثلَ ذلك ، وتقدّم إلى الحاجب بحفظ الباب إلا من عبد الملك بن بَحْرانَ[2] كاتبه ، فوقع فى أُذُن الحاجب « عبد الملك » ، ومضى صدرٌ من النهار ، و بلغ عبد الملك بن صالح مُقام

(١) فى هامش ص ٢٦٠ من الأصل عبارة تختلف مع عبارة الأصل فى الخط ، وليس سهلا تشير ٢٠ إلى موضعها من الكلام ، وهى : « وحسده قرابته لفصاحته وقالوا للرشيد : إنه يعد لهذا المقام مقالا ؛ قال : امتحنوه ؛ فقالوا : إن أمير المؤمنين رزق الليلة ابنا ، وأصيب بابن ، قال : سرك الله فيما ساءك يا أمير المؤمنين ، ولا ساءك فيما سرك ، وجعلها واحدة بواحدة ، ثواب الشاكر ، وأجر الصابر ، فعلم عند ذلك أنه مبتى محمود » .

(٢) كذا فى الأصل . وقد ذكر صاحب فهرست الجهشيارى انه محرف عن بحران ٢٥ أو عمران .

جعفر فى منزله ، فركب إليه ، فوجّه الحاجب إلى جعفر : قد حضر عبد الملك ؛ فقال: يُؤذن له، وهو يظنه ابن نجْران ، فدخل عبدُ الملك بن صالح فى سواده ورُصَافيّته ، فلما رآه جعفر أُسودّ وجهه ، ورآنا على حالنا ، وكان عبد الملك لا يشرب النبيذ ، وكان ذلك سبب مَوْجِدَة الرشيد عليه ، لأنه كان ٥ يلتمس نِدَامه فيأبى عليه ، فوقف عبدُ الملك على مارأى من جعفر ، فدعا غلامه ، فناوله سواده وقلنسوته ، وأقبل حتى وقف على باب المجلس الذى نحن فيه ، فسلّم وقال : أشركونا فيما أنتم فيه [sic: أنعلوا بنا ما فعلتم بأنفسكم] ، فدنا منه خادم ، فألبسه حريرة ، وجاء فجلس ، ودعا بطعام فأكل ، ودعا بنبيذ ، فأتوه برطل فشربه ، وقال لجعفر : والله ما شربته قبل اليوم ، فليُخَفّفْ عنّى ، فدعا له ١٠ برِطليّة جعلت بين يديه ، وجعل كلما فعل من ذلك شيئاً سُرِّىَ عَنْ جعفر ، فلما أراد الانصراف قال له جعفر : سل حاجتك ، فما تحيط مقدرتى بمكافأة ما كان منك ؛ فقال : إنّ فى قلب أمير المؤمنين هَنَةً ، فتسأله الرّضا عنى ؛ فقال : قد رَضِىَ عنك أمير المؤمنين ؛ قال وعلىّ أربعة آلاف ألف[1] درهم تُقْضى عنى ؛ قال : إنها لعندى حاضرة ، ولكن ١٥ أجعلها من مال أمير المؤمنين ، فإنها أنبل لك ، وأحبّ إليك ؛ قال : وإبراهيم ابنى أحبّ أن أشدّ ظهره بصِهْرٍ من أولاد الخلافة ، قال : قد زوّجه أمير المؤمنين العالية[2] ؛ قال : وأحبّ أن يَخْفِقَ لواء على رأسه ؛ قال : قد ولاّه مصْر . وانصرف عبد الملك ونحن نتعجب من إقدام جعفر على قضاء الحوائج من غير استئذان ، وقلنا : لعله أن يُجاب إلى ما سأل ٢٠ من الحوائج ، فكيف بالتزويج ! هل يُطلَق لجعفر أن يَعزّه ؟ فلما كان من الغَد ، وقفنا على باب الرشيد ، ودخل جعفر ، فلم يلبثْ أن دُعِىَ

[٢٦١] [٢٦٢]

(١) فى العقد الفريد : « أربعة آلاف درهم » ، وفى الفخرى « ألف ألف درهم » .
(٢) فى الأصل : « العالية » وفى العقد الفريد « عائشة العالية » وذكر الطبرى فى بنات الرشيد : « أم العالية » .

بأبى يُوسُفَ القاضى ومحمد بن الحسن ، وإبراهيم بن عبد الملك ، وخرج إبراهيم وقد خُلِعَ عليه وزُوِّج ، وحُمِلت البِدَر إلى منزل عبد الملك ، وخرج جعفر ، فأشار إلينا باتباعه إلى منزله ، فلما صرنا إليه ، قال : تعلّقت قلوبكم بأوّل الحديث من أمر عبد الملك ، فأحببتم علم آخره ، وإنى لما دخلت على أمير المؤمنين ، فقمت بين يديه ، ابتدأت القصة كيف كانت، ٥ من أولها إلى آخرها ، فجعل يقول : أحسن والله ! حتى إذا أتممت خبره ، قال : ما صنعتَ به ؟ فأخبرته بما سأل ، فجعل يقول فى ذلك : أحسنت ! أحسنت !

إبراهيم الموصلى ويحيى وجعفر [٢٦٣] والفضل وحديث الضيعة

قال مُخارق :

١٠ غدوت يوماً على إبراهيم بن ميمون الموْصِلِىّ ، وكان يَوْمَ دَجْن طيب ، فأصبت بين يديه قدورًا تفَرْغر ، وأباريق تزهر ، وهو كالمهموم ، فسألته عن حاله ؛ فقال : لى ضيعة ، وإلى جانبها ضيعة يبلغ ثمنها مئتى ألف درهم ، وإن دخلتْها يدُ غيرى أفسد علىّ ضيعتى ، وما أقول إن ثمنها ليس يمكننى ، ولكنى لست أسمح بإخراج كلّ ما فى يدى . قال : ١٥ فأمسكت عنه ، واستتممت يومى عنده ، وغدوت على يحيى بن خالد فلقيته ، فسألنى عن خبرى فى أمس يومى ، فخبرته الخبر فأضحكه . قال مخارق : فانصرفت إلى إبراهيم لأعرّفه الخبر ، فوجدت المال قد سبق إليه ، فقلت له : اشتر الآن الضّيْعة ؛ فقال : لكلّ جديد لذّة ، وهذا مال جديد ، ولست أحبّ إخراجه ؛ قال : فحدثت جعفراً بالخبر كلّه فأضحكه ، وبعث ٢٠ بالمال إليه . قال : فصرت إليه ، فقلت له : اشتر الآن الضيعة ؛ فقال : العجلة من عمل الشيطان ، دعنى استمتع بهذا المال مدّة . وصرت إلى الفضل بن يحيى ، فحدّثته . فابْتاع الضيعة ، ووزن ثمنها ، ووجّه إليه بمثل

الثمن ، ووجه إليه بالصك .

كان جعفر طويل العنق [٢٦٤] وشعر أبي نواس فيه

وكان جعفر طويل العنق ، وهو أول من عرّض الجُرُبّانات ، وحشاها بالقطن ، وما زال الناس ينسبونها إلى ابن برمك ، يقولون : جُرُبّانات بَرْمَكيّة . وفيه يقول أبو نواس :

٥ ذاكَ الوزيرُ الذى طالت عِلاوتُهُ ... كأنّه ناظر فى السيف بالطُّول

وأوّل هذه الأبيات :

قالوا امتدحتَ فماذا اعتضتَ قلتُ لهم ... خَرْقَ النّعالِ وإخلاقَ[1] السَّراويل

قالوا : فسمِّ لنا هذا ، فقلت لهم ... وصفى له يَعْدِل التفسيرَ[2] فى القِيل

ذاك الوزير الذى طالتْ عِلاوتُه ... كأنّهُ ناظرٌ فى السَّيْفِ بالطُّولِ

١٠ وله فيه :

لقد غرّنى من جعفر حُسن بابه ... ولمْ أدْرِ أنَّ اللُّومَ حَشْوُ إهابه

ولست وإن بالغت فى مدح جعفر ... بأوّل إنسان خَرِى فى ثيابه

مدح أشجع لجعفر

وفى جعفر يقول أشجع السلمى يمدحه :

يُحِبُّ المُلوكُ نَدَى جَعْفَرٍ ... ولاَ يَصْنَعُونَ كما يَصْنَعُ

١٥ ولَيْسَ بأوسعهِمْ فِى الْغِنَى ... ولٰكِنَّ مَعْرُوفَهُ أوْسَعُ

وكَيْفَ يَنَالُونَ غَايَاتِهِ ... وَهُمْ يَجْمَعُونَ ولاَ يَجْمَعُ

عاب المأمون على ابن عباد سرفه فرد [٢٦٥] عليه بشعر أشجع فى جعفر

وحكى أن المأمون قال يومًا لمحمد بن عبّاد المهلّبى : بلغنى أن فيكَ سَرَفًا ؟ فقال : يأمير المؤمنين ، البُخْلُ مع الوجود سوء ظنّ بالله عزّ وجلّ ، وإنى لأهمّ بالإمساك ، فأذكر قول أشجع فى ٢٠ جعفر بن يحيى ، وذكر هذه الأبيات ؛ فأمر له بمئة ألف دينار ، فقال له : استعن بها على مروءتك .

(١) فى ديوان أبى نواس : « وإبلاء » .
(٢) » » » » « التصريح » .

ماجرى بين الرشيد وجعفر وقد رأى طول عنقه

وحكى أن الرشيد قام عن مجلسه يريد الدخول إلى بعض حجر قصره، وأن جعفرًا أسرع فرفع له الستر، وأن الرشيد جعل يتأمل عنقه تأملاً شديداً، فرآه جعفر وهو يتأمل، فقال له : ما مُتأمّل أمير المؤمنين ؟ قال : حسن عُنُقك، وحسن موقع الجُرُبّان منه ؛ فقال له : لا والله، ما تأملت إلا موضع سيفك فيه، فقال له : أعيذك بالله من هذا القول، واعتنقه وقبّله ؛ ثم قال للفضل بن الربيع : قاتل الله جعفرًا ! وذكر له هذا الخبر، وقال : ما تأملت عنقه إلا لموضع السيف منها .

تشاتم الفضل ابن الربيع وجعفر فى حضرة الرشيد

وتنازع الفضل بن الربيع وجعفر بن يحيى يومًا بحضرة الرشيد، فقال جعفر للفضل : يالقيط ؛ فقال له : أشهد يا أمير المؤمنين؛ فقال جعفر للرشيد: تُراه عند مَنْ يُقيمك هذا الجاهل شاهداً يا أمير المؤمنين، وأنت حاكم الحكام!

روى ابن مسعدة كلاما لجعفر عند ماصر معه بقصره

قال إسحاق بن سعد القُطْرُبُّلِيّ : أخبرنا عمر بن فرج ، قال :
[٢٦٦]
انصرفت مع عمرو بن مَسْعَدَة يومًا من الشَّمَّاسية، والمأمون بهافيز لأَلٍ لعَمْرو بن مَسْعدة، فلما صِرْنا بإزاء قصر جعفر ، قال عمرو : يأبا حفص، سرت أنا وجعفر يومًا كسيرنا هذا، فلما نظر إلى البناء قال لى : يأباالفضل، والله إنى لأعلم أنه ليس مِنْ بِناء مثلى، ولكن قلت : إن بقى لى فهو قصر جعفر، وإنْ شَرِه السلطان فى وقت من الأوقات فهو قصر جعفر ، وإن مضت عليه الأيام فهو قصر جعفر، ويبقى اسمه وذكره ، ولعله أن يمرّ به بعض من لنا عنده إحسان فيترحمَ علينا . قال عمروٌ : فوالله لكأن جعفراً كان ينظر إلى ما آلت إليه الحال فيه .

سبب بناء قصر جعفر

وحُكى أن السبب كان فى بناء هذا القصر أنّ متظلماً من أهل أصْبَهان تظلّم إلى يحيى بن خالد من عامله بها، فقال له : إنه ظلمنى وأساء معاملتى، وأخذ ما لا يجب له منى، وهدم شرفى ؛ فقال يحيى : قد عرفتُ

جميع ماتظلمت خَلاَ قولك « هَدَم شرق » فسِّر لى ذلك ؛ فقال له المتظلم :
أنا من بَنِى رَجُل كان بَنَى القصر المهدوم ، وكان ينسب إليه ، وكان الرائى
إذا رأى القصر وجلالته ، وعلم أنى من ولد البانى له ، عرف بذلك قديم
نعمتى ، وجلالة أوّلى . فاستحسن ذلك يحيى منه ، وقال للفضل وجعفر :
٥ لاشىء أبقى ذكراً من البناء ، فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكراً ؛ فاتخذ جعفر [٢٦٧]
قصره ، وكذلك الفضل ، وأمر يحيى بإنفاذ مُسْتحثّ مع المتظلم ، يطالب
العامل بإعادة بناء قصره ، وإنصافه من ظلامته .

سمع جعفر شعرا تطير به عندما أراد الانتقال إلى قصره

وحكى أن جعفراً لما عزم على الانتقال إلى قصره هذا ، جمع المنجمين
لاختيار وقت لينتقل فيه إليه ، فاختاروا له وقتاً من الليل ، فلما حضر
١٠ الوقت خرج على حِمار من الموضع الذى كان ينزله إلى قصره ، والطرق
خالية ، والناس ساكنون ، فلما سار إلى سوق يحيى رأى رجلا قائما
وهو يقول :

تَدَبَّرَ بالنجوم وليس يدرى   وربُّ النجم يفعَل ما يُرِيدُ

فاستوحش ووقف ، ودعا بالرجل ، فقال له : أعِدْ ما قلت ، فأعاده ؛ فقال
١٥ له : ما أردت بهذا ؟ قال والله ما أردت به معنى من المعانى ، ولكنه
شىء عرض لى ، وجاء على لسانى فى هذا الوقت . فأمر له بدنانير ،
ومضى وقد تنغَّص عليه سُرُوره .

كثر تظلم أهل مصر من موسى فبعث الرشيد إليهم عمر ابن مهران

وكان موسى بن عيسى الهاشمى يتقلد للرشيد مصر ، وكثر التظلم
منه ، واتصلت السِّعايات به ، وقيل إنه قد استكثر من العَبِيد والعُدَّة ؛
٢٠ فقال الرشيد ليحيى : اطلب لى رجلا كاتباً عفيفاً ، يكمل لمصر ، ويستر [٢٦٨]
خبره ، فلا يعلم موسى بن عيسى به حتى يفجأه ؛ قال : قد وجدته ؛ قال :

من هو ؟ قال عُمَرُ بن مِهْران ـ وكان عمر يكتب للخيزران ، ولم يكتب لغيرها قطّ ، وكان رجلا أحول من عينيه ، مُشَوَّه الخَلْق ، خسيس[1] ـ اللِّباس ، فأمر بإحضاره ، قال عَمْرُ بن مِهْران : فلقيت يحيى بن خالد ، فعرّفنى ما جرى ، وراح بى إلى دار الرشيد ، فلما صلَّى المغرب دعانى ، فوصلت إليه وهو خالٍ ، و بين يديه يحيى بن خالد ، فاستدنانى ، ونَحَّى الغلمان ، ٥
وأعلمنى ما نَدَبَنى إليه ، وأمرنى أن أستر خبرى ، حتى أفاجئَ موسى ابن عيسى ، فأتسلّم العمل منه ؟ فأعلمته أنه لا يقرأ لى ذكراً فى كتب أصحاب الأخبار حتى أوافِىَ مصر . ثم كتب لى كتاباً بخطه إلى موسى ابن عيسى بالتسليم ، وودّعت يحيى ، وعُدت إلى منزلى ، فخرجت منْه من غَدٍ بَكَراً على بغلة ، ومعى غلام أسود ، يقال له أبو دُرَّة ، على بغل ١٠
استأجرته ، معه خرج فيه قميص ومُبَطَّنة وطيلسان وشاشيّة وخُفّ ومفرش صغير ، واكتريت لثلاثة من أصحابى أثق بهم ، ثلاثة أبْغُل مُياومة ، وأظهرت أننى وُجّهت ناظراً فى أمور بعض العُمّال ، حتى بلغت الأنبار ، ثم تجاوزتها بلداً بلداً ، كلما وردت بلداً توهم مَنْ معى أنّى قصدته ، وليس [٢٦٩]
يعرف خبرى أحد من أهْل البُلدان التى أمرُّ بها فى نزولى ونفوذى ، حتى ١٥
وافيت الفُسْطاط ، فنزلت جَناناً[2] ، وخرجت منه وحدى فى زِىّ مُتظَلِّم أو تاجر ، فدخلت دار الإمارة وديوان البلد و بيت المال ، وسألت و بحثت عن الأخبار ، وجلست مع المتظلّمين وغيرهم ، فمكثت ثلاثة أيام أفعل ذلك ، حتى عرفت جميع ما احتجت إليه ، فلما نام الناس فى ليلة اليوم الرابع دعوت أصحابى ، فقلت للذى أردت استكتابه على الديوان قد رأيت ٢٠
مصر ، وقد استكتبتك على الديوان ، فبكِّر إليه ، فاجلس فيه ، فإذا سمعت

(١) فى الأصل : « حسن اللباس » وفى الطبرى : « خسيس اللباس » وهو موافق لما وصف به ابن مهران من قبح المظهر .
(٢) الجنان : ما استترك من شىء ، يريد : نزلت مكانا استترت فيه .

الحركة فاقبض على الكاتب ، ووكّل به و بالكتاب والأعمال ، ولا يخرج
من الديوان أحد حتى أوافيك ، ودعوت بآخر ، فقلّدته بيت المال ، وأمرته
بمثل ذلك ، وكان بيت المال فى دار الإمارة ، وقلدت الآخر عملا من
الأعمال بالحضرة ، وأمرتهم أن يبكّروا ، ولا يظهروا أنفسهم حتى يسمعوا
٥ الحركة ، و بكّرت فلبست ثيابى ، ووضعت الشّاشيّة على رأسى ، ومضيت
إلى دار الإمارة ، فأذن موسى للناس إذناً عامًّا ، فدخلت فيمن دخل ، فإذا
موسى على فُرُش ، والقواد وُقُوف عن يمينه وشماله ، والناس يدخلون فيسلمون [٢٧٠]
و يخرجون ، وأنا جالس بحيث يرانى ، وحاجبه ساعةً بساعة يُقيمنى و يقول
لى : تكلّم بحاجتك ، فأعتلّ عليه ، حتى خفّ الناس ، فدنوت منه ،
١٠ وأخرجت إليه كتاب الرشيد ، فقبّله ، ووضعه على عينه ، ثم قرأه ،
فامتُقع لونه ، وقال : السمع والطاعة ، تُقْرِئ أبا حَفْص السلام ، وتقول
له : ينبغى أن تقيم بموضعك ، حتى نُعِدّ لك منزلاً يشبهك ، و يخرج غداً
أصحابنا يستقبلونك ، فتدخل مدخل مثلك ؛ قال : فقلت له : أنا أعزّك الله
عُمَرُ بن مِهْران ، وقد أمرنى أمير المؤمنين بإقامتك للناس ، و إنصاف المظلوم
١٥ منك ، وأنا فاعل ذلك ، فمن أوضح ظُلامته ، ووجب له عليك حقّ ، غَرِمتُه
عنك من مالى ، ومن وجدته كاذبًا عاملته بحسب ما يستحقه ؛ فقال لى
موسى : أنت عُمَرُ بن مِهْران ؟ قلت : نعم ، فقال : لعن الله فرعون
حيث يقول : «أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ! » واضطرب الصوت فى الدار ،
فقبض كاتبى على الديوان ، وصاحبى الآخر على بيت المال ، وختما عليهما ،
٢٠ ووردت عليه رقاع أصحاب أخباره بذلك ، فنزل عن فُرُشه ، وقال :
لا إله إلا الله ، هكذا تقوم الساعة ! ما ظننت أن أحداً بلغ من الحزم والحيلة

[٢٧١] ما بلغتَ ، قد تسلّمتَ الأعمال وأنت فى مجلسى ! ثم نهضتُ إلى الديوان ، فقطعت أمور المتظلمين منه ، وأزلت ظلاماتهم وقطعتُها ، وأحسنت إلى موسى ابن عيسى ، وانصرفت من مصر على بغلتى التى دخلتها عليها ، ومعى غلامى الأسود ، ولم أزد على ذلك شيئاً ، وكان ذلك فى سنة ست وسبعين ومئة .

معاملة عمر لرجل ألط فى أداء الخراج

٥ وكان بمصر قوم يدافعون[1] بالخراج ، ويكسرون بعضه ، فأحضر عُمَرُ أشدهم مدافعة وإِلْطَاطاً ، فطالبه ، فاستمهله مــدّة فأمهله ، ثم طالبه ثانية ، فاستمهله ، فأمهله مدّة ، ثم فعل ذلك فى الثالثة ، فلما حل الأجل دافعه أيضاً ، فحلف بأيمان موكدة أنه لايستأديه إلا فى بيت المال بمدينة السلام ، ثم أشخصه إلى الرشيد ، وكتب إليه بخبره ، فبذل له ١٠ الرجل أداء المال ، فأبى عليه أن يَقْبِضَه منه ، وأقام على ألاّ يُؤديه إلا فى بيت المال : فخاف الناس جميعاً منه مثل ذلك ، وسارعوا إلى الأدَاء ، فلم يتكسر له ، ولا تخلف درهم واحدٌ .

شىء من حزم عمر وعفته

وحكى أنه قال لغلامه أبى دُرَّة . وقد أهدى له أهل مصر هدايا كثيرة ، لا تقبل منها إلا مايدخل فى جراب ، لاتقبل حيواناً[2] ؛ فقبل من هدايا ١٥ الناس الثياب والطيب والعَيْن والورِق ، وجعل يَعْزِل كلّ هدية على [٢٧٢] حِدَتها ، ويكتب عليها اسم صاحبها ، وجَدّ فى استخراج مال مصر ، فزجا[3] منه نجمان ، وتأخر النجم الثالث ، وَتَلَجَ[4] أصحابه ، فجمعهم وقال لهم : إنى قد حَفظت عليكم ما أهديتموه إلىّ ، وأمر بإحضاره وإحضار الجِهْبِذ ،

(١) فى الأصل : « يدفعون » ولكنّ المؤلف استعمل بعد ذلك بقليل الفعل ٢٠ « دافع » والمصدر « مدافعة » ، وهما قرينتان على أن الأصلح لهذا المقام « يدافعون » .
(٢) فى الأصل : لايقبل : وفى الطبرى : «لاتقبل من الهدايا الا مايدخل فى الجراب ، لاتقبل دابة ولا جارية ولا غلاما » .
(٣) زجا الخراج : تيسر جبايته ،
٢٥ (٤) يقال : ثلجت نفسه : اطمأنت .

فما كان من عَيْن أو وَرِق أجْزأه عن أهداه إليه ، وما كان من ثوب أو غيره باعه وأخذ ثمنه ، حتى استغرق الهدايا كلّها ، ونظر فيما بقى بعد ذلك،فطالب به ، فسارع الناس إلى الأداء ؛ فيقال إنه عقد جماعة مصر من غير أن يبقَى فيها درهم ، ولم يُعْهَد ذلك من قبله .

كتاب من الخيزران إلى كاتبها ابن مهران تنكر عليه كثرة اعتداده

٥ وكتب عُمَر بن مِهْران إلى الخيزران بما كان منه ، وأكثرالاعتداد ، فكتبت إليه: قد وصل كتابك تذكر وتذكر ، ولا تستكثرنّ شيئاً يكون منك ، واستَدِم أحسنَ ما أنت عليه يدمْ أحسن ما عندى لك ، وأعلم أنه قلّ شيء لم يزد إلا نقص ، والنقصان يمحق الكثير ، كما يَنمِى على الزيادة القليل .

عمر بن مهران والهيثم بن مطهر

١٠ وكان عمر بن مِهْران، وهو يكتب للخيزران ، فى ديوانها فى بعض الأيام، فحضر الهيثم بن مطهَّر الفأفاء الشاعر بابَها ، فوقف على دابته ينتظر الإذن، فبعث إليه عُمَر : أنزل عن دابتك ، فقد جاء فى الحديث الكراهة لهذا ؛ فقال : أنا رجل أعرج ، وإن خرج من أنتظره خِفْت أن يفوتنى ولا أدركه ؛ فبعث إليه : إن نزلت وإلا أنزلناك ؛ فقال : هو حبس فى ١٥ سبيل الله إن أقضمته شعيراً شهراً إن أنزلتنى عنه ، فأيُّما خير له : كدُّ ساعة ، أو جوع شهر ؟ فقال : هذا شيطان ، وكف عنه .

[٢٧٣]

ما أمر به ابن مهران أن يكتب على الرشوم

وكان عمر بن مِهْران يأمر الوكلاء والعمّال الذين يعملون معه أن يكتبوا على الرُّشُوم التى يرشُمون بها الطَّعَام : اللهم احفظه ممن يحفظه .

حج الرشيد وابناه محمد وعبد الله فأعطوا أعطية ثلاثة

ثم حجّ الرشيد ، وحجّ معه ابناه محمد وعبد الله ، وحجّ معه يحيى ٢٠ والفضل وجعفر ، فلما صار بالمدينة جلس ومعه يحيى ، فأعطى أهلَها العطاء ، ثم جلس محمد بعده ومعه الفضل بن يحيى ، فأعطاهم العطاء ، ثم جلس بعده عبد الله ومعه جعفر ، فأعطاهم العطاء ، فأعطوا فى تلك السنة ثلاثة أعطية ،

فكان أهل المدينة يسمون ذلك العام عام الثلاثة الأعطية ، ولم يروا مثل ذلك قط إلا فى أيام البرامكة .

حلف محمد فى البيت لنصرة أخيه وقصة ذلك [٢٧٤]

وكان جعفر بن يحيى طالب محمداً لما حلف المأمون فى البيت الحرام أن يقول : خذلنى الله إن خذلته ؛ فقال ذلك ثلاث مرات . فحكى الفضل ابن الربيع ، فيما حدّث ميمون بن هارون . أن محمداً قال فى ذلك الوقت عند ٥ خروجه من بيت الله: يا أبا العباس،هو ذا أجدُ من نفسي أن أمرى لا يتمّ ؛ فقال له ولم ذاك أعزّ الله الأمير ؟ قال : لأنى كنت أحلف وأنا أنوى الغدر؛ فقلت له . سبحان الله ! أفى هذا الموضع! فقال لى : هو ما قلت لك .

وفرغ الرشيد من توكيد ماقصد له من بيعة ابنيه ، وأخذ الأيمان لكلّ واحد منهما على صاحبه ، وعلى الناس لهما . ١٠

ما كان يدعو به يحيى عند حجه

قال موسى بن يحيى : خرج أبى إلى الطّواف وأنا معه من بين ولده ، فجعل يتعلّق بأستار الكعبة ، ويردّد هذا الدعاء : اللهم إنّ ذنوبى جَمّة لا يحصيها غيرك ، ولا يعرفها سواك ؛ اللهم إن كنت معاقبى فاجعل عقوبتى فى هذه الدنيا ، وإن أحاط ذاك بسمعى وبصرى ، ومالى وولدى ، حتى تبلغ منى رضاك . ١٥

طلب الرشيد منصور بن زياد بدين عليه فأغنه يحيى وحديث ذلك

وعلّق الرشيد الكتبَ فى البيت الحرام، وانصرف، فنزل الأنبار، ودعا الرشيد صالحاً صاحب المُصَلَّى حين تنكّر للبرامكة ، فقال له : أخرج إلى منصور بن زياد فقل له : قد صحّت عليك عشرةُ آلاف ألف درهم ، فاحملها

[٢٧٥]

إلىّ فى يومك هذا ، فإن هو دفعها إليك كاملة قبل مغيب الشمس من يومك هذا ، وإلا فاحمل رأسه إلىّ ، وإياك ومراجعتى فى شىء من أمره . ٢٠ قال صالح : فخرجت إلى منصور ، وهو فى الدار ، فعرّفته الخبر ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ذهبت والله نفسى ! ثم حلف أنه لا يعرف

موضع ثلاث مئة ألف درهم ، فكيف عشرة آلاف ألف درهم ؟ فقال له
صالح : خذ فى عملك ؛ فقال له : أمض بى إلى منزلى ، حتى أوصى وأتقدم
فى أمرى . فمضى ، فما هو إلا أن دخل ، حتى ارتفع الصّراخ من منازله
وحُجر نسائه ، فأوصى وخرج وما فيه لحم ولا دم ؛ فقال لصالح امض
٥ بنا إلى أبى علىّ يحيى بن خالد ، لعلّ الله أن يأتينا بفرج من جهته ،
فمضى معه ، فدخل على يحيى وهو يبكى ؛ فقال يحيى : ما وراءك ؟ فقصّ
عليه القصة ، فقلق يحيى بأمره ، وأطرق مفكراً ، ثم دعا خازنه ، فقال له :
كم عندك من المال ؟ قال : خمسة آلاف ألف درهم ؛ قال : أحضرنى
مفاتيحها ، فأحضرها ، ثم وجه إلى الفضل : إنك أعلمتنى أن عندك ، فداك
١٠ أبواك ، ألفَى ألف درهم ، قدّرت أن تشترى بها ضيعة ، وقد أصبت لك
ضيعة يبقى ذكرها وشكرها ، وتحمَد ثمرتها ، فوجِّه إلينا بالمال ؛ فوجّهَ
به . ثم قال للرسول : أمض إلى جعفر ، فقل له : ابعث إلىّ ، فداك [٢٧٦]
أبوك ، ألف ألف درهم ، لِحَقّ لزمنى ؛ فوجّه إليه ؛ فقال لصالح : هذه ثمانية
آلاف ألف درهم ، ثم أطرق إطراقة لأنه لم يكن بقى عنده شىء ، ثم
١٥ رفع رأسه إلى خادم على رأسه ، وقال : امض إلى دنانير، فقل
لها : وجِّهى إلىّ بالعقد الذى كان أمير المؤمنين وهبك إياه . فجاء به ،
فإذا عِقْد كعظم الذّراع . فقال لصالح : اشتريت هذا لأمير المؤمنين بمئة
ألف وعشرين ألف دينار ، فوهبه لدنانير ، وقد حسبناه عليك بألفى
ألف درهم ؛ وهذا تمام المال ، فانصرف وخلّ عن صاحبنا . قال
٢٠ صالح : فأخذت ، ذلك ورددت منصوراً معى ، فلما صرنا بالباب أنشد
منصور متمثلا :

فما حُبّا علىّ تركتمانى ولكنْ خِفْتُما صَرْدَ النِّبَالِ

فقال صالح : ما على ظهر الأرض كلها رجل هو أنبل من رجل خرجنا من عنده ، ولا سمعت بمثله فيمن مضى ، ولا يكون مثله فيمن بقى ؛ ولا على ظهر الأرض رجل أخبث سريرة ، ولا أردأ طبعاً من هذا النبطىّ ، إذ لم يشكر من أحياه . قال : وصرت إلى الرشيد فقصصتُ عليه قصة المال ، [٢٧٧] وطويت عنه ماقال منصور بن زياد ، لأنى خفت إن سمعه أن يقتله ؛ فقال لى الرشيد : أما إنى قد علمت أنه إن نجا لم يَنْجُ إلا بأهل هذا البيت . ٥ وقال : اقبض المال ، واردد العقد على دنانير ، فإنى لم أكن لأهب هبة وترجع إلىّ . قال صالح : فلم أطب نفساً بترك تعريف يحيى ما قاله منصور ، فقلت لما رأيته ، بعد أن أطنبت فى شكره ، ووصف ما كان منه : ولقد أنعمت على غير شاكر ، قابل أكرم فضل بألأم قول ؛ قال : وكيف ذاك ؟ فأخبرته بما قال وما كان منه ، فجعل والله يطلب له المعاذير ، ويقول : يا أبا علىّ ، ١٠ إن المنخوب القلب ربما سبقه لسان بما ليس فى ضميره ، وقد كان الرجل فى حال عظيم ؛ فقلت : والله ما أدرى من أىّ أمريك أعجب ! أمن الأول أم من الثانى ؟ ولكنى أعلم أن الدهر لا يخلف مثلك أبداً .

هجا أبو الشمقمق منصورا لبخله

وكان أبو الشَّمَقْمق صار إلى منصور بن زياد يسأله أن يَبَرّه ، وكان منصور ضَيّقاً بخيلا ، فوهب له عشرة الدراهم ، وبلغ الخبر محمدبن منصور ، ١٥ فأرسل إليه محمد بمئة درهم ، وأمره بالعودة إليه ليَبَرّه ، فأخذها وقام وهو يقول :

[٢٧٨] لوّلا ابن منصور وإفضاله سلحت فى لحية منصور

فبلغ ذلك محمداً فقال : إنما خفنا هذا ، وما أفلتنا منه .

تخوف يحيى على جعفر من دخوله مع الرشيد فى كل شىء

وكان جعفر يساعد الرشيد على كل شىء ، وكان يحيى يعْتُب على جعفر ٢٠ من دخوله مع الرشيد فيما يدخله فيه ، ويتخوف عليه من عاقبته ، فذكر أن يحيى كتب إلى جعفر يوماً فى شىء عَتَبَ عليه منه من هذا الجنس :

« إنى إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك ، وإن كنت أخشى أن تكون التى لا تَشَرْوى لها » .

وقال يحيى لهارون غير مرّة :

يأمير المؤمنين ، إنى أكره مداخل جعفر ، ولست آمن أن ترجع

٥ العاقبة علىّ فى ذلك منك ، فلوأعفيته ، واقتصرت على ما يتولاه من جسيم أعمالك ، لكان أحبّ إلىّ ، وأولى بتفضلك ، وآمن عليه عندى ؛ فقال له الرشيد : ليس بك هذا ، ولكن بك أن تقدّم عليه الفضل . وكان الفضل لايشرب النبيذ ، فظن الرشيد أنه يَتيه عليه ، فكان يَعْتُب عليه .

مدح الرشيد وأم جعفر يحيى ثم ذماه وكان جبريل حاضرا فبلغ يحيى [٢٧٩]

حدثنى أبو الفرج محمد بن جعفر بن حفص ، قال : حدثنى أبى ، قال

١٠ حدثنى بَخْتَيْشُوع بن جِبْريل ، قال : حدثنى أبى ، وكان صنيعة البرامكة :

أنه دخل على الرشيد يوماً وهو جالس على بِساط ، على مَشْرَعة باب خُراسان ، فيما بين الخُلْد[1] والفرات ، وأم جعفر من وراء سِتْر ، فقال لى : قدْ وجَدَت أمُّ جعفر شيئا ، فأشِرْ عليها بما تعمل به ؛ قال : فبينا أنا أنظر فى ذلك ارتفعت صيحة عظيمة ، فسأل عنها ، فقيل له : يحيى

١٥ ابن خالد ينظر فى أمور المتظلّمين ؛ فقال : بارك الله عليه ، وأحسن جزاءه ، فقد خفّف عنى ، وحمل الثِّقْل دونى ، وناب منابى ، وذكره بجميل ؛ فعلتْ مثلَ ذلك أمُّ جعفر ، ولم تدعْ شيئاً يذكُرُه أحد من جميل إلاّ ذكرته به . فامتلأتُ سروراً ، وقلت فى ذلك ما أمكننى ، وخرجت مبادراً إلى يحيى بن خالد ، فخبرته بذلك ، فسُرّ به . ومضت

(١) الخلد : قصر المنصور .

مدة ؛ ثم جاءنى رسول الرشيد يوماً ، فصرت إليه ، فوجدته جالساً فى
ذلك المجلس بعينه ، وأم جعفر من وراء الستر أيضا ، والفضل بن الربيع
بين يديه ، وقد وَجَدَت أم جعفر شيئا ، فأمرنى بتأمل علّتها ؛ والمشورة بما
أراه عليها ؛ فإنى لفى ذلك إذ ارتفعت ضجة شديدة ، فقال الرشيد :
ما هذا ؟ قيل : يحيى بن خالد ينظر فى أمور المتظلمين ؛ فقال : فعل الله به ٥
[٢٨٠] وفعل ! يذمه ويَسُبُّه ، استبدّ بالأمور دونى ، وأمضاها على غير رأيى ،
وعمل بما أحبَّه دون محبَّتى ؛ وتكلمت أم جعفر بنحو من كلامه ، وثلبته
أكثر ما يُثلب به أحد . فورد علىّ من ذلك ما أقام وأقعد ؛ ثم أقبل علىّ
الرشيدُ ، فقال لى : يا جبريل ، إنه لم يسمع كلامى غيرك وغير الفضل ،
وليس الفضل ممن يحكى شيئاً منه ، وعلىّ وعلىّ لئن تجاوزك لأُتلِفَنَّ ١٠
نفسك ؛ قال : فتبرأت عنده من ذكره ، وأكبرت الإقدام على حكاية
شىء منه ، ومما يجرى فى مجلسه ، وانصرفت ؛ فلم أصبر ، وقلت : والله
إن تلِفَت نفسى فى الوفاء لم أبال ، وصرت إلى يحيى ، فعرّفته ما جرى ؛
فقال لى : أتذكر وقد جئتنى فى يوم كذا من شهر كذا ، وأنا فى هـذا
الموضع ، فحكيت لى عن أمير المؤمنين الإحماد والثناء ، والشكر والدعاء ، ١٥
وعن أم جعفر مثل ذلك ؟ فقلت : نعم ، وعجبتُ من حفظه الوقت ؛ فقال
لى : إنه لم يكن منّى فى هذه الحال التى ذمّنى فيها شىء لم يكن منى فى
ذلك الوقت الذى أحمدنى فيه ، ولكن المدّة إذا آذَنَتْ بالانقضاء جعلت
[٢٨١] المحاسن مساوىَ ، ومن أراد أن يتجنّى قدر، نسأله حسنَ الاختيار .

اعتراف جبريل بفضل يحيى

وكان جبريل بن بختيشوع صنيعة البرامكة ، وكان يقول للمأمون ٢٠

كثيراً : هذه النعمة لم أفدها منك ولا من أبيك ، هذه أفدتها من يحيى ابن خالد وولده .

غضب الرشيد على الفضل ثم رضاه عنه

وصرف الرشيدُ الفضلَ بن يحيى عن الأعمال التى كان يتقلّدها أوّلاً أوّلاً ، ثم ظهر من الرشيد فى سنة ثلاث وثمانين ومئة سخط على الفضل ابن يحيى ، فشخَص إليه إلى الرَّقَّة ، ومعه أمه زبيدة بنت منير ، فرضى عنه ، وأقرّه مع الأمين لحضانته ، ولم يردّ إليه شيئاً من أعماله .

أحس يحيى إعراض الرشيد عنه فشاور صديقا له

ولما أحسّ يحيى من الرشيد بالتغير ، ركب إلى صديق له من الهاشميين فشاوره فى أمره ، فقال : إن أمير المؤمنين قد أحب جمع المال ، وقد كثر ولده ، فأحب أن يعتقد لهم الضِّياع ، وقد كَثُر على أصحابك عنده ، فلو نظرت إلى ما فى أيديهم من ضياع وأموال ، فجعلتها لولد أمير المؤمنين ، وتقرّبت بها إليه ، رجوت لك السلامة ولهم فى ذلك من مكروهه ؛ فقال يحيى : ياأخى ، جعلنى الله فداك ، لأَنْ تزول عنى النعمة أحب إلىّ من أن أزيلها عن قوم كنت سبباً لهم .

[٢٨٢]

انصرف يحيى عن باب الرشيد بعد ماهم بالدخول عليه فعاتبه فتمثل بكلام لعلى

ودخل يحيى على الرشيد لما ابتدأت حالُه فى الفساد وهو خالٍ ، فرَجَع ، فعُرِّف خَبَرَه ؛ فقال لبعض الخدم : الحقْ يحيى فقل له : خنتنى فاتهمتنى ؟ فقال للرسول : تقول له : ياأمير المؤمنين ، إذا انقضت المدة كان الحتف فى الحيلة ، ووالله ما انصرفت عن خلوتك إلا تخفيفاً عنك .

وهذا كلام لعلى بن أبى طالب ، كرّم الله مثواه : إذا انقضت المُدّة كان الهلاك فى العُدّة . وسرق هذا المعنى ابن الرُّومىّ فقال :

غَلِطَ الطَّبيبُ عَلَيَّ غَلْطَةَ مُوردٍ عَجَزَتْ مَحالَتُهُ عَنِ الإِصْدارِ

والناسُ يَلْحَوْن الطبيبَ وَإِنَّمَا غَلَطُ الطَّبيبِ إصابَةُ المقدارِ

شكا الرشيد إلى يحيي تقصير ابنه الفضل في جمع الأموال بعد ما عزله عن خراسان فأجابه

وكان الرشيد بعد صَرْف الفضل بن يحيي عن خراسان قلّد عليّ بن عيسى ابن ماهان، لتكثير وقع عنده على الفضل في الأموال ، فقتل عليُّ بن عيسى وُجُوهَ أهل خراسان وملوكها ، وجمع أموالاً جليلة ، فحمل إلى الرشيد ألف بَدْرة معمولة من ألوان الحرير ، وفيها عشرة آلاف ألف درهم ؛ فلما ٥ وصلت إليه سُرّ بها ، وأحضر يحيي بن خالد ، فقال له : يا أبه ، أين كان الفضل عن هذا ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، إن خراسان سبيلها أن تُحْمَلَ إليها [٢٨٣] الأموال . ولا تُحْمَل منها ، والفضل أصلح نيات رؤسائها ، واستجلب طاعتهم ،وعليّ بن عيسى قتل صناديد أهل خراسان وطَراخِنتها[1] ، وحمل أموالهم ، ولو قصدت لدَرْب من درُوب الصيارف بالكَرْخ ، لوجدت فيه ١٠ أضعاف هذه ، وسيُنفق أميرُ المؤمنين مكان كلّ درهم منها عشرة ؛ فثقل هذا القول منه على الرشيد ، فلما انتقض أمر خراسان ، وخرج رافع ابن الليث ، واحتاج إلى النهوض إليها بنفســه ، حتى صار إلى ، طوس جعل يتذكّر هذا الحديث ، ويقول : صدقني والله يحيي ونَصح لي فلم أقبل منه . والله لقد أنفقت مئة ألف ألف وما بلغت شيئا . ١٥

مثل من حسن سياسة خالد أيام عبد الملك

وذكرت بهذا الحديث ما حُكِي عن عبدالملك بن مروان في أمر الحجّاج: وذلك أنه كان الحجاج حمل إلى عبد الملك هدية ومالاً عظيما كثيراً، وهو بحِمْص ، فأبرز سريرَه وجمع الناس ، وكان فيمن حضر خالد وأمية ، ابنا عبد الله بن أسيد ؛ فلما نظر إلى الهديّة والمـال قال : هذه [٢٨٤] والله الأمانة والحزم والنصيحة ؛ ثم أشار إلى خالد بن عبد الله بن خالد ٢٠ ابن أسيد ، فقال : إني استعملت هذا على البصرة ، فاستعمل كلّ فاسق ،

(١) الطراخنة : جمع طرخان (بالفتح) ، وهو اسم للرئيس الشريف ، خراسانية .

فجبى عشرة ، واختان تسعة ، ورفع إلىّ هذا درهما ، فدفع إلىّ هذا من الدرهم سُدْساً ؛ واستعملت هذا ـ يعنى أخاه ـ على خُراسان وسِجِسْتان، فبعث إلىّ بمفتاح من ذهب ، زعم أنه مفتاح مدينة، وفيلٍ وبِرْذونين حَطِمين[1] ؛ واستعملت الحجّاج ، ففعل كذا ، فإذا استعملتكم ضيّعتم ، وإذا عزلتكم

٥ قلتم : قطع أرحامنا ؛ قال : فأراح خالد إراحة الفرس، ثم قال : استعملتنى على البصرة وأهلها رجلان : مطيع مناصح ، ومخالف مشاحّ ، فأما المطيع فإنى جزيته بطاعته ، فازداد رغبة ، وأما المخالف فإنى داويت عداوته ، واستللت ضغينته ، وحشوت صدره وُدّاً ، وعلمت أنى متى أصلح الرجال أجْبِ الأموال ؛ واستعملت الحجاج فجبى لك المال ، وكنز العداوة فى

١٠ قلوب الرجال ، فكأنك بالعداوة التى كنزها قد ثارت وأنفقت الأموال ، ولا مال ولا رجال ؛ فسكت عبد الملك . فلما كان هَيْج الجاجم جلس [٢٨٥] عبد الملك على باب ذى الأكارع ومعه خالد يندب الناس إلى الفريضة ، ويتأمل خالداً ويذكر قوله ويضحك .

يحيى ينهى الرشيد عن هدم إيوان كسرى

وأمر الرشيد يحيى بن خالد بالتقدم فى هَدْم إيوان كِسرى ، فقال :

١٥ لا تهدم بناء دلّ على فخامة شـأن بانيه الذى غلبتَه وأخذت ملكه ؛ قال : هذا من مَيْلك إلى المجوس ، لابدّ من هَدْمه . فقُدِّر للنفقة على هدمه شىء استكثره الرشيد ، وأمر بترك هدمه ؛ فقال له يحيى : لم يكن ينْبغى لك أن تأمر بهدمه ، وإذ قد أمرت فليس يحسن بك أن تُظهر عجزاً عن هدم بناء بناه عدوك ؛ فلم يقبل قوله ولم يهدمه .

شىء عن الفضل بن سهل

٢٠ وكان الفضل بن سَهْل بن زاذانفروخ من قرية من السَّيب[2] الأعلى، تعرف بصابَرْنيثا[3] ، وكان له عمّ يدعى يزيد بن زاذانفروخ، فتوكل يزيد

(١) فى الأصل « حطيمين » وفى العقد الفريد : « حطمين » ، قال فى اللسان : فرس حطم : إذا هزل وأسن فضعف .

(٢) السيب : كورة من سواد الكوفة ، وهما سيبان ، أعلى وأسفل . (راجع

٢٥ معجم البلدان) .

(٣) كذا فى معجم البلدان . وفى الأصل : « صابرشا » وهو تحريف .

بجارية لعاصم بن صُبَيح ، مولى داود بن علىّ بالسَّيب ، وكان ليزيد ولأهله بالسَّيب ضيعة و بيت ، فأحسن القيام بهما(١) ، وبما توكل فيه ، ووفَّر ماله ، وحظى عند صاحبته حظوة شديدة ؛ فاتهمهُ عاصم لما رأى من إفراط حظوته ، فدَعا به وهو سكران ، فضربه ضربة بالسيف [٢٨٦] مات منها ، ووكل بضيعته ومنزله . فصار سهل بن زاذانفروخ أخوه إلى باب يحيى بن خالد متظلما من عاصم بن صُبيح فى أمر ضيعته ومنزله ، ومطالباً بدم أخيه ، وهو مجوسىّ بعد ، فاتصل بسلاّم بن الفرج ، مولى يحيى ابن خالد، معتصِمًا به ، ومستعيناً بيده على ظلامته ، فحماه وأنفذ معه مولى له ، يقال له مرشد الدَّيلمى فى جماعة ، حتى انتزع الضيعة والمنزل من يدى وكيل عاصم ، وأقرّ ذلك فى يدَىْ سهل، وحاطولده وأسبابه ؛ وأسلم سهل ابن زاذانفروخ على يدى سلاّم وتظلّم عاصم بن صُبيح إلى يحيى بن خالد من سلاّم، فدعا به ، وأنكر عليه ، فاقتصّ عليه القصة ، وأحضره سهلاً حتى قام بحجته ، فتبيّن أن الحقّ له ، فعاونه عليه ، وكفّ عاصماً عنه . ولم يزل سلام يذبُّ عنه ، ويقوم بأمر ضيعته ، وسهل يخدمه ويلزمه ، حتى خالط أسبابَ البرامكة ، فأحضر ابنيه الفضل والحسن ، فاتصل الفضل ابن سهل بالفضل بن جعفر وتقلد قَهْرَمته ، واتصل الحسن بن سهل بالعباس بن الفضل بن يحيى وخدَماهما ، وعرَفهما يحيى بن خالد ، ورعى لهما ولايتهما ، وكان يحافظ على يسير الخدمة ، فنقل الفضل بن سهل ليحيى [٢٨٧] كتابًا من الفارسيّة إلى العربيّة ، فأعجب بفهمه ، وبجَوْدة عبارته ، فقال له : إنى أراك ذكيًا ، وستبلغ مبلغاً رفيعاً ، فأسْلِمْ حتى أجد السبيل إلى إدخالك فى أمورنا ، والإحسان إليك ؛ فقال : نعم ، أصلح الله الوزير ،

(١) فى الأصل « بها » .

أسلِمُ على يديك ؛ فقال له يحيى : لا ، ولكن أضمك موضعا تنال به حظًّا من دنيانا ، ودعا بسلاّم مولاه ، فقال : خذ بيد هذا الفتى ، وامض به إلى جعفر ، وقل له يُدخله إلى المأمون ، وكان فى حجر جعفر ، حتى يُسلم على يديه ، فأدخله جعفر إلى المأمون ، فأسلم على يديه ، فوصله وأحسن ٥ إليه ، وأجرى عليه رزقاً مع حشَمه ، ولم يزل ملازما للفضل بن جعفر حتى أصيب البرامكة ، فلزم المأمون

اختار يحيى الفضل بن سهل فرشيد فسر به

ووجدت بخط أبى علىّ أحمد بن إسماعيل نَطَّاحَة :

أن جعفر بن يحيى لما عزم على استخدام الفضل بن سهل للمأمون ، قرّظه يحيى بن خالد بحضرة الرشيد ؛ فقال له الرشيد : أوْصله إلىّ . ١٠ فلما وصل إليه أدركته حيرة فسكت ، فنظر الرشيد إلى يحيى نظرة مُنكر لاختياره ؛ فقال له الفضل : يأمير المؤمنين ، إن أعدل الشواهد على فراهة الملوك أن تملك قلبه هيبة سيده ؛ فقال له الرشيد : لئن كنت سكتّ [٢٨٨] لتصوغ هذا الكلام ، لقد أحسنت ، ولئن كان بديهة لهو أحسن وأحسن .

ولم يسأله بعد ذلك عن شىء إلا أجابه بما يصدّق تقريظَ يحيى له .

شىء عن الفضل بن سهل

١٥ وذكر الفضل بن مروان أنه كان بالبَرَدَان ، وكان معه إسحاق ابن سُورِين ، قال : فمرّ بنا الفضلُ بن جعفر بن يحيى بن خالد على فرس عُرْىٍ ، وعليه جُبّة وشْى ، وهو بغير سراويل ، ولا خفّ ، و بيده سيف مُشَهَّر ، وخلفه مجوسىّ طويل العُنق ؛ فوقف المجوسىّ علينا ، فاستسقى ماء ، فأُتى بماء فى كوز خزف أخضر ، فقال المجوسى إنكاراً للكوز ٢٠ الخزف : أوشك أن تذهب الدهقنةُ حتى لا يبقى لشىء منها أثر ! أين الفضة ؟ فقال له إسحاق : حظرها الإسلام ؛ قال : فأين الزجاج ؟ قال :

منع منه غلظ الهواء ، فأخذ الكوز ، فشربه ، ثم قال له إسحاق : أماترى إلى صاحبكم هذا ما يصنع بنفسه ؟ فقال : اجتمع له سكر الشباب ، وسكر الشراب ، وسكر السلطان ، وسكر الجِدَة ، وسكر السخاء ، ومضى يتبعه ، فسألنا عنه ، فقيل : هذا الفضل بن سهل كاتبه .

كلمة في الزهد لمحمد بن علي [٢٨٩]

٥ وقد حُكى مثل هذا الكلام عن محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس فى آل مَرْوان ؛ حَدَّث علىّ بن عيسى ، قال :

كنا بالشَّراة[1] ، وكنا نرى مافيه آل مروان من دنياهم ، فنذكر ذلك لأخينا محمد بن علىّ ، فيعزّينا عنه ، ويقول : إذا اجتمع سكر الشباب وسكر السلطان وسكر المال لم يبقَ من القلب شىء .

ثناء يحيى بن خالد على الفضل بن سهل

١٠ وذكر أبو العلاء المَذَارِى[2] أنه سمع الفضل بن سهل يقول :

قال لى يحيى بن خالد : فى كلّ أربعين سنة يحدُث رجل يجدّد الله به دولة ، وأنت عندى منهم .

ابن مساور وهجاء أبي الشمقمق له

وكان عمر بن مُساور الكاتب فى ناحية البرامكة ، وكان فى ناحية الفضل بن الربيع أوّلا ، وكان يتقلّد بعض أعمال أهواز ، فقال فيه ١٥ أبو الشَّمقمق :

أنا بالأهواز جار لعُمَرْ | لعظيمٍ زعموا ضخم الخطَرْ
لا يُرَى منهُ علَيْنا أثَرْ | لا يَكونُ الجودُ إلاَّ بأثَرْ
إنْ تَكنْ وُرْقُكَ عنَّا عَجَزَتْ | يا أبا حفص فجُدْ لى بحَجَر
يَكْسِر الجَوْزَ بهِ صبيانُنا | وإذا ما حضر اللوزُ كَسَر

٢٠ (١) الشراة : صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن بعض نواحيه القرية المعروفة بالحميمة التى كان يسكنها ولد على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب فى أيام بنى مروان . (راجع معجم البلدان) .

(٢) المذارى : نسبة إلى مذار ، قصبة ميسان ، بينها وبين البصرة أربعة أيام ، وبها قبر عبد الله بن على بن أبى طالب . فتحها عتبة بن غزوان أيام عمر بن الخطاب بعد ٢٥ البصرة . (راجع معجم البلدان) .

الفضل بن الربيع وحجابة الرشيد

وصرف الرشيد محمد بن خالد بن برمك عن حجابته ، وقلّدها الفضل ابن الربيع ، في سنة تسع وسبعين ومئة .

وصية الرشيد ويحيى وجعفر لعامل

وكان يحيى ولّى رجلا بعض أعمال الخراج ، فدخل به إلى الرشيد ليراه ويُوصيه . فقال ليحيى بن خالد ولجعفر ولده : أوصياه . قال له يحيى : وفِّرْ واعْمُرْ ؛ وقال له جعفر : أنْصِفْ وَانْتَصِفْ ؛ وقال له الرشيد : [٢٩٠] اعدلْ وأحْسِنْ .

غضب الرشيد على العتابي لاعتزاله ثم استرضاه يحيى فدحه

حدثني عبد الواحد بن محمد ، قال :

كان العَتَّابي يقول بالاعتزال ، فاتصل ذلك بالرشيد ، وكُثِّر عليه في أمره ، فأمر فيه بأمر عظيم ، فهرب إلى اليمن ، فكان مقيماً بها ؛ فاحتال يحيى بن خالد إلى أن أسمع الرشيد شيئا من رسائله وخُطبه ، فاستحسن الرشيد ذلك ، وسأل عن الكلام لمن هو ؟ فقال : هذا للعتّابي ، ولو حضر حتى يسمع منه الأمين والمأمون هذا الكلامَ ، ويصنع لهما خطباً ، لكان ذلك أصلح ؛ فأمر بإحضاره ، فأخذ الأمان له . فاتصل الخبر بالعتَّابي ، فقال :

مازِلْتُ في سَكَرَاتِ المَوْتِ مُطَّرَحاً ... قَدْ غَابَ عَنِّي وُجُوه الأمرِ من حِيَلِي

فَلَمْ تزل دائباً تسعى لِتُنْقِذَني ... حَتَّى اسْتَلَلْتَ حَيَاتِي مِنْ يَدَيْ أَجَلِي

وكانَ مَنْصُورٌ النَّمَري الشاعر مدح الرشيد بقصيدة طويلة ، قال فيها :

إنْ أَخْلَفَ القَطْرُ لَمْ تُخْلِفْ مَخَايِلُهُ ... أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ

وكان شكا قبل إنشاده هذا البيت إلى كُلثوم بن عمرو العتَّابي عسر [٢٩١] الولادة على زوجته ، فلما أنشد هذا البيت قال له العتَّابي : اُكْتُبْ على فَرْجِ زوجتك « هارون » فذكر هذا النَّمَرِيُّ للرشيد ، فأمر بضرب عنق العتَّابي ، حتى شَفَعَ فيه يحيى بن خالد ، واستوهب دَمَه ، فصفح له عنه .

حمدونة والرشيد وكاتب لها

وذُكر أبو الفضل بن عبد الحميد :

أن الرشيد أمر لحمدونة بإقطاع غلته مئة ألف درهم ، وألف ألف درهم

صلة ؛ فصار كاتبها بالتوقيع إلى ديوان الضياع . ففارقهم على برّ دافعهم عنه ، ولم يَفِ لهم بمحمله ؛ فزاد بعضهم فى التوقيع عند موضع الواو من « وألف ألف درهم » ألفًا ، فصارت « أوألف ألف درهم » ؛ فذكر الكاتب ذلك لحمدونة ، فشكته إلى الرشيد ؛ فقال لها : أحسب أن كاتبك هذا الجاهل لم يبرّ الكتاب ، وأعاد التوقيع ، وأمرها أن تبرّ الكتاب بما يُرضيهم ٥

مقتل جعفر ابن يحيى

ولم يزل جعفر بن يحيى مع الرشيد فى حاله فى الأنس والانبساط ، إلى أن ركب فى يوم جمعة مستهلّ صفر سنة سبع وثمانين ومئة إلى الصيد ، وجعفر يسايره خاليًا ، وانصرف مُمسيًا إلى القصر الذى كان ينزله بالأنبار ، وهو معه ، فضمّه إليه ، وقال له : لولا أنى أريد الجلوس الليلة مع النساء ١٠ لم أفارقك ، فصار جعفر إلى منزله ، وواصل الرشيد الرسل إليه بالألطاف [٢٩٢] إلى وجه السحر ؛ ثم هجم عليه مسرور الخادم ومعه سالم وابن عصْمة[١] ، فحُمل وضربت عنقه ، وأُتِى الرّشيد برأسه ، وكانت سنّه سبعًا وثلاثين سنة ، وأنفذ الرشيد جثته إلى مدينة السّلام ، مع هَرْثمة بن أعين ومسرور وسلام الخادمين ، فقطعت بنصفين ، وصلبتا على الجسرين ، ونصب ١٥ رأسه بمدينة السلام ، وحبس الفضل ومحمد وموسى بنو يحيى ، ووكل سلاّم الأبرش بباب يحيى ، ولم يعرض الرشيد لحمد بن خالد ، ولا لأحد من أسبابه .

رجا جعفر مسرورا أن يمهله على الرشيد يرجع عنه

وذُكِرَأنّ مسرورًا لما هجم على جعفر بن يحيى ، وعرّفه ما أُمر به فى أمره ، قال له : يا أباهاشم : الحرمة والمودة ؛ فقال : مالى فى أمرك حيلة؛ ٢٠ فقال جعفر : هذه خمسون ألف دينار اقبضها ، واحملنى معك غير مقتول ، وأعلم أمير المؤمنين أنك قد امتثلت ما أمرك به ، فإن أمسك عنك تركتنى

(١) عبارة الطبرى فى هذا الموضع : « أرسل مسرورا الخادم ومعه حماد بن سالم أبو عصمة فى جماعة من الجند .

حتى يسألك عنى ، فتُعلمه أنك أشفقت من قتلى خوفا من أن يكون أمرَ
به من عمل النّبيذ ، أو بادرة يندم عليها ، فاستظهرتَ بِتركى ، وتمضى بعد
ذلك ما يأمرك به ، وإن تكن الأخرى فأنت من المال فى حلّ وسعة ؛
ففعل ذلك مسرور ، وحمله إلى مِضْرَب الرشيد بالعُمْر[1] ، فوكّل به قيه ،
٥ واستظهر بأن قيّده ، ثم دخل إلى الرشيد وهو جالس على كرسىّ ينتظره، [٢٩٣]
فلما رآه قال : ما فعلت ؟ قال : امتثلت ما أمر به أمير المؤمنين ؛ قال :
فأين رأسه يابن الفاعلة ؟ فرجع مسرور يعدو حتى أخذ رأسه فى بَريكَة[2]
قَبائه ، فألقاه بين يديه ، وحُملت جثته والقيْد فيها ، وصُلب وهو فى رجليه.

يحيى عند مابلغه مقتل جعفر ابنه

قال سلاّم الأبرش :
١٠ لما دخلت على يحيى فى ذلك الوقت ، وهتكتُ السُّتور ، وجمعت المتاع ،
قال لى غير متغيّر ولا مضطرب : يا أبا سلمة ، هكذا تقوم الساعة ! ثم بلغه
قتلُ جعفر ، فقال : الحمد لله ، فإنى بفضل ربى واثق ، وبالخِيَرة منه عالم[3] ،
ولا يؤاخذ الله العبادَ إلا بذنوبهم ، وما ربُّك بظلاّم للعبيد ، وما يغفر الله
أكثر ، ولله الحمد على كلّ حال .

مافعله الرشيد بالبرامكة

١٥ وأنفذ الرشيد مسروراً والحسن الخادمين، وأباصالح يحيى بن عبدالرحمن
الكاتب ، وإبراهيم بن حُميد الكاتب ، فقبض مالهم وعقاراتهم
وضياعهم بالعراق ؛ وكانت مدتهم فى الوزارة سبع عشرة سنة .

ما كان فيه جعفر ساعة مقتله

وذكر مسرور :
أنه دخل على جعفر فى الليلة التى قتله فيها ، وبين يديه أبو زكّار الأعمى
المغنى وهو يغنى :

٢٠ عَدَانِى أنْ أزُورَكَ غير بغض ... مُقامُكَ بَيْنَ مُصْفَحَةٍ شِدَادِ
فَلاَ تَبْعَدْ فَكُلُّ فَتًى سَيَأتِى ... عَلَيْهِ المَوْتُ يَطْرُقُ أوْ يُغادى [٢٩٤]

(١) العُمْر : بناحية الأنبار .
(٢) لم نعثر على معنى هذه الكلمة فى المعاجم ، ولعلها عامية بمعنى طرف القباء .
(٣) فى الطبرى : أنا بقضاء الله راض ، وبالخيار منه عالم .

فقلت له : يا أبا الفضل ، الذى جئت له والله من ذاك ، قد والله طرقك ، فأجبْ أمير المؤمنين ؛ قال : فدعنى حتى أُوصى ، فتركته حتى أوصى بما أراد ، وأعتق مماليكه ، وأتتنى رسلُ أمير المؤمنين تستحثّنى لحمله .

مارثى به جعفر من شعر

فقال الرقاشى :

ألآنَ استرحْنا واستراحت ركابُنا | وأمسك من يُجْدى ومن كان يَجْتدى
فقلْ للمطايا قد أمنت من السُّرى | وقطع الفيافى فَدْفداً بعد فدفد
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر | ولن تظفرى من بعده بِمُسَوَّد
وقل للعطايا بعد فضلٍ تعطّلى | وقل للرزايا كلَّ يوم تجدّدى
ودُونَك سيْفاً برْمكيّاً مُهنّداً | أُصيب بسيف هاشمى مُهنّد

وقال فيه أيضاً :

أَمَا وَاللهِ لَوْلاَ خَوْفُ وَاشٍ | وعينٌ للخليفة لا تنامُ
لَطُفْنَا حَوْلَ جِذْعِكَ وَاسْتَلَمْنَا | كما لِلنَّاسِ بِالْحَجَرِ اسْتِلاَمُ
وَمَا أَبْصَرْتُ قَبْلَكَ يَابْنَ يَحْيَى | حساماً قَدَّه السيفُ الحُسام
عَلَى المعروفِ والدُّنيا جميعاً | بِدَوْلَةِ[1] آلِ بَرْمَكٍ السلام

وقال الآخر :

[٢٩٥]

يَا بَنِي بَرْمَكَ وَاهاً لَكُمُ | وَلأَيَّامِكُمُ الْمُقْتَبَلَهْ
كَانَتِ الدُّنيا عَرُوساً بِكُمُ | فهى الآنَ ثَكُولٌ أَرْمَلَهْ

وروى : « اليوم » .

تدبير الرشيد فى قتل جعفر

وحُكِىَ أن الرشيد قال للسِّندى بن شاهَك ، وكان يلى الجسر بن ببغداد ، إذا كان بعد سنة من يومك هذا ، فوكِّل بدور البرامكة وأسبابهم سِرّاً . قال السِّندى : فلما كان فى ذلك الوقت ، وكان الرشيد بِعُمْر الأنبار ، ومعه جعفر ، وَكّلت بدورهم سِرّاً ، على خوف منى

(١) فى الطبرى : « ودولة آل برمك السلام » .

ووجَلٍ ، أن يبدُو للرشيد فى الرأى ، وأن يتصل خبر توكيلى بهم ، فيكون سببَ هلاكى، فظللت يومى مهموماً ؛ فلما أمسيت أقمت ليلتى فى المجلس بالجسر فى الجانب الشرقى ، أتوقع خبراً يرد علىّ من الرشيد ، ووكلت من يُراعى رسولاً أو كتاباً يَرِد من الرشيد ؛ فلما كان فى السَّحَر
٥ وافى فُرانِق[1] يَنْعَر[2] على بغل ، تحته خُرْج فيه جثة جعفر مقطوعة نصفين ، وكتاب الرشيد إلىّ بصلب كلّ نصف على أحد الجسرين ؛ ففعلت ذلك .

مقتل الهيضم وأتباعه وشيء عن [٢٩٦] الحفصى

فلما كان بعد سنة من ذلك ، خرج الرشيد فجلس فى مجلس الجسر الشرقى ، وأحرق جُثّة جعفر ؛ وكان قد قَدِمَ مِنَ اليمن
١٠ بالهيضم ، وكان قد خرج بها ، و بأسراء معه ،فقدّمهم فضرب أعناقهم بين يديه ، وكان أخرهم عديلاً للهيضم ، فلما تقدم السّياف لضرب عنقه قال : قل لأمير المؤمنين : إنّ عندى نصيحة ؛ قال السّندى : فوقف السياف عن ضرب عنقه ، وأخبرنى بما قال ؛ فأتيته وقلت : ما نصيحتك ؟ قال أعلِمْ أمير المؤمنين أنّى الحَفْصىّ ــ وهو أبو عبد الله الذى كان يغنى المتوكل ــ
١٥ وأنى أحذق الناس بنباء المَعْزَفة وضربها ، ولم تكن المعزفة عرفت بالعراق قبل ذلك . قال السّندى : فأعلمت الرشيد . قال : فأمره بالإمساك عنه واستبقائه ، ثم دعا به من يومه وقد جلس للشرب ، فغنّاه فأطربه ، فوهب له ثلاثين ألف درهم ، وصيّره فى جملة المغنين الذين يحضرون مجلسه.

بعد قتل جعفر دعا الرشيد بالأصمعى وأسمعه شعرا ثم صرفه

وحكى عن الأصمعىّ قال :

٢٠ لما قتل الرشيد جعفر بن يحيى أرسل إلىّ ليلا ، فراعنى ، وأعجلنى الرسل ، فزادوا فى وَجَلِى ، فصرت إليه ، فلما مثلت بين يديه أومأ إلىّ بالجلوس، فجلست ، ثم قال :

(١) الفرانق : معرب « بروانك » ، وهو الذى يدل صاحب البريد على الطريق .
(٢) ينعر : يصرخ ويصيح .

لو أن جعفر خاف أسبابَ الرَّدَى لنجا بمهجتـــه طِمِرٌّ مُلْجَمُ

[٢٩٧] وَلَـكَانَ مِنَ حَذَرِ المَنُونِ بِحَيْثُ لاَ يرجو اللحاقَ به العُقَابُ القَشْعَم

لٰكِنَّهُ لَمَّا تقَارَبَ يَوْمُــهُ لَمْ يَدْفَعِ الحَدَثَانَ عَنْهُ مُنَجِّم

ثم قال لى : الحَقْ بأَهْلِكَ . فنهضت ولم أُحِرْ جواباً ، وفكرت فلم أعرف

لما كان منه معنى ، إلا أنه أراد أن يُسمِعنى شعره فأحكيه . ٥

مقتل الحرباني وتوقفه ماحل بأنس

قال مَيْمُونُ : حدثنى عُبَيْدُ الله بن سُلَيمان بن وهب ، قال : حدثنى إسحاق بن منصور قال : قال لى محمد بن الحُصَيْن الأهوازىّ :

كنا مع جعفر بن يحيى بالرَّقَّة فنحن بين يديه ، وهو يأمر وينهى ، إذ خلا بأَنَس بنِ أَبِى شَيْخ ناحية ، ونحن نراه ، فأدخل صاحبُ الشرطة رجلا من أهل الذِّمَّة ، فوقفه من بعيد ، ودنا من جعفر ، فقال له : قد أحضرت الرجل ١٠ الذى أمرتَ بإحضاره ، قال: فقطع ما كان فيه مع أنس ، والتفت ينظر إليه . قال : وكان الرشيد قد أمر أهل الذمة بتغيير اللِّباس والركوب ، ثم قال له وهو رافع صوته : ما اسمك ؟ قال : فلان بن فلان ، قال : أبو من ؟ قال : أبو فلان ؛ قال : أنت الحِرْبانىّ ؟ قال : نعم ؛ قال : الرقعة التى رفعتها رقعتك ؟ قال : نعم ؛ قال : ومافيها عنك وأنت تقوله ؟ قال : نعم ؛ ١٥

[٢٩٨] قال : فأطرق جعفر ساعة ثم التفت إلى صاحب الشرطة ، فقال له : خذه إليك ، فإن أمير المؤمنين أمرك بقتله وبصلبه . فارتعنا لذلك القول ، ولم نعرف الرجل ، ولا الذى فى رقعته . قال : فأخذ صاحب الشرطة بيده ، فقال له أَنَس بن أَبِى شَيْخ : اصلبه على أطول عود بالرقة ؛ قال : فالتفت إليـــه الحِربانىّ فقال : إن شاء على أطول عود ، وإن شاء على ٢٠ أقصره ، ليس والله يركبه بعدى غيرك . قال : فعجبنا من صرامته ، ومن ذلك القول ، وذهب به فقتل وصلب . قال : فانتقلنا من موضع إلى

موضع ، ومن بلد إلى بلد ، وكان بين هذا القول وبين الحادث على البرامكة ثلاث سنين أو نحوها ، فقتل جعفر بن يحيى بالأنبار ، وحملت جثته إلى بغداد ، فصلبت على الجسرين قطعتين ؛ فلما دخل الرشيد الرّقة قال لهم : مافعل الحِرْبانى الذى كان قال لجعفر ماقال ، وما فعلت خشبته ؟

٥ فقيل له : الخشبة على حالها ، وجسم الحرباني على حاله ؛ إلا أنه قد بلى وبقى منه العظام ؛ فقال : أنزلوه من الخشبة وأصلبوا جثة أنَس عليها . فرأيت أنساً على تلك الخشبة ولم تعرف قصة الحربانىّ ولا ما كان من أمره ، [٢٩٩] وعجبناً من انتهاء الخبر فى ذلك إلى الرشيد ، وما قال الحربانى لجعفر ، وصحة قوله .

شىء عن أنس بن أبى شيخ وسعيد ابن وهب

١٠ حدثنا محمد بن يحيى المروزىّ ، قال : حدثنا أبو عثمان عمرُو بن بحر ، قال : كان أنس بن أبى شيخ يكتب لجعفر بن يحيى ، وكان ركيًّا فهما ، نقىّ الألفاظ ، جيد المعانى ، حسن البلاغة ، فقتل مع جعفر بن يحيى .

حدثنا محمد بن سعد عن أبيه قال : حدّثنى الخزيمىّ ، قال : كنت يوماً عند الفضل بن يحيى ، فدخل أنس فتحدث ، وأنشد ، وتملّح ،

١٥ وأندر ، فأحسن فى جميع ذلك ، والفضل ينظر إليه ما ينبض منه عِرْق ، فأمسكتُ لإمساكه ؛ فلما قام قلت : من هذا ، جعلت فداك ؟ فقال : هذا أنس عشيق صديقك أبى الفضل ، وما أدرى ما أعجبه منه إلا القَدَرُ لُيتيحُ ذلك . ثم كنت بعد ذلك عند جعفر بن يحيى ، فدخل سعيد ابن وهب الشاعر ، فتحدث ، وأنشد ، وتملَّح ، وروى ، وأتى بكلّ شىء

٢٠ حسن ؛ وجعفر ينظر إليه ماينبض له عرق ، فلما قام قلت : جعلت فداك ، من هذا ؟ قال عشيق صديقك أبى العباس ، هذا سعيد بن وهب ، فما

[٣٠٠] أدرى ما أعجبه منه لولا القدر الذى أتاح له ذلك ، وكنت أعرف الناس بأنس وبسعيد ولكنى تجاهلت .

شىء عن أخلاق أنس وبعض مأثور كلامه

وذكر الجاحظ فى كتاب « البيان والتبيين » :

أن رجلا دخل على أنس بن أبى شيخ ، ورأسه على مِرْفَقة ، والحجام يأخذ من شعره ، قال : قلت له : مايحملك على هذا ؟ قال لى : الكسل ؛ ٥
قال : قلت له : إن لقمان قال لابنه : إياكَ والكسلَ ، إياك والضَّجر؛ قال: ذاك والله لأنه لم يعرف لذّة الكسل والفُسولة .

ومما حفظ من كلام أنس : إن الله جَلّ ثَنَاؤُهُ جَعَلَ الدنيا دَارَ بَلْوى ، والآخرة دارَ عُقْبَى ، فجعل بلوى الدُّنيا عوضاً ، فيأخذ ما يأخذ مما يعطى ، ويبتلى ما يبتلى به ليجزى . ١٠

الرشيد ويحيى بعد مقتل جعفر

وأقيم لولد يحيى ما يحتاجون إليه من مَطْعَم ومشرب وملبس ، ولم يُقَيَّد أحد منهم ، وقُيِّدَ جميع كتابهم وقهارمتهم وحاشيتهم وأسبابهم ، ولم يُحبس يحيى . وبقى فى منزله موكلاً به ، ثم وجه إليه الرشيد يخبره : أى موضع شئت فأقم به ؛ فوجّه إليه : إن كنت راضياً عنى فأحبُّ المواضع إلىّ أن أقيم فيه مكة أو بعض الثغور ، وإن لم ترض عنى فلست أبرح من موضعى أو ترضى عنى . ١٥

[٣٠١] وكان الرشيد كتب ليحيى كتاباً بخطه ؛ يحلف له فيه بأيمان مغلظة: أن لا يبدأه بسوء ، ولا يناله بمكروه فى نفسه ، ولا فى شىء من ماله وحاله ، وأشهد بذلك على نفسه جميع أهله ، ووجوه قواده وأصحابه ؛ فدفع يحيى الكتاب إلى الفضل ولده ، وأمره بحفظه ، فكان عنده إلى ٢٠
أن أخذ من خزائنه ، ولم يوجد ليحيى بن خالد إلا خمسة آلاف دينار ،

والفضل إلا أربعين ألف درهم ، ولم يوجد لموسى شيء ، ولا لجعفر شيء ، ووجد لمحمد بن يحيى سبعُ مئة ألف درهم .

بركة جعفر وماوجدفيها

وقد ذكر الحارث بن أبى أسامة فى كتاب أخبار الخلفاء :

أنه وُجد لجعفر بن يحيى بِرْكة فى داره التى فى سُوَيقة[1] جعفر ، ٥ فيها أربعة آلاف دينار ، وزن كلّ دينار مئة دينار ودينار ، وعلى كل دينار من أحد جانبيه :

وأصفرَ من ضرب دار الملوك يلوح على وجهه جعفرُ

ومن الجانب الآخر :

يزيد على مئة واحــداً إذا ناله مُعْسِر يَيْسَرُ

رأت دنانير صغارا البرامكة [٣٠٣١] يلاعبــون العامة فقالت شعرا

١٠ ورأت دنانير ، جارية يحيى بن خالد، بعد تقضّى الأمر عنهم ، وتقضى أيامهم، جماعةً من أصاغر أولادهم يُلاعبون صِبْيان العامة ، وقد خالطوهم ، فقالت:

كأنهمْ وبنو الغَوْغاء حَوْلَهُمُ دُرٌّ ومَشْخَلَبٌ[2] فى الأرض منثورُ

قال ميمون بن هارون :

سئلت عتابة أم جعفر عن أعجب مارأت فقالت

قيل لعتَّابة أمّ جعفر بن يحيى ، بعد نَكبتهم ، وهى بالكوفة فى يوم ١٥ أضحى : ما أعجبُ مارأيتِ ؟ فقالت : لقد رأيتُنى فى مثل هذا اليوم وعلى رأسى مئة وَصيفة ، لَبُوس كلّ واحدة منهنّ وحَلْيها خلاف لَبُوس الأخرى وحَليها ، وأنا فى يومى هذا أشتهى لحماً ، فما أقدر عليه[3] .

شعر الختم فى بخل محمد ابن يحيى بعد ماأنفق عليه دراهم أفادها من ابن زياد

وكان محمد بن يحيى بخيلاً ، فَصحِبه الختمّ الرّاسِبى الشاعر ، بعد أن كان يصحب محمدَ بن منصور بن زياد ، الذى كان يلقبه الرشيد « فتى ٢٠ العسكر » ، وكان كريمًا ، فأفاد معه مِئة ألف درهم ، فلما مات اتصل بمحمد بن يحيى بن خالد ، فأنفقها معه ، ولم يتعوّض منها شيئاً ، فقال :

(١) سويقة جعفر : مكان ببغداد ، منسوب إلى جعفر البرمكى .
(٢) كذا فى القاموس (مادة) : شخب . والمشخلب : جمع مشخلبة ، وهو خرز أبيض يشاكل اللؤلؤ . وفى الأصل : « مخشلب » وهو تحريف .
(٣) رويت هذه القصة فى المسعودى وفى إعلام الناس ببعض الخلاف عما ههنا .

أحمدُ لولا النبيّ محمد وشرائع الإسلام والإيمانِ
ما كان فيكَ لناسلٍ من مَغْسل يا طاهراً فى السرّ والإعلان
شَتانَ بين محمدٍ ومحمدٍ حَىٌّ أمَاتَ وميتٌ أحيانِى
فَصَحِبت حياً فى عَطايا ميّت وبقيت مُشتملاً على الخُسران

[٣٠٣] سأل يحيى أبا الحارث جميراً أن يصف له مائدة محمد ابنه فصل

وكان محمد بن يحيى قبيحَ البخل، فدخل يومًا أبو الحارث جُميرٌ على يحيى ٥
ابن خالد، وكان يألف محمداً ، فقال له يحيى : يأبا الحارث ، صف لى مائدة
محمد ؛ قال : هى رِقْر فى رِقر ، وصِحافه منقورة من حبّ الخَشخاش، وبين
نديه وبين الرغيف نَقْدَة[1] جَوْزة ؛ قال : فمن يحضُره ؟ قال : الكرام
الكاتبون؛ قال : فمن يأكل معه ؟ قال: الذُّباب. فقال: سَوْءَةٌ له ، أنت خاصٌّ
به وثوبك مخرّق ! قال : والله ما أقدر على إبرةٍ أخيطه بها ، ولو ملك ١٠
محمد بيتاً من بغداد إلى النُّوبة مملوءا إبراً ، ثم جاءه جبريل وميكائيل
ومعهما يعقوب النبيّ يضمنان له عنه إبرة ، ويسألانه إعارته إياها ، ليخيط
بها قميص يوسف الذى قُدّ من دُبر ، ما فعل .

سأل الرشيد مسرورا عما يقوله الناس فيما فعله بالبرامكة فأجابه

قال الفضل بن مروان حدثنى مَسْرور الكبير ، قال :

دخلت على الرشيد بعد أن قتل جعفر بن يحيى، وقد خرج من مرقده وهو ١٥
يريد الخلاء ، فلما رآنى أمر بكرسىّ فطُرِح له، وجلس عليه ، ثم قال: إنى
سائلك عن أمر، فلا تُطوّل علىّ، فإنى أريد التطهر ، ولست أبرح أو تخبرنى [٣٠٤]
عما أسألك عنه ؛ قلت له: يسأل أمير المؤمنين عما أحبّ ؛ فقال: أخبرنى عما
وجدتَه للبرامكة من المال والجوهر ؛ قلت له : ما وجدت لهم شيئاً من
ذلك ؛ قال : وكيف وقد نَهبوا مالى ، وذهبوا بخزائنى ! قلت : أنفقوا فى ٢٠
المكارم ، وأصبت لهم جوهراً لا يشبه أمثالهم ؛ قال لى : فما يقول الناس
فينا وفيهم ؟ قلت : اللهَ اللهَ فى أمرى ؛ فقال لى : مالك ؟ فقلت : الصدق

---

(١) نقدة جوزة ، أى بقدر المسافة التى تقطعها الجوزة إذا ضربتها بإصبعك . يريد : مسافة طويلة .

يغضبك – وكان استحلفنى ورشيداً والحسين الخادمين أن نصدقه عن كلّ شىء يسألنا عنه ، فخفت أن أصدقه فلا يعجبه ، لأنى كنت صدقته عن شىء من أمر الحُرَم ، فغضب علىّ ، وحجبنى أربعين يوماً ، فأذكرته بذلك ، فقال : كان ذلك منى غلطاً ، ولن أعود لمثلها – فقلت له : يقول الناس : إنك لم تفِ لهم ، وإنك طمعت فى أموالهم ؛ قال : فأىّ شىء حصّلتُ منها ؟ فقلت : ضياعهم، هى مال ؛ قال : البَسْ سيفك وأحضرنى يحيى بنَ خالد، فأقمه وراء الستر . فأحضرته ، ثم خرج الرشيد من الخلاء، فقال لى : اخرج إليـــه ، فقل له : ما حملك على أن حملت إلى يحيى بن عبد الله بالدَّيلم مئتى ألف دينار ؟ فقلت له ذلك ؛ فقال : قل له : أليس قد صفحتَ عن هذا ؟ فقال [لى] : أوَ يصفح الإنسان عن دمه ؟ فقلت له ذاك ؛ فقال : أردتَ أن تقوى شوكةُ يحيى بن عبد الله ، فيظفر به الفضل بعد قوّته ، فيكون أحظى له عندك ؛ فقال : قل له : فما يؤمنك أن تقوى شوكتُه ، فيقتل الفضل ويقتلنى ؟ وما حملك على أن أنفذت إلى أحمد بن عيسى بن زيد بالبصرة مع غلامك رياح سبعينَ ألف دينار؟ فقلت له ذاك ؛ ثم قال : قل له : أنت تعلم موقع عيالى منى ، فطُلب منك وأنا بالبصرة ألفُ ألفِ درهم ، وقد كان وَرد من مال فارس ستة آلاف ألف درهم ، فقلتَ لى : إن أخذتَ منها درهماً واحداً لهذا الشأن ذهبت هيبتُك، فأمسكتُ ، فأخذتَ أنت منها ألف ألف وخمس مئة ألف درهم ، ففرّقتها فى عمّالك، فاحتلتُ أنا بمَرَض تولاّه يونس،مافرّقته فيهم[1] ؛ ثم قال: قل له كذا،حتى عدّد أربعة[عشر][2] شيئاً،ثم أمرنى برده إلى محبسه،وقال: يا مسرور : يقول الناس : إنى ما وفّيت ! فقلت: يأمير المؤمنين ، ما أحبّ

(١) يريد : هو مافرقته فيهم .

(٢) زيادة يقتضيها السياق . ويحتمل أن تكون الكلمة الناقصة عشرين أو ثلاثين أو نحوها ، إلا أن ما أثبتناه أقرب .

أن تستجهلني؟ قال: وكيف؟ قلت: كيف لي بأن يعلم الناسُ مثلَ علمي! لَبودّي أنهم علموا ذاك، على أني أعلم أنه لو نُودى فيهم دهراً من الدهور، ما قبلوه.

ضرب الرشيد الفضل وحبسه مع آله

ووجّه الرشيد في طلب الأموال، وضيّق على البرامكة جميعاً، وأساء إليهمْ، وضرب الفضلَ بن يحيي مِئتى سوط، تولاّها مسرور الخادم؛ ٥ فقال له الفضل: أنت تعلم يأبا هاشم أني كنت أقِي عرضي بمالي، فكيف أقِي مالي بنفسي في هذا الوقت؟ واللهِ ما عندي شيء، ولو كان عندي ما سترته، ولا وَرّيت[1] عنه. فلم يوجد عندهم شيء غير ما أخذ. وأشْفَى الفضلُ من ضرب السوط على أمر عظيم، فأمر يحيي بعض أسبابه أن يطلب من يعالجه، فالتمس رجلا ممن قد حُبس وعوقب من ١٠ الشُّطّار، فوجد رجلا منهم، فجاء به وقد غيّر زيّه، كأنه بعض حاشيتهم، ثم أبتدأ يعالجه، فلقي مكروهاً شديداً من ألم العلاج، ثم صَلح وعُوفي، فقال الفضل بن يحيي لقهرمانه: ما عندنا شيء نكافئُ هذا الرجل، فصِرْ إلى يحيي بن معاذ، فَسَلْه عشرة آلاف درهم، فادفعها إليه، فصار قهرمانه [٣٠٧] إلى يحيي، فأعطاه المالَ، وصار به إلى الرجل، فلما رآه أنتهره وصاح به، ١٥ وقال له: أنا في هذا الحدّ! فرجع إلى الفضل فأخبره، فظنّ أنه أستقلّها، فأمره أن يستزيد يحيي عشرة آلاف درهم، ففعل، وصار بالمال إلى الفتى، فأعاد أنتهارَه، ثم قال: لو جئتني بما يملكه الخليفة ماقبلتُه منك، أنا ممن يأخذ على معروف أجراً! ثم شخَص الرشيد إلى الرَّقّة، وشخص يحيي ابن خالد معه وهو مطلق، وحَمل ولده جميعاً، موكّلا بهم إبراهيم بن حميد ٢٠ المَرْوَزيّ، فلما وصلوا إلى الرَّقة، وجّه الرشيدُ إلى يحيي: أقِمْ حيث

(١) يقال: ورى عن الشيء: إذا أراده وأظهر غيره.

أحببت ؛ فوجّه إليه : إنى أحبّ أن أقيم مع ولدى ؛ فوجه إليه : أترضى بالحبس ؟ فذكر له أنه يرضى ، فحبسه معهم ، ووسّع عليهم ، وأطلق لهم وصول ولدهم وحُرمهم إليهم ، ووصل أمّ الفضل بن يحيى بثلاث مئة ألف درهم ، ووجه إليها ثياباً مرتفعة ، وكان أحياناً يوسّع عليهم ، وأحياناً ٥ يضيّق عليهم ، على حسب ما يُرقَّ إليه أعداؤهم ، ويُمسكون عنهم .

[٣٠٨] دخلت على يحيى ابنة له فى الحبس وطلبت رأيه فقال لا رأى لمدبر

وحكى أن ابنة ليحيى بن خالد دخلت عليه الحبس، فقالت له: عندى مُوَيل[1] قد سَلِم ، فأىَّ شىء ترى أن أصنع به ؟ فقال لها : شاورى مُقْبِل الأمرِ مَنْ كان ، ثم اعملى برأيه ، فإنى مدبر ، والمدبر مدبر الرأى، ولن أشير عليك بشىء ، فتعرفى فيه خيراً .

طلب يحيى وهو فى الحبس سكباجة فانكسر بها الإناء فقال شعرا

١٠ وحكى أن يحيى بن خالد اشتهى فى وقت من الأوقات فى مَحبِسه وهو مضيّق عليه ، سَكْباجة ، فلم يُطلق له اتخاذها إلا بمشقّة ، فلما فُرِغ منها سقطت القدر من يدى المتخذ لها ، فانكسرت ، فقال يحيى يخاطب الدنيا :

قَطَعْتُ منكِ حبائلَ الآمال وأرحت من حَلٍّ ومن تَرْحالِ
ووجدت بَرْدَ اليأسِ بين جوانحى فحططت عن ظَهْرِ المطىِّ رحالى
١٥ فالآن يا دنيا عَرَفْتُك فاذهبى يا دارَ كلِّ تشتّت وزِيالِ
والآن صار لى الزمانُ مؤدِّباً فغدا وراح علىَّ بالأمثالِ

وذكر أحمد بن خلّاد ، قال : حدثنى غَزْوان بن إسماعيل ، قال :

بلغ الرشيد أن يحيى وابنه الفضل يضحكان فى محبسهما فأرسل مسرورا يستعلم عن سبب ذلك [٣٠٩]

لما حُبس يحيى بن خالد مع الفضل ولده ، وضُيِّق عليهما ، ومنعا من الناس ، ومنع الناس منهما ، كتب الموكَّل بهما فى بعض الأوقات : إنى ٢٠ سمعتهما يضحكان ضحكاً مُفْرِطًا جدًّا ، فوجّه الرشيد مسروراً يستعلم ذلك ، ومِمَّ هو ؟ فأتاهما مسرور وقال : ما هذا الضحك المفرط الذى بلغ

(١) مويل ، أى قليل من المال . وفى الأصل : « مريل » وظاهر أنه عرف عما أثبتناه .

أمير المؤمنين؛ فأحفظه وقال: ما هذا إلا استخفاف بغضبى؛ فازدادا ضحكاً؛
فقال مسرور: ليس هذا بصواب؛ لأنى[1] أتخوف عليكما من عاقبته أعظمَ
مما أنتما فيه، فما القصة والسبب الذى حدا كما على ما انتهى إلى
أمير المؤمنين عنكما؟ وما الذى أرى منكما؟ قالا: اشتهينا سَكباجاً،
فاحتلنا فى شَرْى اللحم، ثم احتلنا فى القدر والخلّ، حتى إذا وصل جميع ٥
ذلك لنا، وفرغنا من طبخها وأحكمناها، ذهب الفضل لينزلها، فسقط
أسفلها، فوقع علينا؛ الضحك والتعجب مما كنا فيه، ومما صرنا إليه.
فذهب مسرور الخادم إلى الرشيد، فأعلمه بالقصة، فبكى وقال: احمل
إليهما مائدة فى كلّ يوم، وَأْذن لرجل ممن يأنسان به أن يدخل عليهما،
فيحدّثهما؛ فقال لهما مسرور ذلك، وسألهما عمن يختارانه، فاختارا ١٠
سعيد بن وهب الشاعر، وكان لهما خادمًا، فأُذن له فى الدخول عليهما.
فكان يصير إليهما فى كلّ يوم، فيتغدّى معهما، ويحدّثهما وينصرف.

[٢١٠] أهدى الرشيد دواجا للفضل فوهبه لسعيد ابن وهب والقصة فى ذلك

ثم إن الرشيد بعث مسروراً يومًا، فقال له: أنظر مايصنعان، فدخل
مسرور بغتة، فوجد يحيى قاعداً، والفضل ساجداً؛ فقال له: ياأخى، ياحبيبى،
فلم يُجبه، فدنا منه، فإذا هو نائم يغطّ، فرجع إلى الرشيد فأخبره؛ فقال: ١٥
أىّ شىء كان عليه؟ قال: كان عليه طِمر قد سَمَل؛ قال: خذ ذاك الدُّوَاج[2]
السَّمُّور، فاطرحه عليه ولا تنبهه، فعمل مسرور ذلك وانصرف، فلما
أحسّ الفضل بالدفء انتبه، فقال لأبيه: يأبت، ما هذا الدوَاج؟ قال:
يا بنىّ، جاء مسرور وهتف بك، فلم تجبه، ورأى ما عليك، فذهب إلى
الرشيد، فأخبره بذلك، فرقّ قلبه لك، فوجه معه بهذا الدوَاج، وإنى ٢٠
لأرجو أن يكون سبب الرضا عنا، والفرج لنا. وصار إليهما سعيد بن وهب،

(١) فى الأصل: «لأنى أخوف» ولا يستقيم بها الكلام.
(٢) الدواج: ضرب من الثياب.

فسأل عن خبر الدوّاج، فأعلماه، فَسُرّ وقال: أرجو أن يكون سبب الرضا. فبينا سعيد يحادثهما، سمع الفضل هاتفا يذكر خِشْفاً[1] معه ليبيعه، فذكر بذلك بعض من كان يحظيه[2]، فأظهر اغتمامًا وقلقاً وجزعاً شديداً، ففطن سعيد بحاله، وسأله، فأعرض عن إخباره، وقال له: ماتحفظ مما يشبه ماتراه من الأحاديث والأخبار والأشعار التى رويت؟ قال: قول مجنون بنى عامر:

ودَاعٍ دعا إذ نحن بالخَيْف من منًى ... فهيّج أطرابَ الفؤاد وما يَدْرِى

دعا باسم ليلى غيرَها فكأنما ... أطار بليلى طائرا كان فى صدرى

قال: أحسنت، خذ الدواج ضوءك؛ فأبى أن يفعل ذلك، وطالبه الفضل [٣١١] بأخذه؛ قال: ما أصنع به إذا أخذته والسجّان لايدعنى أخرجه؟ فأرسل إلى السجان يسأله إطلاق إخراجه له؛ قال: لابدّ لى من إعلان مسرور بذلك، لأنى لا آمن أن يتأدّى إليه، وكتب إليه الخبر، وكتب بالخبر إلى مسرور، فأنهى ذلك إلى الرشيد، ففكّر مليًا، ثم قال: ماوهبناه له ونحن نريد أن نرتجعه منه، فليهبه لمن شاء، فأخذ سعيد الدوّاج، ثم نهض، فقال له الفضل: بقى عليه مالا آمنه؛ قال: وماهو؟ قال: الخوف أن يَسأل عن السبب الذى له أعطيتك الدوّاج، فإن ذكرت القصة على جهتها، كان فى ذلك ما لا آمن مكروهه، ولكن سبّب لذلك سبباً من بعض أشعارك وأخبارك ومُلَحك، وأدِرْ ذلك بينى وبينك، فأينا سُئل عن السبب خبَّر به، فلم يختلف الخبران؛ قلت: والله ما أدرى ما أحدثك به؛ قال: هات ما أمكنك؛ قال: قلت: كان لى باب صغير إلى دارى لا يدخل منه إلا المُرْد، وكان لى خادم موكل بذلك الباب، فأتانى يوما، فزعم أن إنساناً ألحى[3] بالباب يستأذن؛ فقلت: ياهذا، أمرتك بالاستئذان

(١) الخشف: ولد الظبى أول مايولد.
(٢) أى أنه ذكر بذلك غراما قديما.
(٣) ألحى: طويل اللحية.

لمثل هـــذا ؟ فقال : إنى قد عرّفته السُّنة ، فأبى إلا الاستئذان له ، وزعم أنه ممن كان يدخل من هذا الباب ، فقمت فاطّلعت ، فإذا هو حَرِيف كان لى قد غاب غيبة ، فاتصلت لحيته فيها ، وجاء لعادته ، فرجعتُ إلى مجلسى ، وكتبت إليه :

٥

قل لمن رام بجهل مدخلَ الظبى الغَرِيرِ
بعد ما علّق فى خـــدّيه مِخلاة الشّــعير
ليته يدخل إن جا ء من الباب الـكبير

ووجهت بالرقعة إليه ، فلما قرأها ضحك ، وجاء إلى الباب الـكبير، فاستأذن ، فأذنت له . فقال الفضل : أحسنت والله وملّحت ، وقام فكتب الأبيات على الحائط ، وخرج سعيد ، فعرض له رُسل الرشيد ، فأخذوه ، فأدخلوه عليه ، فلما سلّم قال له : يا سعيد ، بأى شىء حدثت الفضل ، وأى شىء أنشدته حتى أعطاك الدوّاج ؟ قلت ، أو تعفينى يا أمير المؤمنين ، فإنه شىء كان فى الحداثة ؟ قال: لا بدّ أن تخبرنى ؛ قلت : فيؤمننى أمير المؤمنين ، فإنى والله ما أنا على ذلك اليومَ ، ولقد وقّرتنى السن، ونزّهتنى عنه ؛ قال : لك الأمان . فحدثته الحديث ، وأنشدته الشعر ، فضحك حتى بدت نواجذه ، وأمر لى بثلاثين ألفَ درهم .

١٠

١٥

[٣١٣] بعض من مأثور كلام يحيى

وكتب يحيى بن خالد إلى صديق له وهو فى السجن ، وقد كتب إليه يسأله عن حاله ، فوقّع فى كتابه : أفضل الناس حالا فى النعمة مَن استدام مُقيمها بالشكر ، واسترجع فائتها بالصبر .

وكتب أيضاً إلى أخيه محمد من الحبس : أنكرت صديقى ، وعرفت عدوى .

٢٠

واحتاج يحيى إلى شىء ، فقيل له : لو كتبت إلى صديقك فلان ؟ قال : دعوه يكن صديقاً .

توقع يحيى إيقاع الرشيد بهم قبل وقوعه

قال إسماعيل بن صَبيح:

كنت يوما بين يدى يحيى بن خالد ، فدخل عليه جعفر ، فلما رآه ٢٥

أشاح بوجهه عنه ، وتكرّمرؤيته ، فلما انصرف قلت له : أطال الله بقاءك ! تفعل هذا بابنك وحاله عند الرشيد حاله ، لا يقدّم عليه ولداً ولا وليّا ! فقال: إليك عنى أيها الرجل ، قال : فوالله لا يكون هلاك أهل هذا البيت إلا بسببه . فلما كان بعد مدة من ذلك دخل عليه أيضاً جعفر وأنا بحضرته ، ٥ ففعل به مثل فعله الأول ، فأعدت عليه القول ، فقال لى: أدْن منى الدواة، فأدنيتها ، فكتب كلمات يسيرةً فى رقعة ،وختمها ودفعها إلىّ ، وقال لى : لتكن عندك ، فإذا دخلت سنة سبع وثمانين ومضى المحرّم ، فانظر فيها ؛ فلما كان فى صفر أوقع الرشيد بهم،فنظرت فيها،فكان الوقت الذى ذكره. [٣١٤]

علم يحيى بالنجوم

قال إسماعيل بن صَبيح :

١٠ وكان يحيى بن خالد أعلم الناس بالنجوم .

سعى ابن الربيع بالبرامكة لدى الرشيد

ومما حُكى من سعى الفضل بن الرّبيع على البرامكة ، ما حكاه محمد بن داود بن الجرّاح فى كتابه المسمّى كتاب الوزراء ، عن محمد بن إبراهيم مولى خديجة بنت الرشيد ، عن أبيه، وذكر أنه حضر ذلك ، قال: نادم الفضل بنُ الرّبيع الرشيد ، وخُصّ به ، فقال لجعفر . قلِّد الفضلَ ١٥ بريد ناحية يأخذ رزقها،ويستعين به على خدمتى ؛ فقال له جعفر، بسلاسة خلقه : اختر ؛ فقال الموصل وديار ربيعة ؛ فأمر أن تكتب كتبه عليها ، فراح بها إلى أبيه ، فلما عرضها عليه ، وعرّفه حال الفضل وخُصوصيته ، غضب[1] يحيى وقال : هذه ناحية إلى أخيك ، وقد صرفناه عن أرمينيَة ونصرفه عن هذه ! وكان وَلِىَ خراج أرمينية وحربها وصُرف عنها ، فقال: ٢٠ ما كنت لأفعل ! فقال : فالموصل ؟ فقال : لا والله ؛ فكره جعفر إغضاب أبيه ، ودافع الفضلَ ، وقرّب عليه المواعيد . وكان البرامكة قد فارقوا الرشيد على شىء يُطلقونه له من المال للحوادث ، سوى نفقاته وما يحتاج

(١) فى الأصل : « فغضب » .

[٣١٥] إليه هو وعياله ، فعزم على القصد ، فقال لجعفر : يأخى أنا على القصد ، وأريد التشاغل بالنساء ، فكم تبعث إلىّ لما أحيته لهن ؟ قال : ما شاء أمير المؤمنين ؛ قال : عشرة آلاف درهم ؛ قال : وأين المال ؟ ولكن خمسة آلاف درهم ؛ قال : هاتها ، فبعث بها إليه ؛ ثم قال لجلسائه وقد افتصد : أى شىء تهدون إلىّ ؟ فقال كل واحد منهم : قد أعددتُ ٥ كذا وكذا ، واحتال الفضل بن الرّبيع فى التخلّص إلى منزله ، فرهن حقّه من قطيعة الربيع ، وهو المُشر ، على مائة ألف درهم عند عوْن الجوهرىّ الحَرّى ؛ فقال : إنى أريد أن أهديها إلى الخليفة ، فصيرها جُدُداً ضربا ، فى عشرين بَدرة ديباج ، مختمة بفضة ؛ وكان عون يحفظ للربيع يداً ، فقال للفضل : أطابت نفسك عن جميع نعمتك فى هدية اليوم ؟ ١٠ فأعلمه أن له عند الرشيد مواعيد ؛ فقال له عوْن : فإن عندى خادمين مملوكين[1] روميين ، أحدهما ناقد ، والآخر وزّان ، جميلى الصورة مراهقين وقد وهبتهما لك ، وأحضره تابوت آبنُوس محلّى بالفضة ، فصير البُدور فيه [٣١٦] مع الطيارات[2] والموازين والصَّنجات ، وأقفله بقفل فضة ، وغشّاه بديباج ، وكسى الغلامين الديباج ، وألبسهما المناطق والمناديل المصرية ، ووجه بهما ١٥ وبالتابوت مع مَنْ يحمله إلى دار الندماء ، فلما ثنى الرشيدُ الدمَ قال : اعرضوا علىّ هداياكم ، فقُدِّمت هدية يحيى وجعفر والفضل بن يحيى ، من فاكهة ومَشامّ ، وما أشبه ذلك ، وعرض عيسى بن جعفر وغيره هداياهم ؛ فقال للفضل بن الربيع : أين هديتكَ يا عباسى ؟ وبذلك كان يدعوه ؛ قال : أُحضرها يأمير المؤمنين ؛ فقال : تجده قد ابتاع هدية بخمسين درهما ، ٢٠ فقال للفراشين : احملوها ، فحملوا شيئاً راع الرشيد لما رآه ، وكشفوا عن التابوت فاستحسنه ، ثم حضر الغلامان ، ففتح أحدهما القفل ، فأخرج

(١) فى الأصل « مسلولين » ونعتقد أنها محرفة عما أثبتناه .

(٢) الطيارات : جمع طيار ، وهو ميزان الذهب ، سمى بذلك لخفته . (راجع شرح مقامات الحريرى طبع باريس ص ٥٤٥ — ٥٠٠) . ٢٥

الموازين والأوزان ، وأخرج الآخر البُدور ، ففتح بَدرة بَدرة ، واستوفى وزنها وختمها ، فلم يدر الرشيد ما يستحسن من جلالة المدية ، واستُطير فرحاً ، وأمر بحمل المال ، وإدخال الغلامين إلى دار النساء ، ليفرّقا المال على ما يأمرهما به ، وقال للفضل : ويلك ياعباسى ! من أين لك هذا ؟ قال :

٥ سيعرفه أمير المؤمنين ؟ قال : لتقولن ، قال : بعت حتى من قطيعة الربيع [٣١٧] لأسرّك ، لما رأيتك قد فصدت وأنت مغموم ؟ قال : والله لأسرنّك ، وقام فدخل . وانصرف جعفر يجر رجليه إلى أبيه ، فحدثه الحديث ، فكتب كُتبَ الفضل على بريد الموصـــل وديار ربيعة وديار مُضر وختمها ، وبعث بها إليه فردّها ، وقال : لا حاجة بى إليها ، ولم يزل يحمل الرشيد

١٠ عليهم ، حتى أوقع بهم .

سأل ابن الربيع يوما يحيى حاجة فتقاعد ثم قضاها له

وحكى عن الفضل بن الربيع أنه قال : صرت إلى يحيى بن خالد فسألته حاجة ، فتقاعد علىّ فيها ، فقمت وأنا أقول :

عسى وعسى يَثْنى الزمان عِنانَه بتَصْريف حال والزمان عَثُورُ
فتُقضى لُبانات وتُشفى حسائك ويَحدث من بعد الأمور أمور

١٥ قال : فقال : نعم يُحدث الله من بعد الأمور أمورا ، أقسمت عليك يا أبا العباس لترجعنّ ، وهذه الحاجة علىّ فى مالى إلى أن أُكلم الخليفة . قال : فما بت حتى وافتنى .

مر ابن الربيع على مسناة [٣١٨] لجعفر فركل آجرة برجله

وحكى عن الفضل بن الربيع أنه مشى على مُسَنّاة[1] جعفر بن يحيى ، التى كان يبنيها بباب الشماسية ، ومعه إنسان يأنس به ، فركل آجرةً برجله ،

٢٠ فرمى بها إلى دجلة ، ثم قال لصاحبه : كيف رأيت ؟ فقال له الرجل : وأى شىء فى هـذا من الضرر حتى تفعله ؟ فقال له الفضل : أفترى فيه منفعة له ياحبيبى ؟

(١) المسناة : سد يعترض به الوادى ليرد الماء .

نجـاح ابن سلمة ورجل كان يباديه

وذكرت بهذا الفعل والقول حكايتين متضادتين عن رجلين ليسا من أهل عصر الفضل بن الربيع ، ولكن الشيء يذكر بمثله ، فأما إحداها، فإن محمد بن أحمد بن حبيش ، كاتب ابن بسطام قال : حدثنى أبى قال :

كنت أساير نجاح بن سلمة وإلى جانبه رجل من نظرائه كان يباديه ، قال : فوصلنا إلى وحل فى الطريق ، فتأخر نجاح ، حتى تقدّمه ٥ الرجل ، ثم أسرع السير فى الوحل ، حتى ملأ دُرّاعته ، ثم أقبل على فقال : كيف رأيته ؟ فقلت : يا سيدى ، وأىّ شيء فى هذا حتى تسر به ؟ فقال : إذا كان لك عدوّ فلا تستقل له قليل الشيء ، ولا تستكثر له كثيره .

ابن المدبر وعلى بن عيسى وعداوة بينهما

١٠ والأخرى : فإنه كان بين أحمد بن المدبر وبين علىّ بن عيسى ابن يزدانيروذ عداوة مشهورة ، وكانت لعلىّ مقاطعة يُكتب له بها من الدواوين فى كلّ سنة ، فلما حضر وقت الكتاب، وأحمد يتقلد الديوان ، قال علىّ بن عيسى لصاحبه : ادخل الديوان سرًّا ، وأغرم غرماً ، حتى تأخذ الكتاب بالمقاطعة ، ولا يراك أحمد فيبطلها ؛ ففعل ذلك صاحبه واجتهد [٣١٩] فى ستر الأمر ، وانتهى الخبر إلى أحمد بن مدبّر قبل فراغه ، فدعا به ، ١٥ وأنكر عليه مساترته له ، ودعا بالكتّاب ، حتى انتسخوا الكتاب بحضرته ، وعلّموا عليه ، ودفعه إليه ؛ فأفاض الرجل فى شكره وكثّر ، وقال له : تقول له : أظننتَ أرضى فيك بالمحقّرات ، وأقتصر على أن أعترض عليك فى مقاطعتك ؟ هيهات ! الأمر بينى وبينك أعظم من ذلك ، ليس بينى وبينك إلا الدم . ٢٠

سبب نكبة البرامكة فى رأى ابن سليمان

وقال عبد الله بن سليمان :

إذا أراد الله عزّ وجلّ هلاك قوم وزوال نعمتهم، جعل لذلك أسباباً ،

فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع ، وقصدهم محمدَ ابن جميل .

كتاب يحيي إلى الرشيد لما نكبه ورد الرشيد عليه

ولما نُكب يحيى كتب إلى الرشيد :

إن كان الذنب يأمير المؤمنين خاصًّا ، فلا تعمّ بالعقوبة ، فإن لى ٥ سلامة البرئ : ومودة الولئ . فوقع فى حاشية كتابه : قضى الأمر الذى فيه تستفتيان .

حديث نصير الوصيف عن توقع يحيي لما حل بهم

وقال موسى بن نُصير الوصيف : حدثنى أبى قال :

غدوت على يحيى بن خالد فى آخر أمرهم ، أريد عيادته من علة كان يشكوها ، فوجدت فى دهليزه بغلاً مسرجاً ، فدخلت إليه وكان يأنس ١٠ بى ، ويفضى إلىّ بسره . فوجدته مُفكراً مهموماً ، ورأيته متشاغلاً بحساب النجوم ، وهو ينظر فيه ، قال : قلت له : إنى لما رأيت البغل مسرجاً [٣٢٠] سرّنى ، لأنى قدّرت انصراف العلّة ، وأن عزمك الركوب ، فقد غمنى ما أراه من همك . قال : فقال لى : لهذا البغل قصة ، وذاك أنى رأيت البارحة فى النوم كأننى راكبه ، حتى وافيت رأس الجسر من الجانب ١٥ الشرق ، فوقفت ، فإذا أنا بصائح يصيح من الجانب الآخر :

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصفا أنيس ولم يَسْمُرْ بمكة سامِرُ

قال : فضربت بيدى فوق قَرَبوس السرج وقلت :

بلى نحن كنا أهلَــــها فأبادنا صُروف الليالى والجُدود العواثِرُ

قال : فانتبهت ، فلم أشكّ أنا أُردنا بذلك المعنى ، فلجأت إلى أخذ الطالع ، ٢٠ فأخذته ، وضربت الأمر ظهراً لبطن ، فوقفت على أنه لابد من انقضاء مدتنا ، وزوال أمرنا . قال : فما كاد يفرُغ من كلامه حتى دخل مسرور الخادم ومعه جُوَنَةٌ مغطّاة ، وفيها رأس جعفر ، وقال له : يقول لك

أمير المؤمنين: كيف رأيت نقمة الله من الفاجر؟ فقال يحيى : قل له يأمير المؤمنين ، أرى أنك أفسدت عليه دنياه ، وأفسد عليك دينك .

كلام يحيى عند مابلغه مقتل ابنه

وقال محمد بن إسحاق :

لما قُتل جعفر قيل ليحيى : قَتل الرشيد ابنك ؛ فقال : كذلك يُقتل ابنه ؛ قيل: قد أمر بتخريب ديارك ؛ فقال : كذلك تخرّب دياره . [٣٢١] ٥

وحكى أن هذا القول من يحيى اتصل بالرشيد ، فسأل عنه مسروراً ، فجحده إياه ، إلى أن أقسم عليه، فحكاه له ، فقال له : قد والله خِفت قوله، لأنه ما قال لى شيئاً قط إلا رأيته .

حديث مسرور عن سبب قتل الرشيد البرامكة

وقال عبيد الله بن يحيى بن خاقان :

سألت مسروراً الكبير فى أيام المتوكل ، وكان قد عمّر إليها ، ومات فيها ، عن سبب قتل الرشيد لجعفر ، وإيقاعه بالبرامكة ؛ فقال : كأنك تريد ما تقوله العامة فيا ادعوه من أمر المرأة ، وأمر المجامر التى اتخذها للبخور فى الكعبة ؟ فقلت له : ما أردت غيره ؛ فقال : لا والله ، ما لشىء من هذا أصلٌ ، ولكنه من مَلَل موالينا وحسدهم . ١٠

طلب الرشيد بعد نكبته البرامكة عمالا لم يتصلوا بهم

ولما نكب الرشيد البرامكة قال : أريد أن استعمل قومًا لم يَعملوا معهم ؟ فقيل له : لا تجد أحداً لم يكن يخدمهم . فاختار أشفّ[1] من وقع فى نفسه من عيون أصحابهم ، فقلّد محمد بن أبان خَرَاج الأهواز وضياعها ، وقلّد علىّ بن عيسى بن يزدا نيروذ خراجَ فارس وضياعها ، وولّى الفيض ابن أبى الفيض الكَشْكَرىّ خرَاج كَشْكر وضياعها ، وولّى الخصيب ابن عبد الحميد مصر وضياعها . ١٥ ٢٠

---

(١) أشف : أفضل .

مدح أبى نواس الخصيب

وفى الخصيب يقول أبو نواس الحسن بن هانئ :

أنت الخَصِيب وهذه مصرُ فتدفقا فكلا كما بحرُ [٣٢٢]

لا تقعدا بى عن مدى أملى شيئاً فمالكما به عُذر

ويحقّ لى إذ صرت بينكما ألا يحل بساحتى ضرّ

٥ ويروى : فقر .

طلب الخصيب أبا نواس فقصد إليه هو وجماعة

وذكر محمّد بن العبّاس اليزيدىّ أن ابن أخى اليَنْبَغِىّ حدّثه قال : كتب الخصيب إلى أبى نُواس يستزيره ، وكان خاصًّا به، فخرج إليه، وخرج فى وقت خروجه جماعة من الشعراء لامتداح الخصيب ، ولم يعرفوا خبر خروج أبى نواس ، حتى اجتمعوا بالرّقة ، فقال بعضهم لبعض : هذا أبو نواس ١٠ يمضى إلى الخصيب ، ولا فضل فيه لأحد معه ، فارجعوا عن قرب ، وبلغ أبا نواس ما عملوا عليه من الرجوع ، فصار إليهم مسلّماً ، ثم قال لهم : قد بلغنى ما عزمتم عليه من الرجوع ، فلا تفعلوا وامضوا حتى نصطحب ، فإنى والله لا أبدأ إلا بكم ؛ فشكروه، وسكنوا إلى قوله، ومضوا حتى قدموا. واتصل خبر أبى نواس بالخصيب ، فجلس له جلوساً عامًّا فى مجلس جليل ، ١٥ ودخل إليه والشعراء فى دهليزه ، فسلم عليه ، وقال :

يأيهــذا الملك المؤمّل قد أستزورت عصبة فأَقْبلوا

وعصبة لم تستزرهم طفّلوا وجوك فى تَطْفِيلهم وأمّلوا

وللرجاء حُرمــة لا تجهل فافعل كما كنت قديماً تفعل [٣٢٣]

فاستحسن الخصيب قوله وكلُّ من حضره ، وقال له الخصيب : من ٢٠ شريكك ؟ فعرّفه أبو نواس خيرَ الشعراء ، فقال: اجلس فقدّر لهم صلاتهم، على حسب مقاديرهم فى نفسك ، فقدّر أبو نواس لهم صلاتهم ، وعرضها

عليه ، فوقع بإطلاقها ، فأطلقت من وقتها ، وقال له : اخرج ففرّقها عليهم ، من يومك ، واصرفهم ، ففعل ذلك ، وعاد إليه .

وله فيه :

بعض من شعر أبى نواس فى الخصيب

يا بُنَيّ أبشرى بميرة مصر   وتمَنَّى وأسرفى فى الأمانى

أنا فى ذمّة الخصيب مقيم   حيث لا تهتدى صروف الزمان ٥

قد علقنا من الخصيب حبالاً   أمّنتنا طوارق الحِدْثان

لا تخافى علىّ غُول الليالى   فكانى من الخصيب مكانى

كتب البلاذرى للخصيب

وكان يكتب للخصيب أبو عبد الحميد بن داود البلاذُرى[1] ، المؤلف لكتاب البلدان وغيره من الكتب ، وله أشعار حسان .

١٠ وقلّد الرشيد أبا صالح بن عبد الرحمن ديوان الخراج بمدينة السلام .

أبو صالح كاتب الرشيد وسعدان كاتب أم جعفر

قال أبو العبّاس بن الفرات : حدّثنا هارون بن مسلم ، قال :

دخل الرشيد على أمّ جعفر ، فقال لها : قد تهتك كاتبك سَعدان

[٣٢٤] فاعزليه ؛ قالت : وبأىّ شىء تهتّك ؟ قال : بالمرافق والرُّشا ، حتى قال فيه الشاعر :

١٥ صبّ فى قنديل سَعدا   ن مع التسليم زيتا

وقناديل بنيـه   قبل أن تخفى الكُميتا

فقالت له : وقد قال الشاعر فى كاتبك أبى صالح يحيى بن عبد الرحمن : أشنع من هذا ؛ فقال : وما قال ؟ قالت : قال :

قنديل سَعدان على ضوئه   فرجٌ لقنديل أبى صالح

٢٠ تراه فى مجلسه أحوصا   من لحمه للدرهم اللائح

فقال لها : كذب على كاتبى وكاتبك .

---

(١) البلاذرى ، هو أبو بكر ، وقيل أبو جعفر ، وقيل أبو العباس أحمد بن يحيى ابن جابر ، مؤلف كتاب فتوح البلدان .

قال هارون بن مسلم : بلغنى أنها قالت هذا الشعر فى تلك الساعة .

لما صرف عبد الله عن الديوان وضع القلم لتكون سنة

ولما صرف سليمانُ بن عمران عبدَ الله بن عَبدَة عن ديوان الخراج ، واتصل خبره بعبد الله ، أمر ببغلته[1] فشُدّت ، وأخذ قلمًا من دواته ، فصيّره على أذنه ، فلما قيل له : إن سليمان قد صرفك عن الديوان ، رمى بالقلم وقام. فسئل عن سبب ما فعله ؛ فقال : أحببت أن يكون هذا سنة فى ولاة الدواوين : إذا صُرفوا لم يكن عليهم إلا وضع القلم فقط .

قال الرشيد للفضل كذبت فأجابه

وقال الرشيد يومًا للفضل بن الربيع فى كلام جرى : كذبت ؛ فقال له : وجه الكذوب لا يقابلك ، ولسانه لا يخاطبك .

أهدى ابن [٣٢٥] صبيح لابن هرثم برذونا وكتب له كلمة

ووجه إسماعيل بن صَبيح إلى سعيد بن هرَثم برذونًا ، وكتب إليه :

لين المرفوع ، وطىء الموضوع ، حسن المجموع .

ما تقلده ابن صبيح

وقلد الرشيد إسماعيل بن صَبيح ديوان الخراج ، ثم ديوان الرسائل .

نادرة لابن صبيح تدل على مقدار حفظه

قال سليمان بن أبى شيخ : حدثنى يحيى بن المغيرة ، عن إسماعيل بن أبى بكر بن عياش ، قال :

قدم هارون الرشيد الكوفة فأرسل إلىّ أن أحدث المأمون ، فحدّثته نيفًا وأربعين حديثًا ، فلما فرغت منها قال لى رجل كان بحضرته : أتحبّ يأبا بكر أن أعيد عليك ماحدّثت به ؟ قلت : نعم، فأعاد جميعه ، ما أسقط حرفًا ؛ فقال له أبو بكر : من أنت ؟ فقال المأمون : هذا إسماعيل بن صَبيح ، قال : فقلت لإسماعيل بن صَبيح : القوم كانوا أعلَم بك حيث وضعوك هذا الموضع .

(١) فى الأصل : « بيلته » ولم نفهم لها معنى هنا ، ونظن أنها محرفة عما أثبتناه .

ندم الرشيد على مافرط منه فى البرامكة

ثم ندم الرشيد على ما كان منه فى أمر البرامكة ، وتحسر على مافرط منه فى أمرهم ، وخاطب جماعة من خواصّه بأنه لو وثق بصفاء النيّة منهم لأعادهم إلى حالهم. وكان كثيراً مايقول : حملونا على نصحائنا وكفاتنا ، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم ، فلما صرنا إلى ما أرادوا منّا ، لم يغنوا عنا شيئاً ، وينشد : ٥

أَقِلُّوا عَلَيْنَا لاَ أَبَا لِأَبِيكُمُ مِنَ اللَّوْمِ أَوْسُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِى سَدُّوا

[٣٢٦] لقى ابن عيسى يحيى فى نكبتهم فترجل له فأنكر عليه وكلمه

وكان الحسن بن عيسى يكتب لعمرو بن مَسْعدة ، ولما حُمل البرامكة إلى الرَّقّة ، استقبل الحسنُ بن عيسى يحيى بنَ خالد وهو يسير ، وكان لهم عنده معروف . قال الحسن : فلما بصرت به وتأملنى ، قلت : لا يرانى الله أمنعه من نفسى فى هذا الوقت شيئاً كنت أبذله له قبل ذلك اليوم ، ١٠ فنزلت عن دابّتى مترجّلاً له ، فصاح بى : إيّاك إيّاك ! فلم ألتفت إلى زجره ، ودنوت منه ، فسلّمت عليه ؛ فقال لى : اسمع منى ، وافهم عنى : إن هذا الأمر لو بقى فيمن كان قبلنا لم يصل إلينا ، ولو بقى فينا لم يصل إلى من بعدنا ، ولا بدّ للأعمال من تصرّف ، وللأمور من تنقل ، وقد كنا قبل اليوم دواء ، فأصبحنا داء ، فلَا تَعُدْ . قال : فكنت أراه بعد ذلك كثيراً ١٥ من سفره ، فلا أفعل ما أنكره علىّ .

دعا رجل على الفضل فاستعلم عن سببه ذلك ثم تمثل بشعر لأبى زبيد

وذكر الكَرْمانى :

أن الفضل بن يحيى نُقل من محبِس كان فيه إلى محبس آخر ، فوقف له بعض العامة ، فدعا عليه ، وأنه اضطرب من ذلك اضطراباً لم يُرَ مضطرباً قبله مثله فى شىء من حوادث النكبة ، ٢٠ وأنه قال لبعض من كان معه : أحبّ أن تلقى هذا الرجل ، وتسأله عما دعاه إلى ما كان منه ؟ وهل لحقه من بعض أسبابنا ، على غير علم منا ، ظلم

[٣٢٧] فنتلافى ما خلا ؟ فصار رسوله إليه ، وسأله عما دعاه إلى ما كان منه ، وهل لحقه ما يوجبه ؟ قال : فقال : لا والله ، ما لحقني ما أوجب ذلك ، ولكن قيل لى : إن هؤلاء كلهم زنادقة . فلما عاد الرسول إليه بذلك قال : قد والله سرّيتَ عنى ، وفرّجت ما بى ، وأزلت ما لحقنى ، ثم أنشد : ٥

غير ما طالبين ذَحْلاً ولكنْ مال دَهْر على أناس فـالُوا

شعر لأبى زبيد فى مدح الوليد

وهذا البيت من قصيدة لأبى زُبيد الطائى يمدح بها الوليد بن عُقبة ، عاملَ عثمان على الكوفة ، أولها :

من يرى العير لابن أروى[(١)] على ظهـ ـر المرَوْرى[(٢)] حُداتهن عِجالُ

١٠ وفيها يقول :

أصبح البيت قد تبدّل بالحىّ وُجوهاً كأنها الأقتال[(٣)]

غـير ما طالبين ذحلا ولكن مالَ دهرٌ على أناس فـالوا

من يخُنْكَ الصّفاء أو يتبدّلْ أو يَزل مثل ما تَزول الظلال

فاعلمن أننى أخُوك أخو الصّـ ـدْق[(٤)] على العهد أو تزولَ الجبال

١٥ لست ماعشت ذاخراً عنك شيئاً أبداً ما أقلّ نـعـلاً قِبال[(٥)]

فلعَمْرُ الإله لو كان للسيـ ـف مَصال أو للسان مقال

(١) ابن أروى : هو الوليد بن عقبة ، وأروى : أمه وأم عثمان بن عفان .

(٢) المرورى : جمع مروراة ، وهى الصحراء .

(٣) كذا فى الأغانى (ج ٥ ص ١٢٤) . والأقتال : الأعداء ؛ الواحد : قتل . ويطلق على الصديق أيضا ، وفى الأصل : « الأقيال » .

(٤) فى عيون الأخبار (ج ٣ ص ١٢) فى العهد .

(٥) قبال النعل : الزمام الذى يكون فى الأصبع الوسطى والتى تليها . ورواية هذا الشطر فى عيون الأخبار والشعر والشعراء :

ليس بخل عليك منى بمال أبدا ما أقلّ سيفا حمال

وفى الأغانى :

ليس بخلا عليك عندى بمال أبدا ما أقل نعلا قبال

[٣٢٨] ما تناسيتُك الصفاء ولا الو دّ ولا حال دُونك الأشغال
فلك النصرُ باللسان وبالكـ ـفّ إذا كان لليدين مجال(١)

شعر الفضل في نكبتهم قاله في محبسه

وذكر أحمد بن داود بن بِسطام عن أبيه ، وكان يخلف الفضلَ ابن الربيع :

٥ أنه نُقل الفضل بن يحيى من محبسه إلى محبس ، فأصاب في ثِنْي مصلاه رقعة فيها :

إن العزاء على ما ناب صاحبه فى راحة من عَناء النفس والتَّعب
والصبرُ خير مُعين يُستعان به على الزّمان ومن ذا فيه لم يُصب
لو لم تكن هذه الدنيا لها دُوَل بين البريّة بالآفات والعَطَب
١٠ إذاً صفَت لأناس قبلنا وبهم كانت تليق ذوى الأخطار والحسب
ولم تنلها وفيها قد ذكرت أُسًى وعبرةٌ لذوى الألباب والأدب
ألستمُ مثل من قد كان قبلكمُ فارضَوا وإن أسخطتكم نوبة العُقب
نِضْو الحوادث نِضْوٌ ليس ينفعه شىء سوى الصبر من كدّ ومن تعب
والله ما أسـى إلا لواحدة ألا أكون تقدّمت المنون أبي
١٥ فكان يُوجر في ثُكلي ويتبعني دعاؤه لي دعاء الوالد الحدب

قال : فسألت السجّان عنها ؟ فقال : قالها البارحة لما أتيته بالمصباح .

سأل الرشيد ابن يزدانيروذ [٣٢٩] عن إخلاص البرامكة له فأكده لهم فندم ورضى عنه

وذكر عيسى بن يزدانيروذ ، وكان أحد كتّابه ، قال :

دعاني الرشيد وأخلاني وأدناني جدا جدا ، ثم سألني عن حال جعفر ، وهل وقفت على أنه أراد غدرا به ، أوحيلة لقتله ؟ قال : فحلفت له أيمانًا ٢٠ أكرّرها أني ما عرفت هذا منه قط ، ولا وجدته حائدًا عن طاعة ، ولا مقصراً في موالاة ، ولا تاركًا معاداة من ظن به انحرافًا عنه ، وموالاةَ من وَثق بموالاته ؛ قال : فاستعادني اليمين ثلاثًا ؛ فلما كررتها بكى وقال : يا أسفى

(١) ترتيب الشعر هنا غيره في الشعر والشعراء والأغاني .

عليك يا جعفر ! قال : ثم أمر بردّ مالى علىّ ، وتقليدى ما كنت أتقلده أيام جعفر ، وهو الطِّراز ، وقال لى : قد جعلت الفضل بن الرّبيع بينى وبينك ، فالقَه .

كان ابن يزدانيروذ أول من لبس شاشية

وكان عيسى بن يزدانيروذ أولَ من لَبِس شاشيّة من الكتاب ؛ وكان سبب ذلك أنه احتاج إلى لبس القباء والسيف ، من أجل ما يتقلده من نفقات الخاصة ، فلبس شاشية .

وفاة يحيى ابن خالد ومدفنه

ثم توفى يحيى بن خالد حتف أنفه فى الحبس بالرّقة ، بعد انصراف الرشيد من الرى بثلاثة أيام ، فى المحرم سنة تسعين ومئة ، وسنّه أربع وستون سنة ، فجأة من غير علة تقدمت ، وصلّى عليه ولده ، فاغتم الرشيد غمًّا شديداً ، وقال : اليوم مات أعقل الناس وأكملهم ، ثم وجّه إلى ولده: [٣٣٠] هل أوصى بشىء ، أو تقدم فى شىء ؟ فقالوا : ما عرفنا شيئاً من ذلك ، بلى ، وجدنا كتاباً كتبه وختمه ووضعه تحت رأسه ، فوجّه الرشيد بمن أخذه ، وصار به إليه ، فكان فيه : قد تقدّم الخصم ، والمُدّعَى عليه فى الأثر ، والحاكم لا يحتاج إلى بينة .

ودفن بالرافقة[1] على شاطئ الفرات ، وبُنِى على قبره بناء عال .

وفاة الفضل ومدفنه ومارثى به

ثم توفى الفضل بن يحيى من علة نالته من رُطوبة فى شقّه ولسانه ، ثم تزايدت عليه إلى أن مات فى يوم السبت لخمس خلون من المحرم ، سنة ثلاث وتسعين ومئة : قبل وفاة الرشيد بخمسة أشهر ، وكانت سنه خمساً وأربعين سنة ، وصلّى عليه أكثر الناس ، واشتد الجزع من الخاصّة والعامة عليه ، واغتمّ عليه جميعُ من عرفه ، وكثر التضاغط والتزاحم فى جنازته ، ودفن إلى جنب قبر أبيه . فقال بعض الشعراء :

ليس نبكى عليكمُ يا بنى برْ ... مكَ أن زال مُلككم فتقضّى

(١) فى القاموس : والرافقة : بلد على الفرات ، وتعرف اليوم بالرقة ، بناها المنصور

بل نبكيكم لنا ولأننا لم نر الخير بعدكم حل أرضا

حضر ابن الربيع جنازة حمدونة فذكر البرامكة بخير وتمثل بشعر لحنظلة

وحضر الفضل بن الربيع بعد نكبتهم جنازة حمدونة بنت على ، فذكر البرامكة ، فأطراهم وقرظهم ووصفهم ، ثم قال : كنا نعتب عليهم، فقد صرنا نتمناهم ، ونبكى عليهم . ثم أنشد متمثلا :

٥ عتبتُ على سَلْمٍ فلما فقدتُه وجرّبت أقواماً بكيت على سَلْمِ

حنظلة وسلم

وهذا الشعر لحنظلة بن عَرَادة، وكان صاحبَ سلم بن زياد إلى خراسان، فى أيام يزيد بن معاوية ، فعتب عليه فى شىء ، فأعتبه منه ، ثم لقى ما كره ممن قام مقامه ، لما انصرف سلم عن خراسان ، فقال هذا الشعر .

سأل الرشيد التابى عما أحدث من شعر فأنشده

وكان كُلثوم بن عمرو العتَّابى الشاعر متصلا بالبرامكة ، فلقى الرشيد ١٠ بعد قتل جعفر ، فقال له : ما أحدثت بعدى ياعتابى ؟ فارتجل أبياتاً، وأنشده إياها ، وهى :

تلوم على تركى الغنى باهليّة ذوى الدهرُ عنها كلّ طِرف وتالدِ

رأت حولها النِّسوان يرفلن فى الكُسَى مقلّدة أجيادها بالقلائد

وفيها يقول :

١٥ أسرك أنى نلت ما نال جعفر من المال أو ما نال يحيى بن خالد

وأن أمير المؤمنين أغصّنى مُغصّهما بالباترات البوارد

دعينى تجئنى ميتتى مطمئنة ولم أتجشّم هولَ تلك الموارد

[٢٣٢] فإن رفيعات الأمور مشوبةٌ بمستَوْدَعات فى بطون الأساود

شىء عن قامة بن أبى يزيد

وكان يكتب لعبد الله بن صالح قُمامة بن أبى يزيد، مولى سليمان ٢٠ ابن علىّ ، وكان يكتب لأبيه صالح بن على قبله، ولقمامة رسائل مشهورة، وبلاغة مذكورة ، وتقدم فى الدولة ، وكان جده أحدَ من اتبع من صار من الحُميمة إلى الكوفة من بنى هاشم ، من أول الدولة ، فسمى قُمامة بعبدالملك

ابن صالح إلى الرشيد ، وأعلمه أنه على أن يمكر به ، واغترّ عبدَ الرحمن ابن عبد الملك ، حتى شهد معه على أبيه بذلك ، فأحضر الرشيدعبدالملك ، فخاطبه فى ذلك ، وأعلمه شهادة ابنه عليه بما شهد به ، وكان عبدُ الملك فصيحاً بليغاً راجحاً ذا هيئة ، فقال له : أعطاك ما ليس فى عَقْده ، فلعله

٥ لا يَبْهَتُنِى بما لم يعرفه منى . فأمر الرشيد بإحضاره ، فلما حضر قال له : تكلم غير هائب ولا خائف ؛ فقال له : أقول : إنه عازم على الخلاف عليك ، والغَدْر بك ؛ فقال له عبد الملك : وكيف لا يكذب علىّ بظهر الغيب من يَبهتنى فى وجهى ، ويكابرنى ! قال له الرشيد : هذا ابنك عبد الرحمن يشهد عليك ؛ فقال له عبد الملك : هو بين أن يكون مأموراً ، أو عاقًّا

١٠ مجنوناً[1] ، فإن كان مأموراً فهو معذور ، وإن كان عاقا فهو فاجر كافر ، خبَّر الله بعداوته ، وحذَّر من فتنته ؛ فأغلظ له الرشيد ، وقال له : ما أنت منا . [٣٣٣]

نسب عبد الملك ابن صالح وحبس الرشيد له

وكانت أم عبد الملك بن صالح لمروان بن محمد ، فلما قُتل مروان بمصر أخذ صالح بن على جاريته أمَّ عبد الملك ، فولدته منه ، فبعض الناس يقول : إنها كانت حاملاً من مروان ؛ فأراد الرشيد بقوله : «لست منا» هذا ؛ فقال

١٥ عبد الملك : ما أبالى لأى الفحلين كنت ، ألصالح بن على أم لمروان بن محمد؟ فحبسه ، فلم يزل فى حبسه إلى أن مات الرشيد ، فأطلقه محمد ، وأحسن إليه .

شىء عن عبدالله بن مخلد

قال إسحاق بن سعد : حدثنى عبد الله بنُ مَخلد ـ وكان مخلد بواب ديوان الخراج ببغداد إلى أن مات ، وكان يتزيّا بزىّ الكتّاب ، وكان يقف على رأس موسى بن عبد الملك إذا جلس للمظالم ، فذكر ميمون

٢٠ ابن هارون :

أنه كان ينادى : من له حاجة ؟ ويرفع بذلك صوته ، ثم يخفضه

(١) فى الطبرى : هو مأمور ، أو عاق مجبور .

ويقول خَفِيًّا : لاتُفْضى ، وأنه حدّث بذلك موسى وهو يُمازحه ويضاحكه ،
فأحضره وضَرَبه ثلاثين مِقرعةً .

قال مخلد :

صلت ووشايته بمنصور عند الرشيد وماتم فى ذلك

كان إنسان يقال له : صَلْت ، منقطعاً إلى منصور بن بسّام ، وكان
[٣٣٤] يُحسن إليه ، وينظر له ، وطالت أيامه فى خدمته إلى أن استبطأ منصوراً فى ٥
وقت من الأوقات ، كان منصور فيه مُضِيقاً ، لم يمكنه برّه ، فاحتال صلت بقوم من
أعداء منصور ، حتى أوصلوه إلى الرشيد ، فأعلمه أن منصوراً وأصحابه أخذوا
من أمواله عشرين ألفَ ألفِ درهم ، وأنها فى منازلهم ، فقال له الرشيد :
إن كنت صادقاً أحسنّا إليك ، وإن كنت كاذباً صلبناك حيًّا ثلاثة أيام ؛
فشرط ذلك على نفسه ، ووجّه الرشيد سرًّا برشيد الخادم وإخشيد ومسرور ١٠
وعدة من الخدم ، إلى منازل آل بسّام جميعاً ببغداد ، وأمرهم بوجه الخدم
إلى منازلهم بحَبْس منصور بن بسّام ، ونَصْر بن منصور ، والحسن بن بسام ،
المعروف بأبى الحُسين ، وفرّق بينهم . وصار الخدم إلى منازلهم ففتّشوها ، فلم
يجدوا فيها مالاً ، وكان لأبى الحسين عند امرأته خمسة آلاف دينار فى قمقم ،
فلما هجم الخدم عليهم رمت به جاريتُها فى بئر ماء ، فلما أراد الخدم ١٥
الانصرافَ سألت المرأة جاريتَها عن القمقم ، فأعلمتها أنها طرحته فى البئر ،
فخافت أن يكون زوجها قد أقر بالمال ، فإذا لم يوجدْ تُوُهِّم أنهم احتالوا لستر
[٣٣٥] سائر أموالهم ، فأرسلت إلى الخادم ، فأخبرته بما فعلت الجارية ، فاستخرج
القمقم من البئر ، وحمله معه ؛ فلما صار الخدم إلى الرشيد أخبروه أنهم لم
يجدوا مالاً ، ووصف له أحدهم خبر المرأة والجارية والقمقم ، وقد كان ٢٠
استحلف منصوراً ونصراً وأبا الحسين على أموالهم ، فحلفوا أنه لا مال

عندهم ، غير أبي الحسين ، فإنه ذكر له أن عند امرأته خمسة آلاف دينار ، فأمر لمنصور عند رجوع الخدم بخمسين ألف درهم ، ولأبي الحسين بثلاثين ألف درهم ، ولنصر بعشرين ألف درهم ، وورد القمقم على أبي الحسين ، وصلب صَلْتاً بباب الجسر ثلاثة أيام ، يُنزل به في كلّ وقت صلاة ، ويُردُّ ٥ إلى الخشبة .

أمر الرشيد ابن صبيح بكتابة العهد بين أولاده

وأمر الرشيد في سنة ثمان وثمانين ومئة ، بعد نكبة البرامكة بسنة ، إسماعيل بن صَبيح أن يكتب إلى جميع العمّال بما عقد بين ولده : محمد وعبدالله والقاسم من العهد ، وأخَذَه عليهم من الأيمان ، فكتب في ذلك كتاباً مشهوراً قال في آخره : وكتب إسماعيل بن صَبيح يوم السبت لسبع ليال بقين من ١٠ المحرم سنة ثمان وثمانين ومئة .

[٢٣٦] كتب قمامة القاسم

وكان يكتب للقاسم بن الرشيد قُمامة بن أبي يزيد ، كاتب عبدالملك ابن صالح .

توفي ابن مطرف فصلى عليه الرشيد وابنه

وتوفي عمرو بن مطرّف بمكة ، وصلّى عليه الرشيد ، وقال : يرحمك الله ، فوالله ما عرض لك أمران : أحدهما لله ، والآخر لك ، ١٥ إلا أخترت ما هو لله على ما هو لك .

اضطراب الأمر بعد ذهاب البرامكة

ولمّا أنقضى أمر البرامكة ، وحصل التدبير في أيام الرشيد على ما بيّناه ، اختلّت الأمور ، وقصد الفضل بن الرّبيع لحفظ خدمة الرشيد في حضرته ، وأضاع ما وراء بابه .

وذكر الفضل بن مروان : أن أمور البريد والأخبار في أيام الرشيد ٢٠ كانت مهملة ، وأن مسروراً الخادم كان يتقلّد البريد والخرائط ! ويخلفه عليه ثابت الخادم . قال : فحدثني ثابت : أن الرشيد توفي وعندهم أربعة آلاف خريطة لم تفضّ .

وكان للرشيد خادم ، يقال له : سعيد الخَفَتانىّ ، وكان خادمًا جليلاً ،
وكان من خاصّته بالرشيد ومحلّمته ، أنه أمر العمّال [أن](١) يقبلوا كتبه ،
وينفذوا أمره فى مئة ألف درهم .

شخص الرشيد إلى خراسان

ولما شخص الرشيد إلى خراسان، لانتقاضها برافع بن الليث بن نصر
[٣٣٧] ابن سيّار ، خلّف محمداً ببغداد ، وجعل معه يحيى بن سُليم الكاتب، يكتب ٥
له ويدبّر أموره، وشخص معه إسماعيل بن صَبيح ، وكان يتقلّد ديوان الرسائل،

وشخص معه المأمون وغيره

وديوان الصوافى، وديوان السرّ، وشخص معه أيوب بن أبى سُمير يَعرِض عليه،
وكان الفضل بن الرّبيع أيضاً يعرض عليه ، وكان يكتب للفضل عبدُ الله
ابن نُعيم الكاتب ، وأشخص معه المأمون ، وعلى كتابته وأمره كلّه الفضل
ابن سهل ، وكان الرشـــيد قلّده خُراسان وجُرجان وطَبَرستان والرّىّ ١٠
وما يُضاف إليها ، وكان الرشيد قد عزم على تخليفه ، وأن لا يشخص معه ؛
فقال الفضل بن سهل للمأمون : لا تقبل، وسَله أن يُشخِصك معه ، فإنه
عليل وغير مأمون إن يحدُث عليه حادث أن يثب عليك أخوك
فيخلعك ، وأمه زبيدة، وأخواله من هاشم ؛ فسأله إشخاصَه معه، فأبى عليه،
فقال له : إنى أريد خدمتك فى هذه العلّة ، ولست أسأل حاجة ، ١٥
ولا أُحمّلك مئونة ، وأذن له، فسار معه .

زواج زياد ابن محمد بن منصور

وذكر مخلد بن أبان قال :
كنت أكتب لمنصور بن زياد ، فشَخص منصور مع الرشيد ،
واستخلف بالحضرة ابنَه محمد بن منصور ، وكان محمد سخيًّا سريًّا ، وكان
[٣٣٨] الرشيد يسمّيه « فتى العسكر » . قال: فأمرانى بحفظ الأموال، والمقام معه على السواد، ٢٠
بحضرة محمد الأمين ببغداد ، فكتب مع محمد بن منصور ، وعمل على تزويج

(١) زيادة تقتضيها العبارة .

ابنه زياد بن محمد بن منصور ، فسأل محمداً الأمين أن يزوره فى أصحابه وقوّاده وكتّابه ، من غير أن يقدم فى هذا قولاً إلىّ ، فأجابه محمد الأمين ، ثم دعانى فخبّرنى الخبر ؛ فقلت له : هذا أمر علينا فيه غلَظ ، ونحتاج إلى مال جليل ؛ فقال : قد وقع هذا ولا حيلة فى إبطاله ، وكان موضع بابه

٥ يضيق عن عَشْرِ دوابّ ، فقلت له : فإن لم تنظر فى المال والنفقة فمن أين لنا رحبة تقوم فيها دوابّ الناس ؟ فقال : لا ، والله ما أدرى ، والتدبير والأمر إليك ؛ ففكرت فى إحسانهم إلى جيرانهم ، فخرجت إلى مسجد على بابه ، فجمعتهم وأعلمتهم ماعزم عليه محمد بن منصور ، من أمر ابنـه واستزارته الأمين محمّدا ، وأنه لا رحبة له ، وسألتهم تفريغَ منازلهم ،

١٠ و إعارتنا إياها جمعة ، أوعشرة أيام ، حتى نَهْدمها ، ثم نبنيها إذا استغنينا عنها أحسن بناء وأحكمه . قال : فقلت هذا القول ، وأنا متخوّف أن يجيبونى مالا أحبّ ؛ فقالوا جميعاً بلسان واحد: نعم ، وكرامة ومسرة، غداً نفرغها. فشكرت ذلك لهم ، وقاموا من حضرتى ، وأخذوا فى تفريغ منازلهم ، [٣٣٩] وكان أكثرها باللّبِن والأخصاص ، فهدمناها ، وجعلناها كأنها رحبة ،

١٥ وأتانا الأمين، فأنفقنا أموالاً جليلة ، وكانت التوالى فى تِيغارات فضة ، وأكثر الشمع من عنبر فى طِساس ذهب ، ثم انقضى العُرس ، فبنيت للجيران منازلهم بالجص والآجرّ .

بعض ماامدح به ابن منصور من الشعر

وفى محمد بن منصور يقول أشجع السلمى :

على باب ابن منصور عـــلاماتٌ من النُّبْل

٢٠ جماعات وحسب البا ب فضلا كثرة الأهل

وفيه يقول الخريمى :

زاد معروفك عندى عظماً أنه عندك مستور يسيرُ
تتناساه كأنْ لم تأته وهو عند الناس مذكور كثيرُ

سئل الخريمى عن إجادته مديح ابن منصور دون رثائه فأجاب

وقال محمد بن يوسف للخريمى : ما بال مديحك منصور بن زياد خيراً من مراثيه ؟ فقال الخريمى : لأن المدح للرجاء ، والمراثى للوفاء ، وبينهما بون بعيد . ٥

سأل الفضل بن زياد بعد وفاة أبيه عبدالله حاجة فأجابه

قال الفضل بن محمد بن منصور بن زياد :

أتيتُ عبدَ الله بن العبّاس العلوىّ فى حاجة لبعض جيراننا ، بعد وفاة أبى ، وكانت بينه وبينى مودةٌ وثقت بها ، ثم قلت له : جئت فى حاجة إن سهل قضاؤها أعظم الأمير بها المِنة ، وإن تعذّر فالأمير معذور ؛ فقال لى : [٣٤٠]
ياحبيبى ، إذا كنت معذورا فلم جئتنى ؟ احفظ عنى : إذا أوجبت على نفسك أن تنهض لرجل فى حاجة ، فأغضب بها وأرض ، وإلا فالزم منزلك . ١٠

سأل عمرو الأعجمى عبدالله بن مالك أن يحط عنه خراج ضيعة ففعل وزاد

وكان عبد الله بن مالك ولى خراج طَساسيج خَرْجان[١] فى أيام الرشيد ، وكان يكتب له حماد بن يعقوب ، وكان لعمرو الأعجمىّ هناك ضيعة ، فقال عمرو لليمان بن مسلمة كاتبه : لو صرت إلى حمّاد بن يعقوب ، كاتب عبدالله ابن مالك ، فسألته أن يكلّم صاحبه فى وضع شىء من خراجنا عنا ، وأدّيت ١٥ إليه رسالة منى فى ذلك ؟ فصار اليمان إلى باب حمّاد ، فقدّم إليه غلام أسود بغلةً قد ألجمها على رَسنها ، فلما ركب قرعت سلسلة الرسَن حلقة اللجام، فآذاه صوته ، فقال : يا غلام ، أليس قد تقدمت إليك ألا تلجم البغلة [٣٤١] على رسنها ، ثم عدل إلى بعض المساجد فنزل ، وخلع الغلام الرسن ، وأعاد اللجام ، وحمل الرسن معه ، فقلت فى نفسى : ما عند هذا خير ؟ كم ترى هذا ٢٠ يسمح أن يتحمل لصاحبى من الخراج ؟ قال : ثم قلت أكلمه على كل حال

(١) فى الأصل : « خرجى » ولم نجد فى معاجم البلدان ناحية بهذا الاسم وإنما وجدنا « خرجان » فلعل ما كان فى الأصل محرف عن هذا .

إذ قد صرت إليه، فكلّمته؛ فقطع علىّ الكلام، وقال: إذا استقرّ بنا المجلس، فسل حاجتك، ثم صار إلى دار صاحبه، ثم إلى ديوانه، فجلس على بارِيّة[1]، ونظر فى أعماله، ونفذ أموره إلى نصف النهار، ثم ركب، وأمرنى بالركوب، فقمت، فلما بلغنا باب منزله دقّه الغلام، فخرجت جارية

٥ خِلاسيّة[2]، ففتحته، ودخل فأذِن لى، فدخلت، وهو فى بيت مرشوش، وفيه حصير ومَساور جلود، وجيء بماء فغسل يديه، وأمرنى بغسل يدى، ثم جاءته الجارية بمائدة، عليها رغفان، وبقل، وخل، وملح، وأتته سكباج، فأكلنا منها، حتى لم يبق منها شيء، ثم قال: يا جارية، هى طيبة فزيدينا منها، فزادتنا، ثم أتت بلون آخر، فتناولنا منه، ثم رفعت المائدة، وغسلنا

١٠ أيدينا، ثم قال: هات الآن حاجتك؛ فأديت إليه رسالة صاحبى؛ فقال: وكم خراجه؟ فقلت: ثمانية عشر ألف درهم، فدعا بالدواة والقرطاس، وكتب إلى عامله بترك العرض للوكيل، وأعطاه رُوزا بها للاحتساب بها [٣٤٢] فى أرزاقه، ثم قال: وكم خراجك أنت فى نفسك؟ فقلت: قد حملت أصلحك الله على نفسك، وما كنت لأكلفك شيئاً لى؛ قال: إذاً

١٥ لا أعطيك الكتاب فى أمر صاحبك؛ فقلت له، بعد أن حادثته ساعة: ثمانية آلاف درهم؛ فكتب لى أيضاً باحتمالها.

رأى الرشيد رجلا بمكة فاسمت فأعجب بعقاله وأجازه

وكان الرشيد حج بعد نكبة البرامكة، والمدبّر لأمره الفضل ابن الربيع، فلما صار بمكة رأى فى الحِجْر رجلا له هيئة وسَمْت يصلّى، فقال للفضل: يا عباسى، جئنى بهذا الرجل؛ فقصده الفضل وهو قائم فى

٢٠ صلاته، فانتظر انفتاله من الصلاة، فأطالها، فجذب ثوبَه الفضلُ، وقال له: أجب أمير المؤمنين؛ فخفّف الرجل صلاته، وقال له: مالى ولأمير المؤمنين!

(١) البارية: الحصير المنسوجة.

(٢) الخلاسية: الجارية بين أبيض وسوداء أو بين أسود وبيضاء؛ وقيل هى التى أمها سوداء وأبوها عربى، فيجيء لونها بين لونيهما.

فقال : هو ما ترى وتسمع . فقام وهو يتهادى فى مشيته من الكِبَر . قال :
فلما أُتيت به الرشيد عرّفته خبره ، فدعا به لما فرغ من طوافه ، فلما رآه
قال له : من الرجل ؟ فقال له : يأمير المؤمنين ، إن الأنساب تمنع من
الاكتساب ؛ فقال له : لتخبّرنى ؛ قال : فأذكر نسبى آمناً ؟ فأمّنه ، فانتسب
إلى الحسين بن علىّ بن أبى طالب ، فَقُذِفت له فى قلب الرشيد رحمة ، ٥
ثم قال له : إن أمير المؤمنين قد قدّر عندك ، لِمَا رأى من سمتك ، إصابةَ
[٣٤٣] الرأى ، فما عندك فيما كان من أمير المؤمنين من العهد الذى عهده إلى ولاة
العهد ؟ فاستعفاه من الجواب ، فلم يعفه ، وقال له : أنت آمن ، فقل بكل لسانك
كل ما عندك ؛ فقال : يأمير المؤمنين ، رأيتك قد أخذت ثلاثة أسياف
مشحوذة ، فجعلتها فى غِمد واحد ، فانظر ما يكون بينها ، فأطرق الرشيد مليًّا ، ١٠
ثم قال للفضل بن الربيع : يا فضل ، أعطه ثلاث مئة دينار ، واجعلها دارّة
عليه فى كل شهر باقِىَ عمر أمير المؤمنين .

وصية شيخ من قدماء الكتاب

وحضر ديوانَ الخراج فى أيام الرشيد شيخٌ من قدماء الكتّاب ، ومعه
توقيع الرشيد بقضاء دين عليه ، فعُنِى الكتّاب به ، وزجّوا كتابه ، فقال
لهم : احفظوا عنّا ثلاثاً : الجوار نسب ، والمودة نسب ، والصناعة نسب . ١٥

فرج وشىء عنه وعن سببه

وكان فرج الرُّخَّجِىُّ مملوكاً لحمدونةَ بنت الرشيد ، وهى المعروفة بحمدونة
بنت غُضَضَ ، ولحق ولاؤه بالرشيد ، وكان زياد أبوه من سبى معن
ابن زائدة ، وكان فرج سُبِى معه عند غزو معن الرُّخَّج .

قال[1] عمر بن فرج قال[1] : حدثنى أبى ، قال :

كنت مع أبى زياد فى عسكر معن ، فى جملة من سباه من ٢٠
[٣٤٤] الرخّج ، وكان قد سَبى شيئاً كثيراً ، وغنم غنائم جليلة ، فنزل وعسكر

(١) يظهر أن إحداهما مقحمة .

وحطت الأثقال ، ونُزعت السروج عن الدّواب ، فبينا هم كذلك أبصروا غباراً ساطعاً ، وظنوا أنه الطلب ، فأمر معن بقتل الأسرى ، فقتلوا نحواً من أربعة آلاف ؛ قال : فأخذني أبي ، فجعلني تحت الأُكُف[1] ، وقام في وجهي ، وقال : لعلك إن قتلتُ أنا أنْ تسلم أنت ، فنظروا ، فإذا هي ٥ حمير وَحْش ، والغبار لها ، وقد قُتل بسببها أربعة آلاف .

هجاء بعض الشعراء لفرج

ونظر أعرابيّ إلى نُبْل قصر فرج الرُّخَّجيّ ، فقال :

لعمركَ ما طُـــول البناء بنافع إذا كان فَرْعُ الوالدين قصـــيرا

وشى للرشيد بفرج فأحضره ثم عفا عنـه وأجازه

وكان الرشيد قلّد فرجا الرُّخَّجيّ الأهوازَ ، فكثُرَعليه عنده ، واتصلت السعايات به ، وتظلمت رعيّته منه ، وادُّعى عليه أنه قد اقتطع مالاً كثيراً ١٠ من مال البلد ، فصرفه بمَخْلد بن أبان الأنباري ، في سنة اثنتين وتسعين ومئة .

وَحَدث للرشيد سفر ، فشَخص ، وأمر فرجاً بالخروج معه ، فلما صار ببعض المنازل دعا به ، فقال مطهّر بن سعيد كاتب فرج : فلما أمر بإحضاره حضر وأنا معه ، ولسنا نشكّ في إيقاعه به ، وإزالته نعمته ، فوقفت بباب مَضرب الرشيد ، فدخل فرج إليه ، فبينا أنا أتوقع خروجه على حال يكرهها ، خرج ١٥ وعليه الخلع ، فتضاعفت النعمة عندى ، وأكثرت الشكر لله جلّ وعزّ على السلام ، وسرت معه حتى وصلت إلى منزله ، فلما خلا سألته عن خبره ؟ فقال : دخلت إليه ووجهه إلى المغرب ، وظهره إليّ ، فلما أحسّ بي شتمني أقبح شتيمة ، وتوعدني أشدّ توعّد ، وقال لى : يا بن الفاعلة ، رفعتك فوق قدرك ، وائتمنتك فخنتني ، وسرقت مالي ، وفعلت وفعلت ، والله لأفعلنّ ٢٠ بك ولأفعلنّ ؛ فلما سكت قلت له : القول كما قال سيدى ، وأكثر منه في إنعامه

[٣٤٥]

---

(١) الأكف : جمع إكاف ، وهو من المراكب ، شبه الرحل والقتب .

علىّ ، وحلفت بأيمان البيعة أنى قد نصحت وشكرت الصنيعة ووفرت ، وما سرقت ولا خنت ، ووالله لأصدقنك عن أمرى : عمّــرتُ البلاد ، واستقصيت حقوقك من غير ظلم ، ووفّرت أموالك ، وفعلت مايفعله الناصح لسيده ، وكنت إذا كان وقت بيع الغلات جمعت التجار ، فإذا تقررت العطايا أنفذت البيع ، وجعلت لى مع التجار فيه حصة ، فربما ربحت ، وربما وضعت ، إلى أن اجتمع لى من ذلك ومن غيره فى عدّة سنين عشرة آلاف ألف درهم ، فاتخذت أزَجاً[1] كبيراً ، عقدبالجصّ والآجر ، كأنه مجلس ، وجعلت بين يديه موضعاً أقعد فيه ، وعبّيت البدور شيئاً بعد شىء فى الأزَج ، ثم سددته ، وهو بحاله ، ما أشكّ أن العنكبوت قد نسجت على مافيه ، فخذها ، وحوّل وجهك إلى عبدك ، وكرّرتُ القول والحلف على صدق ؛ فقال لى : بارك الله لك فى مالك ! فارجع إلى عملك ودار رعيتك .

[٣٤٦]

عبد الله ابن عمر وسليمان بن راشد

حدثنا علىّ بن أبى عون قال: حدثنى الفضل بن مروان .

أن الرشيد صرف عبد الله بن عمر عن ديوان الخراج بسليمان بن راشد ، وأمره بالاستقصاء عليه . فجلس سليمان بن راشد فى مجلسه ، ودعا بعبد الله ابن عمر ، فجلس بين يديه ، فقبْل أن يناظره بشىء دخل الفضل بن يونس على سليمان ، فسلّم عليه ، فأوسع له سليمان إلى جانبه ، فالتفت الفضل بن يونس إلى سليمان بن راشد ، فقال له : ياأبا أيوب ، أوسع مجلسك ، وأومأ إلى موضع عبد الله بن عمر ؛ فقال له سليمان : ما أردت بهذا ؟ فقال له : إن المجلس الذى جلس هذا فيه اليوم ، ستجلس أنت فيه غدا ، فمن ثم قلت : أوسع مجلسك ، فحلف سليمان أنه لا يحاسب عبد الله بن عمر ، ولا ينظر له فى أمر .

(١) الأزج : بيت يبنى طولا .

[٣٤٧] وفاة الرشيد بطوس وقصته مع بكر بن المعتمر

ولما صار الرشيد بطُوس ، واشتدّت علّته ، اتصل خبره بمحمد الأمين ، فوجه ببكر بن المعتمر ، وجعل له فى كلّ يوم ألف دينار ، ودفع إليه كتباً إلى الفضل بن الربيع ، وإسماعيل بن صبيح وغيرهما ، يأمرهم بالقفول إلى مدينة السلام إن حدثت بالرشيد حادثة ؛ وكان الرشيد ٥ قد جدّد الشهادة للمأمون بجميع ما فى عسكره ، من مال وأثاث وخُرْثِيّ[1] ورقيق وكُراع[2] ، وأمر بإقرار الجميع معه ، وتسليمه إليه ، إن حدثت به حادثة . فلما ترك بكر بن المعتمر عسكر الرشيد ، وكانت معه كتب ظاهرة بعيادته ، وكتب باطنة إلى القوم بالقُفول ، والاحتياط على ما فى العسكر ، واتصل خبر الكتب الباطنة بالرشيد ، وأمر بإحضاره ومطالبته بالكتب ، ١٠ فجحدها .

قال عبد الله بن عبد الله بن طاهر : فحدثنى محمد بن منصور بن زياد قال : حدثنى أبى ، قال :

كنت مع الرشيد بطُوسَ فى علّته التى مات فيها ، وقد ورد بكر ابن المعتمر بالكتب ، والمأمون حينئذ بمَرْو ، وقد ظفر بأخى رافع ١٥ ابن الليث ، وأُحْضِر فى ذلك اليوم ومعه قَرابة له ، فَحُبِسَا ، فخلع الرشيد [٣٤٨] على بكر ، وصرفه إلى منزله ، ثم أمر بإحضاره ومطالبته بالكتب ، فجحدها ، ودافع عنها ، فأمر بحبسه . قال : ثم جلس الرشيد جلوساً عامًّا فى مَضْرِبِ خَزٍّ أسودَ ، استدارته أربعُ مِئة ذراع ، وفى أركانه أربع

(١) الخرثى : متاع البيت ؛ وقيل : أردأ المتاع .
٢٠ (٢) الكراع : الخيل ؛ وقيل : هو اسم يجمع الخيل والسلاح .

قباب مغشّاة بخزّ أسود ، وهو جالس فى فازَة[1] خزّ سوداء ، فى وسط المَضْرِب ، والعمد كلها سود ، وعليه جبة سوداء خزّ بغير قميص ، وعليها فَنَك[2] قد استشعره ،لشدّة ماهوفيه من البرد والعلة ، وفوقها دُرّاعةُ خزّ سوداء مُبطَّنة بفَنَك ، وعلى رأسه قلنسوة طويلة ، وعمامة خزّ سوداء ، ٥ وَطَيلسان أسود ، وسيف بحمائل ، وتحته أحدَ عَشَرَ فِراشاً خزّاً أسود ، والوسائد والمخادُّ وسائرِ ما يقرب منه خزّ أسود ، وهو لما به[3] ، وخلف المُسنَد خادم يمسكه بيده، لئلايميل ، والفضل بن الرّبيع جالس بين يديه ، فقال للفضل : مُرْ بكرًا بإحضار ما معه من الكتب السّرية ، فأنكرها وقال : مامعى إلا الكتب التى أوصلتها ؛ فقال الرشيد للفضل : تَوَعَّدْه ، ١٠ وأعلمه أنه إن لم يفعل بلغتُ منه غاية المكروه ؛ فأقام بكر على الإنكار [٣٤٩] والجحود ، فسمعته يقول الخادم بصوت خفىّ : قل للفضل : قَنِّبُوهُ ، فَنُحِّىَ بَكْرٌ ، وجيء بالقِنَّب ، فقُنِّبَ من قَرْنه إلى قدمه ؛ قال بكر : فأيقنت بالموت ، ويئست من نفسى ، وعملت على الاعتراف ، فأبى على ذلك حتى أمر بإحضار مروان أخى رافع ، وقَرابتِهِ الذى كان معه ، ١٥ فأحضر ؛ فقال له الرشيد : أيتوهم رافع أنه يغلبنى ، والله الذى لا إله إلا هو ، لو كان معه عددنجوم السماء ، لَتَلَقَّطْتُهُمْ واحداًواحداً ، حتى أقتلهم عن آخرهم ؛ فقال مروان : أللهَ اللهَ فىّ ياأمير المؤمنين ، فإن الله أعلم وأهلَ خراسان جميعاً أنى مازلت بريئاً من أخى ، ومما هو عليه منذ عشرين سنة ، وإنى لأشير عليه بلزوم الطاعة ، وترك ما هو بسبيله ، ٢٠

(١) الفازة : خيمة بعمودين تكون فى العسكر .
(٢) الفنك : دابة يفترى جلدها ، أى يلبس جلدها فروا .
(٣) فى الطبرى : وهو لما به .

فلا يقبل ، وإننى للملازم لمسجدى وصلاتى ومنزلى ، فاتق الله فىّ ، وفى هذا الرجل ؛ فقال له قرابته : قطع الله لسانك ! إنا والله منذ كنا وكنا ندعو بالشهادة ، فلما رُزِقناها على يدى شرّ خلقه ، أخذتَ فى الاعتذار .
فاغتاظ الرشيد من ذلك ، وقال : علىّ بجزّارين ؛ فقال له قرابة مروان :
٥ افعل ماشئت ، فإنا نرجو أن يرزقَ اللهُ الشهادة ، ونقف نحن وأنت بين يدى الله عزّ وجلّ فى أقرب مُـــدّة ، فتعلمَ كيف يكون حالك ؛ [٣٥٠]
فنُحِيا ، وأمرَ القومَ بتفصيلهم عُضْوًا عضوًا ، فوالله ما فُرِغ منهما حتى تُوُفِّى الرشيد .

قال بكر : فأنا أتوقع خروج نفسى ، حتى أتانى غلام لأبى العتاهية
١٠ قد بعث به إلىّ مولاه ، وكتب فى راحته شيئًا ، فقرأته ، فإذا هو :

هى الأيام والغِـيَر   وأمرُ الله يُنتظرُ
أتيأسُ أن ترى فرجًا   فأين اللهُ والقَدَرُ

فوثقت بالله عزّ وجلّ ، ولم أفهم معناه ، ثم سمعت ناعية ، وإذا بالفضل ابن الرّبيع قد أقبل يُريدنى ، فلما قرب منى قال : حُلُّوا عن أبى خُلَيْدة ،
١٥ فقلت : ليس هذا وقتًا تُـــكنّينى فيه ، فدعا بخِلَع، فخلعت علىّ ، ثم قال لى : أعظم الله أجرك فى أمير المؤمنين ، وأخذ بيدى ، فأدخلنى بيتًا وهو مُسَجًّى فيه، وكشف عن وجهه ، فلما رأيته ميتًا، قال لى : هاتِ الـكتبَ التى معَكَ ؛ فأحضرت صندوقًا للمطبخ ، قد ثُقِبَتْ قوائمه ، وجُعلت الـكتب فيها ، وجُعِل الجلد فوقها ، فشُـــقّ الجلد ، وكُسرت القوائم ،
٢٠ وسلّم بكر الـكتب إلى أصحابها ، وأخذ الأجوبة وانصرف[1] .

(١) فى هامش الأصل (ص ٣٥٠) مايأتى :

[٣٥١] وكان فيما كتب به محمد إلى المأمون(١) ، فى كتاب طويل ، فصل قال فيه :

كتاب الأمين إلى المأمون بعد وفاة الرشيد

واضمم إلى الميمون بن الميمون الفضلِ بن الربيع ولد أمير المؤمنين رحمه الله وحُرَمَه وأهْلَه ، وأمُره بالمسير معهم ، فيمن معه من رابطته وجنده.

وفى فصل آخر منه :

وإياك أنْ تُنْفِذَ رأيا ، أو تُبرم أمراً ، إلا برأى شيخك، وثقة آبائك ، الفضل بن الربيع ، وأقِرَّ الخدمَ على ما فى أيديهم من الأموال والخزائن والسلاح ، ولا تخرجن أحداً منهم عن ضمْن مايلى، إلى أن تَقْدَم علىّ به ، وإن أمرت لأهل عسكرك بعطاء أو رزق ، فليكن الفضلُ بن الربيع المتولّىَ لإعطائهم ، على دفاتر يتخذها لنفسه ، بمحضر من أصحاب الدواوين، فإن [الفضل بن] الربيع(٢) لم يزل يتقلد مثل ذلك عند مهمات الأمور . وأنفذ إلىّ عند وصول كتابى هذا إسماعيل بن صبيح و بكر بن المعتمر ، على مَرْكَبِهما من دوابّ البريد .

---

* وصحت فى غير هذا الكتاب ، أن الرشيد رأى فى النوم كأن قائلا يقول له : إنك تموت بطوس وفى كفه تراب ، فقال له : وهذا من تربتك بها ؟ فلما أتى طوس فى السفرة التى توفى فيها وجد رقعة فيها مكتوب :

ما أنْتَ مُعْتَبِرٌ بِمَنْ خَرِبَتْ ... مِنْهُ غَدَاةَ قَضَى دَسَاكِرُهُ
وَبِمَنْ أذَلَّ الدَّهْرُ مَصْرَعَهُ ... فَتَبَرَّأَتْ مِنْـهُ عَشَائِرُهُ
أيْنَ المُـلُوكُ وأيْنَ جُنْدُهُمُ ... صارُوا مَصِيرًا أنْتَ صَائِرُهُ
نَلْ مابَدَا لَكَ أنْ تَنَالَ مِنَ الدُّنْيَا فإنَّ المَوْتَ آخِرُهُ

(١) الذى فى الطبرى أن الأمين كتب بهذا الكلام إلى أخيه صالح ، أما كتابه إلى المأمون فليس فيه شىء من هذا .

(٢) ما بين القوسين زيادة من الطبرى تصحح بها العبارة ، كما يفهم من السياق .

كتاب الرشيد وولاة أمره

وتُوُفِّىَ الرشيد فى جمادى الآخرة من سنة اثنتين وتسعين[1] ومئة ، وعلى نفقاته وتدبير أموره الفضل بن الربيع ، وعلى ديوان الرسائل وديوان السرّ وديوان الضياع وديوان الصوافى إسماعيلُ بن صَبيح ؛ وعلى ديوان الجند ابنُ الشُّخَيْرِ المَذَلىُّ وعبدُ الله بن عَبَدَة الطائى ؛ وعلى ديوان الخراج [٣٥٢] بالسواد ، سليمان بن عمران ؛ وعلى ديوان خراج الشام ومصر وإفريقيةَ ٥ والموصل وأرمينيَة وأذْرَبيجانَ والمدينة ومكة واليمن ، علىّ بن صالح ، وعلى ديوان خراج الجزيرة محمد بن إسماعيل بن صَبيح .

المأمون والفضل ابن الربيع وما أشار به عليه الفضل ابن سهل

وجدّ الفضلُ بن الربيع فى السير بالعسكر بجميع ما فيه ، ولم يعرِّج على المأمون ، ولا التفت إليه . فلما اتصل الخبر بالمأمون همّ بأن يلحقهم ١٠ فى ألفى فارس خيل جريدة ؛ فقال له الفضل بن سهل : إن فعلت هذا لم آمن أن يقبضوا عليك ، ويجعلوك هدية إلى محمد ، ولكن تقيم وتكتب إليهم كتاباً ، وتوجه إليهم رَسُولا ، يذكّرهم البيْعَةَ ، وتسألهم الوفاء ؛ وتحذرهمُ الغَدْر والحِنْثَ . فقبل ذلك المأمون ، ووجّه بسهل بن صاعِد ، وكان على قَهْرَمَتِه ، وكان عاقلا حازماً ، وبنوفلٍ الخادم مولى ١٥ المهادى ، وكتب معهما ، فلحقا الفضل بن الربيع والعسكر بنَيْسَابور ، فلم يقبلوا منهما ، ولا التفتوا إليهما ، فانصرفا بالخبر إلى المأمون ؛ فقال له الفضل بن سَهْل : هؤلاء أعداء قد استرحت منهم ، وبعدوا عنك ، ولكن افهم عنى شيئاً أقوله : إن هذه الدولة لم تكن قط أعزّ منها فى [٣٥٣] أيام أبى جعفر ، فخرج عليه المقنّع يطالب بدم أبى مسلم ، فتضعضع العسكر

٢٠ (١) المعروف أن الرشيد مات فى جمادى الآخرة ؛ وقيل فى جمادى الأولى من سنة ثلاث وتسعين ومئة . (راجع العقد الفريد ومروج الذهب) .

لخروجه، ثم خرج بعده يوسف البَرْم[1] وهو كافر ، فقامت عليه القيامة ، ثم خرج بعده أستاذسيس[2] يدعو إلى الكفر ، فشخص إليه المهدىّ من الرىّ إلى نيسابور ، ثم هذا بالأمس كيف رأيت الناس لما ورد عليهم خلع رافع بن الليث ؟ فقال : رأيتهم اضطربوا اضطراباً شديداً ؛ قال : فكيف بك وأنت نازل فى أخوالك وبيعتك فى أعناقهم ، كيف يكون اضطراب أهل بغداد ؟ اصبرْ قليلا وأنا أتضمّن لك الخلافة ؛ فقال له المأمون : قد فعلتُ ، ووالله لأشكرنّك .

رأى ابن سهل للمأمون لجمع الكلمة له

ولما أجمع المأمون على المقام بخُراسانَ ، قال له الفضل بن سهل : إن هؤلاء الرؤساء كعبد الله بن مالك ويحيى بن مُعاذ وغيرهما أنعم لك منّى ، لما قد شُهِر وتقدّم من رياستهم ، وما عندهم من القوة على الحرب ، فدعنى أكن خادما لك ، حتى تصير لى محبتك ، وتجعل إليهم ظاهر الأمر ؛ فقال له : أفعلْ ما رأيت ، فلقيهم الفضلُ بن سهل فى منازلهم ، وذكّرهم البيعةَ، وما يجب من الوفاء بها . قال : فكنت كأنى آتيهم بجيفة ٥ على طبق لا يحلّ أكلها، فيدفعنى بعضهم، ويقول بعضهم: ومن يدخل بين [٣٠٤] أمير المؤمنين وأخيه ؟ فعرف المأمون ذلك ، فقال له : قم أنت بالأمر ؛ فقال له الفضل : قد قرأتَ القرآن ، وفهمتَ أمر الدّين ، والرأى أن تجمع الفقهاء ، وتدعوهم إلى الحقّ ، والعمل به ، وإحياء السنة ، وأن تقعد على اللبود ، وأن تواصل النظر فى المظالم ، وتكرم القوّاد والملوك ، وأبناء الملوك ، ١٠

---

(١) كذا فى الطبرى وفهرست الجهشيارى . وفى الأصل : « البزم » بالزاى وهو تصحيف .

(٢) فى الأصل : « أتناسيس » ، والتصويب من الطبرى وفهرست الجهشيارى .

فضل ذلك ؛ وكان يقول للتميمي : نقيمك مقام موسى بن كعب ، ويقول للربعيّ : نقيمك مقام أبي داوُد ، ويقول لليماني : نقيمك مقام قَحْطَبَةَ ومالك بن الهَيْثم ؛ وحطّ عن خُراسان ربع الخَراج ، فكانوا يقولون : ابنُ أختنا وابن عمّ رسـول الله . ولمّا رأى رافعُ بن الليث ٥ سيرةَ المأمون انقاد له ، ودخل فى طاعته ، فى سنة أربع وتسعين ومئة ، فأعطاه الأمان ، فصار إليه ، فأكرمه ، وخُصّ به .

رقعة المأمون التى كتبها لابن سهل يذكر نهجه إن نال الخلافة

ولمّا خُصّ الفضل بن سهلٍ بالمأمون ، وتبيّن نجابته ، ودلّته النجومُ على أنه يلِي الخلافة ، طالبه بأن يكتب له رقعة بخطه ، فكتب له رقعة نُسْخَتها :

١٠ [٣٥٥] جعلت لله على نفسى إن استرعانى أمور المؤمنين ، وقلّدنى خلافته فى خلقه ، العملَ فيهم بكتابه وسنةِ رسوله ، محمد صلى الله عليه ، ولا أسفك دمًا عمداً إلاّ ما أحلّته حدوده ، وسفكته فروضه ، وأن لا أنالَ من أحد من المخلوقين مالا ولا أثاثاً غصباً ، ولا بحيلة تحرُم على المسلمين ، ولا أعمل فى شىء من الأحكام بهواى ، ولا بغضـبى ، إلا ما كان منهما فى الله ١٥ عزّ وجلّ وله ، وجعلت ذلك كلّه عهداً مؤكداً على أن أفِيَ به ، رغبة فى زيادته إيّاى ، ورهبة من مُسَاءلته لى عنـه ، فإنه جلّ وعزّ يقول : « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً » ، فإن حُلْت أو غيّرت كنت للّعن مستحقّاً ، وللنكال متعرّضاً : وأعوذ بالله من سَخَطه ، وأرغب إليه فى المعونة لى على طاعته ، والحؤول بينى وبين معصيته ، فى عافية لى ولجماعة ٢٠ المسلمين ، وأن يسهل لى ما يحب ويرضى فى جميع أمورى ، إنه قريب مجيب ، وعلى ما يشاء قدير .

وكتبتُ بخطى .

اليزيدى والفضل

[٣٠٦]

وكان يونُس بن الرَّبيع يحجُب للمأمون ، وهو ولىّ العهد ، فدعا يونُس يومًا أبا محمدٍ اليزيدىّ ، فأقام عنده ، فصار إليه الفضل بن سهل ، فتحادثا وتفاوضا ، فقال له اليزيدىّ فى بعض قوله : إن الأمير جميل الرأى فيك ، مستخفّ لك ، حامد لخدمتك ، وإنى لأرجو أن يبلّغك الله مَبْلَغًا تمكن منه معه ، وتملك ألفَ ألفِ درهم . فاستشرى الفضل غضباً ، ثم قال له : ما هذا الكلام ؟ أهاهنا موجِدة ؟ أهاهنا حقد ! أهاهنا حقد ! أهاهنا ما يوجب هذا ! فقال له : ما أنكرتَ حتى أخرجك إلى هذا ، مع مودّتى لك ، وميلى إليك ؟ فقال له : تقول لى : تملك ألف ألف درهم ؟ قال : فما أنكرتَ ، وما الذى تريد ؟ قال : والله ما صَحِبت هذا الأمير لأكسب معه مالاً قلّ أو كثر ، وإن همتى لتتجاوز كلّ ما يجوز أن يُملك ، قال : فلما صحبته أخرج خاتمه من يده ، ثم قال : ليجوز طابع هذا فى الشرق والغرب ، لهذا خدمته ، ولهذا صحبته . فما طالت المدة حتى بلغ الأمل .

ابن سهل وما حدث بينهما بشأن المأمون

الفضل والحسن وخادم الرشيد لم يعيبا بأدبه

وكان الفضل والحسن ابنا سهل، والمأمون ولىّ عهد ، عند بعض الخدم المتقلدين للأعمال فى أيام الرشيد ، وأنه دخل على الخادم فتى كان يلى له شيئًا ، فلما رآه ضحك ، ثم قال له : هذه مِشْيَةٌ تعلمتها بعدك ، فانظر : أهى أحسن أم ما كنت أمشى، حتى أنتقل عنها ؟ ثم غيّر مِشْيته ، وجاء فجلس ، فأتى برُعونات كثيرة ، فلم يزل الخادم يحتال له ، حتى خرج ، ثم قال لهما : إن بعض الناس يحب أن يظهر خاصّية ليست له ؛ فلما خرجا من عنده، قال الحسن للفضل : تُعَذِّبُ[1] نفسك ثلاثين سنة من ذى قبل ، بالصيانة

[٣٠٧]

(١) فى الأصل : « عتب » وما أثبتناه أولى .

والمروءة وطلب الأدب ، ومثل هذا يلى الأعمال ! فقال له الفضل : لو حُمِلَ هذا، وضُرِبت استه بالدِّرَّة، خرج منه عونُ صِدْق . إن الناس جميعاً لو حُملوا على الصلاح صَلحوا ، ولكنهم يموتون من قلة التفقد ، والترك بغير أدب .

أدب الفضل إنساناً بالضرب

وحكى أن الفضل بن سهل ولَّى إنساناً شيئاً ، فأساء فيه ، فأمر بحمله ، فضَرَبَ استَه بالدِّرة ، ثم قال له : قد أدبتك بهذا ، فإن صلحت وإلا اطرحناك .

صورة لقائمة من قوائم الخراج أيام الرشيد

وجدت فى كتاب عمله أبو الفضل محمد بن أحمد بن عبد الحميد الكاتب، فى أخبار خلفاء بنى العباس ، بخط أبى الفضل ، يقول :

أنفذ إلىّ أبو القاسم جعفر بن محمد بن حَفْصٍ رقعةً ، انتسخها من دواوين الخراج : الكاتبُ ، ذكر فيها أن أبا الوزير عُمَرَ بنَ مُطَرِّف الكاتب من أهل مَرْو ، وأنه كان يتقلد ديوان المشرق للمهدى ، وهو ولىُّ عهد ، ثم كتب له فى خلافته ، ولموسى ولهارون ، وأنه عمل فى أيام الرشيد تقديراً عرضه على يحيى بن خالد ، لِمَا يُحمل إلى بيت المال بالحضرة من جميع النواحى ، من المال والأمتعة ، نسخته :

[٣٥٨]

١ ـ أثمان غَلَّات السَّواد

ثمانون ألفَ ألفٍ ، وسبعُ مِئةِ ألفٍ ، وثمانُون ألفَ دِرْهم .

٢ ـ أبوابُ المال بالسَّواد

أربعةَ عشرَ ألفَ ألفٍ ، وثمانى مِئةِ ألف درهم .

الحُلَلُ النَّجرانيّة : مِئتا حُلّة .

الطين للختم : مِئتان وأربعون رِطلا .

٣ ـ كَسْكَر

أحدَ عشَرَ ألفَ ألفٍ ، وستُّ مِئةِ ألفِ درهم .

٤ ـ كُوَرُ دِجْلَة

عِشْرونَ ألفَ ألفٍ، وثمانِي مِئة ألفِ درهم .

٥ ـ حُلْوَانُ

أربعة آلاف ألفٍ، وثماني مِئة ألفِ درهمٍ .

٦ ـ الأَهواز

خمسة وعشرونَ ألفَ ألفِ درهم .

السُّكَّرُ : ثلاثون ألفَ رِطل :

٧ ـ فارس

[٣٥٩] سبعة وعشرون ألفَ ألفِ درهم .

ماء الزبيب الأسود : عشرون ألفَ رِطل .

الرُّمّان والسفرجل : مئتا ألفٍ وخمسون ألفاً .

ماء الوردِ : ثلاثون ألف قارورة .

الأَنْبَجات[١] : خمسةَ عشرَ ألفَ رِطلٍ .

الطين السِّيرافي : خمسون ألفَ رِطل .

الزَّبيب ـ بالكُرِّ الهاشميّ : ثلاثة أكرار .

٨ ـ كَرمان

أربعة آلافِ ألفٍ ومئتا ألفِ درهم .

المتاع اليمني وَالخَبيصيّ[٢] : خمس مئة ثوب .

التمر : عشرون ألف رطل .

(١) هي مانسميه نحن الآن « المربى » ، وكانوا يتخذون منها مربى .

(٢) خبيص : بلدة بكرمان .

الكَمُّون : مئة رطل .

٩ ـ مَكْران

أربع مئة ألفِ درهم .

١٠ ـ السند وما يليها

أحدَ عشر ألفَ ألف ، وخمسُ مئة ألفِ درهم . ٥

الطعام بالقفيز الكَيْرخ : ألفُ ألف قفيز .

الفيلة : ثلاثة فيلة .

الثياب الحشبشية : ألفا ثوب . [٣٦٠]

الفُوَطُ : أربعة آلاف فوطة .

العود الهندى : مئة وخمسون مَنًّا . ١٠

ومن سائر أصناف العود : مئة وخمسون مَنًّا .

النِّعال : ألفا زوج ، وذلك سوى القرَنْفُل والجَوْز بوا .

١١ ـ سَجِسْتَانُ

أربعة آلاف ألفٍ ، وست مئة ألفِ درهم .

الثياب المعيَّنة : ثلاث مئة ثوب . ١٥

الفانيذ[1] : عشرون ألف رطل .

١٢ ـ خُرَاسَانُ

ثمانية وعشرون ألفَ ألفِ درهم .

نُقَرُ الفضة ، الأمناء : ألفا نُقْرة .

البراذين : أربعة آلافِ برذون . ٢٠

الرقيق : ألف رأس .

(١) فى القاموس : الفانيذ ضرب من الحلواء ، معرب « پانيذ » .

المتاع : سبعة وعشرون ألف ثوب .

الإهليلج : ثلاث مئة رطل .

١٣ ـ جُرْجان

أثنا عشر ألفَ ألف درهم .

الإبْرَيْسَم : ألف مَنًا .

١٤ ـ قُومَسُ

ألف ألفٍ، وخمسُ مئة ألف درهم

نُقَرُ الفضة : الأمناء : ألف نُقْرة .

الأكسية : سبعون كساء .

الرُّمّانُ : أربعون ألفَ رُمّانة .

١٥ ـ طَبَرِسْتَانُ ، والرُّويان ، ودُنْباوَنْد [٣٦١]

ستةُ آلاف ألف ، وثلاثُ مئة ألف درهم .

الفَرْشُ الطَّبَرِيّ : ستُّ مِئة قطعة .

الأكسية : مئتا كِساء .

الثياب : خمس مئة ثوب .

المناديل : ثلاث مئة منديل .

الجامات : ست مئة جام .

١٦ ـ الرّيّ

أثنا عشر ألفَ درهم .

الرُّمّانُ : مئة ألف ألفِ رُمّانة .

الخَوْخُ : ألف رطل .

١٧ ـ أصفهان

سوى حَمَش ورَساتِيقِ عيسى راديس

أحد عشر ألف ألف درهم .

العسل : عشرون ألف رطل .

٥ الشمع : عشرون ألف رطل .

١٨ ـ هَمَذَان ودَسْتَبَى

أحد عشرَ ألف ألف ، وثمانى مئة ألف درهم .

الربّ والرمانين[1] : ألف مَنا .

العسل الأرْوَنْدى : عشرون ألف رطل .

١٠ [٣٦٢]

١٩ ـ ما هى البصرة والكوفة

عشرون ألف ألف وسبع مئة ألف درهم .

٢٠ ـ شَهْرَزُورُ وما يليها

أربعة وعشرون ألف ألف درهم .

٢١ ـ الموصل وما يليها

١٥ أربعة وعشرون ألفَ ألفِ درهم .

العسل الأبيض : عشرون ألف رطل .

٢٢ ـ الجزيرة ، والديارات ، والفُرات

أربعة وثلاثون ألفَ ألفِ درهم .

---

(١) كذا فى تاريخ ابن خلدون وعصر المأمون . وفى الأصل : « رب والزبيلس » .

٢٣ ـ أَذْربيجان

أربعة آلاف ألفِ درهم .

٢٤ ـ مُوقان وكَرْخ

ثلاث مئة ألف درهم .

٢٥ ـ جِيلان

٥

من الرّقيق : مائة رأس .

البزّ والطيلسان[١] :

من العسل : أثنا عشر زقّا .

ومن البزاة : عشرة بُزَاة .

ومن الأكسية : عشرون كساء .

١٠

٢٦ ـ أرمينية

[٣٦٣]

ثلاثة عشر ألف ألف درهم .

البسط المحفورة : عشرون بساطاً.

الرَّقم : خمس مئة وثمانون قطعة.

المالح المنبوذ ماهى : عشرة آلاف رطل.

١٥

الطريخ : عشرة آلاف رطل .

البُزاة : ثلاثون بازيًا .

البغال : مئتا بغل .

٢٧ ـ قِنَّسْرُون والعواصم

أربع مئة ألف وتسعون ألف دينار .

٢٠

(١) لم يذكر أمامهما تقدير فى الأصل .

٢٨ ـ حمص

ثلاث مئة ألف وعشرون ألف دينار .

الزبيب : ألف راحلة .

٢٩ ـ دمشق

أربع مئة ألف وعشرون ألف دينار .

٣٠ ـ الأُرْدُنّ

ستة وتسعون ألف دينار .

٣١ ـ فلسطين

ثلاث مئة ألف وعشرون آلاف دينار .

ومن جميع أجناد الشام من الزبيب : ثلاث مئة ألف رطل .

٣٢ ـ مصر

سوى تِنّيس ودِمياط والأَشْمون ـ فإن هذه وُقِفتْ للنفقات

ألف ألف ، وتسع مئة وعشرون ألف دينار . [٣٦٤]

٣٣ ـ بَرْقَة

ألف ألف درهم .

٣٤ ـ إفريقية

ثلاثة عشر ألف ألف درهم .

من البسط : مئة وعشرون بساطاً .

٣٥ ـ اليمن

سوى الثياب

ثماني مئة ألف ، وسبعون ألف دينار .

٣٦ ـ مكة والمدينة

ثلاث مئة ألف دينار .

☆☆☆

جملة التقدير فذلك العين ، خمسة آلاف ألف دينار ، قيمتها حساب اثنين وعشرين درهما بدينار : مئة ألف ألف ، وخمسة وعشرون ألف ألف ، وخمس مئة ، واثنان وثلاثون ألف درهم . ٥

الوَرِقُ : أربع مئة ألفِ ألفٍ ، وأربعة آلاف ألف ، وسبع مئة ألف ، وثمانية آلاف درهم .

يكون الوَرِقُ مع قيمة العين ـ خمس مئة ألفِ ألفٍ ، وثلاثين ألفَ ألفٍ ، وثلاثَ مئةِ ألفٍ ، واثنى عشر ألفَ درْهمٍ .

أيام محمد الأمين

[٣٦٥]

كتاب الأمين

ولما أفضى الأمرُ إلى محمدٍ الأمين قلد يحيى بن سُليمٍ ديوان الرسائل، وقلّد العبّاس بن الفضل بن الربيع حجابتَه، وقلّد الفضل بن الربيع العَرْض عليه، وقلّد بكر بن المُعتمر ديوان الخاتَم.

كتاب ابن الربيع

٥ وكان يكتب للفضل بن الربيع موسى بن عيسى بن يزدانيروذ، وداود ابن بِسْطام، وعبد الله بن أبي نُعيم.

منزل الفضل ومعونة الرشيد له على بنائه

وكان الفضل ينزل فى الشارع الأعظم، بإزاء درب السقائين، وكان لما عزم على بناء منزله هذا وهب له الرّشيد من مال الأهواز خمسة وثلاثين ألف ألف درهم، مَعونة له على بنائه.

مشورة ابن سهل على المأمون فيا طلبه الأمين فى خراسان

١٠ ولما استقر أمر محمدٍ الأمين، وحصَلَ ماوورد به عليه الفضل بنُ الربيع من السكر بما فيه، كتب إلى المأمون يسأله التجافىَ له عن بعض الأعمال بخراسان، وأن يُطلق له إنفاذ رجل يتقلد البريد من قِبَلِه، ليكاتبه بأخباره؛ فشق ذلك على المأمون، ودعا الفضل بن سهل فشاوره، فقال له: إن لك من شيعتك وأهل ولايتك بطانة، وفى مشاورتهم

[٣٦٦]

١٥ تأنيس لهم، وفى قطع الأمر دونهم وحشة، وظهور قلّة ثقة بهم، فشاوِرْهم. فأحضرهم، فأشاروا عليه جميعاً بإجابته إلى ماسأل؛ فقال الحسن بن سهل: هل تعلمون أن محمداً تجاوز إلى طلب ماليس له بحق؟ قالوا: نعم، وتحتمل ذاك، لما نخاف من ضرر منعه؛ قال: وهل تثقون بكفّه بعد إعطائه ذلك،

وألا يتجاوز بالطلب إلى غيره ؟ قالوا : لا ، ولكنا نرجو السلامة ؛ قال : فإن تجاوز إلى مسألة أخرى، أليس قد سجلنا الوهن[1] بما أعطيناه . ووافق الفضل بن سهل الحسن فى ذلك الرأى ، فقال فى كلام طويل: ليس النصر بالكثرة والقلة ، وجُرح الموت أيسر من جرح الضيم والذل؛ فقال المأمون: بإيثار حبّ الدعة صار من صار إلى فساد العاقبة فى أمر دنياه وآخرته ؛ ٥
وكتب يمنعه من ذلك ، ويدفعه عنه .

سبب تحرز المأمون من الأمين

ثم تقدّم المأمون إلى الفضل بن سهل أن يكتب إلى محمد بالبعثة إليه بحُرَمه وولده ، وكان له ببغداد ابنان من أمّ عيسى بنت موسى الهادى ، نزولاً معها فى قصر المأمون ، وبعثة ألف دينار ، كان الرشيد أوصى له بها من بيت المال ، فأجابه بأنه قد صَرَف المال فى أمور المسلمين ، فيما هو ١٠
[٣٦٧] أولى مما أوصى به الرشيد ، وأن حُرَمه وولده يجرُون عنده مجرى حُرَمه وولده ، وأنه لا يرى تعريضهم لما عرضهم له من مشـــقة السفر ، وغَرَر الطريق ، وأنه إذا رأى لذلك وجهاً أذِن له فيه ؛ فاستحكمت وحشـــة المأمون ، وعلم مذهب محمد فيه ، وأخذ فى أهبة التحرّز منه .

زين الفضل للأمين خلع المأمون

ولما استوسق الأمر لمحمد ، زيّن له الفضل بن الرّبيع خَلْع المأمون، ١٥
وكان يخافه إن أفضى الأمر إليه ، وعاون الفضلَ على ذلك علىّ بن عيسى ابن ماهان ، فكتب إلى جميع العمّال بالدّعاء لموسى بن محمد بعد الخليفة ، وخلع المأمون، وبلغ المأمون ذلك[2]، وما أحدثه لموسى ابنه بعده من أمر الخطبة.

ابن سهل يندب طاهرا إلى الرى

وندب الفضل بن سهل طاهر بن الحسين للشـــخوص إلى الرّىّ ، ورآه متثاقلا ، فقال له : ما أَمْنِيَّتك ؟ قال : أمنيّتى أن أخطب على منبر ٢٠

(١) هذه الكلمة غير واضحة بالأصل ، وقد قرأناها : « الوهن » ، وقرأها الناشر الأول « الوكس » أو « العرض » .
(٢) كذا بالأصل . وقد أشير فى حاشيته إلى أن الصواب فى ذلك : « وبلغ المأمون الخطبة » وما أحدثه لموسى بعده » .

فُوسنج ، ويكون فى صندوق مئة ألف درهم ، فولاه فُوسنج ، وأمر له بمئة ألف درهم ، وتركه أياماً ، ثم دعاه إلى الشخوص ، فأجابه ؛ فقال الفضل : إذا نال الرجل المُنى ، خاض الدماء .

لام الحسين ابنه طاهرا فأجابه [٣٦٨]

وكان الحسين بن مُصعب بفوسنج ، فلما قدم إلى حضرة المأمون ، ٥ وعرف خبر ابنه طاهر ، أنكر تعرّضه لما تعرّض له ، فقال : الفتن لا يتعرّض فيها إلاّ كلّ خامل ، لا أصل له ولا نباهة ، ليذكر فيها ، أو يعطَب فلا يبالى ، وأنت مَلَكٌ قديم مؤثّل ؛ فقال له : لم يذهب علىّ ماقلت ، ولكنى خفت إن لم أقبل مادعيت إليه ، أن يُقلّد الأمر غيرى وأضمّ إليه ، فلأن أكون متبوعاً ، أفضل من أكون تابعاً .

١٠ قال عبيد الله بن الحسن بن سهل سمعت أبى يقول :

الفضل بن سهل وطاهر

لما أنتهى إلى الفضل بن سهل خبر علىّ بن عيسى ، وخروجه من العراق ، أمر القوّاد كلهم بجمع أولادهم ، فأتى الحسين بن مُصعب بطاهر، فلما رأى طاهراً أعرض عن غيره ، وكان أعور كريه الوجه مشمّراً ، وجعل يقول : هو هو ، ثم عقد له على الرّىّ ، فرمى الحسين بن مصعب ١٥ نفسه بين يديه ، واستعفاه من إنفاذه ، وقال له : إنى لم أقل هذا إشفاقاً عليه ، ولكن خوفاً من أن يُحدث عليك حادثة يعسر تلافيها ، فوالله لقد كنت أراه فى ولاية علىّ بن عيسى خراسان ، وإنه ليقف بين يديه فى جملة خَلْق كثير ، وفرائصه تُرْعَد منه . ولعله أن ينظر إليه بتلك العين ؛ فقال له الفضل بن سهل : أمسك ، فقد عقدت له عقداً لا ينتقض نيفاً ٢٠ وستين سنة[1] .

[٣٦٩] كتب الأمين إلى المأمون بالنزول عن أشياء بعد أن اعتذر ابن صبيح

ولما عزم محمدٌ على مكاتبة المأمون بأن ينزل له عن بعض أعماله ، تقدم إلى إسماعيل بن صبيح أن يكتب إليه فى ذلك ؛ فقال: ياأمير المؤمنين إن مسألتك له الصفح عن بعض مافى يديه توكيد للظن ، وتقوية للتهمة ،

(١) كان الفضل بن سهل من أهل المعرفة بالنجامة ، قالوا : وقد استمرت دولة آل ٢٥ طاهر بخراسان نيفاً وستين سنة ، مصداقاً لما أخبر به الفضل .

ومدعاة للحذر ، ولكن تكتب إليه وتعرفه حاجتك إليه ، وشوقك إلى قربه ، وإيثارك الاستعانة برأيه ومشورته ، وتسأله القدوم عليك ، فإن ذلك أحرى أن لا يوحشه ؛ فقال : اكتب بذلك ؛ فكتب به ، فلم يلتفت إليه المأمون ، ولا أجابه عنه .

ألح ابن الربيع على الأمين بخلع المأمون ففعل

٥ ثم ألحّ الفضل بن الربيع على محمد فى خلع المأمون ، وقوّى عزمه فيه ، وأعانه عليه علىّ بن عيسى ، فبايع لابنه موسى بالعهد بعده ، وسماه : « الناطق بالحق » ، وخلع المأمون والقاسم ؛ وكتب الفضل بن الربيع عنه بذلك ، وبالنهى عن الدعاء لهما على المنابر ، وأحضر عبدَ الله بن محمد أحدَ الحجبة ، وسأله التلطف فى أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد علقهما فى بيت ١٠ الله الحرام بالبيعة ، ففعل ذلك . وسرقهما وصار بهما إليه ، فدفعهما الفضل إلى محمد ، فمزقهما .

انصراف الناس عن الأمين [٣٧٠]

وسارت الركبان فى الآفاق بغدر محمد ، وبحسن سيرة المأمون ، فاستوحش الناس منه ، وانحرفوا عنه ، وسكنوا إلى المأمون ، ومالوا إليه .

شاور الأمين يحيى فى خلع المأمون ولم يرض رأيه

وكان محمد لما أجمع على خلع المأمون شاور يحيى بن سليمان فى ذلك ، ١٥ فقال له : وكيف بذلك يا أمير المؤمنين مع ما وكّده الرشيد من بيعته ، وتوثق فى عهده عند خاصته وعامته ؟ فقال له محمد : إن ذلك كان فلتة وخطأً من رأى الرشيد ، شبّه عليه فيه جعفر بن يحيى بسحره ، فغرس لنا غرس مكروه ، لا ينفعنا ما نحن فيه إلا بقطعه ، وأنت رجل مهذار ، ولست بذى رأى مصيب ، والرأى إلى الشيخ الموفق ، والوزير الناصح ، قُم ٢٠ فالحق بمدادك وأقلامك ، يعنى محمد بهذا القول الفضلَ بن الربيع .

مساعدة ابن المعتمر الفضل فى خلع المأمون وشعر يوسف فى هجائهما

وكان بكر بن المعتمر يعاون الفضل[1] على رأيه عند محمد فى مساءة المأمون . قال يوسف بن محمد شاعر طاهر بن الحسين أبياتاً منها :

أضاعَ الخلافةَ غِشُّ الوزيرِ وَحُمْقُ الأميرِ(٢) وجَهْلُ المُشيرِ
فبكْرٌ مُشيرٌ وفَضلٌ وَزيرٌ يُرِيدانِ مَا فِيهِ حَتْفُ الأميرِ
وَمَنْ يُؤْثِرِ الفِسْقَ يُخْذَلْ بِهِ وتَنْغِرُ عَنْهُ بَنَاتُ الضَّمِيرِ
لِوَاطُ الخَلِيفَةِ أُعْجُــوبَةٌ وَأَعْجَبُ مِنْــهُ بِغَاءُ الوَزِيرِ
٥ فَهَذَا يَنِيكُ وَهَذَا يُنَاكُ(٣) كَذَاكَ لَعَمْرِي اخْتِلافُ الأُمُورِ [٣٧١]
فَلَوْ يَسْتَعِفَّانِ(٤) هَــذَا بِذَا لَـكَانَا بِعُرْضَةِ أَمْرٍ سَتِيرِ

مقتل ابن عيسى وما أشار به الفضل

وجهّز محمد عليّ بن عيسى فى سنة خمس وتسعين ومئة ، فكان من أمره ما كان ؛ فلما ورد خبر قتله ، أشار الفضل بن الربيع على محمد بقبض ضياع المأمون وماله ببغداد والسواد ، فأذن له فى ذلك ، ففعل .

كتاب طاهر إلى ابن سهل بقتل ابن عيسى

١٠ ولما قتل طاهر بن الحسين عليّ بن عيسى ، دعا بكاتبه ليكتب إلى الفضل بن سهل بخبره ، فلم يكن فى الكاتب فضل ، لإفراط الجزع ، وشدة الزَّمَع(٥) بما شاهد ، فكتب طاهر إلى الفضل بيده ، وكانت عادته أن يخاطبه بالإمرة ، فأسقط ذلك وكتب : أطال الله بقاءك ، وكبت أعداءك ، وجعل من يشنؤك فداءك ، كتبت إليك ورأس عليّ بن عيسى بين يدى ، ١٥ وخاتمه فى أصبعى ، وعسكره تحت يدى ، والحمد لله رب العالمين . فلما وصل الكتاب إلى الفضل أنكره ، حتى وقف على ما تضمن ؛ فقال : حُقَّ له ، ونهض فدخل على المأمون ، فسلم عليه بأمير المؤمنين .

٢٠ (١) فى الأصل : «الحاج» ، وقد أشير فى هامش الأصل إلى أن الصواب «الفضل» .
(٢) فى الطبرى : «وفسق الأمام» .
(٣) فى الطبرى : فهذا يدوس وهذا يداس .
(٤) فى الطبرى : «يستحيان» .
(٥) الزمع : شبه الرعدة يعترى الإنسان .

وقيل: إن الخريطة سارت، وبين الموضع وبين مرو نحو من مئتين وخمسين فرسخا، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد، فوردت يوم الأحد.

[٣٧٢] ثم أمر محمد الفضل بعد قتل علىّ بن عيسى بتجهيز عبد الرحمن الأبناوى، فجهزه وشخص، وكان من أمره وقتله ما كان.

الفضل وأسد ابن يزيد

٥ ثم دعا الفضل بن الربيع بأسد بن يزيد بن مزيد، قال: فدخلت عليه وهو فى صحن داره، وهو يقول: ينام نوم الظربان، وينتبه انتباه الذئب، همّه بطنه، لا ينكر زوال نعمة، ولا يُرَوّى فى إمضاء رأى، قد شغله كأسه ولهوه عن مصلحته، والأيام توضع فى هلاكه. ثم أقبل علىّ، فقال لى: إنما نحن وأنت يا أبا الحارث شعب من أصل؛ إن قوى قوينا،

١٠ وإن ضعف ضعفنا، وإن هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء، يشاور النساء، ويخلد إلى الرؤيا، وهو يتوقع الظفر، ويتمنى عُقَب الأيام، والحتف أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل، وقد خشيت والله أن نهلك لهلاكه، ونعطب بعطبه، وقد فزعت إليك فى لقاء هذا الرجل لأمرين، أحدهما: صدق طاعتك، وفضل نصيحتك؛ والثانى: يمن نقيبتك، وشدة

١٥ بأسك، والاقتصاد رأس النصيحة. فاشتط عليه أسدٌ فيما التمسه من [٣٧٣] الأموال، والعتاد، والرجال، والسلاح؛ فصار به إلى محمد، وعرّفه ذلك، فغضب، وأمر بحبسه.

نصيحة لابن الربيع فى مخاطبة الملوك

وكان الفضل بن الربيع يقول:

مسألة الملوك عن حالهم من تحية النوكَى، فإذا أردت أن تقول:

٢٠ كيف أصبح الأمير؟ فقل: صبّح الله الأمير بالكرامة؛ وإذا أردت أن تقول: كيف يجد الأمير نفسه؟ فقل: أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة

فإن المسألة توجب الجواب ، فإن لم يجبك اشتد عليك ، وإن أجابك اشتد عليه .

وأهدى أبو العتاهية إلى الفضل نعلا ، وكتب إليه :

شعر أبي العتاهية مع نعل أهدى بها إلى الفضل

نَعْـلٌ بَعَثْتُ بِهَا لِتَلْبَسَهَا ... تَسْعَى بِهَا قَدَمٌ إِلَى الْمَجْـدِ

٥ لَوْ كُنْتُ أَقْدِرُ أَنْ أُشَرِّكَهَا ... خَدِّى جَعَلْتُ شِرَاكَهَا خَدِّى

أبو نواس بين الأمين والفضل بن سهل

وكان أبو نواس ينادم محمدا ، ويُخص به ، وله فيه أشعار كثيرة ، ومعه أخبار مشهورة ، فقال الفضل بن سهل يُزْرِى على محمد به ، ويَعيبه باحتماله إياه : وكيف لا يُستحل قتال[1] محمد وشاعره يقول فى مجلسه ما لا ينكره عليه ؟ وهو :

١٠ أَلاَ سَقِّنِى خَمْراً وَقُلْ لِى هِىَ الْخَمْرُ ... وَلاَ تَسْقِنِى سِرًّا إِذَا أَمْكَنَ الْجَهْرُ

فبلغ[2] ذلك محمدا ، فأمر بإحضار أبى نواس ، فأحضره وعنده سليمان ابن أبى جعفر ، وقد كان اتصل بمحمد عنه أنه قال :

[٣١٤]

وَقَدْ زَادَنِى تِيهاً عَلَى النَّاسِ أَنَّنِى ... أَرَانِىَ أَغْنَاهُمْ وَإِنْ كُنْتُ ذَا عُسْرِ

وَلَوْ لَمْ أَنَلْ فَضْلاً لَكَانَتْ صِيَانَتِى ... فَمِى عَنْ جَمِيعِ النَّاسِ حَسْبِى مِنَ الْفَخْرِ

١٥ فَلاَ يَطْمَعَنْ فِى ذَاكَ مِنِّى طَامِعٌ ... وَلاَ صَاحِبُ التَّاجِ الْمُحَجَّبُ فِى الْقَصْرِ

وهذه الأبيات من قصيدة له جيدة ، وأولها :

ومُسْتَعْبِدٍ إخوانه بثَرَائِهِ ... لَبِسْتُ لَهُ كِبْراً أَبَرَّ عَلَى الْكِبْرِ

وبلغه أنه قال :

اِسْقِنِيهَا يَا ذُفَافَهْ ... مُزَّةَ الطَّعْمِ سُلاَفَهْ

٢٠ ذَلَّ عِنْدِى مَنْ جَفَاهَا ... لِرَجَاءٍ وَمَخَافَـهْ

مِثْلَ مَا ذَلَّتْ وضاعت ... بَعْدَ هَارُونَ الْخِلاَفَهْ

(١) كذا فى الطبرى ، وفى الأصل « قتل » .

(٢) كذا فى الطبرى . وفى الأصل : « فأمر » .

فلما دخل عليه ، قال له : ياعاضّ بَظْرِ أمه ! شحمة الماجرة ، وشتمه أقبح شتم ، أنت[1] تتكسب بشعرك أوساخ أيدى جميع الناس ، ثم تقول :

* ولا صاحبُ التاج المحجَّبُ فى القَصْر *

فقال له سليمان بن أبى جعفر : وهو والله يا أمير المؤمنين من كبار الثَّنَوية ؛ ٥
فقال له : أيشهد عليه بهذا أحد ؟ فاستشهد سليمان جماعة ، شهد بعضهم أنه وضع قدحا فى يوم مطر ، حتى قطر فيه من المطر قطر كثير ، وقال بعد شربه إياه : يزعمون أن مع كل قطرة مَلَكا ، فكم ترانى قد شربت [٣٧٥] من الملائكة ؟ فوجه به إلى الفضل بن الربيع ، وأمره بحبسه مع قوم كانوا يُتهمون بالزندقة ؛ فقال فى حبسه أبياتاً منها : ١٠

لا النُّذْر يُقْبل لى فتقبلَ توبتى فيهم ولا يرضَوْن حَلْف يمينى
أما الأمين فلست أرجو دَفْعَهُ عَنِّى فمن لى اليوم بالمأمون؟

فبلغت أبياتُه المأمون ، فقال : والله لئن لحقته لأغنينه غنى لا يؤمّله ؛ فمات قبل دخول المأمون مدينة السلام .

أبو نواس فى سجنه ثم إطلاقه وشعره فى ابن الربيع

وكان الفضل بن الربيع خال يستعرض أهل السجون ويتعهدهم ، ١٥ فدخل إلى الحبس الذى هو فيه ، ولم يكن يعرفه ، فقال له : ياهذا ، أنت زنديق ؟ فقال له أبو نواس : مَعاذ الله ؛ فقال له : فلعلك ممن يعبد الكبش ؟ فقال له : أنا آكل الكبش بصوفه ؛ فقال له : فلعلك تعبد الشمس ؟ فقال له : إنى أتجنب القعود فيها بغضاً لها ؛ فقال : فبأى جُرم حبستَ ؟ فقال : لأنى أتام خلف الناس ؛ فقال له : ليس الأمر كذلك ؛ ٢٠ قال : والله لقد صدقتك ؛ فجاء إلى الفضل ، فقال له : يا هذا ، لا تحسنون

(١) فى الأصل : « وأنت » ، والظاهر أن هذه الواو زائدة .

جوار نعم الله يحبس الناس بغير جرم ؟ فقال : وما ذاك ؟ فخبره الخبر ، فضحك منه ، وعرّف محمداً الخبر ، وشفع إليه فيه ، فأمر باستحلافه أن لا يشرب ولا يفسُق ، ففعل ذلك ، فأطلقه ، فقال فيه :

[٢٧٦] مَا مِنْ يَدٍ فِي النَّاسِ وَاحِدَةٍ كَيَدٍ أَبُو الْعَبَّاسِ أَوْلَاهَا[1]

٥ نَامَ الكِرَامُ على مَضَاجِعِهِمْ وَسَرَى إِلَى نَفْسِي فَأَحْيَاهَا

قَدْ كُنْتُ خِفْتُكَ ثُمَّ آمَنَنِي مِنْ أَنْ أَخَافَكَ خَوْفُكَ اللهَ

فَعَفَوْتَ عَنِّي عَفْوَ مُقْتَدِرٍ وَجَبَتْ لَهُ نِقَمٌ فَأَلْغَاهَا

وله أيضاً فيه ، وفي توبته :

أَنْتَ يَابْنَ الرَّبِيعِ عَلَّمْتَنِي الْخَيْـرَ وَعَوَّدْتَنِيهِ وَالْخَيْرُ عَادَهْ

١٠ وعَتَب الفضل بن الربيع على إبراهيم بن شَبَابَةَ الشاعر في شيء ، فكتب إليه :

إِنْ كَانَ جُرْمِي قَدْ أَحَاطَ بِحُرْمَتِي فَأَحِطْ بِجُرْمِي عَفْوَكَ الْمَأْمُولَا

هَبْنِي ظَلَمْتُ ، وَمَا ظَلَمْتُ ، بَلَى ظَلَمْـتُ ، أُقِرُّ كَيْ يَزْدَادَ مَجْدُكَ طُولَا

نادرة لابن الربيع مع مدني نظر في كتاب معه

ووجدت بخط ميمون بن هارون : حدثني إسحاق بن إبراهيم ، قال :

١٥ حدثني الفضل بن الربيع ، قال :

كُنت أقرأ كتابا ، وإلى جانبي رجل من أهل المدينة ، فجعل ينظر في كتابي ، فقلت له : ما تصنع ؟ ويحك ! فقال : حُدِّثت أنه مَنِ اطّلع في كتاب أخيه بغير أمره ، فإنما يطلع في النار ؛ ولنا أشياخ قد تقدموا ، فقلت : لعلى أن أرى بعضهم .

بر الأمين بآل برمك

٢٠ ولمّا أفضت الخلافة إلى محمد الأمين أطلق محمدا وموسى ابني يحيى

[٢٧٧] ابن خالد من الحبس بالرقّة ، ووصل جماعة آلِ بَرْمَك : الرجالَ والنساء ، وأحسن إليهم ، ولم يتصرّفوا معه ، فلمّا ضاق أمر محمد ، وحبسه الحسين

(١) في طبقات الشعراء لابن قتيبة : « مولاها » .

ابن علىّ بن عيسى ، وأحاط هرثمة بالمدينة ، شخص العباسُ بن الفضل
ابن يحيى ، وأحمد بن محمد بن يحيى إلى الفضل بن سهل ، فلما وصلا إليه
برّهما ، وأكرمهما أشدّ إكرام ، وأوصلهما إلى المأمون ، ولم يزل قائماً
حتى قبّلا يده ، والمأمون يقول له : اجلس ياذا الرياستين ولا تقم ؛ فيقول:
يا أمير المؤمنين ، إن لهما علىّ حقًّا أرجو أن أقضيه بك ، ثم أمر بالخلع ٥
عليهما وحُملانهما ، وأجرى عليهما أنزالاً واسعة ، وكتب إلى محمد بن يحيى
يستدعى مصيره إليه ، ويشير عليه بالدخول فى جملة المأمون ؛ فلما وصل
الكتاب إلى محمد بن يحيى ، بادر بالخروج إلى طاهر ، لمكانه من اصطناع
الفضل بن سهل ، فبرّه طاهر وأكرمه ، وأقام موسى بن يحيى مع محمد ،
وفارق الكتابة إلى السيف ، فناصح له ، وقاتل دونه ، وبذل نفسه فى ١٠
الدفع عنه ، ولم يفارقه حتى قُتل ، وانضم إلى هرثمة ، واجتمع معه على
حرب أبى السرايا ، وخاض تلك الفتن المشهورة ؛ فلما ورد المأمون العراق
صار إليه ، فبرّه وأكرمه وقدمه ، وانبسط إليه فى المشورة والرأى ، حتى
غلب عليه .

[٣٧٨] نادرة للأمين مع ابن الربيع وقد لاعبه بالنرد

وكان الأمين لاعب الفضل بن الرّبيع بالنّرد ، ورهنا خواتيمهما على ١٥
شىء اتفقا عليه ، على أن يُحضره المقمورُ منهما ، فقَمَرَ محمد الفضلَ ، فصار
خاتمه فى يده ، وكان نقش فصّه : « الفضل بن الرّبيع » ، ونهض ليبول
وهو معه ، فدعا بنقاش ، فكتب تحت السطر الذى فيه الكتاب فى
الفصّ : « ينْـكَحُ » ، فصار يُقرَأ : « الفضلُ بن الرّبيع ينْـكَحُ » ،
ثم عاد إلى مجلسه ، وأحضر الفضل فكاك الخاتم ، فدفعه إليه ، فلما كان ٢٠
بعد عشرة أيام ، دعا بالفضل ، وعاود ملاعبته بالنّرد ، وأخذ الخاتم منه ،

فتأمله ، وسأله عن نقشه ؛ فقال له : اسمى واسم أبى ، فقال له : أرى عليه شيئاً آخر سوى ذلك ، ودفع الخاتم إليه ، فتأمله ، فلما رأى ما أحدث فى خاتمه ، لم يتمالك أن قال : « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » ، هذا خاتم وزيرك ، يُختم به على جميع الآفاق منذ عشرة
٥ أيام ، وممن كاتبته أخوك الذى يُظهر أنك لست موضعاً للخلافة ، ويُجمع خَلْعك ؛ والله ما بقَّيتَ من هَتْك نفسك عند أوليائك ، والمناقين لك ، والمُطَّرحين ببغضك شيئاً إلا وقد أتيته ، وما يضر ذلك الفضل ولا الرّبيع ، والله المستعان فما زاد محمد على الضَّحِك شيئاً .

شعر القراطيسى فى [٣٧٩] هجو ابن الربيع

وفى الفضل بن الرّبيع يقول إسماعيلُ القراطيسى :

١٠ لَئِن أَخْطَأْتُ فِى مَدْحِيـــكَ ما أَخْطَأْتَ فى مَنْعِى
لَقَدْ أَحْلَلْـــتُ حَاجَاتِى بِوَادٍ غَـــيرِ ذى زَرْعِ

أخل ابن دحمان بوعد لابن الربيع وذهب لاسحاق

وكان الفضل بن الرّبيع وعد زُبَيْرَ بن دُحمان المُقَامَ عنده ، فدخل زُبَيْر إلى إسحاقَ بن إبراهيم الموصلىّ ، فسأله أن يقيم عنده ؛ فقال له : إنى قد وعدت أبا العباس الفضلَ بن الرّبيع بالمقام عنده ، فقال إسحاق :

١٥ أَقِمْ يا أبا العوام ويحك نشربُ وَنَلْهو مع اللاهينَ يومًا ونطربُ
إِذَا ما رَأَيْتَ الْيَوْمَ قَدْ بَانَ خَيْرُه فَخُذْهُ بشكر ، واترك الفضل يَغْضَبُ

فأقام عنده ، وأخَلّ بالفضل بن الرّبيع .

عبث الأمين بالأعمال

وعزم الأمين يوما على الاصطباح ، وأحضر ندماءه والمغنّين ، وصُفَّت الموائد ، فلما ابتدأ ليأ كل ، دخل عليه إسماعيل بن صَبيح ، فقال : ياأمير
٢٠ المؤمنين ، هذا هو اليوم الذى وعدتنى فيه أن تنظر فى أعمال الخراج والضياع وجماعات العُمّال ، وقد اجتمعتْ علىّ أعمال ، منذُ سنة لم تنظر

فى شىء منها ، ولم تأمر فيها ، وفى هذا دخول خلل فى الأعمال ؛ فقال
له محمد : إن اصطباحى لا يحول بينى وبين النظر ، وفى مجلسى من
لا أنقبض عنه ، من عمّى وبنى عمّى وإخوتى ، وهم أهل هذه النّعمة ،
[٣٨٠] التى يجب أن تحاط ، فأحضر ما تريد عَرْضه ، فاعرضه علىّ وأنا آكُلُ ،
٥ لأتقدم إليك فيه بما تحتاج إليه ، إلى أن يُرفع الطعام ، ثم أُتِمّ النظر
فيما يبقى ، ولا أسمع سَمَاعاً أو أُبرِمَ الباقى ، وأفرُغَ منه . فحضر كُتّاب
الدواوين بأكثر ما فى دواوينهم ، وأقبل إسماعيل بن صَبيح يقرأ عليهم ،
ومحمد يأمر وينهى بأحسن أمر ونهى وأشدّه ، وربّما شاور من حوله
فى الشىء بعد الشىء ، وكلّما وقّع فى شىء وُضع بالقرب من إسماعيل
١٠ ابن صَبيح ، ورُفعت الموائد ، ودعا بالنبيذ ، وكان لا يشرب فى القدح
أقل من رطل واحد فى تتميم العمل ، ثم دعا بخادم له ، فناجاه بشىء أمره
إليه ، فمضى ثم عاد ، فلما رآه نهَض واستنهض سُلَيْم بن علىّ ،
وإبراهيم بن المهدىّ ، فما مَشَوْا عشر أذرع ، حتى أقبل جماعة من
النفّاطين ، فضربوا تلك الكُتب والأعمال بالنار ، وكان الفضل بن الرّبيع
١٥ حاضراً ، فلحق محمداً وقد شقّ ثوبه ، وهو يقول : اللهُ واللهِ أعدلُ من
أن يرضى أن يكون مدبّراً أمور أمة نبيّه محمد صلى الله عليه ، مَنْ هذه
أفعاله ! ومحمد يضحك ، ولا ينكر على الفضل قوله .

شعر أبى نواس فى ابن صبيح [٣٨١]

وفى إسماعيل بن صَبيح يقول أبو نواس ويخاطب الأمين :

أَلَسْتَ أمينَ اللهِ سَيْفُكَ نِقْمَةٌ ... إذا مارقٌ يومًا من خلافك مارقُ
٢٠ فكيف بإسماعيلَ يَسْلَمُ مِثْلُهُ ... عَلَيْكَ ، وَلَمْ يَسْلَمْ عليك مُنافِقُ
أُعِيذُكَ بالرحمن من شر كاتبٍ ... له قلمٌ زانٍ ، وآخرُ سارِقُ

وفيه يقول أيضاً :

خُبْزُ إسماعيلَ كالوَشْـــيِ إذا ما انْشَقَّ يُرْفَى
إنَّ رَفَّاءكَ هـــذا أَحْذَقُ الأمّةِ كَفَّا
عَجَباً مِنْ أثَرِ الصَّنْـــعَةِ فيهِ كيفَ تَخْفَى!
أَحْكَمَ الصَّنْعَةَ حتَّى لا يُرَى مَطْعَنُ إشْفَى ٥
ولَهُ في المَاءِ أيضًا فِطْنَةٌ أَبْدَعُ ظَرْفَا
يَمْزُجُ المالحَ بالعَذْ بِ لِكَيْ يَزْدادَ ضِعْفَا
وَهْوَ لا يَشْرَبُ مِنْهُ مِثْلَ ما يَشْرَبُ صِرْفَا

شيء عن نسب ابن صبيح

وكان صَبيح أبو إسماعيل مَوْلًى عَتاقة لسالم الأفطس ، ولما أعتق سالمٌ الأفطس صبيحاً ، جعله قيّما لمسجد حرّان ؛ وكان سالم الأفطس مولى عَتاقة لبني أُميّة . ١٠

سبب عزل طاهر لابن متى [٣٨٢]

وكان أبو الخطاب محمد بن الخَطّاب بن يزيد بن عبد الرحمن ، لسانَ الحسن بن سهل عند المأمون ، وخُطبتَه بحضرته بفضله ومعاذيره ، وكان قصَد طاهر بن الحسين ، وطاهر بالجزيرة ، فأكرمه وبرّه ، وسرّحه إلى الفضل بن سهل ، فمرّ في طريقه بخالد بن يزيد بن متّى الكاتب ، وكان ١٥ يتقلد الموصل من قِبَل طاهر بعد قتل المخلوع ، وقد شرع يزيد[1] بن متّى في قتال قوم من العرب بغير أمر طاهر ، فأنكر عليه ذلك ، ونفّذ إلى الحسن ابن سهل ، واتصل خبر قتال يزيد[1] العرب بطاهر ، فوقع إليه :

أقذِر بدُنيا يَنَالُ المُخْطِئُون بِها حَظَّ المُصِيبِين والمَغْرُورُ مَغْرُورُ

٢٠ وصَرَفه .

استتار ابن الربيع ثم ظهوره

ولما رأى الفضل بن الربيع قوة أمر المأمون ، واتصال ضعف محمد

(١) كذا في الأصل . ورجل القصة هو خالد بن يزيد .

وتخليطه ، واقلال الناس عنه ، وتَمزُّق الأموال التى كانت فى يده ، استتر فى رجب من سنة ست وتسعين ومِئة ، وتم استتاره إلى أن غلب على بغداد محمد بن أبى خالد ، وحارب الحسن بن سهل ، وغلبه على مابينها وبين واسط ، فاستأمنه الفضل بن الربيع وظهر ، ولم يزل ظاهراً إلى أن غلب إبراهيم بن المهدىّ على الأمر ، وتسمّى بالخلافة ، فصار إليه ، فرسمه بحجابته ، فكان فِتيان آل الربيع يقومون بها ، ليرفه الفضل عنها ؛ ثم اختل أمر إبراهيم ، واتصلت الأخبار بإجماع المأمون ورودَ العراق ، فعاد الفضل إلى استتاره . [٣٨٣]

ابن أبى الزرقاء وابن أبى كبير الشاعر

وتقلّد موسى بن أبى الزرقاء فارسَ ، فاستكتب على بن أبى كبير الكوفىّ ، وكان شاعراً ظريفاً صاحب شراب ولهو ، فشرط عليه ألّا يأتيه فى يوم جمعة ، فاحتاج موسى إلى حضوره فى يوم الجمعة لأمر طرقه ، فوجه إليه فأحضره ، فحضر وهو شارب ، فقال له : ويحك ! ماذا تشرب؟ قال : أقرَبُ ما أحلّ الله ، بمـا حرّم الله . فهل شربت ــ أصلحك الله ــ شرابًا قطُّ ، حتى لانت أعطافك ، وسخنت نفسك ، وحُبِّبَ إليك جلساؤك ؟ قال : لا والله ؛ قال : فهل خرجت فى صيد فبادرتَ أصحابك إلى طريدتك ، ووثبت عن دابتك ، وتوليت ذبحها بيدك ؟ قال : لا والله ؛ قال: فهل عَشِقْتَ حتى راسلت وكاتبت ، ووُعدت وتوقعت ؟ قال: لا والله ؛ قال : فوالله ماذقت لذة العيش قطُّ ، ولا تُفْلِحُ أبداً .

زهير ابن المسيب وسروقه لآل ابن الربيع فى استتاره [٣٨٤]

ولما استتر الفضل بن الربيع صار زُهير بن المُسَيَّب إلى داره فى شارع المَيْدان ، فسكنها رعاية لحرمته ، ولحقوق كانت بينه وبين الفضل ؛ وأراد بما فعله حفظها عليه . فلما صار فيها أقام فى حجرة منها كانت تعرف بدار الذهب ، وأقرّ حُرَمَ الفضل وخدمه وأسبابه فى مواضعهم منها ، ودعا

بسُليمْ خادم الفضل ، فقال له : إنى إنمـا سكنت هذه الدار ، لـكيلا يطمع فيها أحد ، ولا يجترئ على دخولهـا ، ولأصون من فيها من أسباب أبى العباس ، ودفع إليه عشرة آلاف دينار ، وقال : أنفقها على عِيال أبى العباس ، فإنمـا أنا حافظ لهم ولهذه الدار ؛ فشكر الفضل له ذلك ، وأمر
٥ برد الدنانير عليه ؛ فلما ورد المأمون العراق أسكنها القاسم بن الرشيد ، فلم يزل فيها إلى أن ظهر الفضل ، فنقله عنها ، وسلمها إليه .

أيام المأمون

كلة ابن سهل لما رأى رأس الأمين

ولما قتل طاهر محمداً المخلوع ، أنفذ رأسه إلى المأمون ؛ فقال الفضل ابن سهل : ما فعل بنا طاهر ؟ سَلَّ علينا سيوف النّاس وألسنتهم ، أمرناه أن يبعث به أسيراً ، فبعث به عقيراً ! .

كتاب أحمد ابن يوسف [٣٨٥] بعد مقتل الأمين وبر المأمون له

وذكر عليّ بن أبي سعيد أنه رأى رأس محمد وقد أدخله ذو الرياستين ٥ على تُرْس بيده إلى المأمون ، فلما رآه سجد ، ثم أمره المأمون أن ينشئ كتاباً عن طاهر بخبره ، ليقرأه على الناس ؛ فكتب عدة كتب لم يرضها واستطالها ، فكتب أحمد بن يوسف فى ذلك كتاباً نُسْخَتُه : « أما بعد ، فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين فى النسب واللحمة ، فقد فرّق ١٠ حكم الكتاب والسُّنة بينه وبينه فى الولاية والحُرْمة ، لمفارقته عِصْمة الدين ، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين ، يقولُ الله عزّ وجلّ فيما اقتصّ علينا من نَبَأ نوح : « يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » ، ولا صلَة لأحد فى معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت القطيعة فى ذات الله ؛ وكتبت إلى أمير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع ، وردّاه رِدَاء ١٥ نَكْثه ، وأحصَدَ لأمير المؤمنين أمره ، وأنجز له ما كان ينتظره من وعده ؛ فالحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلومَ حقه ، الكائد له مَنْ خَتَرَ عَهْدَه ، ونقض عَقْدَه ، حتى ردّ اللهُ به[1] الألفة بعد فرقتها ، وأحيا به الأعلام بعد دُرُوسها ، وجمع به الأمة بعد فرقتها ، والسلام »[2] . [٣٨٦]

فلما عرض النسخة على ذى الرياستين رجّع نظره فيها ، ثم قال لأحمد ٢٠ ابن يوسفَ : ما أنصفناك ! وأمَرَ له بصِلاتٍ وكُسًى وكُرَاع وغير ذلك ،

(١) فى الأصل : « يد الألفة » والتصحيح من « مواسم الأدب » للسيد جعفر البتى العلوى ج ٢ ص ١٠٩ .

(٢) وردت نسخة هذا الكتاب ببعض الاختلاف فى صفحة ١٦٣ من الجزء الثانى من إرشاد الأريب لياقوت الحموى .

وقال له : إذا كان غداً فاقعد فى الديوان ، وليقعد جميع الكتاب بين يديك ، واكتب إلى الآفاق .

منزلة على بن أبى سعيد عند المأمون

ولما استقامت الأمور للمأمون ردّ التدبير إلى ذى الرياستين ، وأمضاها على رأيه ، وكتب إلى طاهر وهرثمة بتسليم ما فى أيديهما من العمل إلى على بن أبى سعيد ، ابن خالة الفضل بن سهل ، وكان يعرف بذى القلمين. ٥

الأصمعى وابن أبى سعيد وقلة ضحكه

وكان على بن أبى سعيد كزعا متكبّراً ، قليل الضحك ؛ وذكر الأصمعىّ أنه اجتهد فى أن يضحكه فما ضحك إلا مرة متبسّما ، قال : ولقد أضحكت الرشيد ويحيى بن خالد فمن دونهما . قال : وأمر لى مرة بطيلسان ، فلما ألقاه الغلام علىّ ، لزمت الذى كان علىّ بيدىّ جميعاً ، فقال لغلامه : ألبِسْهُ فوقه ، فألقاه فوق طيلسانى ، فمسسته بيدىّ ، فقال ١٠ لى : كأنك تسترقّه ؟ قلت : نعم . فأمر لى بطيلسان أصفق منه ، فلما ذهب الغلام ليلقيه علىّ ، أمسكت الطيلسانين الأوّلين بيدَىّ ، فقال للغلام : ألبِسْهُ فوقهما ، فألقاه علىّ ، فقمت وعلىّ ثلاثة طيالسة ، فتبسّم حينئذ ، وأمر لى بعشرة آلاف درهم . [٣٨٧]

توديع المأمون الحسن بن سهل حين أنفذه إلى العراق

ثم قلد المأمون الحسن بن سهل خلافته ، وأنفذه إلى العراق ، فلما ١٥ خرج من حضرته خرج معه مودّعا له ، فلما بلغ غاية المشيّع قال له : أذكر يا أبا محمد حاجة إن كانت لك ؛ فقال له : نعم يا أمير المؤمنين ، أحفظ علىّ من قلبك ما لا أستطيع حفظه إلا بك .

تلقيب المأمون الفضل بذى الرياستين

ولقّب المأمون الفضل بن سهل « ذا الرّياستين » . ومعنى ذلك رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وعقد له على سنان ذى شُعْبتين ، وأعطاه ٢٠

مع العَقْد عَلَمًا قد كُتِب عليه لقبه ، فحمل العَقْد علىّ بن هشام ، وحمل العَلَمَ نُعَيْم بن حازم .

الفضل والإمارة

وكان الفضل يؤمَّر مع الوزارة ، وهو أول وزير لُقِّب ، وأوّل وزير اجتمع له اللَّقَب والتأمير .

توقيع المأمون إلى الفضل بن سهل

وذكر عيسى بن محمد بن حميد أنه رأى توقيعاً بخطّ المأمون للفضل ابن سهل : ٥

« أَغْنَيْتَ يا فَضْلُ بْنَ سَهْلٍ بِمُعَاوَنَتِكَ إِيَّاىَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ ، وَإِقَامَةِ سُلْطَانِي ، فَرَأَيْتُ أَنْ أُغْنِيَكَ ، وَسَبَقْتَ النَّاسَ مِنَ الحَاضِرِ كَانَ لِي ، وَالغَائِبِ كَانَ عَنِّي ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَسْبِقَ إِلَى الكِتَابِ لَكَ بِخَطِّي ، بِمَا رَأَيْتُهُ على نَفْسِي ؛ وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ تَمَامَهُ ، فَإِنَّ حَوْلِي ١٠ [٣٨٨] وَقُوَّتِي وَمَقْدِرَتِي وقَبْضِي وَبَسْطِي بِهِ ، لاَ شَرِيكَ لَهُ ؛ وقَدْ أَقْطَعْتُكَ السَّيْبَ بِأَرْضِ العِرَاقِ ، عَلَى حِيَازَةِ تَمِيمٍ مَوْلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ، عَطَاءً لَكَ وَلِعَقِبِكَ ، لِمَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ النَّزَاهَةِ عَنْ أَمْوَالِ رَعِيَّتِي ، وَلِمَا قُمْتَ بِهِ مِنْ حَقِّ اللهِ وَحَقِّي ، فَلَمْ تَأْخُذْكَ فِي لَوْمَةُ لاَئِمٍ ، وَلَمْ تُرَاقِبْ ذَا سُلْطَانٍ ولا غيره ، وَقَدْ جَعَلْتُ لَكَ بَعْدَ ذَلِكَ مَرْتَبَةَ مَنْ يقول فى كُلِّ ١٥ شَيْءٍ فَيُسْمَعُ مِنْهُ ، وَلاَ تَتَقَدَّمُكَ مَرْتَبَةُ أَحَدٍ مَا لَزِمْتَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ ، مِنَ العَمَلِ للهِ وَلِنَبِيِّهِ ، وَالقِيَامِ بِصَلاَحِ دَوْلَةٍ أَنْتَ وَلِيٌّ بِقِيَامِهَا ، وَجَعَلْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ لَكَ بِشَهَادَةِ اللهِ ، وَجَعَلْتُهُ لَكَ كَفِيلاً عَلَى عَهْدِي . وَكَتَبْتُ بِخَطِّي سَنَةَ سِتٍّ وَتِسْعِينَ وَمِئَةٍ .

وصية ذى الرياستين لكتابه

وكان ذو الرّياستين يقول لكتّابه : ٢٠

قاربوا بين الحروف ، لئلا يُسافرَ البصرُ سفراً بعيداً فى حروف قليلة .

قال الفضل بن مروان : قال لى المأمون :

جَهَدْتُ بالفضل بن سَهْل الجَهْدَ كُلَّهُ أن أزوّجه بعض بناتى ، فأبى ، وقال : لو صَلَبْتَنى ما فعلْتُهُ .

المأمون يرغب أن يزوج [٣٨٩] الفضل بن سهل بعض بناته فيأبى

وكان الفضل بن سهل سخيًّا سريًّا ، نَبيل النَّفْس ، كثير الإفْضال ، ٥ يذهب مذاهب البرامكة فى ذلك ، وكان غليظ العقوبة إذا عاقب ، مُقدِماً إذا أنكَرَ ، حسن الرّجوع إذا اُستُعْطِفَ ، وكان حسن البلاغة ، مُسْتقلاً بما يحتاج إليه مَنْ حَلَّ محله .

بعض ما اتصف به الفضل

وحُكِى أنه كان ربما أنكر على بعض أصحابه شيئاً ، فإذا تقرب إليه بخدمة ، أو بمناولة شىء ، أو بملازمة ، زال ما فى نفسه .

١٠ وكان إذا سأله أحد حاجة يقول : أكره أن أقول : نعم ، فأكونَ ضامناً ، أو أقول : لا ، فأكون مُؤْيِساً ، ولكن تنْظُرُ ويسهل الله ؛ ولا ينصرف أحد من عنده إلا وهو راض .

وكان مِهْذاراً مِكْثاراً ، يُشِير بيده إذا تكلّم ، ويُحِبّ أن يتصل كلامه ، وكان يأخذ اللقمة بيده ويبدأ بكلام ، فلا يقطعه حتى تبرد .

١٥ وكان الفضل يقول :

شىء من مأثور كلام ابن سهل وتوقيعاته

عجبت لمن يرجو مَنْ فوقه ، كيف يمنع من دونه .

وكان يقول :

إذا أعطيت الرجل شيئاً فعظّمه عليه ، فإنه لا يسألك حاجة حتى يستنفد ذلك ، ويقطع به دهراً .

٢٠ ووقع الفضل إلى خُزَيْمة بن خازم :

« الأمور بتمامها ، والأعمال بخواتيمها ، والصنائع باستدامتها ، وإلى الغاية جَرْى الجواد ، وهناك كشفت الخِبرة قناع الشك ، فحُمِد السابق ، وذُمّ الساقط » .

توقيع الفضل على كتاب لعامل همذان

وكتب صاحب المقاطعة بِهَمَذَانَ إلى الفضل يذكر أن كاتب المتولى للبريد بهذه الكُورَة ، ذكر أن صاحبه اقتطع مالا جليلا من مال السلطان ، وأنه يصحح ذلك عليه ، وأنه وكّل به وبصاحبه ، ليصحح ما رفعه ، فوقع على كتابه :

قبول السِّعاية شر من السِّعاية ، لأن السِّعاية دِلالة ، والقَبُول إجازة ، ومن قَبِل ما نهى الله عنه ، كان بعيداً منه ، وحقيقاً ألاَّ يُقْبل قوله ، فانْفِ هذا الكاتب ، فإنه لم يرْع ما كان يجب أن يرعاه من حقوق صاحبه ، وحُرمة خدمته .

الفضل والسعاة

وكان الفضل يبغض السُّعاة ويُقْصيهم ، وإذا أتاه ساعٍ قال له : إن صَدقْتنا أبغضناك ، وإن كذَّبْتنا عاقبناك ، وإن استقلتنا أَقَلْنَاك .

الوليد ومتنصح

ويُشْبه هذا ما ذُكِر عن الوليد بن عبد الملك أنه قال لمُتَنَصِّحٍ أتاه يستخليه: إن كانت نصيحتك لنا فأظهرها ، وإن كانت لغيرنا فلا حاجة بنا إليها ؛ فقال له : جار لى أخل بِبَعْثه . فقال له : أمَّا أنت فتخبرنا أنك جار سَوْء ، فإن شئت أن ننظر ، فإن كنت صادقاً أقصيناك ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، وإن شئت تاركناك ، فقال : بل تاركنى .

[٣٩١]

تحريم الفضل النبيذ

وكان الفضل قد حرّم النَّبيذ ، وحَظَر شربه ، وأمر بعقوبة شاربه .

ذو الرياستين ورجل مخاطر ماجن

قال أبو الحسن بن أبى عَبَّاد :

كان فى جوارنا رجل من آل حَمَّاد البربرى ، مشهور بالخِطارة[1] والفسق ، فأتلف ماله فى هذا الباب ، حتى أفلس ، فكان يقول لمجونه فى مجلسه : زيدونا خِطاباً . فلما لم يبق له شيء أظهر الزهد رياء ، وأظهر رفض ما كان فيه ، وشخص إلى ذى الرياستين ، فانصرف إلينا وهو

(١) هذه الكلمة غير واضحة بالأصل . وقد قرأها الناشر الأول « بالحسارة » والسياق يقتضى ما أثبتناه . غير أن كتب اللغة لم تذكر الخطارة بمعنى المراهنة ، واقتصرت على ذكر خاطر وتخاطر : بمعنى راهن ، فلعلها محرفة عن المخاطرة أو الخطار .

من أحسن الناس حالا فى دينه وذات يده ؛ فسألته عن ذلك ، فقال : أتيت ذا الرياستين ، فأقمت ببابه على ما كنت أظهرته من الرياء ، فلم ألبث أن سعى بى إليه وكيل له : أننى متصنع . فدعانى ، فقال : يا هـذا ، قد فعلت فعلا إن كان على صحة من نيتك ، فالحمد لله ، وإلا يكن ، فقد ينبغى أن تعرف مقدار الباطل من الحق ؛ قال: فنفعنى كلامه ، ٥
فصححت التوبة ، ورزق الله منه فضلا كثيرا .

[٣٩٢]
بعض ما وعظ به الفضل والحسن المأمون

ولما استقام الأمر للمأمون جلس مجلساً عامّا ، فحمد الله ، وذكر ما أولاه ، وعدَّدَ نعمه ، فى كلام طويل ؛ فقال له الفضل بن سهل : إنه لم يكن أحد مع أمر الله ولزوم أدبه ، فأخلفه ما تقدم اللهُ به من وعده ؛ قال : « لئن شكرتم لأزيدنكم » ، فمتى كنت يا أمير المؤمنين مُوجبا ١٠
شكره ، لم تجد خُلْفاً فيما وعد من فضله وزيادته . فقال الحسن بن سهل : مما حُفِظ يا أمير المؤمنين عن العالمين قولهم : لا تخافوا الله مع الإحسان ، على أنفسكم ، وخافوا أنفسكم على التقصير الموجب لحلول العقوبة بكم .

أرسل طاهر كاتبه عيسى إلى الفضل ليعتذر وما جرى بينهما

وكان يكتب لطاهر بن الحسين رجل يعرف بعيسى بن عبد الرحمن ، ١٥
فأنفذه إلى الفضل بن سهل ، وطاهر مقيم بالجزيرة ، والفضل بخراسان ، وقد كان الشغب الذى حدث بينهما ظهر ، فأنفذ طاهر عيسى هذا يظهر الاعتذار ، ويستبقى مخاطبته إياه ، فورد عسكر المأمون بمرو ، وكثير ممن بها من الوجوه عاتب على الفضل ؛ فحضره وبحضرته عبد الله بن مالك
الخُزاعى ، وهو أشدهم عتباً ، فكلمه بكلام كثير ، أغلظ له به ، وعرض له ٢٠

[٣٩٣]

بكل ما يكرهه ، ثم قال بعقبه : فلولا أنى رسول مأمون ما قلت ما قلته ؛ فقال له الفضل : أفما خشيت فى تَحَمُّل مثل هـذه الرسالة القتل ؟ فقال عيسى : ماشككت فى القتل ، ولكنى مَيَّلْتُ بين أن آبى على صاحبى تحملها ، وبين أن أقبلها ، فرأيت أنى إن لم أتحملها عُجِّل

لى القتل ، وحصلت لى مَذَمة المخالفة ، وإن قبلتها كنت قد شكرت نعمته ، وأطعت أمره ، وعشت بينه و بين الأمين أعزّه اللهُ المسافة التى عشتها ، ثم لعلى أن أكون قد وردت من فضل الأمير وعفوه وحلمه على ما أرجو ألا أبْعُد عنه ؛ فقال له الفضل : لو أطعت فيك النصحاء لاسترحت منك ، ولم تكلمنى فى مجلس أمير المؤمنين ودار الخلافة بما ٥
كلمتنى به ؛ فقال له عيسى : وما رأى النُّصَحاء أعز الله الأمير ؟ فقال له الفضل : أنْ كُنْت أضرب عنقك قبل أن تصل إلىّ ، وأرد رأسك فى مِخْلاة إلى صاحبك ، فأكون قد قطعت يده ولسانه . فقال له عيسى : أنا يده ولسانه ! والله لو أن صاحبى أخرج يده من مَضْرِبه لوجد حوله سَبْعين ، بل سَبْعَ مِئة ، بل سبعة آلاف ، كلهم أغنى وأجزأ وأكفى ١٠
منى ، ومن أنا فيمن قد عضَده الله به ، وأعطاه من كُفَاته . فبلغ هـذا الكلام من الفضل كلَّ مبلغ .

[٢٩٤] عيسى وخلعه قلنسوته فى مجلس الفضل

وكان عيسى كاتب طاهر لما دخل مجلس الفضل نزع قلنسوته ، وجعلها إلى جانبه ، ثم فعل ذلك مراراً ، فقال نُعَيْم بن حازم ليعقوب ابن عبد الله ، وكان يعقوب آلِفاً لعيسى : إن أبا العباس — يعنى عيسى — ١٥
إذا جلس فى مجلس الأمير — يعنى الفضل — رفع قلنسوته عن رأسه ، وهذا استخفاف منه بالأمير ، قد أنكره الناس ، وتكلموا فيه ، فأعْلِمه ذاك ، ليمسك عنه فيما يستقبل ، فإنه إن عاود دَنوت منه ، ورددتها على رأسه بعنف و إنكار ؛ فقال يعقوب لعيسى ذلك ؛ فقال له : بأىّ شىء رددت عليه ؟ قال : قلت له : إنه محرور ، ولعله قد استأذن الأمير فى ٢٠
ذلك ، أن كان لا يجهل ما يأتى و يذر ؛ فقال: والله مابى أنى محرور ، وما

استأذنت ،ولكنى أريد أن يعلم الفضل أوّلاً، ثم من حوله، أنه أهْوَنُ على وأدَقُّ فى عينى مادام صاحبى ـ أعزّه الله حَيّا ـ من هذه الشَّعْرة ـ وقلع شعرة من عُرف دابته ـ ومَن فوق تُمَيْم ، فضلا عن تُمَيم ، أشدّ تَهَيُّباً للإقدام على بشىء أُنكِرُه، فلا يدخُلنّك من قولهم شىء ،وعرّف نُعَيم بن حازم ماقلته.

٥ وحكى أن المأمون قال للفضل بن سهل :

[٣٩٥]

رأى المأمون لو أخذ به الأمين لانتصر

قد كان لأخى رأى لو عَمِل به لظفر بنا ؛ فقال الفضل : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : لو كتب إلى أهل خُراسان وطَبَرستان ودُنباوند أنه قد وهب لهم الخراج لسنة ، لم نخل نحن من إحدى حالَيْن : إمّا رَدَدْنا فِعله ، ولم نلتفت إليه ، فصانا أهل هذه البُلدان ، وانفسدت نيّاتهم ،

١٠ فانقطعوا عن معاونتنا ؛ وإمّا قبلناه وأنفذناه ، فلم نجد مالا نعطى منه مَنْ مَعَنا ، وتفرّق جندنا ، وَوَهَى أمرنا ؛ فقال الفضل : الحمد لله الذى ستر هذا الرأى عنه وعن نصحائه .

شعر لابن سيار فى الفضل حين تقلده الوزارة

ودخل القاسم بن يسار الكاتب[1] على الفضل بن سهل عند تقلده الوزارة وتلقيبه ، فأنشده :

يَا أَبَا الْعَبَّاسِ إِنِّى نَاصِحٌ	لَكَ وَالنُّصْحُ لِذِى الْوُدِّ كَبِيرُ
لَا تُمِدَّنِّى لِيَوْمٍ صَالِحٍ	إِنَّ إِخْوَانَكَ فِى الْخَيْرِ كَثِيرُ
وَلْيَكُنْ لِلشَّرِّ مَا أَعدَدْتَنِى	إِنَّ يَومَ الشَّرِّ يَوْمٌ قَمْطَرِيرُ
هَـٰذِهِ السُّوقُ الَّتِى أَمَّلْتُهَا	يَا أَبَا الْعَبَّاسِ وَالْعُمْرُ قَصِيرُ

١٥

(١) كذا قرأه الناشر الأول . وفى معجم الشعراء للمرزبانى : « القاسم بن سيار الجرجانى الكاتب » قال : وكانت بينه وبين الفضل بن سهل حال وكيدة ، فلما تقلد الفضل الوزارة لم يلتفت إليه ، لأنه عرض عليه الشخوص معه إلى خراسان ، فلم يفعل ، فكتب إليه القاسم :

٢٠

يا أبا العباس إنى ناصح	لك والنصح لذى الود يسير
لا تعدنى ليوم صالح	إن إخوانك فى الخير كثير
وليوم الشر ما أعددتنى	إن يوم الشر يوم قمطرير
هذه السوق التى أملتها	يا أبا العباس والعمر قصير

٢٥

فوصله ، وأكرمه ، وأحسن إليه .

خلع المأمون والبيعة لإبرهيم بن المهدى

[٣٩٦]

وكان إبرهيم بن المهدى يتقلد البصرة من قبل المأمون ، وكاتبه إبراهيم ابن نوح بن أبى نوح . وكان المأمون جدّ فى تجديد العهد لعلىّ بن موسى ابن جعفر ، وتقدّم إلى الفضل بأخذ البيْعة على الناس ، والكِتاب إلى الأقاليم فى إبطال لبس السواد ، وكتبَ الفضل بن سهل إلى الحسن يعلمه ذلك ، ويأمره بطرح لبس السواد ، وأن يلبس الخُضْرة ، ويجعل الأعلام والقلانس خُضْرًا ، ويطالب الناس بذلك ، ويكاتب فيه جميع عُمّاله . فكتب الحسن إلى عيسى بن أبى خالد بذلك ، فدعا عيسى أهل بغداد ، وعرضهم ما كتب به الحسن ، فبعض أجاب ، وبعض امتنع ، ودب الهاشميون بعضهم إلى بعض ، وخلعوا المأمون ، وعقدوا الأمر لإبراهيم ابن المهدىّ فى يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذى الحِجَّة سنة إحدى ومئتين ؛ وكان القيّم بأمره عيسى بن محمد بن أبى خالد ، فكان من أمره ما كان .

مشاورة المأمون وجوه خراسان فى البيعة لعلى بن موسى

وكان المأمون قد قال للفضل :

ينبغى أن تحضر نُعَيم بن حازم ، فإنه وجه من الوجوه ، وله سابقة وجلالة ورياسة ، فتناظره فيما أجمعناه من هذا الأمر ؛ فأحضره الفضل بحضرة المأمون ، وعرّفه بما عزم عليه ، ورغَّبه فيه ، وذكّره ما يلزم من الانقياد له ، فأبى ذلك نُعيم ، وذكر ما كان منه ، ومن سَلَفه فى نصرة الدولة الهاشمية ، وما وصلوا إليه بها من العزّ والأمن ، والثروة والجاه ، وما بلغوه فيها من الحماية ، وبذل المُهْجة ، ومقارعة الأعداء ،

= ووردت الأبيات الأربعة « بمثل رواية الأصل » فى صفحة ٣ ج ٣ من عيون الأخبار لابن قتيبة طبعة دار الكتب المصرية ، ونسبت إلى الفضل بن سيار ، وهو سهو من الكاتب .

وأنه لا يقبل الضيم ، ولا يسمح بطاعة من كان يسفك دمه ، ويدفعه عما [٣٩٧]
يلتمسه ، ويقارعه دونه . فكلّمه الفضل فى ذلك ، وخلط له ليناً وغلظة.
فقال له نُعَيم : إنك إنما تريد [أن](١) تزيل الملك عن بنى العباس إلى
ولد علىّ ، ثم تحتال عليهم ، فتصير الملك كسرويّا ؛ ولولا أنك أردت
٥ ذلك لما عدلت عن لِبسة علىّ وولده ، وهى البياض ، إلى الخضرة ،
وهى لباس كِسرى والمجوس ؛ ثم أقبل على المأمون ، فقال : اللهَ اللهَ
يا أمير المؤمنين ، لا يخدعَنَّكَ عن دينك وملكك ، فإن أهل خُراسان
لا يجيبون إلى بَيْعة رجل تَقْطُرُ سيوفهم من دمه ؛ فقال له المأمون :
انصرف ، ولم يظهر له غضباً ؛ وأقبل على الفضل ، فقال له : ما ترَى ؟
١٠ قال : أرَى أن يُخرج هذا عن خُراسان ، فلا خير فى مُقامه معنا ؛ فقال
له : أفلا أقتله ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنك قتلت بالأمس هرْثمة ، وقَدْره
فى الناس قَدْرُه ، وأظهرت موته ، وقد تيقن الناس قتلك إياه ، وضربت
عُنُقَ يحيى بن عامر صَبْرا ، وأمرت بحمل عبد الله بن مالك ، وضربت استه كما
يُضْرَب الصِّبيان ، والخوف إن قتلت هذا أن يكون لأهل خراسان فى
١٥ أمره حركة ؛ ولكنا نوجّهه فى عِدَّةٍ قليلة ، ونأمره بمحاربة بن شَكْلة(٢) ،
ونكتب إلى كلّ عامل يجتاز به بترك إزاحة عِلَله ، وقلة الالتفات إليه ؛ [٣٩٨]
فقال : إنى أكره أن يصير إلى ابن شَكْلة ؛ فقال له : ذلك أهون علىّ
فى أمره ؛ فقال له : افعل ، ففعل ذلك ، فصار نُعيم بن حازم إلى
ابن شَكْلَة ، ولم يزل معه إلى أن استتر إبراهيم ، ثم ظَفِرَ به ، وصيرَ
٢٠ به إلى الحسن بن سهل . فذكر محمد بن الجهم أن نُعَيماً أُدْخل حافياً حاسراً ،

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) شكلة : (بفتح الشين وكسرها) : أم إبرهيم بن المهدى .

وقد كان الحسن جلس مجلساً عاماً ، فلما وقف بين يديه أقبل يقول : ذنبي أعظم من السماء ، ذنبي أعظم من الهواء ، ذنبي أعظم من الماء ! فقال له الحسن : على رِسْلك ، فقد تقدمت منك طاعة ، وكان آخر أمرك إلى توبة ، وليس للذنب بينهما مذهب ، وما ذنبك فى الذنوب بأعظم من عفو أمير المؤمنين عنك فى العفو ، وقد أقالك الله ، وعفا عنك . . ٥

الفضل ووقيعته فى ابن مالك وموقف ثمامة منه

وحكى ثُمامة :

أن الناس اجتمعوا جميعاً : القُوّاد ، والقُضاة ، والفقهاء ، ووُجوه العامة ، وجلس الفضل على فُرُش مُرتفعة ، فلما وصلوا إليه قام فخطب ، فحمِد اللهَ ، وأثنى عليه ، ثم ابتدأ فى الوقيعة فى عبد الله بن مالك ، وذَكَر أنه كان يدَّعِى [على[1]] الرشيد فى حكايته دخول بيوت ١٠ القيان ، وهو كاذب فى ذلك ، وهو الذى كان يأتى المواخير والدساكر ، [٣٩٩] لا يَرْفع عن ذلك نفسه ، ولا يأنف من فجره ، ولا يصون قدره . قال ثُمامة: ثم أقبل علىّ فقال : وإن أبا معن ليعلم ذلك ، ويعرف ما أقول . فتركت تشييع قوله بالتصديق ، وأطرقت إلى الأرض ، ودخلتنى العصبية لعبدالله بن مالك ، للعربية أولا، ثم لنفسه أخرى ؛ ثم عاد إلى أن يَهْتِرَ[2] ١٥ عبدَ الله ، ويتوسع فى الدعاوى عليه ؛ ثم أقبل علىّ وقال : وإن ثمامة ليعلم ذلك ؛ فأطرقت وأمسكت ، وإنما كان يريد منى أن أشيع كلامه بالتصديق . فلما رأى إعراضى عن مساعدته ترك الإقبال علىّ ، وأخذ فى خطبته ، حتى فرغ من أربه فى عبد الله بن مالك . فلما تفرق الناس وانصرفت علمت أنى قد وقصت ، وتعرضت لِمَوْجِدة الفضل ، وهو الوزير ، ٢٠ وحالى عنده حالى ، فلما وصلت إلى منزلى جاءنى بعض إخوانى ، ممن كان فى ناحية الفضل ، فأخبرنى أن يحيى بن عبد الله وغيره قالوا : ماذا صنعت

(١) زيادة يقتضيها السياق .
(٢) يهتره : يمزق عرضه .

ياأبا معن ؟ يخاطبك فعرض عنه مرة بعد أخرى ؟ قال فقلت: أنا والله أحق بالموجدة عليه ، أعزّه الله ، لأنه قام فى مثل ذلك الجمع ، وقد حضره كل شريف ومشروف، ولم يستشهد بى فى خطبته ، وما أجراه من كلامه، إلا فى [٤٠٠] موضع ريبة ، أو ذكر دسكرة ، أو منزل مُقَيِّن أو مُقَيِّنة ، والله ما أقدر أن أشهد بذلك إلا أن أكون للقوم تالياً . قال : صدقت ، والله ياأبا معن، ٥ بئس الموضع وَضَعك ! ورَجع إليه بكلامى . فقال : صدق والله ، ثمامة أحقّ بالمَعْتَبة منا عليه ، واندفعت عنى موجدته ، وما كنت أردت إلا مادخلنى من الحَمِيّة لعبد الله بن مالك .

سبب ضرب المأمون لعبد الله بن مالك

وكان سبب ضرب المأمون عبد الله بن مالك ، على ما حكاه فرج ١٠ السُّلَمِى ، قال :

حضرت يوما للمأمون بخراسان ، وقد جلس فى إيوانه ، وأسبل ستراً رقيقاً فى وجهه ، وأمر بإحضار قاضى خراسان . فأُحضر ، وأذن له ، وأجلس فى مجلس أمر به ؛ فتقدم الفضل بن سهل مستعديا على عبد الله ابن مالك ، فقال القاضى للفضل : ما تدّعى ؟ قال : شتم أمى ؛ قال : ١٥ وأمك باقية ؟ قال : نعم ؛ قال : فالحقّ لها إن كنت صادقاً ، فلتحضر وتطالب بحقها ، أو توكلك ، ويشهد عندى شاهدان أعرفهما بتوكيلها إياك بطلب حقها . فنهض الفضل عن مجلسه ، ثم عاد بهارون بن نُعيم والرُّستمى ، فشهدا عنده أن أمه قد وكلته بطلب حقها . فقال القاضى [٤٠١] لعبد الله بن مالك : ما تقول ؟ فأنكر ما ادعاه الفضل عليه ؛ فقال الفضل : ٢٠ ألك بيّنة ؟ قال : نعم ، ونهض من مجلســـه ، ثم عاد ومعه هارون والرُّستُمى ، فشهدا له بما ادّعى على عبد الله ؛ فقال له الفضل : خذ لى

بحق ؟ فقال له القاضي : ليس بمثل شهادة هذين تباح ظهور المسلمين ، فاغتاظ الفضل من قوله ، وصاح المأمون من وراء السّتر : احكم له بشهادتهما . فقال : أما أنا فما أبيح ظهر رجل مسلم بشهادة هذين ، ولا أحكم بقولهما ، وأنت الإمام ، إن رأيت أن تحكم له فافعل . فأمر المأمون بالقاضي فسحب حتى أخرج من الدار ، ثم أمر بعبد الله بن مالك ٥ فحمل على ظهر رجل ، وأمر بضربه . وصار القاضي إلى منزله ، ولم يعاود القضاء ، وامتنع ، فولّى المأمون غيره .

مقتل هرثمة

قال هارون اليتيم :

حضرت هرثمة بن أعين ، وقد قدم مرو إلى المأمون مُغاضباً لذى الرياستين ، وكان ذو الرياستين يجلس على كرسيّ مُجَنَّح ، ١٠ ويحمل فيه إذا أراد الدخول على المأمون ، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه ، فإذا وقعت وُضِع الكرسيّ ، ونزل عنه ، فمشى، [٤٠٢] وحُمِل الكرسيّ ، حتى يُوضَع بين يدَى المأمون ، ثم يسلم ذو الرياستين ، ويعود فَيَقْعُدُ عليه ؛ وكان فيمن يحمل الكرسيّ سعيد بن مسلم ، ويحيى بن مُعَاذ . قال : وإنما ذهب ذو الرّياستين فى ذلك إلى مذهب ١٥ الأكاسرة ، فإن وزيراً من وزرائها كان يحمل فى مثل ذلك الكرسيّ ، ويَقْعُدُ بين أيديها عليه ، ويتولّى حمله اثنا عشر رجلا من أولاد الملوك ؛ فدخل هرثمة فى أصحابه دار المأمون ، فوجد ذا الرّياستين جالساً على الكرسيّ فى الدار ، والمأمون فى دار أخرى ، فلما انتهى إلى موضعه قعد، ولم يسلّم على ذى الرّياستين ، وفى يدى ذى الرّياستين كتاب يكتبه ، وهو ٢٠ مقبل عليه ، فلما فرغ منه التفت إلى هرثمة ، فقال : مرحباً وأهلا وسهلا يا أبا حاتم ، أسعدك الله بمَقدمك ، وعظّم بركته عليك ؛ فلم يردّ عليه هرثمة شيئاً ، ثم قال : إنى قد عرّفت أمير المؤمنين — أعزّه الله — خبرك

وأن ما حملت نفسك عليه من الدخول بغير إذن لغير معصية منك ، [٤٠٣]
وصرفتُ ذلك إلى أحسن الجهات ، فقبل ذلك ، ورجع عما سبق إلى قلبه
منه ؛ فلم يكلمه هرثمة . ثم قام ذو الرّياستين ، فدخل إلى المأمون ، ثم
خرج وقال : يا أبا حاتم ، قد عرفت أمير المؤمنين مكانك ، والحال التى
٥ أنت عليها من العلة ، وأنه لا يمكنك الوصول إليـــه إلا على الحال التى
وصلت عليها إلينا ؛ فلم يكلمه ؛ ثم أذن له المأمون ، فدخل عليه ، فبرّه
وأقبل عليه ، وأمر بأن يطرح له كرسىّ إلى جانبه ، وأقبل عليه بوجهه
يُحَدّثه ويسائله ، ويدعوه بكنيته ؛ ودخل ذوالرّياستين ، فطُرِح كرسيُّه ،
وقَعد عليه . قال : فقال المأمون : ياأباحاتم ، ما كان لتجشُّمك هذا السفر
١٠ مع علتك معنى ؛ فقال : بلى ، يا أمير المؤمنين ، تجشمته لأقضى حقّ الله
علىّ فى طاعتـــك ، وأُنبِّهَكِ على أمرك ، وأقول بالتنصُّح لك ؛ فقال :
يا أبا حاتم ، ليست بك حاجة إلى هذا وأنت تَعِب ، فانصرف إلى
منزلك ؛ قال : كلاَّ ، يا أمير المؤمنين ، ما تجشمت طول السفر لأنصرف
إلى منزلى ؛ قال : بلى ، يا أبا حاتم ، أحبّ أن تنصرف إلى منزلك ، [٤٠٤]
١٥ وتدع ذكر ما لا نحتاج إليه ، وما أنت عنه غنىّ ؛ قال : لا ، ياأمير المؤمنين ،
أو أقضىَ الحقّ علىّ فى نصحك ، لأنى لا آمن أن يحدث علىّ فى هذه
الساعة حادثة ، فألقى ربّى مقصِّرًا فى حقّ إمامى ؛ ثم التفت وقال :
الحمد لله الذى لم يُمِتنى حتى رأيت هـــذا المجوسىّ — يعنى ذا الرّياستين —
فى هـــذا المجلس ، على كرسىّ ، ثم قال : يا أمير المؤمنين : ما لمسرور
٢٠ وسلاّم يحبسان بغير ذنب ، ويأخذ هذا المجوسىّ أموالهما وأمتعتهما ، فيبيعها
ويُمزّقها ! قال له : يا هرثمة ، وترك الكنية ، أَمْنَعُكَ عن ذكر ما لا نحتاج
إليه ، وغضب المأمون ؛ فقال : لا والله ، أو يُدْفَعَ إلينا هذا المجوسىّ ،

فتُنزِلَ به ما يستحقه ؛ فقال له ذو الرّياستين : وماأنت وهذا ياعلْج !؟ خذوا برجله وجرّوه ؛ فتبادر الناسُ إلى هَرْثمة ، وأخذوا برجله ، وجرّوه من بين يدى المأمون ، وحُبِس ثمانية أيام ، وقُتِل ، ثم أخرج فى اليوم الثامن مَيْتاً فى لُبّادة .

قال :

ودخل على المأمون محمد بن سعيد بن عامر أحد قوّاد هَرْثمة ، فقال : [٤٠٥] السلام عليك ياأمير المنافقين ؛ فوثب إليه ذو الرّياستين فضربه بسيفه حتى قتله . وكان فيمن حضر مجلس ذى الرياستين قبل دخول هرثمة إلى المأمون ، أحمد بن أبى خالد ، فقام وقال : يأيها الأمير — يعنى ذا الرّياستين — إن سيوفنا قد ظمئت إلى دم هذا العاصى الخائن الخانع[1] ، وبسط لسانه فى هرثمة ، ونال منه أيضاً بحضرة المأمون .

الرستمى بعد توبته عند الفضل

ولما دخل الرّستمى على الفضل بن سهل بعد معصيته ، قال له الفضل : إن كنا نرى العفو عمن لم يتقدّم بحسنة فى طاعتنا ، ولم يألُ جهداً فى مخالفتنا ، فأنت بالعفو أولى ، لتقدم طاعتك ، وأنك لم تُغْرِق فى مخالفتك ، ولعلّ حادث ذنبك يُذهب طَرَفاً من دالّتك ، ويحدث زيادة فى حبك ومناصحتك .

وفاء الحسن بن سهل لخنابوذ القامى

حدّث الحسن بن سهل ، قال : حدثنى : عبد الله بن بشر ، قَرابة الفضل ، وكان يخصه ويؤنسه :

أن الفضل كان إذا دخل من الشّعب إلى مدينة السلام لحوائجه ، نزل على رجل قامىّ ، يقال له خُنابوذ ، وكان يخدمه هو وزوجته وولده ، ويقوم بحوائجه ، وأنه مكث بذلك زمانا ، ثم تهيأ من أمر الفضل ماتهيأ ،

(١) لعلها : « الخالع » .

وتغيرت حال القامِيّ ، وتنكّر الزمان له ، فذكر الفضل وما صار إليه ، [٤٠٦]
ومكانه بخراسان ، فتحمّل المشقّة فى قصده ، على ظَلَع وتمحل لنفقته ،
فقصد عبدالله بن بشر . قال عبدالله: فلما رأيته سررت به ، وسألته عن حاله ،
وأنكرت عليه تأخره ، مع حُرْمته وحقوقه ، وأمرت له بثياب ، وأصلحت
٥ شأنه ، وكان ذلك بعقب ورود فتح بغداد ، وابتداء صلاح الأمور
وانتظامها ، فدخلت على الفضل وقد دعا بطعامه ، وحضر مؤاكلوه ، من
أهله وجلسائه ؛ قال : فلما ابتدأ بالأكل قلت : أليس تعرف الشيخ القامِيّ
الذى كنا ننزل عليه ببغداد ؟ قال لى : سبحان الله ! تقول لى : تعرفه !
إنما ينبغى أن تسألنى عن اسم امرأته وصبيانه ، وكيف يمكننى
١٠ أن أنساه وله من الحق علينا ما قد علمته ! وكيف ذكرتَه البائسَ ؟
أظن إنساناً أخبرك بموته ؟ فقلت له : كلا ، بل هو والله فى منزلى . فلما
سمع كلامى استُطير فرحاً ، ثم قال : جيئونى به الساعةَ ؛ ثم رفع يده ،
وقال : لا نأكل والله لقمة حتى تجىء به . قال : فحين نظر إليه ، تطاول
له ، وقال : أبا فلان ! وأوسع له فيما بينه وبينه ، ثم أقبل عليه إقباله [٤٠٧]
١٥ على أخ شقيق ، ثم قال له : يا هذا ، ما حبسك عنا طول هذه المدة ؟
فاعتذر إليه ، وذكر مِحَناً أتت عليه ؛ ثم أقبل يسأله عن واحدة واحدة
من بناته ، وعن كل شىء كان يعهده ؛ فقال : ما بقى لى بعدك ولد ولا أهل
ولا مال ، ولا تحملت إليك إلا ببيع شىء من أثاث بقى لى ، فاستتم
غداءه وهو كالمشغول عنه ، فرحاً بجُذابوذ ، ثم أمر له بثياب من ثيابه .
٢٠ قال : وكان التجار ببغداد قد أنفذوا وكلاءهم ورسلهم إلى الفضل
ابن سَهْل ، ليناظروه عنهم فى غَلّات السّواد ، وأعطوه عطايا لم يجبهم
إليها ؛ فقال لى : قد علمت ما دار اليوم بينى وبين وكلاء تجار السواد ،
وأنّى تأبيت قبول ما بذلوه ، فأحضرهم ، وأمض البيع لهم ، على أن

لخذابوذ معهم شركة فى البيع . قال : فعلت ذلك ؛ فقال لخذابوذ : كأنى بك الآن وقد خرجت إليهم الساعة ، فهولوا عليك ، وقالوا : تحتاج إلى إنفاذ وكلائك معنا ، وأن تُسلِّفهم ، وتطلق لهم نفقات ، ويبذلون لك ربحك فى سهمك مئة ألف درهم ، فلا تقبل منهم أقل من خمسين ألف [٤٠٨] دينار ؛ قال له : نعم ، وخرج وهم ينتظرونه ، فقالوا له : ما خبرهم به الفضل ، [ومضوا[١]] ٥ فى السَّوْم إلى أن أجابوه إلى خمسين ألف دينار ، ودفعوا إليه المال من وقته ، ومضوا بكتب التسليم ، ودخل خُذَابوذ يشكر الفضل ، فأنكر ذلك [وأكْبَرَه ، وأعلمه أنه إن تنازل[١]] له عن شطر ملكه كان حقيقاً به ، [لمنزلته[١]] عنده . وأقام خُذَابوذ لا يفارق الفضل بن سهل ، ولا يأكل ولا يشرب [إلا معه[١]] . ١٠

وحدثنى عبد الله الأنبارىّ ، عن أبى الفتح قال :

كنت فى دار ذى الرياستين[٢] .

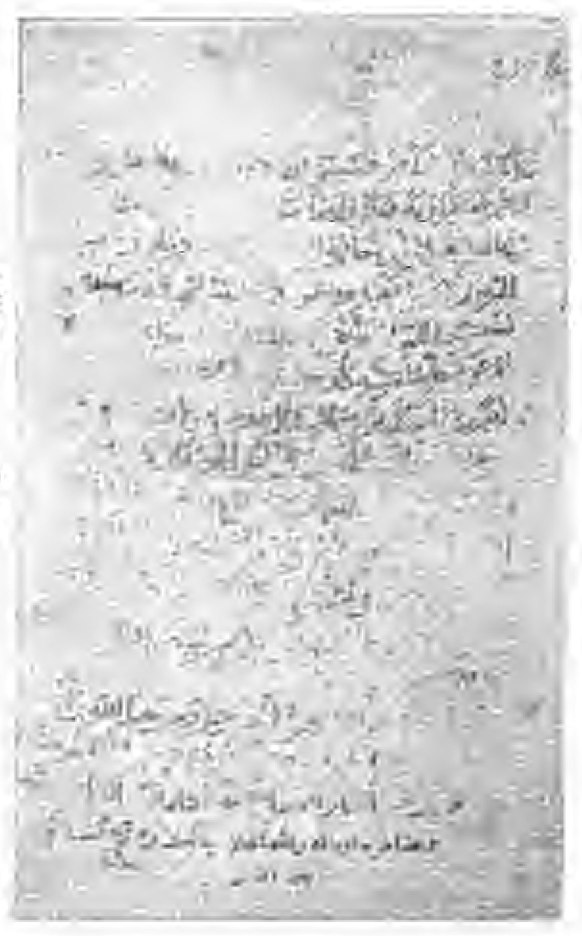
وفى الفضل يقول التَّيمى الشاعر ، وهو عبد الله بن أيوب :

لَعَمْرُكَ مَا الأَشْرَافُ فى كُلِّ بَلْدَةٍ وَإِنْ عَظُمُوا إلاَّ لِفَضْلٍ صَنَائِعُ

تَرَى عُظَمَاءَ النَّاسِ للفضل خُشَّعاً إذا ما دَنَا والفضلُ لِلهِ خاشِعُ ١٥

(١) مابين القوسين زيادة مفهومة من السياق .
(٢) لم نستطع قراءة بقية هذا الخبر فى الأصل ، لخفاء معالمه .

انتهى ما وجد من كتاب الوزراء والكتاب لأبى عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى



(صورة أخرى صفحة ٤٠٨ من الأصل (مشار إليها في المقدمة)

فهـــارس

كتاب الوزراء والكتاب

لأبى عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى

---

١ – فهـــرس أبواب الكتاب

فهـــرس الأعلام

ب

ت

ث

ج

ح

(١) ذكر فى ص ٢٧٠ س ٥ باسم الحسين ، وهو تحريف .

(٢) كذا فى الأصل مصوبة عن الطبرى . وفى فهرست الجهشيارى : « غضيض » .

(١) فى الأصل : « حدوثة » ، وهو تحريف .

د

ذ

ز

س

ش

ص

ض

ط

ع

(١) فى الأصل المخطوط : « الأنباوى » . وهما روايتان فيه .

(١) كذا فى الأصل ، ولعل الصواب فيه : « عبد الله بن محصن الحميرى » راجع فهرس الجهشيارى .

(١) فى الأصل « الحسن » وهو تحريف .
(٢) ورد فى ص ٢٦٥ : « عمرو بن مطرف » وهو تحريف .

غ

ف

(١) في كتاب الورقة لابن الجراح : « المخيم » (بالياء المثناة التحتية) . وقد فاتنا الإشارة إلى ذلك في موضعه .

(١) فى الأصل : « زريق » وقد فاتنا تصويبه فى موضعه .

ن

هـ

و

(١) فى كتاب الورقة لابن الجراح : «رزين»

(١) فى الأصل : « منصور » وقد أثبتنا تصويبه فى موضعه .

فهرس الأمم والقبائل والأرهاط والعشائر ونحوها

ا

ب

ف

ق

م

ن

ه

ى

فهـــرس رجال السند

ا

ب

ث

ج

(١) ورد هذا الاسم خطأ في الأصل باسم «إسماعيل بن أبي بكر بن عياش».

(١) فى الأصل : « الشعوى » وهو تحريف . والتصويب عن إرشاد الأريب لياقوت .

(١) لعلها « الحسين » . راجع فهرست الجهشيارى .

فهـــرس الشعراء

ا

ب

ت

ح

خ

ن

هـ

و

ى

(١) راجع الحاشية رقم ٢ ص ذ من المقدمة .

فهـــرس القوافى

فهـــرس أنصاف الأبيات

فهـــرس الأيام

ف

ى

فهرس أسماء الكتب

أ

ب

ت

د

ر

س

ش

ص

ط

ع

ف

ق

ك

فهـــرس الأماكن

أ

ب

(١) كذا في الأصل . وقد فاتنا أن نزيد في التعليق عليها أنها قد تكون محرفة عن «باذبين» . وهي قرية تحت واسط على ضفة دجلة .

(٢) ذكرت خطأ باسم « البز » على أنها هي والطيلسان من بين الأصناف . وها من أسماء الأماكن، غير أنا لم نجد الأول في المعاجم التي بين أيدينا .

ت

ج

ح

خ

(١) ذكر خطأ فى ص ٢٢٥ : ١٢ باسم الفرات . وقد فاتنا أن نصوبه فى موضعه .

(١) الطيلسان : إقليم واسع كثير البلدان والسكان من نواحي الديلم والخزر ، افتتحه الوليد بن عقبة سنة ٣٥ هـ . (تراجع الحاشية رقم ٢ ص ٤٠٧) .

(١) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصل . ولعل الصواب فيها : «الكرج» . راجع فهرس الجهشيارى طبع أوربا .

ن

هـ

و

ى

فهـــرس الموضوعات

(١) ذكرت هذه الحاشية خطأ : « وصيته لكاتبه ابن جبير » .

صفحة

أيام معاوية بن أبي سفيان

أيام يزيد بن معاوية

أيام معاوية بن يزيد بن معاوية

أيام مروان بن الحكم

أيام عبد الملك بن مروان

صفحة

أيام الوليد بن عبد الملك

---

(١) ذكرت هنه الحاشية خطأ : « الحجاج ومشورة جبل » .

صفحة

أيام سليمان بن عبد الملك

أيام عمر بن عبد العزيز

أيام يزيد بن عبد الملك

أيام هشام بن عبد الملك

صفحة

أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك

أيام يزيد بن الوليد الناقص

أيام إبراهيم بن الوليد

أيام مروان بن محمد الجعدي

(١) وردت هذه الحاشية خطأ : « عهد مروان إلى أبي العباس » .

(٢) وردت هذه الحاشية خطأ : « أبو العباس وزوجته وأبي سلمة » .

صفحة

أيام المهدى

صفحة

أيام موسى الهادى

صفحة

أيام هارون الرشيد

صفحة

(١) ذكرت عند الحاشية خطأ : « إسحاق ومسألة ... الخ » .

صفحة

(١) ذكرت هذه الحاشية خطأ: «شىء عن عبد الله بن مخلد».

أيام محمد الأمين

(١) ذكرت خطأ : « وفاة الحسن » .

اســـتدراكات

اضطربت الأرقام الجانبية الدالة على صفحات النسخة الأصلية فى الملزمة الأولى فبدأت برقم (١) وانتهت برقم (١٤) وصوابها أن تبـدأ برقم (٢) وتنتهى برقم (١٥) .

وردت كلمة : « طبع أوربا » فى (ص ١٩ س ٢٥) فى غير موضعها ، والصواب أن تلحق بالحاشية رقم (٥) بعد « والطبرى ق ٢ ص ٢٧١٢ » .

وردت هذه العبارة : « التمسوا مسكنا غير هذا » فى (ص ٣٨ س ١٩) . وقد وردت فى رغبة الآمل (ج ٥ ص ٢٦٧) نقلا عن كتاب الأوائل لأبى هلال العسكرى هكذا : « التمسوا مكسبا غير هذا » .

ورد فى (ص ٨٤ س ١١) : « طلحة بن زريق ، أخو مصعب بن زريق » بتقديم (الزاى على الراء) . والصواب فيهما : « رزيق » بتقديم المهملة ، كما فى المشتبه للذهبى .

حسبنا ابن هبيرة المذكور فى (ص ٨٤) عمر بن هبيرة الذى جاء ذكره فى الكتاب أكثر من مرة فضممنا مناسبته إلى مناسبات عمر وقد تبين أنه هو يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى .

وردت كلمة : « المورِيانى » فى (ص ٩٧ س ٩) وبعض صفحات أخرى مضبوطة (بفتح الراء) . والصواب (كسرها) كما ضبطناها فى أكثر من موضع .

وردت هذه العبارة : « كورة بالشام منها حلب » فى حواشى (ص ١١٤) متأخرة سطراً عن موضعها .

ورد فى (ص ١٢٤ س ١٤) هذا البيت :

وسائل عن حمارى كيف حالهما سلنى فعندى حقيقة الخـــبر

وقد فاتنا أن نشير مع تعليقنا عليه رأى الناشر الأول لهذا الكتاب ، فقد صوبه على الوجه الآتى : « وعن حمارى . . . الخ » .

وردت هذه العبارة : « ولم يكن ليونس خال فيبتاعه » فى (ص ١٢٥ س ٨ ــ ٩) والسياق يقضى بأن تكون : « ولم يكن للربيع خال فيبتاعه » .

ذكرت هذه العبارة : «أنشدنى سعيد بن يعقوب » فى (ص ١٦٢ س ٥) . وصوابها : « أنشدنى سعيد ليعقوب » .

فاتنا أن نضم إلى الحاشية (رقم ١ ص ١٩٤) رواية كتاب الورقة وهى : « هذا السنيدى » .

فى (ص ٢٠٥ س ٦) ذكر هذا السند : « وذكر محمد بن العباس اليزيدى أن ابن أخى الينبغى حدث » . وصوابه : « وذكر محمد بن العباس اليزيدى أن ابن أخى الأصمعى حدث » . وقد صوبناه فى فهرس رجال السند إلا أن كلمة « ابن أخى الينبغى ذكرت مقحمة ضمن هذا الفهرس .

فى صفحة ٢٦٥ وردت كلمة « وابنه » مقحمة فى الحاشية التى أولها : « توفى ابن مطرف » .

سقطت من بين مناسبات الرشيد فى فهرس الأعلام هذه المناسبة : « بعد نكبة البرامكة أمر ابن صبيح بكتابة العهد لأولاده ٢٦٥ : ٦ ــ ١٠ » .

موضع الحاشية (رقم ١ ص ٢٩٣) هو (ص ٢٩٢) .

ذكرت هذه العبارة : « حدث الحسن بن سهل قال : حدثنى عبد الله ابن بشر قرابة الفضل » فى (ص ٣١٨ س ١٦ ــ ١٧) . وصوابها : « حدث الحسن بن محمد قرابة الفضل بن سهل قال حدثنى عبد الله بن بشر قرابة الفضل » .

إصـــلاح خطأ

وقع أثناء الطبع أخطاء نذكرها هنا ليقف عليها القراء

ص	س	خطــــأ	صـــــواب
د	٨	على . . . الطبع ، وكان يبذل	وكان على اتصال . . . يبذل
ط	٣	فى هذا	فى هذه
ض	١٧	الكتاب هذه	الكتاب على هذه
٥	١١	ضُربوه	ضَربوه
٧	١	الأعدا.	الأعداء
٧٢	١٩	قَرْصته	قَرَصته
٧٩	٤	زائلُ	زائلٌ
٨١	١٥	الصّبى	الصّبا
٨٧	١٨	كلّْ	كلّ
٨٧	حاشية	محطبة	مَحطبة
٩١	٥	[٩٨]	[٩٧]
٩٣	٥	وأخْرَجْت	وأخْرَجَتْ
٩٥	٤	تخلَ	تخلّ
٩٨	٧	كما رأيت	لما رأيت
١٠٠	٧	الجَهْبذ	الجِهْبَذ
١٠٢	٥، ٦، ١٠	رُغْبان	رَغْبان
١٠٦	١١	فشدّاة	فَشُدّاه

ص	س	خطـــأ	صـــواب
١٢٠	١	التقبّل	التقبُّل
١٢٠	حاشية	يقاع	إيقاع
١٦٣	١	أبو الحسن عمر	أبو الحسن عمرو
١٦٨	٩	المِضْرَب	المَضْرِب
١٩٨	٥	السخاء ، فيالها	السخاء والعلم ، فيالها
١٩٨	١١	سِوَار	سَوَّار
٢٠٩	١٠	غَرَبَتَ	غَرَبَتْ
٢٢٧	٣ ـ ٤	يتقلدها أولا أولا	يتقلدها أولا
٢٢٧ ٢٥٠	١٢ ١	يأخى	يا أخى
٢٢٨	٦	يا أبه	يا أبة
٢٣٤	حاشية	رجا ... على الرشيد	رجا ... علىّ الرشيد
٢٤٠	٦	لأبيه	لابنه
٢٤٦	حاشية	[٢١٠]	[٣١٠]
٢٥٧	١٣ـ١٤	إسماعيل بن أبي بكر	إسماعيل بن أبي حنيفة عن أبي بكر
٢٦٠	حاشية	سأل ... فأكده لهم	سأل ... فأكده له
٢٦٢	٥	حضر ... حمدون	حضر .. حمدويه
٣١٠	٥	[٢٩٤]	[٣٩٤]
٣١٣	١٥	بمحاربة بن شكلة	بمحاربة ابن شكلة

وهناك بعض هنات مطبعية أخرى آثرنا عدم إثباتها لوضوحها .